رواية

جاك لندن

فريق
متميزون
E-BOOK

ذِئبُ البَحرِ

ترجمة

مروة الجزائري

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل لهذا الكتاب:

كلمه مهمة:

هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق -متميزون-

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

ذئب البحر

رواية مترجمة..

الكاتب: جاك لندن.

ترجمة: مروة الجزائري

عن الرواية..

كُتبَت "ذئب البحر" في عام 1904 كرواية مغامرات بحرية جمع فيها جاك لندن بين رومانسية البحر المتمثلة بتصويرات حيّة خلابة للعواصف العنيفة والضباب الكثيف الغاضب والكثير من الأحداث والتحولات المصيرية بأسلوب فلسفي يُعالج صعوبات القدر الإنساني حول كل الأشياء المهمة في الحياة بشكل عام.وقد تمكن جاك لندن من خلق أقطاب أدبية مثالية، متمثلة بشخصيتين رئيستين متضادتين بشكل ملفت وهما: القبطان وولف لارسن وكل ما يمثله من تجسيد للرجولة بقوته وعدوانيته وذكائه المتّقد وفلسفته المادية البحتة وهمفري فان وايدن ناقد أدبي في الثلاثينات من عمره،لم يرَ الجانبِ المظلم للحياة ولم يَخبر شظف العيش، نظرته مثالية ورومانسية لكل شيء تقريباً، تتغير حياته حين تغرق السفينة التي يسافر على متنها في خليج سان فرانسيسكو، ويقضي عدة أشهر على متن سفينة صيد عجول البحر (الشبح).

ترك لنا جاك لندن أفكاره وفلسفته وعصارة تجربته في البحرِ ممزوجة بمغامرة مثيرة وصفها النُقّاد بأنها واحدة من أعظم قصص البحر التي كُتبت على الإطلاق، مزيج من الواقعية الجريئة والشاعرية السامية في تصويرها صراع الإنسان مع عناصر الطبيعة ومع نفسه؛ لتنتج عملاً يستحق القراءة بكل تأكيد.

مروة الجزائري

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عن الكاتب..

ن وُلد جون غريفيث تشاني المعروف بـجاك لندن في 12 يناير عام 1876 في سان فرانسيسكو بولاية كاليفورنيا في الولايات المتحدة الأمريكية، من أب يعمل عرَّافا متجوِّلا وأمّ تمارس الروحانيات، قضى طفولته فقيراً مُشرَّدا في الشوارع، وذاق مرارة الحياة متنقِّلا بين العديد من المهن الصغيرة، كالعمل في مصنع معلّبات، وحمَّالا وعاملاً في تحميل وتفريغ السفن، وجامع محار، وفي زمن لاحق، في عام 1893 وقع عقداً للعمل كصائد عجول بحر في سيبيريا واليابان، وعندما عاد، كانت أوكلاند تغط في حالة ذعر واجتاحتها موجة من الاحتجاجات العمّالية، وفي عام 1894، أمضى 30 يوماً متشرداً في سجن مقاطعة إيري في بوفالو، نيويورك. وبعد أن قضى فترة من حياته بين التشرد وحياة البحر، عاد إلى أوكلاند والتحق بالدراسة وساهم في كتابة الكثير من المقالات لجريدة مدرسته، وأول مقال نُشر له كان بعنوان «إعصار قبالة ساحل اليابان»، التحق في عام 1896 بجامعة كاليفورنيا بعد أن استلف المال من صاحب حانة يدعى «جون هينولد»، وكان تلميذاً مجداً ولكنه، ولضيق ذات اليد؛ ترك الدراسة بعد عام واحد ولم يتخرج قط.

وحين بدأت حُمّى البحث عن الذهب تجتاح البلاد، في يوليو 1897، غادر بدوره إلى أقصى الشمال في ظروف قاسية جداً، هناك، تقاسم بؤس الحياة مع المغامرين، وكانت هذه التجربة الفاشلة، التي لم يُحصّل منها شيئاً لدى عودته مريضاً ومفلساً إلى سان فرانسيسكو، هي الدافع الأكبر لكتابة العشرات من القصص القصيرة والروايات، وإن مخالطته لهؤلاء الباحثين عن الذهب من الرجال والنساء جعلته يعتنق الاشتراكية.

ترك جاك لندن أوكلاند بضمير اجتماعي وتوجهات اشتراكية، ثم عاد ليصبح ناشطاً للاشتراكية، وخلص إلى أن أمله الوحيد في الهروب من «فخ» العمل هو الحصول على التعليم و«بيع خُلاصة أفكاره»، ورأى أن امتهانه الكتابة كعمل تجاري كفيل بإخراجه من الفقر، ومنذ عودته إلى أوكلاند، قرر أن يمضي قدماً في مجال الكتابة والنشر، ولم يكن الأمر سهلاً في البداية حتى التحق بمجلة أوفرلاند الشهرية. كان جاك لندن غزيرَ الإنتاج، يكتبُ ألفَ كلمة يومياً بصرامة كبيرة ولا يُصحّح مسودّاته إلّا نادراً.

عمل في ما بعد مراسلاً حربياً لدى صحيفة San Francisco Examiner لتغطية الحرب اليابانية الروسية، ووصل إلى يوكوهاما في 25 يناير 1904، اعتقلته السلطات اليابانية في شيمونوسيكي، وأطلق سراحه بسبب تدخل السفير الأمريكي لويد جريسكوم، وبعد سفره إلى كوريا، ألقت السلطات اليابانية القبض عليه مرّة أخرى؛ لأنه ضّل طريقه قرب الحدود مع منشوريا دون إذن رسمي، وأعيد إلى سيئول، وأطلق سراح لندن من جديد، وسُمح له بالسفر مع الجيش الإمبراطوري الياباني إلى الحدود ومراقبة معركة يالو، ثم طلب من وليام راندولف هيرست ـ صاحب صحيفة سان فرانسيسكو ـ السماح له بالانتقال إلى الجيش الإمبراطوري

الروسي، حيث شعرَ أن القيود المفروضة على تقاريره وتحركاته ستكون أقل، لكن وقبل أن يتم ذلك، أعتُقِل للمرة الثالثة في أربعة أشهر، وهذه المرة لاعتدائه على مساعديه اليابانيين، الذين اتهمهم بسرقة علف حصانه، وأطلق سراحه بسبب التدخل الشخصي للرئيس ثيودور روزفلت. غادر لندن الجبهة في يونيو 1904.

ركز جاك لندن في كتاباته على أن الصراع الطبقي بين العمال والرأسماليين أمر لا بد منه، وروّج طوال عمره للأفكار الاشتراكية، والثورة العمالية القادمة، وكان ينتقد النظام الرأسمالي باستمرار، ويفضح القوانين اللاإنسانية الجائرة، ويدعو إلى تجديد روح الاشتراكية دوماً، وإلى حماية البيئة وجمال الطبيعة الواهبة لسعادة الحياة وبهجتها، ويقول عن التزامه بالفكر الاشتراكي، متأثّرا بقراءة كتب ماركس: «أنا ابنُ الطبقة العاملة، في سن الثامنة عشرة، وجدتُ نفسي في الهاوية أكثر من السابق، كنتُ في قاع المجتمع، في الأغوار العميقة للبؤس التي ليس من المناسب واللائق الكلام عنها، كنتُ في حفرة، في هاوية، في بالوعة الجنس البشري، في فوضى أو مقبرة جماعية لحضارتنا».

وعلى الرغم من تنوع الموضوعات في كتاباته، ألا أنها اشتركت كلها في مقاربة مسألتي علاقة الإنسان بالطبيعة، وعلاقة الفرد بالمجتمع، وتميزت بكونها قصصاً عاشَها فعلاً؛ وهذا سرّ الافتتان بها حتى الآن. نقلَ تجاربه الشخصية وما خبره من عنف وقسوة في البريّة بين الذئاب، وسطوة الرأسماليين الجشعين في مدن مرّ بها مع أشباهه من المغامرين الفقراء والمهمّشين، وحاول أن يناهض القسوة التي تتعرض لها حيوانات السيرك.

ولم يقتصر إبداع جاك لندن على كونه كاتباً اشتراكياً يدافع عن العدالة والحق ويناضل في سبيل مستقبل اشتراكي للبشرية، بل كان مبدعاً كبيراً في قصص المغامرات والطبيعة والحيوانات أيضاً، وقد تركت كتاباته وأفكاره الثورية ومواهبه الإبداعية العظيمة تأثيراً عظيماً على الأدب والثورة الأممية العمّالية بالرغم من التناقضات التي انتابته وأفكاره.

مثل هذه الأفكار السياسية، المناهضة لليبرالية والمناصرة لقضايا طبقة البروليتاريا، ظهرت في الكثير من أعماله أهمّها «شعب الهاوية» الذي استلهمه من بؤس الأحياء الفقيرة بمدينة لندن أثناء زيارته لإنجلترا، مكتوبة على وفق المدرسة الطبيعية، و«الناب الأبيض» التي تتحدث عن ذئب يتم تدجينه و«جون بارليكورن» قصة صراع مع الكحول، وروايته «نداء البرية» عن كلب مستأنس يعيش في مزرعة، خُطف ليعمل في شمال غرب كندا مع المنقبين عن الذهب، تجبره الظروف أن يخلع عن نفسه قشرة الحضارة ويعتمد على الغرائز البدائية والدروس التي تعلمها؛ ليخرج كزعيم في البرية. أما رواية «العقب الحديدية» والتي جعلته من أكثر الكتّاب شعبية عند العمال والكادحين والمثقفين ذوي الاتجاهات الاشتراكية، فهي تصوير لمستقبل البشرية، تمثل أحداثها ثورة المضطهدين، ونضال العمال الدامي في أمريكا، وتنبئ باقتراب ظهور الفاشستيّة في أوروبا، وتعتبر هذه الرواية الفذة اليوم إنجيل الاشتراكية والاشتراكيين، كُتبت عام 1906 صوّر فيها جاك لندن حتمية انتصار الاشتراكية وانهيار الرأسمالية، والصراع الرهيب الذي لا بد أن يدور بين

معسكري التقدمية والرجعية، والأساليب الجهنمية التي تلجأ إليها الرأسمالية في صراعها من أجل البقاء، ويُقال إن هذه الرواية ألهمت الكاتب جورج أورويل لكتابة روايته الخالدة 1984، أما في روايته هذه «ذئب البحر» فقد صوّر لنا لندن، مستخدماً شخصية وولف لارسن وصراعه مع المجتمع والطبيعة؛ إنسان نيتشه المتفوق.

هذا وقد اعتبرته البرجوازية الحاكمة في زمانه ولسنوات عديدة مخرَّبا ومعادياً للديمقراطية الأمريكية، ومُنعت كتبه من التداول، وحُجبت في المكتبات العامة، وقال عنه روزفلت الرئيس الأمريكي: «إن جاك لندن ليس فقط يجهل معلومات عن الذئاب، بل أنّه غافل حتى عن كلاب أمريكا». وكم حاولت النخبة البرجوازية المثقفة في أمريكا تصوير جاك لندن كاتباً للنشْءِ فقط، ينشر تعاليم داروينية، وفكرة حرب الجميع ضد الجميع في تنازع البقاء، وأن القراء الشبان يتحولون إلى ذئاب عند مطالعة كتبه، إلا أن كلّ محاولاتهم باءت بالفشل وعادت رواياته السياسية إلى الساحة الأدبية حتى يومنا هذا.

وقد استغلَّ النقاد البرجوازيون العناصر الداروينية والنيتشوية في أعماله لتشويه صورته وتغليب تلك العناصر على أفكاره الاشتراكية، وكانت آثار جاك لندن بالفعل مثلها مثل حياته ملؤها التناقضات؛ فهي تحتوى على الداروينية، والإنسانية المسيحية، والعدمية الطبيعية، والجبرية الاجتماعية، والبطولية الفردية الاشتراكية، ولكنه كان مثال الطليعي المناضل في سبيل الاشتراكية، وتحقيق العدالة والمساواة في نظر الاشتراكيين، ويرى فيه النقاد الأدبيون أستاذ كتابة القصة القصيرة، ويقول فرانس يونج: «إن تراجيديا جاك لندن مثل جميع كتّاب أمريكا تكمن في أنّه لا يستطيع أن يحسم الاتجاه الفكري والسياسي الذي ينبغي أن يخطّه لمسير حياته، فهو حائر بين الكتابة للسوق والناشر أو الكتابة لتحرير البشرية». وفي رأي أيتون سينكلر: «إن جاك لندن كان نصير الكادحين، ودموعه التي ذرفها على فقراء شرق لندن تشبه الدموع التي سكبها المسيح حين بكى على سكان القدس». وعلى الرغم من كلّ الآراء التي تناقضت عن جاك لندن، إلا إن الجميع بمختلف مشاربهم الفكرية والسياسية متفقون على أنّه كاتب عظيم ومبدع كبير، وظاهرة أدبية عظيمة ظهرت في أمريكا في القرن الماضي.

توفي في الثاني والعشرين من نوفمبر ـ تشرين الثاني عام 1916 عن عمرٍ يناهز الأربعين عاماً، أغلبُ كُتّاب سيرته يتّفقون على أن سبب رحيله المبكر يعود إلى الإجهاد النفسي وإدمانه للكحول، وهناك أيضاً من يُرجّح فرضية الانتحار، رحلَ منهاراً ومثقلاً بالديون في مزرعته قرب سونوما، كاليفورنيا ودُفن هناك، بعد حياة قصيرة لكنَّها حافلة بالتسكّع والمخاطر والمغامرات في البرّ والبحر، غنيّة بالإبداع الأدبي المتنوّع والغزير.

مروة الجزائري

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

المقدمة

كُتبَت «ذئب البحر» في عام 1904 كرواية مغامرات بحرية تتخلّلها الكثير من الأحداث والتحولات المصيرية بأسلوب فلسفي يُعالج صعوبات القدر الإنساني حول كلّ الأشياء المهمة في الحياة والعالم بشكل عام لبطل القصة (همفري فان وايدن)، وهو ناقد أدبي من طبقة لندن المخملية، تتعرض السفينة التي يسافر على متنها لحادث وتغرق في خليج سان فرانسيسكو، يلتقطه القبطان لارسن ويقضي عدة أشهر على متن جحيمه العائم (الشبح).

تدخلك بداية الرواية في جو من القسوة والمعاناة وتخلق حالة مزاجية من الترقب والاستعداد لما هو أسوأ، وتجري معظم أحداثها على متن عالم عائم متمثل بمركب صيد شراعي متوسط الحجم يدعى (الشبح) يرأسه القبطان وولف لارسن، رجلٌ ذو قوة جسدية هائلة، قاسي وغير أخلاقي، فلسفته مادية بحته مبدأها (الصراع من أجل البقاء) وأن العالم موجود طالما كان حياً يتنفس، وينتهي هذا العالم حالما يتوقف عن التنفس، لا بعث ولا عالم آخر وليس لديه أي اعتبار للروح ولا سبب يحذوه للتصرف بطيب أو اعتناق مذهب الفضيلة؛ لأنها لن تعود عليه بأي نفع مادي لإيمانه بمبدأ النفعية والداروينية الاجتماعية حين يتحدث عن كون الحياة عبارة عن هياج خميري، وأن الحياة صراع يفوز فيه الأقوى، ولا مكان للضعيف في عالم يسود فيه قانون القوة، وأن غايته الاستمرار في الحصول على المزيد ـ والمزيد من كلّ شيء ـ وسيدمر أي شخص يعترض طريقه ويقف حائلاً بينه وبين ملذاته.

وقد تمكن جاك لندن من خلق أقطاب أدبية مثالية، متمثلة بشخصيتين رئيستين متضادتين بشكل ملفت وهما: القبطان وكل ما يمثله من تجسيد للرجولة بقوته وعدوانيته وذكائه المتّقد، وهمفري فان وايدن ناقد أدبي في الثلاثينات من عمره، مثقف ومهذب، لم يرَ الجانب المظلم للحياة ولم يَخبر شظَف العيش، نظرته مثالية ورومانسية لكل شيء تقريباً، إنسان يؤمن بالروح والحياة الأخرى ويدعو إلى الإيثار ومساعدة الجميع ـ حتى خصمك ـ وقد صوّره جاك لندن ليمثل الوجه الجيد للمجتمع في تلك الفترة، وبأنه التوجه الفلسفي الصحيح والأساسي للفرد المتكيف اجتماعياً، وبأن فكرة التعليم وفِعل الخير والاهتمام بمن هم أقل حظاً منك هي الأفضل، وهي من ستنتصر في النهاية، باختصار، كان وولف لارسن كلّ شيء لم يكنهُ فان وايدن.

وقد رأى بعض النقّاد في صورة وولف لارسن تمجيداً لإنسان نيتشه المتفوق، لكن من الصعب الاتّفاق مع هذا الرأي؛ لأن جاك لندن لا يحترم وولف لارسن ولم يُقدمه للقارئ كنموذج ناجح بل حطّ من قدره وفضحه وفي هذا إدانة للنيتشوية وما يرتبط بها من إباحة للقسوة والتعسف كما كتبها في «ذئب البحر». ونلاحظ تركيز لندن على فشل وولف لارسن الداخلي ونقطة ضعفه المتمثلة في وحدته؛ لأن فردانيته المتطرفة حالت بينه وبين الآخرين الذين أثار فيهم شعور الخوف والكراهية. بالرغم من إمكانياته الفكرية الهائلة وقوته الجبّارة إلا أنّه لم يجد الطريق الصحيح

ليوجهها فيه، نجده شخصاً غير سعيد وحانق في أغلب الأحيان، وغالباً ما تراوده كآبته السوداء وتحيط به، وفي ذلك لم يكشف عن عدم تناسق لارسن الداخلي فحسب، بل يُظهر طبيعته المدمرة في جميع أنشطته فتراه يزرع الشر من حوله.

إن فضيلة الرواية لا تتمثل في تمجيد الرجل الخارق، بل في تصوير واقعي فني قوي للغاية بكل خصائصه الكامنة كالفردانية المتطرفة والقسوة وطابع النشاط المُدمر، ويبدو أن موقف الكاتب في هذا العمل كان صريحاً للغاية؛ بسبب طبيعته الإنسانية التي تحتم عليه محاكمة لارسن وصياغة نهايته بهذه الصورة، وقد حدد جاك لندن هدفه وغايته المتمثلة بإدانة عقيدة القوة وأتباعها، وشن هجوماً على فلسفة نيتشه وإنسانه المتفوق.

أما من الناحية الفنية والجمالية، فتُعدّ رواية ذئب البحر واحدة من أفضل الأعمال البحرية في الأدب الأمريكي، فقد جمع جاك لندن بين رومانسية البحر المتمثلة بتصويرات حيّة خلابة للعواصف العنيفة والضباب الكثيف ومعاناة الرجال مع عناصر البحر الغاضب. وينبغي أن لا نغفل جوانب الاستعارة والتشبيه التي أسبغها الكاتب على هذا العمل ضمن حوارات شخصياته الرئيسة ـ التي اتصفت بطابع فلسفي عميق ـ وعلى الوصف العام لجو الرواية.

نجد في رواية جاك لندن هذه تحليل استعاري لطبيعة الإنسان، أيعدُّ الإنسان مجرد حيوان بدائي يعمل وفق غريزة محضة ـ حيوان لا يختلف عن الذئب ـ؟ أم أنّه قادر على التطور إلى ما وراء الغريزة البدائية التي تُبقي الحيوانات دون تغير وخالية من القيم والأبعاد الأخلاقية؟ وقد مثّل «همپ» طموح التطور الاجتماعي في حين مثّل «لارسن» الخوف من أن تكون النوعية البدائية الموصولة داخل الحمض النووي لدينا عقبة لن نتمكن من التغلب عليها، أثناء الرواية نلاحظ تطور أحدهما، يرافقه انحدار خطي للآخر.

وكما في الروايات الشمالية، لم يُقلل لندن من المخاطر التي يواجهها من يركب البحر، فبحرهُ ليس هادئاً وأمواجه ليست مسالمة، بل هو بحر غاضب يسحق كلّ من يقاوم أمواجه، هو العدو الذي صارعه الإنسان على مدى الدهر، وإبَّان هذه المغامرة يكشف الكاتب عن النفس البشرية؛ لإثبات قوة المادة التي صُنع منها الإنسان، ويُظهر مدى قوته وخوفه حين يصوّر فان وايدن يكتسب براغماتية حازمة ورؤية للصالح العام الذي يذكرنا بالتطرف الاشتراكي الذي يدعو إليه لندن، في عدد من كتاباته الاجتماعية خصوصاً في تصريحاته الخاصة في مقالته، «شرح التصويت الاشتراكي العظيم لعام 1914»، فبذلك الكتاب، حدد لندن البرنامج الثوري للحركة الاشتراكية باعتباره مصادر للثروة الرأسمالية، وإعادة توزيعها في مصالح الطبقة العاملة حين ثار فان وايدن وآثر مصلحة الجميع وحياتهم على حياته وهدد بقتل لارسن.

ومع ذلك، تجدر الإشارة إلى أن هذا يتعارض مع النظرة النقدية السائدة لمعتقدات لندن المتضاربة ظاهرياً. يوحي التفكير السائد فيما يتعلق بالاشتراكية والفردية لجاك لندن بأن أنظمة الفكر المتنافسة هذه متبادلة، ومن ثَم لم يتم التوفيق بينها في

ذهن المؤلف، لاحظ مارك بايتنجر أن: «عقل جاك لندن استضاف مزيجاً متناقضاً من الأفكار المستمدة من داروين، وسبنسر، ونيتشه، وماركس، بينما استحوذ على رغبة ملحة في الاشتراكية وجذب قوي بنفس القدر».

في النهاية، ترك لنا جاك لندن أفكاره وفلسفته وعصارة تجربته في البحرِ ممزوجة بمغامرة مثيرة وصفها النُقّاد بأنها واحدة من أعظم قصص البحر التي كُتبت على الإطلاق، مزيج من الواقعية الجريئة والشاعرية السامية في تصويرها صراع الإنسان مع عناصر الطبيعة ومع نفسه؛ لتنتج عملاً يستحق القراءة بكل تأكيد.

المترجمة

مروة الجزائري

البصرة 30/ 11/ 2019

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الأول

لا أدري من أين أبدأ، وإن كان يروق لي في بعض الأحيان أن أُحمّل صديقي تشارلي فورسيث المسؤولية من باب المزاح لا أكثر. لدى فورسيث كوخٌ صيفي في وادي الطواحين المتاخم لجبل تامالبيس، ولم يشغله قطّ إلا حينما كان يحلو له أن يتسكّع في شهور الشتاء، ويقرأ لنيتشه وشوبنهاور لتهدئة دماغه. أما في شهور الصيف، فقد كان يفضل أن يتفصّد جسمه عرقاً في قيظ المدينة وغبارها وأن يكدح باستمرار. ولو لم يكن من عادتي أن أذهب لزيارته بعد الظهيرة من كلّ يوم سبت وأمكث عنده حتى صبيحة يوم الإثنين؛ لما كنت في هذا اليوم بالذات من شهر يناير عائماً فوق مياه خليج سان فرانسيسكو.

ليس الأمر في عدم ركوبي عبّارة أمينة؛ لأن (المارتينيز) مُعَدِّية بخاريّة جديدة لم تقم سوى بأربع أو خمس رحلات بين سوساليتو وسان فرانسيسكو، يكمن الخطر في ضبابٍ كثيف يلفّ الخليج خشيتُ وجوده قليلاً؛ لأني رجلٌ عشت حياتي في البر، وفي الواقع، فأنا أتذكر شعوري بنشوة مطمئنة حين اتخذت مجلسي عند مقدمة سطح السفينة تحت قمرة القبطان، وسمحت للضباب بأن يأسر خيالي. هبّ نسيمٌ عليل ساعتها وكنت وحيداً في ذلك الغموض الرطب، إلا أني لم أكن وحيداً بالفعل؛ لأني شعرت بوجود الربّان، وخِلتُه قبطان السفينة؛ فهو يقف في القمرة الزجاجية فوق رأسي.

أذكر أني فكرت، كم هو مريح تقسيم العمل في الحياة، فبفضله لن أضطر إلى دراسة الضباب والرياح والمد والجزر والملاحة؛ ليتسنّى لي زيارة صديقي الذي عاش عبر ذراع من البحر. أنّه لأمر حسن أن يكون الرجال متخصصين، قلت لنفسي، فهذه المعرفة الفريدة للربّان والقبطان كافية لآلاف الأشخاص الذين لم يعرفوا عن البحر والملاحة أكثر مما كنت أعرف. ومن ناحية أخرى، بدلاً من أن أجد نفسي مضطراً لأن أكرس طاقتي في تعلم الكثير من الأشياء، فقد تسنى لي أن أركز على بضعة أشياء محددة، مثل تحليل مكانة (إدغار آلن بو) في الأدب الأمريكي ـ وهو موضوع مقال كتبته في (مجلة أتلانتك) الحالية ـ لمحت أثناء صعودي إلى السفينة وومروري بالمقصورة رجلاً بديناً يقرأ (الأتلانتك)، وكانت المجلة مفتوحة على مقالي أنا بالذات، وهنا يبرز مبدأ تقسيم العمل مرّة أخرى، فالمعرفة الفريدة للربان والقبطان هي التي يسرت لهذا الرجل البدين أن يقرأ معرفتي الخاصة عن (أدغار آلن بو)، بينما ينقلانه عبر البحر من سوساليتو إلى سان فرانسيسكو بأمان.

قاطع رجل أحمر الوجه تأمّلاتي عندما صفق باب المقصورة خلفه، وخطا بجلبة على ظهر السفينة. لكنّي دونت ملاحظةً ذهنية حول الموضوع السابق، علنّي استخدمها في مقالة لاحقة بعنوان (الحاجة إلى الحرية: نداء إلى الفنان). ألقى الرجل ذو الوجه الأحمر نظرة خاطفة على قمرة الربّان وحملق باتّجاه الأفق المحجوب بالضباب، ثم اجتاز السطح ذهاباً وإياباً ـ وبان أن ساقيه اصطناعيتان ـ ثم وقف إلى

جانبي وفرج ساقيه، وارتسمت على وجهه علامات الاستمتاع الشديد. لم أكن مخطئاً حين حكمت بأنه قد قضى حياته في البحر.

«إن مثل هذا الطقس السيّئ هو ما يجعل الرؤوس تشيب قبل أوانها»، قال وهو يومئ برأسه صوب قمرة الربّان.

قلت: «لم أحسب بأن هناك أي توتر، فالأمر يبدو سهلاً كحفظ حروف الأبجدية، فهم يعرفون الاتّجاه بالبوصلة، أما المسافة والسرعة فلا أظنها بحاجة إلى أكثر من دقة حسابية مؤكدة».

«توتر!»، أجاب ساخراً: «بسيط كالأبجدية! دقة حسابية مؤكدة!».

وبدا أنّه يستعدّ ليمطّ جسمه في الهواء، ويميل إلى الخلف وهو يحدّق في وجهي. «ماذا عن هذا المدّ الذي يتسارع عبر البوّابة الذهبية؟»، تساءل صارخاً، «ما مدى سرعة انحسارها؟ وما هو الانجراف، إيه؟ اسمع ذلك، هل ستفعل؟ أنّه ناقوس العوامة، ونحن فوقها! ألا تراهم وهم يغيرون المسار!».

نفذ صوت جرس حزين عبر الضباب، رأيتُ الربّان يدير عجلة القيادة بسرعة كبيرة، وطفق الجرس الذي بدا قبالتنا مباشرة يرنّ من الجانب، وبدأت صافرة مركبنا تزعق بصوت أجش. ومن وقت لآخر، كانت أصوات الصافرات تخترق الضباب وتقرع آذاننا.

قال الوافد الجديد مشيراً إلى صافرة بعيدة جهة اليمين: «إنها عبّارة من نوع ما. هناك، أتسمع هذا؟ إنها صافرة تُنفخ بالفم مما يعني أنها عبّارة صغيرة على الأغلب. آه كما توقعت، إن الجحيم يفتح أبوابه لبعض الناس الآن».

كانت العبّارة غير المرئية بفعل الضباب تطلق صفرة تلو الأخرى، وكان البوق الذي يُنفخ بالفم يُزمر بصورة تنم عن رعب وفزع.

«وها هم الآن يقدّمون احتراماتهم لبعضهم بعضاً، ويحاولون الخلاص بسلام»، قال الرجل ذو الوجه الأحمر عندما توقف نفخ الصفارات المتعجّل.

كان وجهه متوهجاً وعيناه تشعّان حماساً وهو يترجم أصوات الأبواق والصافرات إلى معانٍ واضحة ومحددة، «إنها صافرة سفينة بخارية تسير هناك في الجانب الأيسر، أتسمع ذلك الرجل الذي يبدو وكأن ضفدعاً قد حُشر في حنجرته؟ إنها عبّارة بخارية على ما أعتقد تتقدم ضد حركة الأمواج».

جاء صوت صافرة حادة تزعق كأنما جُن جنونها أمامنا مباشرة ومن مكان قريب جداً، وفي تلك اللحظة، دقت أجراس إنذار المارتينيز، وتوقفت عجلات الدفع، وسكن هديرها، ثم عادت للحركة من جديد. أما الصافرة الحادة فقد انطلقت وكأنها عرير صرصار الليل وسط صيحات الحيوانات المفترسة الضخمة آتياً عبر الضباب من أكثر من جانب، ثم سرعان ما أخذ يضعف ويضعف. فنظرت إلى رفيقي أستوضح الأمر.

«إنه أحد الزوارق البخارية اللعينة، ليتنا أغرقناه، ذلك المتهتّك الوضيع، إن أمثاله هم من يسبّبون المزيد من المتاعب. ما نفعهم؟ يصعد أي معتوه منهم على ظهر مركب ويقوده من الظهر حتى صباح اليوم التالي وهو ينفخ صافرته ليرهق البحّارة، ويخبر بقية العالم أن ينتبهوا نيابة عنه؛ لأنه لا يستطيع تدبير أموره بنفسه، ها هو آت في الطريق وعليك أن تتوخّى الحذر، وتبتعد عن طريقه! إنها الآداب العامة التي لا يعرفون عنها شيئاً!».

استمتعت للغاية بغضبه المفاجئ وغير المبرر، وبينما كان يجتاز السطح بحنق ذهاباً وإياباً، استحوذَت عليّ رومانسية الضباب، كان رومانسياً بكل تأكيد، كظلّ رماديّ لغموض لا نهائي، يربض فوق قطعة صغيرة من الأرض، ولم يكن الرجال فيه سوى حركات من الضوء والتألّق، ملعونين بملذّات الانهماك المجنونة في العمل. يمتطون جياداً من الخشب والفولاذ في قلب الغموض، ويشقون طريقهم على غير هدى في العالم المجهول. وها هم يثيرون جلبة ويتحدّثون بثقة، بينما قلوبهم واجفة من الفزع والشكّ.

أعادني صوت رفيقي إلى نفسي بضحكة، كنت أنا أيضاً أتلمّس وأتخبّط، بينما اعتقدت أنني ركبت الغموض واضح الرؤيا.

«مرحى! أحدهم يشقّ طريقه نحونا، أتسمعه؟ أنّه قادم بسرعة ومتّجه إلينا مباشرة، أظنه لا يسمعنا فالريح في الاتّجاه المعاكس».

هبّ النسيم المنعش علينا من الجهة المقابلة لنا، وبفضله تمكّنت من سماع الصافرة بوضوح. جاء صوتها من أحد جوانب المركب قبالتنا إلى الأمام.

«مُعَدِّية؟»، سألتُ.

أومأ برأسه إيجاباً وقال: «وربما ربّانها عاجزٌ عن السيطرة»، وأطلق ضحكة مكتومة؛ «فهم قلقون هناك».

نظرتُ إلى الأعلى. كان القبطان قد دفع رأسه وكتفيه إلى خارج قمرة الملاحة يحدّق باهتمام في الضباب كما لو أن قوّة إرادته الشديدة ستمكّنه من اختراقه، كان وجهه قلقاً، مثل وجه رفيقي، الذي تعثّر على السلّم، وبدأ يحدّق باتّجاه الخطر غير المرئي بنفس القلق والاهتمام.

ثمّ حدث كلّ شيء، بسرعة لا يمكن تصورها. بدا الضباب وكأنّه انفرج بواسطة إسفين، وظهر قوس المركب البخاري، يجرّ وراءه أكاليل الضباب على جانبيه مثل الأعشاب البحرية على خطاف ليوياثان([1]). كان بإمكاني رؤية قمرة الملاحة ورجل ذي لحية بيضاء يتّكئ على مرفقيه وقد أخرج نصف جسده منها، يرتدي زيًّا عسكرياً أزرق، وأتذكّر أنّني لاحظت أناقته وهدوءه.

كان هدوؤه في ظلّ تلك الظروف مخيفاً حقاً، فقد تقبّل مصيره وسار معه جنباً إلى جنب، وحسب الضربة بكل برود. وبينما كان مستنداً هناك، تفحّصنا بنظرة هادئة

كما لو أنّه يودّ تحديد نقطة الاصطدام ولم يُبدِ أيّة ملاحظة أو اهتمام عندما صاح ربّان المارتينيز وهو يتميّز غضباً: «ها قد فعلتها».

وعند النظر إلى الوراء، أدركتُ أنّ هذا التصريح كان واضحاً جدًّا لدرجة أنّه لم يعُد من الضروريّ التخفيف من حدته.

قال لي الرجل ذو الوجه الأحمر: «تمسّك بشيء، وتعلّق به». زال عنه غضبه وبدا أنّه قد أصيب بعدوى الهدوء التام هو الآخر.

«واستمع إلى صراخ النساء»، قال متجهِّما ـ بمرارة تقريباً ـ كما اعتقدت، كما لو أنّه مرَّ بهذه التجربة من قبل.

واصطدمت السفينتان قبل أن أُنفّذ نصيحته، لا بدّ وأن الاصطدام كان مباشراً في وسط المركب، لأنّني لم أرَ شيئاً، فقد تجاوز المركب البخاريّ الغريب خطّ رؤيتي، أما المارتينيز فقد استدارت إلى الخلف بحدّة ثم كان هناك ارتطام، وتمزّق الخشب وتشظّى. ألقيَ بي على وجهي فوق السطح الرطب، وقبل أن أتمكّن من النهوض على قدمي، سمعت صراخ النساء، وأنا على يقين ممّا أقول، بأنّها أكثر الأصوات رعباً. أصابتني نوبة ذعر؛ فتذكّرت سترات النجاة المخزونة في المقصورة، وحاولت السعي إليها، لكن سيلاً من النساء والرجال، اعترض طريقي بتيار فوضوي عنيف. أما ما حدث في الدقائق القليلة التالية فلا أتذكره وإن كنتُ أتذكر جيداً بأني سحبت أحزمة النجاة من مشابكها بينما كان ذو الوجه الأحمر يربطها حول أجساد مجموعة هستيرية من النساء.

ما زالت هذه الذكرى واضحة ومميّزة مثلها مثل أيّة صورة رأيتها، إنها صورة، وبوسعي أن أراها الآن، الحواف المسنّنة للفتحة الموجودة في جانب المقصورة، والضباب الرماديّ الذي تسرّب منها ودارت دوّامته، والمقاعد المنجّدة الفارغة والزاخرة بكل الأدلّة على أنّها قد خلت فجأة ممّا كان عليها من رزمات وحقائب يدٍ ومظلّات وأغطية. كان الرجل البدين ـ الذي كان يقرأ مقالي ـ مغطّى بالفلّين والقماش، والمجلّة لا تزال في يده، يلحّ بسؤاله إذا كنت أظنّ أن هناك أيّ خطر، والرجل ذو الوجه الأحمر يتجول بشجاعة على ساقه الاصطناعية ويضع أطواق النجاة على جميع القادمين وأسمع صراخ النساء المجنون.

كان صراخ النسوة هو ما حطّم أعصابي بالفعل، ويبدو أنّه قد فعّل الأمر ذاته مع الرجل ذي الوجه الأحمر؛ لأن ذهني لا يزال يحتفظ بصورة له لن أنساها أبداً، كان الرجل البدين يحشو المجلّة في جيب معطفه وينظر بذهول، وكانت مجموعةٌ متشابكة من النساء المرعوبة بوجوه بيض وأفواه فاغرة تصرخ كأنها حشدٌ من أرواح ضائعة، بينما كان الرجل ذو الوجه الأحمر بسحنة القرمزيّة من الغضب، وذراعاه ممدودتان فوق رأسه كمن يطرد الصواعق وهو يصيح: «اخرسن! اخرسن!».

أتذكر أنّ ذلك المنظر دفعني إلى الضحك فجأة، وفي اللحظة التالية أدركت أنّني أصبحتُ رجلاً هستيرياً؛ لأنّ هؤلاء كنّ نساء من جنس أمّي وأخواتي، يحوّم الموت

فوق رؤوسهنّ ولسن راغبات فيه، وأتذكر أن الأصوات التي أطلقنها ذكرتني بقباع الخنازير تحت سكّينة الجزار، فأصابني الرعب من حيوية التشبيه، هؤلاء النساء، القادرات على أسمى المشاعر وأرقّ العواطف، كنّ بأفواه مفتوحة يصرخن فزعاً. أردن العيش لكنهنّ عاجزات، يصرخن كفئران في مصيدة.

ساقني الرعب من ذلك إلى سطح السفينة. كنت أشعر بالغثيان والدوار فجلست على مقعد. بطريقة ضبابية رأيت وسمعت رجالاً يهرعون صارخين وهم يحاولون خفض قوارب النجاة. كان الأمر كما قرأت وصفاً له في الكتب. استعصت المشابك، لم يعمل شيء كما ينبغي.

أُنزِل قارب واحد خارج مقابسه ومُلئ بالنساء والأطفال ثم تعبأ بالماء وانقلب، وأُنزل قارب آخر من جهة واحدة لكن أحد قلابيه ظل عاصياً فأُلغيت محاولة إنزاله، ولم نرَ شيئاً من المركب البخاري الغريب الذي تسبب في الكارثة، على الرغم من أنني سمعت رجالاً يقولون إنه سيرسل ـ بلا شك ـ قوارب لمساعدتنا.

نزلت إلى السطح السفلي، كانت المارتينيز تغرق بسرعة؛ لأن الماء كان قريباً جداً، كان العديد من الركاب يتقافزون في البحر، وآخرون في الماء، يصرخون طالبين نقلهم على متن السفينة مرّة أخرى، لم يعرهم أحد أي اهتمام.

علَت صرخة بأننا سنغرق، استولت عليّ حالة من الذعر فوجدت نفسي منحشراً وسط موجة متزاحمة من الأجساد، فقفزت. كيف تم ذلك؟ لا أدري. بيد أني أدركت على الفور، لماذا يصرخ اولئك الذين في الماء طالبين العودة إلى سطح السفينة؛ كان الماء قارص البرودة حد الألم. وكانت اللُّجّة التي غطست فيها سريعة وحادة كالنار، نفذت فيَّ حتى النخاع، كقبضة الموت، شهقت من الألم والصدمة وملأت رئتي بالهواء قبل أن يدفعني طوق النجاة إلى سطح الماء. كان طعم الملح قوياً في فمي، وكدت أختنق بما تسرب إلى فمي ورئتي من أشياء لاذعة.

لكن البرد كان هو الأشد إيلاماً. شعرت بأني قد أستطيع البقاء حياً لبضعة دقائق فقط. والناس يتخبطون في الماء من حولي ويكافحون للنجاة. تناهت إلى سمعي أصوات استغاثة بعضهم ببعض، وأصوات المجاديف كذلك. يبدو أن المركب البخاري الغريب قد أنزل قواربه.

وبينما مرَّ الوقت عجبت من نفسي كيف تمكنت من البقاء حياً؟!. فقدتُ أي شعور بأطرافي السفلية، تخدر جسدي، وأخذ الخدر يلتف حول قلبي ويتسلل إليه، والموجات الصغيرة التي تعلوها قمم من الزَبَد تتكسر فوق رأسي بصورة مستمرة، وتدخل في فمي، وتسبب لي نوبات اختناق.

أصبحت الضجة غير واضحة في أذني، لكني سمعت جوقة صراخ يائس لآخر مرّة يبعد مسافة عني، وعلمت بأن المارتينيز قد ابتلعها البحر لاحقاً، ولا أدري بعد كم من الوقت، عدت إلى وعيي واستبد بي الخوف، كنتُ وحيداً، ولم أعد أسمع نداءات استغاثة ولا صرخات، لا شيء سوى صوت ارتطام الأمواج، أجوف ومدوٍّ بفعل الضباب.

إن الإحساس بالذعر بين حشد من الناس يشترك أفرادهُ في المعاناة لهو أهون منه عندما يكون المرء وحده، مثل هذا الذعر الفظيع الذي أُعاني منه الآن. هل جرفني التيار بعيداً؟ قال الرجل ذو الوجه الأحمر بأن التيار يندفع عبر البوابة الذهبية، فهل تراني مندفع معه نحو البحر؟ وطوق النجاة الذي أطفو بفضله، أليس عرضة لأن ينقطع ويتمزق في أية لحظة؟ سمعت من قبل بأن مثل هذه الأشياء تُصنع من ورق وقصبات مجوفة سرعان ما تتشبع بالماء وتفقد قدرتها على الطفو. ماذا أفعل وأنا لا أعرف السباحة؟ كنت وحيداً، طافياً على ما يبدو وسط امتداد شاسع من الماء، استولى عليّ شعور بالجنون، اعترف بذلك. فصرخت بأعلى صوتي كما فعلت النساء وضربت الماء بيدي الخدرتين.

كم دام هذا الوضع؟ لا علم لي إطلاقاً؛ لأني دخلت في غيبوبة، ولا أتذكر أكثر مما يتذكر النائم العادي شيئاً من حلمه المزعج. وعندما أفقت، بدا الأمر وكأنه بعد قرون من الزمن. رأيت فوقي تقريباً، انحناء مركب يتسلل من الضباب، وثلاثة أشرعة مثلثة، يلف كلّ منها الآخر ببراعة ويمتلئ بالرياح، كان هناك رغوة كبيرة وغرغرة حيث قطع القوس الماء، قدّرت أنني في طريقه مباشرة، حاولت أن أصرخ، لكنني كنت منهكاً للغاية. غطست المقدمة وكادت أن تضربني مرسلة زخة من الماء فوقي مباشرة، بعد ذلك، بدأ جانب المركب الأسود الطويل يتراجع، حتى كان في مقدوري أن ألمسها بيدي، حاولت الوصول إليها، عازماً بجنون أن أنشب أظافري في الخشب، لكن ذراعي كانت ثقيلة وبلا حياة، حاولت مرّة أخرى أن أصيح، لكن لم يصدر صوت.

ارتفعت مؤخرة المركب وبينما هبطت بين موجتين، لمحت رجلاً يقف على عجلة القيادة، ورجلاً آخر لا يبدو أنّه يفعل شيئاً سوى تدخين السيجار. رأيت الدخان ينبعث من بين شفتيه وهو يدير رأسه ببطء وينظر في اتّجاهي بنظرات غير مبالية ولا متعمدة، نظرة عرضية كالتي يفعلها الرجال عندما لا يكون لديهم أي دعوة فورية لفعل أي شيء على وجه الخصوص، لكنهم يتصرفون كذلك لأنهم على قيد الحياة ويجب عليهم فعل شيء ما، إلا أن الحياة والموت كانا معلقين في تلك النظرة. استطعت رؤية المركب يبتلعه الضباب، ورأيت قفا الرجل عند عجلة القيادة، ورأس الرجل الآخر يستدير ببطء، وبينما وقع بصره على المياه وتطلع نحوي، كان شارد الذهن وكأنه في حالة من التفكير العميق، حتى خشيت أن لا يراني فيما لو وقع نظره عليّ في الماء، لكن عينيه لمحتاني، ونظر إلى عيني، لقد رآني، فأسرع إلى العجلة ودفع الرجل الآخر جانباً وأدار العجلة واستدار، إحدى يديه فوق الأخرى وهو يصيح ملقياً الأوامر. يبدو أن المركب قد تحرك في ظل طريقه إلى مساره السابق واختفى على الفور تقريباً من محل نظري إلى طيات الضباب.

شعرت بأني على وشك أن أفقد وعيي، حاولت بكل قوة إرادتي المنهكة أن أحول دون ذلك، وأن أقاتل الفراغ والظلام الخانقين اللذين كانا يرتفعان من حولي. بعد ذلك بقليل، سمعت ضربات المجاذيف تقترب وتقترب ثم سمعت صوت رجل ينادي، وعندما اقترب مني كثيراً، سمعتُه يصرخ بغضب: «لماذا بحق الجحيم لم تنادِ؟». خمنت أنّه يقصدني لكن العتمة والظلام هاجماني من جديد.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثاني

بدا لي أني أتأرجح بإيقاع عنيف عبر أُفق الفلك الرحيب، وأن نقاط الضوء المتلألئة تخشخش وتجتازني، كانت نجوماً ـ عرفت ذلك ـ وشهباً محترقة، تلك التي ملأت مجال طيراني بين الأفلاك. وحين بلغت أقصى تأرجحي وتهيأت للعودة بتأرجح معاكس، داهمني صوت جرس عنيف يهدر كرعد، ولفترة لا حصر لها، توغلت في تموج القرون الساكنة، فاستمتعت وتأملت رحلتي الهائلة.

ثم حصل تغير مفاجئ للحلم ـ قلت لنفسي: لا بد له أن يكون كذلك ـ بدأ إيقاعي يتناقص واندفعتُ من شوط التأرجح إلى الارتداد بسرعة مزعجة، لا أكاد ألتقط أنفاسي، ما أشد اندفاعي في السماوات! أصبحت دقات الجرس أكثر تواتراً وعنفاً، وبدأتُ أنتظرها بفزع لا يوصف، ثم بدا الأمر وكأنني أُجردتُ على رمال خشنة، بيضاء وساخنة بفعل حرارة الشمس مما سبب شعوراً بالألم لا يمكن لأحدٍ احتماله، كان جلدي يحترق في تيار من النار، ودقات الجرس تقعقع وتتواتر. تتابعت نقاط الضوء اللامعة كالشرر مبتعدة عني في مجرى لا نهاية له وكأن النظام الفلكي بأكمله يهوي في الفراغ. لهثت والتقطت أنفاسي بصعوبة، وعندما فتحت عيني كان هناك رجلان يركعان بجانبي يعتنيان بي، وما كان الإيقاع العنيف سوى حركة السفينة وهي تتقدم في البحر، وما الجرس المرعب إلا مقلاة معلقة على الجدار تهتز وتصدر أصواتاً مع ارتجاج السفينة، وما الرمال الحارقة إلا يد رجل خشنة تمسد صدري العاري، تشنجت بفعل الألم ورفعت رأسي قليلاً، كان صدري أحمرَ طرياً، يمكنني أن أرى كريات دموية صغيرة تخرج من إهاب ممزق وملتهب.

«هذا يكفي يا يونسون»، قال أحد الرجال: «ألا ترى بأنك أدميت جلد هذا السيد بالكامل؟».

توقف الرجل الذي نودي بـ «يونسون» ـ يبدو من مظهره بأنه إسكندنافي ضخم ـ عن دعكي وانتصب واقفاً على قدميه بارتباك، أما الرجل الذي تحدث إليه؛ فمن الواضح أنّه كوكني([2]) دلت قسمات وجهه وجماله الخافت شبه الأُنثوي على أنّه رجل قد رضع أصوات أجراس بو([3]) مع حليب أمه.

و قد دلّ غطاء رأسه ـ قبعة من الموسلين ـ والخرقة القذرة على وركيه النحيلين على أنّه يعمل في المطبخ القذر للسفينة التي وجدت نفسي عليها.

«وكيف تشعر الآن يا سيدي؟»، سألني الرجل بنبرة وابتسامة ذليلة تنم على أنّه ينحدر من أجيالٍ تسعى خلف البقشيش.

تحركت بوهن وجلست، كإجابة على سؤاله. ساعدني يونسون في الوقوف على قدمي. كان صوت قعقعة المقلاة وضجيج ضرباتها ثقيل الوطء على أعصابي، عجزت عن تجميع أفكاري، فأمسكت درابزين مطبخ السفينة؛ لأستند عليه واعترف بأن الدهون المتراكمة عليه جعلتني أصرّ على أسناني. تجاوزتُ مجموعة من

القدور الساخنة والأواني حتى وصلت إلى ذلك الوعاء المؤذي ـ المقلاة ـ فتناولتها من مشبكها وحشرتها بحنق في صندوق الفحم.

صرّ الطباخ على أسنانه من ثورة غضبي ودفع إلى يدي قدحاً ساخناً وقال: «خذ هذا. سيفيدك يا سيدي».

كانت قهوة السفينة فوضى تبعث على الغثيان، لكن حرارتها أعادت لي الحياة مرّة أخرى. وبين جرعات تلك المادة الذائبة، نظرت للأسفل نحو صدري المسلوخ النازف، واستدرت صوب الإسكندنافي، وقلت: «أشكرك سيد يونسون، لكن، ألا تعتقد أنّ ما فعلته بي كان بطولياً؟».

ويبدو أنّه فهم الملامة التي وجهتها له من ردة فعلي لا من كلماتي فرفع راحة يده لأتفحصها. كانت خشنة بشكل ملحوظ. مررت راحتي على النتوءات البارزة من جلده وصررت أسناني من التقزز الذي داهمني إثر ذلك.

«اسمي جونسون، لا يونسون»، لفظ كلامه ببطء لكنها إنجليزية سليمة تكاد تطابق لهجة أهلها.

كان هناك احتجاج طفيف بعينيه الزرقاوين الفاتحتين، وصراحة خجولة لا تخلو من الرجولة. ملتُ إليه وكسبني إلى صفه.

«شكراً لك سيد جونسون»، صحّحت موقفي ومددت يدي لأصافحه.

تردد الرجل بحياء وحرج وتململ في وقفته، ثم هزّ يدي بقوّة مصافحاً بحرارة.

«ألديك أية ملابس جافة أرتديها؟».

«نعم سيدي»، أجاب بكل سرور وابتهاج ثم أردف: «سأذهب لألقي نظرة على كيس ملابسي، إذا لم يكن لديك اعتراض في ارتدائها يا سيدي».

ثم غادر من باب المطبخ، أو انسّل منه بالأحرى، أدهشتني سرعة وسلاسة مشيته التي تشبه رشاقة انسلال القطط، لا بل نعومة انسياب الزيت، في الواقع، ربما كانت هذه الانسيابية، أو الدهنية، كما تعلمت لاحقاً، السمة الأشد ثباتاً في شخصيته.

فسألته: «أين أنا؟»، وأصابت تقديراتي بأن جونسون كان أحد البحارة، «وأيّة سفينة هذه؟ وإلى أين تتّجه؟».

«نبتعد عن فارلون متجهين صوب الجنوب الغربي»، أجاب ببطء ومنهجية، كما لو كان يتلمس طريقه لأفضل ما لديه من الإنجليزية، ويلاحظ بصرامة ترتيب استفساراتي. ثم استطرد: «إنها سكّونة([4]) صيد تدعى (الشبح)، وهي متجهة لصيد عجول البحر».

«ومن هو القبطان؟ يجب أن أراه فور الانتهاء من ارتداء ملابسي».

بدت الحيرة والحرج على جونسون، فتردد وهو يستجمع ألفاظه؛ ليكون إجابة كاملة: «القبطان هو وولف لارسن أو هكذا يدعوه الرفاق، لم أسمع باسمه الآخر.

لكن حريّ بك أن تكلمه بلطف فهو مجنون هذا الصباح. إن مساعد القبطان..».، لكنه لم يُنهِ ما قاله؛ لأن الطباخ دخل وقال:

«من الخير لك أن تبعد خطافك عن هذا المكان يا يونسون. إن الرجل العجوز يريدك على السطح وليس لك أن تتفوه بشيء».

استدار جونسون بكل طاعة نحو الباب، وتفضل عليّ بغمزة جدية من فوق كتف الطباخ؛ لتأكيد ملاحظته التي قوطعت بدخول الطباخ، وهي أن عليّ التحدث إلى القبطان بكل أدب ولطف.

تدلت من فوق ذراع الطباخ مجموعة فضفاضة ومجعدة من أطقم نتنة الرائحة.

«نزعها الرجال وكُومت وهي مبلولة يا سيدي»، تلطفَ عليّ بتفسير: «عليك استعمالها ريثما أجفف ملابسك على النار».

أمسكت بالدرابزين أترنح مع حركة السفينة وبمساعدة الطباخ، تمكنت من ارتداء قميص داخلي صوفي خشن، شعرت بهرش وحكة حالما لامَس الصوف جلدي، وقد لاحظ الطباخ اشمئزازي وارتجافي اللاإرادي، فكشر قائلاً:

«آمل فقط ألّا تضطر إلى التعود على مثل هذا اللبس في حياتك؛ لأن بشرتك ناعمة رقيقة كبشرة سيدة، أكثر من أي أحد أعرفه، كنت على يقين بأنك رجل نبيل حالما وقعت عيني عليك».

كرهته في بادئ الأمر، وعندما ساعدني في ارتداء ملابسي زادت هذه الكراهية. كان هناك شيء مثير للاشمئزاز حول لمسته. انكمشتُ من يده وثار جسدي واقشعر؛ وبسبب هذا، وهروباً من الروائح الناشئة عن الأواني المختلفة التي تغلي وتفور على موقد الطبخ؛ كنت في عجلة من أمري للخروج إلى الهواء الطلق. علاوة على ذلك، كانت هناك حاجة لرؤية القبطان حول الترتيبات التي يمكن إجراؤها لإعادتي إلى الشاطئ.

ارتديتُ قميصاً قطنياً رخيصاً، ذو ياقة بالية، صدره مبقع بما أحسبه بقع دماء قديمة، وسط سيل من اعتذارات الطباخ السريعة. أما الحذاء، فارتديت حذاء بحارة نوع بروغان، وبالنسبة للسروال، كان باللون الأزرق الفاتح، وهو بدلة عمل بالية، إحدى ساقيها أقصر من الأخرى بعشر بوصات. بدت الساق القصيرة كما لو أن الشيطان كان يقبض بإحكام على روح مرتديها لكنه أمسك بالقماش دون الروح.

«ومن الذي يجب أن أشكره على هذا اللطف؟»، سألت عندما وقفت مكسواً بالكامل، أرتدي قبعة صغيرة على رأسي، ومعطفاً قطنياً متسخاً مخططاً لا تكاد أكمامه تصل تحت مرفقي.

استقام الطباخ بتفاخر وابتسامة متكلفة تعلو وجهه. وانطلاقاً من تجربتي مع خدم باخرة الأطلسي في نهاية الرحلة، أكاد أقسم أنّه كان ينتظر بقشيش، ومن معرفتي الكاملة بالمخلوق، أعرف الآن أن الموقف لاإرادي وإنه مسؤولية العبودية الوراثية، بلا شك.

«ماكريدج، سيدي» وعبس، التقت ملامحه الأنثوية بابتسامته المشحمة.

«توماس ماكريدج، سيدي. في خدمتك».

«شكراً توماس، لن أنساك. حين تجف ملابسي».

«شكراً لك يا سيدي»، قالها بامتنان وتواضع.

وانزاح الطباخ جانباً بالضبط باتّجاه انزلاق الباب، فعبرته إلى سطح المركب. ما زلت واهن القوى من تأثير غمري بالماء لفترة طويلة. وحين هبّت عليّ الريح ترنحت على سطح المركب المتحرك من جهة زاوية المقصورة فتمسكت بها لاستند. ومن طبيعة سفن الصيد أن تتحرك بعيدة عن العامودية، تنثني وتغوص في موج المحيط الهادئ الواسع.

إذا كانت متجهة إلى الجنوب الغربي كما قال جونسون، فإن الريح، كما حسبتها، تهبّ من الجنوب تقريباً. انقشع الضباب، وتألقت الشمس في مكانه بشكل هش على سطح الماء، التفتُ إلى الشرق، إذ كنت أعلم أن كاليفورنيا تقع هناك، لكنني لم أرَ شيئاً سوى أطراف الضباب، الضباب ذاته، بلا شك، الذي تسبب في كارثة المارتينيز ووضعني في وضعي هذا. وإلى الشمال غير بعيد، برزت مجموعة من الصخور العارية ناتئة فوق سطح الماء، توسمتُ فناراً على واحدة منها، وفي الجنوب الغربي، في خط سيرنا تقريباً رأيت الرأس الهرمي لشراع أحد المراكب.

وبعد أن أكملت مسحي للأفق، التفتُ إلى محيطي المباشر وتفحصته. كان أول ما فكرت فيه هو أن الرجل الذي نجا من اصطدام سفينتين، وكان قاب قوسين أو أدنى من الموت، يستحق المزيد من الاهتمام أكثر مما تلقيته. فخلاف بحاّر يمسك عجلة القيادة والذي كان يحدق بفضول عبر الجزء العلوي من المقصورة؛ لم أحظ بأي انتباه.

بدا الجميع مهتماً بما كان يجري في وسط السفينة. هناك، على باب الكوة، استلقى رجل كبير على ظهره، يرتدي ملابسه كاملة، وعلى الرغم من أن قميصه كان مفتوحاً من الأمام، ليس هناك ما يمكن رؤيته من صدره، لأنه كان مغطى بكتلة من الشعر الأسود كفرو كلب، وحجبت لحيته السوداء التي خالطها شعر أشيب وجهه ورقبته، وكان من الممكن أن تكون قاسية وكثيفة، لو لم تكن قصيرة ويقطر منها الماء. عيناه مطبقة، يبدو أنّه فاقد الوعي. لكن فمه كان مفتوحاً على مصراعيه وصدره يخفق وكأنه يختنق ويسحب نفسه بصعوبة بالغة. وكان أحد البحارة بين الوقت والآخر وبوتيرة ثابتة كأنها روتين يدلي سطلاً من الخيش في المحيط حتى نهاية الحبل ثم يسحبه بيديه ويريق محتوياته على الرجل الممدد.

وكان هناك الرجل الذي أنقذتني نظرته العرضية من البحر يجوب الممر ذهاباً وإياباً، ويمضغ عقب سيجارته بوحشية. لا يتجاوز طوله الخمسة أقدام وعشر بوصات أو ربما عشراً ونصف. لكن انطباعي الأول عن ذلك الرجل، لم يكن طوله الفارع وإنما قوة بنيته، كان الرجل ضخماً عريض الكتفين غائر الصدر، إلا أنني لم أتمكن من تصنيف قوته بالهائلة، كانت أشبه بما يسمى بـ «قوة العضلات»، من

النوع الذي ننسبه للرجال النحيفين والأشداء؛ لكنها في هذا الرجل ذو البنية الضخمة، تكون أشبه بقوّة الغوريلا، ولا أقصد بأن مظهره يشبه الغوريلا على الإطلاق، وانما ما أحاول التعبير عنه هو تلك القوة نفسها، كأنها شيئاً منفصلاً عن تركيبه الجسدي، بل إنها قوة اعتدنا ربطها في أذهاننا بالبدائيات، والحيوانات البرية والمخلوقات التي كنا نتخيل بأن أسلافنا ممن يقطنون الأشجار كانوا يعايشونها. هي قوة متوحشة وشرسة، حية بذاتها بل جوهر الحياة بهيئة حركة كامنة أو المادة الأصلية نفسها التي منها تقولبت أشكال الحياة الأخرى. وخلاصة القول، إنها تلك القوة التي تنتفض في جسم الثعبان لحظة قطع رأسه، عندما يكون قد مات بالفعل، أو تلك القوة التي تبقى في كتلة من لحم سلحفاة نجدها تتكور وترتجف عند اقتراب الإصبع منها، كان هذا الانطباع الذي أخذته عن قوة ذلك الرجل الذي كان يجوب سطح السفينة. كان متمكناً ثابت الوقفة، تضرب قدماه سطح السفينة بعنف وثقة في كلّ حركة بدءاً من حركة كتفيه إلى زم شفتيه حول السيجارة، كانت حازمة وصادرة عن قوة طاغية، في الواقع، مع أن هذه القوة تخللت كلّ عمل من أعماله، إلا أنها بدت وكأنها إعلان عن قوة أعظم، تكمن في الداخل لا تظهر، ولكنها قد تُثار في أية لحظة، فتتبدى مروّعة وآسرة، مثل غضب الأسد أو هياج العاصفة.

مدّ الطباخ رأسه من باب المطبخ، وابتسم ابتسامة عريضة في وجهي وهو يحرك إبهامه في اتّجاه الرجل الذي يخطو ذهاباً وإياباً عند الباب الأرضي للسفينة. وهكذا فهمت بأنه القبطان (الرجل العجوز) كما نعته الطباخ. وهو الشخص الذي يجب أن أقابله وأن أكلفه عناء إيصالي إلى البر.

كدت أن أتقدم للأمام، وأحسم الأمر بخمس دقائق عاصفة وسريعة. عندما استولت نوبة اختناق أكثر عنفاً على الشخص المسكين المستلقي على ظهره، طفق يتلوى ويتوجع وارتفعت ذقنه ولحيته السوداء الرطبة للأعلى في الهواء، وتشنجت عضلات ظهره وتضخم صدره في جهد غير واعٍ وغريزي للحصول على مزيد من الهواء، وتحت شاربيه، عرفت أن الجلد بدأ يأخذ لوناً أرجوانياً.

توقف القبطان، أو وولف لارسن كما يسميه رجاله، عن المشي وحدق في الرجل الذي كان يحتضر. تعاظم صراعه مع الحياة، واشتدّ حتى أن الرجل الذي كان يسكب عليه الماء توقف مشدوهاً، فمال سطل الخيش قليلاً من يده وانسكب على سطح السفينة، ضرب الرجل المحتضر سطح السفينة بعقبيه واستقامت ساقيه، وتصلب في جهد متوتر عظيم، ولف رأسه من جانب إلى آخر. ثم استرخت عضلاته وتوقف رأسه عن الحركة، كما ندّت من شفتيه تنهيدة ارتياح عميق، فارتخى فكه، وانفرجت شفتاه، وظهر صفّان من الأسنان المشبعة بالتبغ. كما لو أن ملامحه قد تجمدت في ابتسامة شيطانية تلعن العالم الذي فارقه وهو حاقد عليه.

ثم حدث الشيء الأكثر إثارة للدهشة، إذ انفجر القبطان حانقاً على الرجل الذي مات وكأنه رعد، يزمجر ويلعن الميت في نهر من أسوأ الشتائم، لم تكن شتائم عادية أو كلمات تخلو من الحشمة وإنما شتائم وضيعة كالشرر الكهربائي. لم أسمع مثلها من قبل ولم أتخيلها حتى، ومع تحوّلي إلى التعبيرات الأدبية، والنزعة إلى الوصف باستخدام العبارات القسرية، أجرؤ على القول إني كغيري من المستمعين قدرت

الوصف الفاحش والعبارات المبتذلة لاستعاراته، وكان سبب كل هذا الهيجان كما فهمته، أن هذا الرجل كان أحد البحارة وقد انغمس في الفسوق من شرب وبائعات هوى في سان فرانسيسكو، ومات على متن السفينة في بداية الرحلة؛ فخسر بذلك القبطان وولف لارسن يداً عاملة.

ولا حاجة للقول، على الأقل لأصدقائي، أنني شعرت بالصدمة؛ لأن الشتائم واللغة الخسيسة من أي نوع دائماً ما تنفرني وأشمئزّ منها. شعرتُ بذبول وانقبض قلبي، وقد أقول إني شعرت بدوار كذلك، فبالنسبة لي، يُعامل الموت دائماً بإجلال وكرامة، ترافقه مشاعر إنسانية مطمئنة في حدوثه، وقدسية في الاحتفاء به، لكن الموت في جوانبه الأكثر رعباً ورهبة، كان شيئاً لم أكن أعرفه حتى الآن.

وبالعودة إلى كلامي السابق، بالرغم من إعجابي بقوّة وولف لارسن الجبارة، ألا إني شعرت بصدمة شديدة من تصرفاته. إن سيل الشتائم الحارقة كان كافياً لتذويب وجه الجثة. لم أكن سأشعر بالدهشة لو أن اللحية السوداء المبللة قد تجعدت وكُلِيت واشتعلت في الدخان واللهب. لكن الرجل الميت كان غير مهتم. واصل الابتسام بسخرية وتحدٍّ، وكان سيد الوضع.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثالث

توقف وولف لارسن عن السباب فجأة كما بدأه فجأة، وأشعل سيجارة وجال ببصره فيما حوله، وبعد أن وقع نظره على الطباخ، قال بكلمات باردة وقاسية كالفولاذ:

«كوكي».

«نعم سيدي»، قاطعه الطباخ بنبرة خنوع واعتذار واستلطاف.

«ألا تظن أنك مددت رقبتك ما يكفي؟ هذا غير صحيّ، كما تعلم. هلك رفيقنا، لذلك لا أستطيع أن أفقدك أنت أيضاً، أعتنِ بصحتك يا كوكي مفهوم؟».

وكانت كلمته الأخيرة، في تناقض صارخ مع نعومة كلامه السابق، لاسعة كسوط. ذوى الطباخ تحتها وأجاب باستكانة ظاهرة:

«حاضر سيدي»، ثم انسلّ من فوره إلى مطبخ السفينة.

أدرك باقي الطاقم ما انطوى عليه توبيخ الطباخ، فزال اهتمامهم بالموضوع وعادوا لممارسة أعمالهم. غير أن جماعة من الرجال الذين كانوا يتسكعون بين المطبخ وفتحة الكوة (ليسوا بحّارة على ما يبدو) استمرّوا بالحديث بينهم بصوت خافت، وقد علمتُ فيما بعد بأنهم صيادين، يصيدون عجول البحر بالبنادق وهم فئة أرقى بكثير من البحّارة.

«جوهانسون!»، صاح وولف لارسن، فجاء بحّار على الفور.

«جهز إبرتك وخيطك وقم بخياطة كفن للتعيس، ستجد بعض الخيش في المستودع، دبّر أمرك به».

«وماذا سأضع في قدميه يا سيدي؟».

«سنرى ذلك فيما بعد»، أجابه وولف لارسن، ثم رفع صوته ينادي الطباخ: «كوكي!».

أطلّ توماس ماكريدج من مطبخه كثعلب في قفص.

«اهبط واملأ كيساً بالفحم».

التفت القبطان هذه المرة إلى الصيادين وسألهم: «هل لدى أيّ أحد منكم إنجيل، أو كتاب صلاة».

هزّوا رؤوسهم بالنفي، قال أحدهم شيئاً لم أفهم مغزاه لكنه أضحك الجميع، ثم كرّر وولف لارسون طلبه على البحّارة ويبدو أن الأناجيل وكتب الصلاة شيء نادر هنا. تطوع أحدهم بأن يسأل الحراس، وعاد بعد لحظات يبلّغ بأنه لم يجد شيئاً.

هز القبطان كتفيه استهجاناً وقال: «سنلقيه في الماء إذن دون ثرثرة، إلا إذا كان صديقنا الناجي من حطام السفينة ذو مظهر المكتبيّ، يحفظ أدعية خدمة الجنائز عن

ظهر قلب».

ثم قال بعد أن استدار وواجهني مباشرة: «أنت واعظ. ألست كذلك؟».

التفت نحوي صيادون وكانوا ستة رجال وتفحصوني بدقة، آلمني الشبه الكبير بين رثاثة ثيابي والفزاعة، صدرت ضحكة عند ظهوري، لم يُخفِها أو يخففها الرجل الميت المسجّى والمبتسم على سطح المركب أمامنا، ضحكة قاسية وصريحة كالبحر نفسه، نشأت عن خشونة المشاعر وحدّتها، ومن الطبيعة التي لا تعرف المجاملة ولا اللطف.

لم يضحك وولف لارسن، على الرغم من أن عينه الرمادية كانت تشعّ ببريق خفيف من التسلية، وفي تلك اللحظة، بعد أن تقدمت إلى الأمام قريباً منه، كوّنت أول انطباع عن الرجل بصرف النظر عن جسده، وعن سيل الشتائم الذي سمعته ينطق به. كان وجهه كبير التقاطيع محدد الخطوط مربعاً وممتلئاً بشكل جيد، يبدو هائلاً للوهلة الأولى، ولكن مرّة أخرى، تزول ضخامته ويبدو متناسقاً مع الجسد، تلاشى الجمود وحلّت محله قناعة تامة بأن هناك قوة عقلية أو روحية هائلة ومفرطة تقبع في الداخل، غائرة في أعماق وجوده، فهذا الفك والذقن والجبهة العالية البارزة فوق العينين تنطق بقوّة ورجولة لامثيل لها، ولا معرفة لآفاقها وحدودها، ولا يمكن تصنيفها بمعيار.

كانت عيناه ـ وكان قدري أن أعرفهما جيداً ـ جميلتين وواسعتين كعيني فنان حقيقي، تختبئان تحت جبهة عالية وحاجبين كثيفين أسودين، أما لونهما فكان رماديًّا متماوجاً، لون نادر يتخلله العديد من الظلال والألوان كالحرير عندما تضربه أشعة الشمس، لونها رمادي، داكن وفاتح، ورمادي مخضّر، وتكون أحياناً صافية كبحر عميق، كانتا تُقنّعان روح صاحبهما بألف قناع، وقد ينقشع هذا القناع في لحظات نادرة ويسمح لتلك الروح بأن تتعرى وتتقدم إلى الأمام؛ لتخوض مغامرة رائعة، تلك العيون التي بإمكانها أن تحضن كآبة السماء الشاحبة، أو تقدح شرراً كتلك التي تصدر من سيف دوّار، أو أن تكون باردة كقفار القطب المنجمد. ومع ذلك، بوسعها أن تحمل الدفء والرقة وتتراقص أضواء الحب فيها، ذلك الحب الجريء والذكوري المغري والمقنع، الذي يبهر ويهيمن على النساء حتى يستسلمن له رغبة ورهبة.

ولنعد إلى الواقع، فقد أخبرت القبطان بأني ولسوء الحظ لست واعظاً، فسألني بحدة:

«وماذا تعمل لكسب عيشك؟».

أعترف بأنه لم يسبق لأحد أن طرح عليّ هذا السؤال من قبل، ولم أناقشه مع نفسي حتى؛ لذا عليّ القول بأني أُخذتُ على حين غرة فقلت بغباء قبل أن أتمالك نفسي: «أنا... سيدٌ نبيل».

التوت شفتاه سخرية واستهجاناً، فسارعتُ بتدارك الموقف وقلت بتهور:

«كنت أعمل، أنا أعمل».

كما لو كان قاضياً، وكنت بحاجة إلى التبرير، وفي الوقت نفسه، أدرك جيداً غبائي بكل ما للكلمة من معنى في مناقشة الموضوع على الإطلاق.

«لكسب قوتك؟».

كان في كلماته شيء من الأمر والاستبداد، أفقدني توازني وكنت «مهزوزاً»، كما قد يعبر عنها فورسيث، كنت كتلميذٍ خائب أمام أستاذ صارم.

«ومن يطعمك؟»، سألني لارسن.

«لي دخل ثابت»، أجبته بتحدٍ، لكن سرعان ما ندمت ووددت لو عضضت لساني، ثم قلت بسرعة «لكن هذا لا علاقة له بالأمر الذي جئت ألقاك من أجله».

أغفل لارسن ملاحظتي هذه واستطرد في استجوابه:

«من الذي كسبه لك، إيه؟ أبوك؟ كما أفترض. إذن فأنت تقف على ساقٍ رجل ميت، ولم تحصل على شيء بجهدك، وأنت أعجز من أن تسعى نهاراً كاملاً لتطعم نفسك ثلاث وجبات، دعني أرى يديك؟»

وبدا أن قوته الهائلة قد استثيرت فجأة وتحركت بسرعة ودقة، أو ربما غفوت للحظات؛ لأنه وقبل أن أتحرك كان قد تقدم خطوتين، وأمسك بيدي اليمنى في يده ورفعها يتفحصها، حاولت أن أسحبها منه، لكن أصابعه كانت تمسكني بإحكام دون جهد مرئي حتى ظننت أن أصابعي ستتسحق. ومن الصعب أن يحتفظ المرء بكرامته في مثل هذه الظروف، اذ لم أتمكن من الصراخ أو المقاومة كصبي في المدرسة، ولا يمكنني مهاجمة هذا المخلوق الذي ما كان عليه سوى ثني يدي لكسرها؛ لذا، لم يبقَ أمامي سوى الرضوخ والاستكانة. كان لدي الوقت لألاحظ أن جيوب الرجل الميت قد أُفرغت على سطح المركب، وأن جسده وابتسامته كانت ملفوفة عن الأنظار بطيات القماش التي كان البحار جوهانسون يخيطها بخيوط بيضاء خشنة، وكان يدفع الإبرة بواسطة آلة ثبتها على راحة يده.

أسقط لارسن يدي بازدراء وسخرية وقال:

«أبقتها يد الرجل الميت ناعمة. لا تنفع لأكثر من غسل الصحون والكنس».

«أريد أن أعود إلى الشاطئ»، قلت ذلك بحزم، الآن وقد لملمت شتات نفسي، «سأدفع لك ما تطلبه لقاء تأخيرك بسبب ذلك».

نظر لي لارسن بفضول واستغراب، لا بل بانت السخرية في عينيه وقال:

«لدي اقتراح معاكس لما تعرضه، وهو لصالحك، تعلم أن مساعدي مات، ستكون هناك ترقية في العمل على متن المركب، سيأخذ أحد البحارة محل رفيقنا الميت، وسيأخذ صبي المطبخ مكان البحّار، وستكون أنت صبي المطبخ، سأدفع لك عشرين دولاراً في الشهر علاوة على الطعام والمأوى، ماذا تقول؟ ولعلمك أنّه لمصلحتك، سيصنع منك هذا رجلاً، وقد تتعلم بمرور الوقت أن تقف على قدميك وربما تتهادى قليلاً».

لم أعِر أي اهتمام لعرض لارسن، لاحظت أن مركب الصيد الذي رأيته من قبل جهة جنوب الغرب يتقدم نحونا ولاحظت كذلك أنّه نفس نوع (الشبح) إلا أن بدنه أصغر بقليل. كان مشهداً جميلاً، كأنه يقفز ويطير نحونا، ومن الواضح أنّه مُلزم بالمرور من مسافة قريبة. كانت الريح في ازدياد للحظات، واختفت الشمس بعد عدة بروق غاضبة. أما السماء فاكتست بلون رمادي ثقيل فيما ازدادت الأمواج حدة وعنفاً. كنّا نسافر بسرعة ونتجه أبعد. وفي إحدى المرات، غطت دفقة ماء درابزين السفينة وغمرت ذلك الجزء بالماء المالح، فاضطرَّ صيادان اثنان إلى رفع أقدامهما.

«هذه السفينة ستمرّ بنا قريباً»، قلت بعد صمت للحظات، «وبما أنها قادمة بالاتّجاه المعاكس لنا، فلا بدَّ أنها متجهة نحو سان فرانسيسكو».

«محتمل جداً»، أجاب وولف لارسن وهو يستدير جزئياً عني ويصيح: «كوكي.. أوه كوكي!».

أطل الطباخ الكوكني برأسه من المطبخ.

«أين ذلك الفتى؟ أخبره بأنني أطلبه في الحال».

«حاضر سيدي».

واختفى توماس ماكريدج بسرعة في الخلف مبتعداً عن طريق بحّار آخر بالقرب من العجلة، وظهر بعد لحظة برفقته شاب ضخم في الثامنة أو التاسعة عشرة من عمره، ذو رائحة خبيثة منفرة.

«ها هو سيدي».

لكن وولف لارسن تجاهله، وتحول في الحال إلى صبي المقصورة.

«ما اسمك يا فتى؟».

«جورج ليتش، سيدي»، جاءت الإجابة متجهّمة، وقد أظهر سلوك الفتى بوضوح أنّه قد تكهن بسبب استدعائه.

«ليس اسماً إيرلندياً!»، رد القبطان بحدة: «إن اسماً كأوتول أو ماكارثي لهو أنسب لسحنتك اللعينة، مالم يكن هناك جد إيرلندي في نسبك لأمك».

لاحظت قبضة الشاب تتجمع وعروق رقبته تتوتر بدم مندفع بسبب هذه الإهانة.

«ولكن دع عنك هذا»، استطرد وولف لارسن: «لديك أسباب وجيهة تنسيك اسمك وأنا أقبله على كلّ حال ما دمت تقوم بعملك جيداً. لا بدَّ وأنك دخلت البلد من تلغراف هل؛ لأن هذا ما تشي بي سحنتك من خشونة وخسّة، أنا أعرف هذا الصنف جيداً، حسناً، بمقدورك أن تخلع عنك كلّ هذا إن التحقت بهذه السفينة، أتفهم ذلك؟ من الذي رتب شحنك إلى هنا؟».

«شركة ماك كريدي وسوانسون».

«قل يا سيدي»، صرخ وولف في وجهه.

«شركة ماك كريدي وسوانسون، يا سيدي»، صحح الصبيّ وعيناه تشعّان بمرارة.

«من الذي قبض السلفة؟».

«أصحاب الشركة يا سيدي».

«هكذا قدّرت، عليك اللعنة وهل أنت سعيد لأنك جعلتهم يأخذونها! لم تتمالك نفسك بعد أن سمعت بأن هناك الكثير من السادة الذين يطلبونك».

فاستحال مظهر الشاب إلى وحش كاسر وانتفض جسده كما لو أنّه على وشك أن ينقضّ على فريسته، وامتقع وجهه وصاح: «هذه..»..

«ماذا قلت؟»، سأله لارسن بصوت ناعم كما لو أن فضوله يلح عليه أن يسمع الكلمة التي لم يلفظها الشاب، فتردد الصبي ثم أمسك أعصابه وقال:

«لا شيء، سيدي، أسحب ما قلت».

«لقد أثبتَّ لي أنني كنت على صواب»، قالها بابتسامة سعادة: «كم عمرك؟».

«للتو أتممت خمسة عشر عاماً، يا سيدي».

«كاذب، لن ترى الثامنة عشرة مرّة أخرى على الإطلاق، أنت أكبر مما تدَّعي بعضلاتك الشبيهة بعضلات حصان، خذ أمتعتك واذهب إلى السَلوقية([5])، أنت الآن مجدّف قوارب؛ لقد تمت ترقيتك. أترى؟».

وبدون انتظار موافقة الصبي، استدار القبطان إلى البحار الذي أنهى للتو المهمة الشنيعة المتمثلة في خياطة كفن الجثة، وقال «جوهانسون، هل تعرف أي شيء عن الملاحة؟».

«لا، سيدي».

«حسناً، لا يهم، ستكون مساعدي، خذ أمتعتك واذهب إلى غرفة مساعد القبطان».

«أمرك سيدي»، قال جوهانسون ذلك بفرح ظاهر، وتحرّك في الحال.

وفي هذه الأثناء، لاحظ وولف لارسن أن صبي المقصورة السابق لم يتحرك من مكانه فسأله:

«ماذا تنتظر؟».

«أنا لم أتعاقد لأكون مجدَّفا للقوارب يا سيدي، بل لأكون مساعد طباخ، ولا أرغب في التجذيف أبداً».

«اجمع أمتعتك وتحرّك من هنا».

كانت نبرة وولف لارسن هذه المرة قسرية وإلزامية، لكن الفتى حملق بسخط ولم يتحرك، وعندئذٍ جاءت نوبة وولف لارسن الهائلة مرّة أخرى، كانت غير متوقعة، وسريعة، بدأت وانتهت في أقل من ثانيتين، وثب لارسن لأكثر من ستة أقدام وصوّب قبضته نحو معدة الشاب، فشعرت بألم حاد بمعدتي كما لو أن الضربة قد

وُجهت لي؛ فقد كان جهازي العصبي حساس وغير معتاد على مظاهر الوحشية. طوى الشاب ـ الذي يزن مائة وخمسة وستّين رطلاً على أقل تقدير ـ جسده وكأنه خرقة مبلولة تلتف على عصا، ورُفع في الهواء وشكّل جسده منحنى صغير، ثم ضرب سطح السفينة عند الجثة وهو يتلوى من الألم.

«وأنت، هل قررت شيئاً؟»، سألني لارسن.

كنت قد ألقيت نظرة من حين لآخر على مركب شراعي يقترب، وكان الآن على وشك مواكبتنا ولا يبعد أكثر من مائتي ياردة عنّا. كانت سفينة صغيرة أنيقة للغاية. استطعت رؤية رقم كبير، أسود اللون على أحد أشرعتها.

«ما أسم هذا المركب»، سألته.

«تدعى ليدي ماين، لقد تخلصت من بحارتها، وهي تتجه إلى سان فرانسيسكو ومن المقدر لها أن تصل بعد خمس أو ست ساعات إذا كانت الريح مواتية».

«هل تتكرّم وتشير إليها لتنقلني إلى البر؟».

«آسف، فقدت دفتر الإشارات في البحر». علّق ساخراً، فضحكت مجموعة من الصيادين.

فكرت في الأمر للحظة، وأنا أنظر في عينيه مباشرة، رأيت معاملته الفظيعة لمساعد الطباخ، وعلمت أنّه من المحتمل جداً أن أتلقى نفس المعاملة، إن لم تكن أسوأ. وكما قلت، قلّبت الأمر مع نفسي ثم فعلت ما اعتبرته أشجع عمل قمت به في حياتي، ركضت إلى الجانب، وبدأت ألوح بذراعي وأصرخ: «ليدي ماين، مرحى! خذوني معكم إلى الشاطئ وسأعطيكم ألف دولار مقابل ذلك».

انتظرت، رأيت رجلين يقفان قرب عجلة القيادة، أحدهما ممسك بها والآخر يرفع مكبر صوت إلى فمه، لم أستدر نحو لارسن مع أنني كنت أتوقع في كلّ لحظة أن أتلقى ضربة قاتله من الإنسان المتوحش الواقف خلفي، وأخيراً وبعد ما بدا لي عدة قرون عجزت عن تحمل التوتر فأدرت وجهي، كان لارسن يقف في مكانه ولم يتحرك، يرتج جسمه من حركة السفينة وهو يشعل سيجاراً جديداً.

«ماذا حدث؟ أثمة خطب ما؟»، كان هذا نداء من مكبر صوت الليدي ماين.

«نعم. مسألة حياة أو موت، وسأعطيكم ألف دولار إن أوصلتموني إلى البر».

«الإسراف في شرب خمور سان فرانسيسكو الرخيصة لم يكن جيداً لصحة طاقمي»، صاح وولف لارسن «هذا الرفيق»، وأشار بإبهامه نحوي، «يتخيل ثعابين البحر والسعادين الآن».

ضحك الرجل على متن ليدي ماين ومضت السفينة بعيداً، ثم جاء نداء أخير: «عاقبه على ذلك إكراماً لي». ثم لوّح الرجلان مودّعين.

انحنيت على درابزين السفينة، وراقبت سفينة الصيد الصغيرة، وهي تبتعد، وتزداد المسافة بيننا ومن المحتمل أن تصل إلى سان فرانسيسكو بغضون خمس أو ست

ساعات، كان رأسي على وشك أن ينفجر، وألم فظيع في حنجرتي كما لو أن قلبي حُشر فيها. هبّت ريحٌ عالية وابتعدت «الشبح» أكثر في البحر، وغمر الماء جانبها المحمي من الريح بالماء حتى تمكنت من سماع الماء المنساب بسرعة على سطحها.

وعندما التفتّ بعد لحظة، رأيت مساعد الطباخ يحاول الوقوف على قدميه، كان وجهه شاحباً مروعاً، يرتعش بألم مكبوت، بدا مريضاً للغاية.

«حسناً يا ليتش. هل ستمضي قدماً؟»، سأله وولف لارسن.

«نعم يا سيدي»، جاء جواب الروح المبعثرة.

«وأنت؟»، سألني.

«سأعطيك ألف..». وما أن بدأت حتى قاطعني.

«اخرس. هل ستتسلم مهامك كمساعد طباخ أم تريد أن تطالك يدي؟».

ماذا عساي أن أفعل؟ أن أتقبل الضرب بوحشية أو حتى القتل؟ لن ينفعني هذا. نظرت بثبات إلى تلكما العينين الرماديتين القاسيتين، كانتا كصخور الغرانيت رغم الروح البشرية التي احتوتها. قد يرى المرء حياة في عيون بعض الرجال، إلا أن عينيه كانتا قاتمتين وباردتين ورماديّتين مثل البحر نفسه.

«حسناً؟».

«نعم».

«قُل: نعم سيدي».

«نعم سيدي». صححت كلامي.

«ما اسمك؟».

«اسمي فان وايدن يا سيدي».

«اسمك الأول؟».

«همفري، سيدي. همفري فان وايدن».

«عمرك؟».

«خمسة وثلاثون عاماً، سيدي».

«هذا يكفي، اذهب إلى المطبخ وتعلم واجباتك».

وهكذا، انتقلتُ إلى حالة من العبودية اللاإرادية إلى وولف لارسن. كان أقوى مني، هذا كلّ ما في الأمر لكنه كان غير حقيقي، وأنا أستعيد ذلك الآن أرى بأنه لم يكن حقيقياً بالفعل، سيكون الأمر دائماً بالنسبة لي شيئاً وحشياً لا يمكن تصوره، كابوساً مروعاً.

«توقف. لا تذهب».

توقفت بإذعان وأنا في طريقي إلى المطبخ.

«جوهانسون، استدعِ الجميع إلى السطح ما دمنا رتبنا جميع الأمور. علينا أن نتخلص من الجنازة؛ لينظف السطح من سقط المتاع».

وفيما كان جوهانسون ينادي الرجال، طرح بحاران تحت إشراف القبطان الجثة على غطاء الباب السفلي للسفينة، ثم قام الصيادون بأنزال قوارب من كلا جانبي السفينة بمحاذاة الدرابزين، وتعاون عدة رجال على رفع الباب بحمولته المروعة إلى الجانب المحمي من الريح، ووضعوه على القوارب والأقدام للأسفل، ثم ربطوا كيس الفحم الذي جلبه الطباخ في قدميه.

لطالما تصورت أنّ الدفن في البحر حدثٌ مهيب ومدهش، لكنني سرعان ما شعرت بخيبة أمل من هذا الدفن بأية حال من الأحوال. كان أحد الصيادين ـ وهو رجل ذو عينين داكنتين يُدعى سموك ـ يروي قصصاً قبيحة كلها شتائم وافتراءات. وكل دقيقة أو نحو ذلك، تضحك مجموعة الصيادين كأنهم جوقة ذئاب أو كلاب من الجحيم.

تجمع البحّارة في الخلف، وبعض الحراس كانوا يفركون أعينهم من النعاس، ويتحدثون فيما بينهم بصوت خافت. بدت وجوههم متشائمة وقلقة، يبدو أن هذه الرحلة تحت إمرة هذا القبطان لم ترقْ لهم وأنهم بدؤوا يتطيرون منها. كانوا يسترقون النظر لوولف لارسن بين الحين والآخر، ويمكن أن أرى أنهم يخشونه.

تقدم لارسن إلى غطاء الباب وارتفعت طاقيات الجميع، جلت ببصري بينهم وكان عددهم عشرين رجلاً بل اثنين وعشرين إذا حسبنا الرجل عند عجلة القيادة وأنا. دفعني فضولي العفوي لإجراء الاستبيان؛ لأن مصيري يعتمد عليهم في هذا العالم المصغر العائم لوقت غير معلوم من أسابيع أو أشهر.

كان معظم البحارة من الإنجليز والإسكندنافيين، بوجوه عريضة غليظة وأجسام ضخمة. بينما كانت تعابير وجوه الصيادين أقوى واكثر تنوعاً بخطوط محددة وعلامات الميل للّهو والمجون. من الغريب أن أقول ـ ولقد لاحظت كلّ ذلك مرّة واحدة ـ إن وجه وولف لارسن لم ينُمّ عن مثل ذلك من نزوع إلى الحقد والشرور حتى وإن كانت خطوطه محددة وبارزة، فهي تدل على الحزم والصرامة، بل إن قسمات وجهه الحليق كانت تنمّ عن الصراحة والوضوح. لا أكاد أصدق ـ إلى أن وقع الحادث التالي ـ أنّه كان وجهاً لرجل يمكن أن يتصرف كما تصرف مع مساعد الطباخ.

وفي تلك اللحظة، وبينما فتح لارسن فمه للكلام، داهمت السفينة موجة عالية تلو الأخرى انساحت مياهها على سطح السفينة وهبت ريحٌ عاتية. نظر بعض الصيادين بقلق شديد، وغُمر درابزين السفينة حيث عُلقّت الجثة بالبحر وتماوجت السفينة بعنف وغمر الماء سطح السفينة حتى منتصف سيقاننا، ثم هطل مطر كثيف علينا،

وكانت قطراته تلسع كحبات البَرَد، وعندما مرّت، بدأ وولف لارسن بالكلام، كانت رؤوس الرجال الحاسرة تتأرجح بانسجام مع حركة السفينة.

«أنا لا أتذكر من مراسيم الدفن إلا مقطعاً واحداً هو: (ومن ثم يُلقى بالجثة إلى البحر)؛ لذا اقذفوها في البحر».

وتوقف عن الكلام. ويبدو أن الرجال الذين يمسكون غطاء الفتحة شعروا بحيرة وارتباك، بلا شك بسبب اقتضاب المراسيم، فانفجر غاضباً عليهم:

«ما لكم؟ عليكم اللعنة، ارفعوا من هذه الجهة».

رفعوا طرف الغطاء بعجلة يرثى لها، فانزلق الميت مثل كلب في الماء، تسحبه قدماه المثقلتان بكيس الفحم، واختفى في البحر.

«جوهانسون، ابقِ كلّ الرجال على السطح ما داموا هنا الآن، وجهز الأشرعة الثانوية العليا والأشرعة المثلثة وأتقن عملك، ستهبّ علينا عاصفة من الجنوب الشرقي، شدّ الشِراع الرئيسي ما دمت قريباً منه».

ونشطت الحركة على السطح في لحظات. كان الرجال ينفذون أوامر جوهانسون فيفكون حبالاً ويشدون أخرى مختلفة أنواعها ـ وهو أمرٌ غريب على رجل عاش على اليابسة طوال حياته مثلي ـ ولكن أشد ما أثّر بي هو اللامبالاة، وكأن الرجل الميت حلقة مضت، وحادثة تم إسقاطها بقطعة خيش مربوطة بكيس فحم، وتابعت السفينة طريقها، ولم يتأثر أحد.

كان الصيادون يضحكون على نكتة سمجة رواها سموك لهم فيما هم يسحبون الحبال، واثنان منهم يرتَقون خشبة الصاري. كان وولف لارسن يتمعن في السماء الملبدة بالغيوم واتّجاه الريح، بينما كانت جثة الميت تغوص أعمق في الماء.

بعد ذلك كانت قسوة البحر واضطرابه ورهبته هي الفكرة التي داهمتني في هذه اللحظة. أصبحت الحياة تافهة ورخيصة، شيئاً وحشيًّا ورتيباً، فارغة لا روح فيها تنزّ عفناً وطيناً. اتكأت على سلم السفينة، وجلت ببصري عبر موجات الزبَد المقفرة إلى أطراف الضباب المنخفضة التي كانت تخبّئ سان فرانسيسكو وساحل كاليفورنيا، وزخات المطر تتراشق بينها، أكاد أرى الضباب، وهذه السفينة الغريبة وطاقمها الفظيعين، تتزلق بفعل الريح والبحر وتتجه إلى الجنوب الغربي، في امتداد المحيط الهادئ الفسيح.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الرابع

إن ما حدث لي بعد ذلك على متن سفينة الصيد (الشبح)، وأنا أحاول جاهداً التأقلم مع بيئتي الجديدة؛ هو سلسلة من الألم والذل. تغيرت شخصية الطباخ ـ الذي كان يسخر منه البحّارة ويسمونه «الدكتور» والصيادون ينعتونه بـ«تومي» وولف لارسن بـ «كوكي»([6]) ـ ومعاملته لي الآن بعد أن تغيرت حالتي. بعد أن كان خاضعاً ومتملقاً، أضحى مشاكساً ومستبداً، وفي الحقيقة، لم أعد رجلاً نبيلاً ذا بشرة ناعمة مثل «سيدة»، وإنما صبيّ عاديّ لا قيمة له.

أصرَّ بعناد أن أناديه «السيد ماكريدج» حين أخاطبه، أما سلوكه ومعاملته لي عندما كان يشرح لي واجباتي في المطبخ فهما غير محتملين. علاوة على عملي في المقصورة بحجراتها الأربع الصغيرة، كان من المفترض أن أكون مساعده في المطبخ، وكان جهلي الهائل في ما يتعلق بأشياء مثل تقشير البطاطا أو غسل الأواني المشحمة مصدراً لا ينضب لسخريته مني والتهكم عليّ، فقد رفض الأخذ بعين الاحترام والمكانة لما كنت عليه، أو بالأحرى، ما هي حياتي والأشياء التي اعتدت عليها. كان هذا جزءاً من الموقف الذي اختار تبنّيه تجاهي، وأنا أعترف بأني شعرت تجاهه بالمقت والكراهية أشد من كراهيتي لأي شيء آخر طوال حياتي.

زادت صعوبة يومي الأول بسبب سرعة اندفاع الشبح وأشرعتها مثنية بإحكام (وهو أحد مصطلحات البحر التي لم أتعلمها إلا لاحقاً) في ما سماه السيد ماكريدج: «عاصفة جنوب شرقية». وفي تمام الساعة الخامسة والنصف، وبتوجيه منه، رتبت طاولات الطعام ووضعت الصواني الخاصة بالطقس الهائج ثم حملت الشاي والطعام المطهو من المطبخ. وفي هذا الصدد، لا يسعني تجميل تجربتي الأولى مع طقس مضطرب كالذي عانيت منه اليوم.

«انظر إلى موضع قدمك وإلا غطست في الماء»، كان هذا إنذار السيد ماكريدج قبل أن يفارقني وأنا أحمل إبريق الشاي الكبير بيد، وفي راحة يدي الأخرى أرغفة خُبزت للتو. وكان أحد الصيادين، يدعى هندرسون وهو شاب مفكّك المفاصل رخو، خارجٌ للتو من المُدَفّى([7]) (وهو الأسم الذي أطلقه الصيادون بمرح على أماكن نومهم) متجهاً نحو مقصورة الطعام، وكان وولف لارسن في مؤخرة السفينة، يدخن سيجارته الأبدية.

«ها هي آتية، تمسك بشيء»، صاح الطباخ.

تسمرت في مكاني لأني لم أعلم ماذا يقصد، لكني سمعت باب المطبخ يصطفق ويُغلق ثم رأيت هندرسون يثب كالمجنون على حبال أشرعة السفينة الرئيسية، ويرقى أحدها حتى غدا على بعد عدة أقدام أعلى من رأسي. ورأيتُ كذلك موجة هائلة، تتلوى مزبدة وترفرف بمستوى أعلى بكثير من سياج السفينة. كنت تحتها مباشرةً. ولم يعمل عقلي بالسرعة الكافية. كلّ شيء كان جديداً وغريباً عليّ هنا،

لكنني أدركت وجود خطر محدق بي، بيد أن الذعر شل حركتي حتى صاح وولف لارسن من مؤخرة السفينة:

«همپ! تمسك بشيء».

لكن تحذيره هذا جاء بعد فوات الأوان. قفزت نحو الحبال وحاولت التشبث بها، لكن الماء المنحدر من أسفل الموجة كان قد غمرني، وما حدث بعد ذلك كان مربكاً للغاية. وجدت نفسي تحت الماء أكاد أختنق وانا أغرق. انسحبت قدمي من تحتي، وأخذت أقلبها مراراً وتكراراً إلى حيث لا أدري.

ارتطمتُ عدّة مرات بأشياء صلبة، وصدمت ركبتي اليمنى في أحدها صدمة عنيفة مؤلمة. ثم بدا أن الطوفان قد خفّت حدته وعدتُ أتنفس الهواء النقي من جديد. حملتني الموجة فطافت بي من المطبخ إلى درج المُدَفّى الداخلي من الجهة المواجهة للريح نحو المَصْرَف([8]). وكان ألم ركبتي المصابة لا يحتمل حتى إنها لم تعد تحملني أو هكذا اعتقدت، كنت متأكداً من أنها مكسورة، لكن الطباخ لم يمهلني، وأخذ يصرخ عبر باب المطبخ:

«هيه أنت! لن تنوح عليها الليل بطوله! أين إبريق الشاي؟ هل فقدته؟ تستحق بأن يُدّق عنقك».

تمكنت من الوقوف علي قدميّ بصعوبة، وكان إبريق الشاي الكبير لا يزال في يدي. تقدّمت ببطء وأنا أعرج نحو المطبخ، وناولته إياه؛ لكنه كان يتميز غيضاً، لا أعلم إن كان حقيقياً أم لا.

«عليّ اللعنة إن لم تكن أخرقَ! ألا تصلح لشيء؟ أريد أن أعرف، إيه؟ ألا تصلح لشيء؟ أتعجز عن إيصال القليل من الشاي دون أن تسكبه؟ والآن عليّ أن أعدّ شاياً جديداً». انفجر في وجهي بغضب متجدد: «ثم علامَ تَنْشَق؟ ألأنك آذيت ركبتك المسكينة؟ حبيب ماما المدلل!».

والواقع أنني لم أكن أنشق، لكن سحنتي كانت ملتوية وشاحبة من الألم. ومع هذا، قررت الاحتمال وصررت على أسناني وبقيت أعرج جيئة وذهاباً بين المطبخ ومقصورات الطعام دون حوادث تذكر.

اكتسبتُ شيئين من حادثتي تلك، أولهما، رضٌّ في ركبتي، جرحت رضفتها وعانيت من ألمها لشهور، والثاني هو الاسم «همپ»([9]) الذي ناداني به وولف لارسن من مؤخرة السفينة. أصبح الجميع يناديني بهذ الاسم، ولم يعد أحد يعرفني بغيره، حتى أصبح هذا اللقب جزءاً من عمليات تفكيري، وحددتُه بنفسي، حتى أنا صرت «همپ» في نظري، كما لو أن «همپ» أنا وكنت دائماً «همپ».

لم تكن مهمة خدمة طاولات المقصورة سهلة، حيث جلس وولف لارسن وجوهانسون والصيادون الستة. كان المكان ضيقاً والحركة محدودة، ومما زاد الأمر صعوبة هو تأرجح السفينة وتخبطها. ولكن أكثر ما أثار دهشتي هو قلة تعاطف الرجال الذين خدمتهم، أكاد أشعر بركبتي يزداد انتفاخها عَبْرَ ملابسي، كنت

مريضاً وأعاني من دوار، وحين لمحت وجهي في مرآة المقصورة كان شاحباً وملتوياً من الألم. لا شك أن الجميع قد لاحظ حالتي، لكن لم يتحدث أحد أو يكترث لي، حتى شعرت بامتنان لولف لارسن، في ما بعد عندما كنت أغسل الصحون حين قال:

«لا تدع شيئاً كهذا يزعجك، ستعتاد على مثل هذه الأمور بمرور الوقت، قد تشلّك لفترة، لكنك ستتعلم المشي».

وأضاف «هذا ما تسمونه مُفارَقة، أليس كذلك؟».

أومأتُ برأسي إيجاباً، وقد سرّه أني قلت: «نعم سيدي»، التقليدية، فقال:

«أفترض أنك مطّلع على الأدب، أليس كذلك؟ سيكون لي حديث معك حول ذلك بين الفينة والأخرى».

ثم استدار ورحل دون أي إعتبار آخر لي.

وفي تلك الليلة، وبعد أن انتهيت من كمية من العمل المتواصل، أُرسلت لأنام في المُدفّى، حيث جهزت سرير أضافي. سعدت بأن أبتعد عن الوجود المقيت للطباخ وبأني سأستلقي. دُهشتُ حين رأيت أن ملابسي قد جفّت علي، ولم يكن هناك أي مؤشر على الإصابة بالبرد، سواء من النقع هذا أو من نقعي الطويل بعد غرق المارتينيز، ولو حدث هذا في ظل الظروف العادية، بعد كلّ ما مررت به؛ لكنت الآن طريح الفراش وبحاجة إلى ممرضة.

غير أن ألم ركبتي كان في تزايد. يبدو أن الرضفة قد لويت في غير موضعها أثناء تورّمها، وبينما جلستُ على سريري أتفحّصها، جلس الصيادون الستة في المُدفّى، يدخنون السيجار ويتحدثون بصوت عالٍ، نظر هندرسون إلى ركبتي وقال: «تبدو سيئة. اربط خرقة حولها وستكون على ما يرام».

وهذا كلّ شيء! قلت في نفسي: لو أني كنت في سان فرانسيسكو لكنت الآن ممدداً على ظهري يعالجني جراح ويأمرني بأن لا أفعل شيئاً سوى التعافي، غير أني لا أود ظلم هؤلاء الرجال، صحيح أنهم كانوا قساة القلب معدومي الشعور تجاه معاناتي إلا أنهم كانوا يفعلون الشيء ذاته تجاه مصائبهم، وربما كانت قسوتهم هذه بحكم العادة أولاً ولحقيقة كونهم أقل تنظيماً. وإني أحسب أن الرجل المنظم قد يعاني ضعف ما يعانيه أحدهم من إصابة كإصابتي هذه.

ورغم تعبي وإعيائي ألا أن ألم ركبتي حال دون قدرتي على النوم. بذلت قصارى جهدي لأمنع نفسي من التأوه بصوت عالٍ. لو كنت في المنزل، لكنت وبلا شك أنفّس عن ألمي ومعاناتي، لكن في هذه البيئة التي تتطلب قمعاً وحشياً؛ ينبغي أن ألزم الصمت. وكالهمج، كان تصرف هؤلاء الرجال رزيناً في الأمور العظيمة، وطفولياً في الأمور البسيطة. أتذكر ما حدث أثناء الرحلة، عندما فقد أحد الصيادين المدعو كيرفوت إصبعه الذي تهشم وتحول إلى هلام، لم يغمغم ولا حتى تغير تعبير وجهه عندما بتره. مع أني رأيت كيرفوت نفسه مرّة أخرى يتطيّر غضباً بسبب أمرٍ تافه.

وهذا ما يفعله الآن، يصرخ بصوت عالٍ ويلوح بذراعيه ويلعن كأنه شيطان. كل ذلك بسبب خلاف مع صياد آخر حول ما إذا كان وليد عجل البحر يسبح بغريزته لا بتدريب أمه، كان هذا رأيه، أما زميله المدعو لاتيمر ذي السحنة الأمريكية والعينين الضيقتين فكان رأيه أن صغير عجل البحر يولد على البر؛ لأنه لا يعرف العوم، وأن أمه ملزمة بتعليمه السباحة تماماً كما تفعل الطيور في تعليم صغارها الطيران.

ظل الصيادون الأربعة الباقون منحنين على الطاولة، أو راقدين في أسرتهم لا يتدخلون في النقاش المحتدم بين الخصمين في باديء الأمر؛ لكن اهتمامهم كان ظاهراً، وكانوا يتفرجون بحماس، وفي بعض الأحيان كانوا يتحدثون جميعهم في آن واحد، وترتفع أصواتهم كالرعد في المساحة الضيقة بصبيانية وتهور. أما نوعية تفكيرهم فكانت أكثر صبيانية وتهوراً، في الحقيقة، كان هناك القليل من المنطق أو لا شيء على الإطلاق في طريقة تقريرهم؛ وهي أما التأكيد، أو الافتراض، أو الشجب. لقد أثبتوا أن جرو الفقمة يمكن أن يسبح أو لا يسبح عند الولادة عن طريق ذكر الاقتراح بأسلوب عدواني للغاية ثم متابعته بهجوم على حكم الرجل المعارض أو الحس السليم أو الجنسية أو التاريخ الماضي.

وكان دحض الفكرة مشابهاً تماماً. وما ذكرت هذا إلا لأُبين القدرات العقلية لهؤلاء الرجال الذين أجبرت على الاحتكاك بهم، من الناحية الفكرية، هم أطفال بهيأة رجال.

كانوا يدخنون باستمرار، مستخدمين تبغاً رخيصاً ورديء النوعية ذا رائحة كريهة، وكان الهواء كثيفاً وقاتماً، هذا، فضلاً عن حركة السفينة العنيفة التي تصارع العاصفة، كلّ هذا ممكن أن يسبب لي دوار البحر لو كنت ضحية لهكذا مرض. ومع هذا فقد شعرت بإعياء، وقد يكون غثياني بسبب ألم ركبتي والإرهاق.

وبينما اضطجعت أفكر وأمعن النظر في نفسي ووضعي الذي لا مثيل له ولا حتى في الأحلام، أنا همفري فان وايدن المثقف والمرفه، عميق الاطلاع على الشؤون الأدبية والفنية، أرقد الآن على فراش من الخيش في سفينة صيد وأعمل فيها مساعد طباخ؟! أنا الذي لم أمارس أي عمل شاق ولم أخدم أحداً طيلة حياتي، وإنما عشت حياة هادئة مستقرة، حياة عالم رفيع الشأن ذي دخل ثابت، ولم تستهوِني الحياة العنيفة ولا الرياضة، وكنت دائماً دودة كتب (كما سمّاني والدي واعتبرتني أخواتي في طفولتي). ذهبت إلى معسكر التخييم مرّة واحدة في حياتي، ثم غادرت في بدايته وعدت إلى وسائل الراحة تحت سقف المنزل. وها أنا الآن، أمام عمل مقرف لا ينتهي من تجهيز الموائد، وتقشير البطاطا، وجلي الأواني، ولم أكن قوياً كفاية. كثيراً ما قال لي الأطباء إن بنيتي الجسدية قوية، لكنني لم أطورها أبداً بالتمرينات الرياضية، كانت عضلاتي صغيرة وناعمة، مثل عضلات امرأة، أو هكذا قالوا على الدوام أثناء محاولاتهم إقناعي بالذهاب إلى النوادي الرياضية. لكنني فضلت استخدام رأسي بدلاً من جسدي، وها أنا هنا بحالة بدنية لا تصلح لهكذا حياة قاسية.

وما هذه إلا بعض الأمثلة لما مرّ في بالي وأنا مضطجع على سريري؛ لأبرر لنفسي مقدماً ضعف موقفي وقلة حيلتي وما قُدِّر لي أن أكونه في الوقت الراهن. تخيلت

حزن أمي وأخواتي، بلا شك، فأن اسمي سيكون من ضمن لائحة المفقودين بكارثة المارتينيز، يمكن أن أتخيل العناوين الرئيسية للصحف، وزملائي في نادي الجامعة يحركون رؤوسهم أسفاً ويقولون «مسكين» وأكاد أرى تشارلي فورسيث بينما ودعته هذا الصباح يتسكع في بيجامته قرب النافذة على الأريكة ذات الوسائد ويتنبأ بحكم متشائمة ساخرة.

وفي هذه الأثناء، كانت الشبح تصارع البحر، وتقفز بين قمم الأمواج، وتنحدر في وديان الزبد وهي تشق طريقها بصعوبة بعيداً بعيداً في المحيط الهادي، وأنا على متنها. كان صوت الريح يصلني كهدير مكتوم، وكنت أسمع وقع أقدام البحارة فوق السطح بين الحين والآخر، وكانت أصوات الصرير التي لا نهاية لها تخرق أذني مع أصوات الخشب والمسامير التي تتأرجح وتَئِنُّ بألف نوتة موسيقية.

وكان الصيادون لايزالون في جدل سخيف، يجعرون كحيوانات برمائية شبه بشرية، وكان هواء المقصورة مليئاً بالشتائم والتعبيرات غير اللائقة، وأرى وجوههم محمّرة، وحشية وغاضبة ومشوهة بفعل ضوء مصابيح السفينة الصفر التي تتأرجح مع السفينة.

وبدت أسّرة النوم في هذا الجو الخانق بفعل الدخان وكأنها أقفاص حيوانات في سيرك متنقل، والمعاطف المشمعة وأحذية البحارة الطويلة معلقة تتأرجح من مساميرها المثبتة على الحائط هنا وهناك. أما البنادق وخراطيش الصيد فكانت ترقد مستقرة في صناديقها. هذه تجهيزات تناسب قراصنة البحر في الأيام الخوالي. اضطرب خيالي وشتّ فكري وفارقني النوم. كانت ليلة طويلة جداً، مرهقة وكئيبة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الخامس

كانت تلك ليلتي الأولى والأخيرة في مهجع الصيادين، لأن لارسن طرد مساعده جوهانسون من مقصورته وأرسله لينام مع الصيادين. أما أنا فأخذت حجرة صغيرة مفردة كان يشغلها شخصان في أول يوم لي في هذه الرحلة، وسرعان ما علمتُ من الصيادين سبب هذا التغيير المفاجئ الذي أصبح سبباً وجيهاً لتذمرهم، يبدو أن جوهانسون كان يتكلم أثناء نومه ويعيش تفاصيل يومه الحافل من جديد، كان كلامه المتواصل وصراخه والأصوات التي يطلقها سبباً كافياً ليطرده وولف لارسن ويورط صياديه بهذا الرجل المزعج.

وبعد ليلة بلا نوم، استيقظت ضعيفاً وأنا أشعر بألم لأتعثر في يومي الثاني على متن «الشبح». أيقظني توماس ماكريدج في الساعة الخامسة والنصف، بنفس الطريقة التي يوقظ بها بيل سايكس([10]) كلبه، لكني قابلت وحشية السيد ماكريدج بعطف واهتمام، وقد أيقظت الضوضاءُ غير الضرورية التي أحدثها ماكريدج أحدَ الصيادين (ويجب أن اذكر بأني لم يغمض لي جفن الليلَ بطوله) فرماه الأخير بحذاء ثقيل وأصابه، ضج السيد ماكريدج بصرخة ألم عالية ثم بدأ يعتذر من الجميع. لاحظتُ لاحقاً في المطبخ أن أذنه مُصابة ومتورمة ولم تعد إلى شكلها الطبيعي أبداً، فأطلق عليه البحارة لقب «أذن القرنبيط».

كان يوماً مليئاً بالمنغصات من كلّ صنف ونوع. أخذت ملابسي الجافة من المطبخ لأرتديها بدل الملابس التي أعطانِيها الطباخ، وكان أول ما فعلته، أني فتشت عن محفظة نقودي، وكانت تحتوي مائة وخمسة وثمانين دولاراً ورقاً وذهباً، مضافا لها بعض الخردة (لدي ذاكرة ممتازة في ما يتعلق بالنقود). وما وجدته في المحفظة كان قطعاً فضية فقط، وعندما تحدثت مع الطباخ بشأنها حين عدت لأقوم بمهامي في المطبخ؛ توقعت أني سأحصل على جواب مباشر ولم أتوقع كلامه العنيف هذا:

«اسمعني جيداً يا همپ»، زمجر وبريق شر يلوح في عينيه، «أتود لو أكسر لك أنفك؟ إذا ظننت بأني لصّ فاحتفظ برأيك لنفسك، وألا سأعرّفك مقدار خطأك. ليُصِبني العمى إن لم يكن هذا جزاء إحساني إليك، جئتني يا حثالة البشر وأدخلتك مطبخي وعاملتك بكرم وهذا جزائي؟ في المرة القادمة، يمكنك الذهاب إلى الجحيم، كما قلت لك، وسأبعث بك بنفسي إلى هناك».

هكذا قال، وضمّ قبضته واندفع نحوي، ويا للعار! جبنت أمامه، وهربت نحو باب المطبخ. ماذا عساي أن أفعل؟ أنّه العنف ولا شيء سواه في هذه السفينة الغاشمة، ولا مكان هناك إلى التفاهم. تصوّر الموقف بنفسك أيها القارئ: ما الذي يمكن لرجل ـ عادي البنية نحيل، بعضلات ضعيفة وغير مدربة، عاش حياة مسالمة وهادئة، وغير معتاد على العنف بأيّ شكل من الأشكال ـ فعله؟ لم يكن هناك أي سبب يدعوني إلى الوقوف ومواجهة هؤلاء الوحوش البشرية أكثر من وقوفي لأواجه ثوراً غاضباً، أو هكذا اعتقدت في حينها؛ لشعوري بضرورة التبرير؛ لرغبتي في

أن يكون ضميري مرتاحاً، لكن هذا التبرير ليس كافياً لحد هذه اللحظة، لا يمكن أن أسمح لرجولتي بالنظر إلى هذه الأحداث ولا أشعر بخزي. برغم أن الموقف تعدى حدود الصيغ العقلانية وتطلب أكثر من استنتاجات المنطق الباردة لفهمه. وعندما أنظر إليه في ضوء المنطق البحت، لا أجد ما يجب أن أخجل منه لكن بغض النظر، لا يزال هذا الشعور الغريب يعتريني كلما تذكرت ما حصل، وأشعر أن رجولتي قد أهينت وحُطّ من قدرها.

وقد تسببت السرعة التي هربت فيها من المطبخ بألم شديد في ركبتي، وانهرت بلا حول ولا قوة في مؤخرة السفينة، لكن الطباخ الكوكني لم يلحقني.

«انظروا إليه وهو يركض»، سمعته يصيح، «انظرو إليه وهو يركض بقدمه المعطوبة هذه. تعال إلى هنا يا طفل الماما المدلل، ولن ألحق بك الأذى».

عدت إلى المطبخ وتابعت عملي وبذا انتهى المشهد للوقت الراهن. أما المشاهد التالية فستأخذ دورها بتطورات أخرى. أعددت طاولة الفطور للصيادين وحراس المناوبة الليلية في الساعة السابعة، وكانت حدة العاصفة قد خفّت خلال الليل. وإن ظل موج البحر الواسع يتكسر والريح تعصف. نُشرت الأشرعة وقت الحراسة المبكرة ماعدا الشراعين العلويين والشراع المثلث المقرر نشرها بعد الفطور مباشرة، حسب كلام الصيادين فيما بينهم، كما عرفت أن وولف لارسن كان حريصاً على تحقيق أقصى استفادة من العاصفة التي كانت تدفعه إلى الجنوب الغربي في هذا الجزء من البحر حيث كان يتوقع أن يلحق بالريح التجارية الشمالية الشرقية. وكان يأمل قبل هبوب هذه الريح الثابتة أن يقطع أكبر مسافة ممكنه باتّجاه اليابان، ثم يتجه جنوباً إلى المناطق الاستوائية، ثم إلى الشمال مرّة أخرى عندما يقترب من ساحل آسيا.

وكانت لي تجربة أخرى لا أُحسد عليها بعد الإفطار. بعد أن انتهيت من غسل الصحون، نظفت موقد المقصورة وحملت الرماد على سطح السفينة؛ لألقيه في الماء. كان وولف لارسن وهيندرسون واقفين قرب عجلة القيادة، منهمكين في الحديث. وكان البحار جونسون هو من يمسك دفّة القيادة. اتجهت نحو جهة هبوب الريح، فرأيت جونسون يقوم بحركة مفاجئة برأسه، فأخطأت تفسيرها، وحسبته عرفني، ويريد أن يلقي تحية الصباح، في الواقع، كان يحاول أن يحذرني أن لا أرمي الرماد في ذلك الجانب. وغير مدرك لخطئي، مررت بوولف لارسن والصياد ورميت الرماد على الجانب في مهب الريح، فأعادته الريح إلى الوراء عليّ وعلى هندرسون وولف لارسن فركلني الأخير بعنف كما يركل كلباً يطرده.

لم أدرك مقدار الألم في الركلة قبل هذه اللحظة. ابتعدت عنه واتكأت على المقصورة في حالة من الإغماء. كلّ شيء كان غائماً وضبابياً أمام عيني، فقد تمكن منّي المرض وتغلب عليّ الغثيان، فزحفت إلى جانب السفينة، ولم يلحق بي وولف لارسن واكتفى بنفض الرماد عن ملابسه واستأنف حديثه مع هندرسون. وكان جونسون قد رأى ما حدث فأرسل اثنين من البحارة لإزالة الرماد وتنظيف المكان.

ومع تقدم نهار ذلك اليوم حدثت مفاجأة من نوع مختلف تماماً. فخضوعاً لإرشادات الطباخ، ذهبت إلى غرفة وولف لارسن لأرتبها وأسوّي السرير، على الحائط، بالقرب من رأس السرير، كان هناك رف مليء بالكتب، نظرت إليها، فاستولت عليّ الدهشة حين وجدت أسماء مثل شكسبير، وتينيسون، وبو، ودي كوينسي، وكانت هناك أعمال علمية أيضاً، من بينها أعلام بارزون مثل تيندال وبروكتور وداروين، وحتى علم الفلك والفيزياء، لاحظت كتاب بول فنش بعنوان «عصر الخرافة» وكتاب برنارد شو «تاريخ الأدب الإنجليزي والأمريكي»، وكتاب جونسون «التاريخ الطبيعي» في مجلدين ضخمين، فضلاً عن الكثير من كتب القراءة وقواعد اللغة. وقد ابتسمت حين وقع نظري على نسخة من كتاب «عميد الإنجليزية».

لم أستطع التوفيق بين وجود هذه الكتب وطبيعة رجل شهدت منه ما شهدت، وتساءلت إن كان بإمكانه قراءة هذه الكتب حتى. لكن، عندما بدأت أرتب الفراش، وجدت بين طيات البطانيات كتاب «الأعمال الكاملة لروبرت براوننغ ـ طبعة كامبردج»، وكان واضحاً أن هذا الكتاب قد سقط عندما غلب وولف لارسون النعاس، وكان مفتوحاً على قصيدة بعنوان «في الشرفة»، حيث لاحظت خطوطاً بقلم رصاص تحت بعض الأبيات الشعرية. علاوة على ذلك، وجدت ـ عندما سقط من يدي المجلد بفعل ارتجاج السفينة ـ ورقة تحوي مخططات هندسية وحسابات من نوع ما.

كان واضحاً أن هذا الرجل الرهيب لم يكن غبياً جاهلاً، كما قد يفترض المرء حين يشهد تصرفاته الوحشية. في تلك اللحظة بات وولف لارسن معضلة كبيرة لدي. لأن جانباً ـ أو الآخر ـ من طبيعته كان مفهوماً تماماً؛ لكن كلا الجانبين كانا متناقضين مما يثير فيّ الحيرة والغموض. كنت قد لاحظت بالفعل أن لغته ممتازة، وإن شابتها بعض الأخطاء النحوية في بعض الأحيان، ومن الطبيعي أن يملأها التشويه حين يخاطب البحارة والصيادين، وقد تكون بسبب اللغة العامية نفسها، ولكن الكلمات القليلة التي خاطبني بها كانت واضحة وسليمة.

وهذه اللمحة التي علمتها من جانبه الآخر هي ما شجعتني، لأنني قررت أن أتحدث معه حول المال الذي فقدته، وجاءت الفرصة مواتية حين وجدته يتمشى وحيداً في مؤخرة السفينة.

«لقد سرقوا مالي».

«قل سيدي»، صحح عبارتي بنبرة حازمة تخلو من الفظاظة.

«لقد سرقوا مالي يا سيدي».

«كيف حصل ذلك؟».

ثم أخبرته بكل شيء، كيف تركت ملابسي حتى تجفّ في المطبخ، وكيف، في ما بعد، تعرضت للضرب من قِبل الطباخ عندما ذكرت الأمر، فابتسم على سردي وقال:

«غنائم. إنها غنائم الطباخ، ثم ألا تعتقد أن حياتك البائسة تستحق هذا الثمن؟ اعتبره درساً. ستتعلم في الوقت المناسب كيف تحافظ على أموالك بنفسك. أفترضُ، بأنك إلى الآن تعتمد على محاميك للقيام بذلك نيابة عنك أو على وكيل أعمالك».

لاحظت سخرية مبطّنة في كلماته ومع ذلك سألته: «وكيف سأستعيد نقودي؟».

«ذلك شأنك. ليس لديك أي محام أو وكيل أعمال الآن، لذلك يجب عليك الاعتماد على نفسك. حين تحصل على دولار، تشبث به. فالرجل الذي يترك أمواله ملقاة بالطريقة التي فعلتها، يستحق أن يخسرها. علاوة على ذلك، لقد أخطأت، ليس لك أن تضع الإغراءات في طريق زملائك المخلوقات الضعيفة، ها أنت جربت كوكي، ووقع في الخطيئة وجازفت بوضع روحه الخالدة في خطر، بالمناسبة، هل تؤمن بالروح الخالدة؟».

رفع جفنيه ببلادة وهو يوجه لي هذا السؤال الغريب، وبدا لي أن أعماقه قد انفتحت أمامي، وأنني أطوف في قرارة نفسه. لكن هذا كان مجرد وهم، فلم يسبق لأحد البتة أن نفذ إلى أغوار روح وولف لارسن، ولا أظنني على وشك أن أفعل في هذه اللحظة، وأنا متأكد من أن روحه وحيدة لم تتكشف أبداً بل ظلت وراء أقنعة، حتى وإن تظاهرت بعكس ذلك في بعض الأوقات.

«إنني أقرأ الخلود في عينيك»، أجبت وأسقطت، «سيدي»، وكانت تجربة، لأني أعتقد أن حميمية المحادثة لها ما يبررها.

لم يلاحظ وأجاب: «أفهم من ذلك أنك ترى شيئاً حياً في الوقت الراهن، لكن ليس بالضرورة أن يعيش إلى الأبد».

«قرأت في عينيك أكثر من ذلك»، تابعت بثقة.

«إذن أنت تقرأ الوعي، وعي الحياة بأنها حية، لكن ليس أكثر من ذلك، لا خلود الحياة».

ما مدى وضوح تفكيره، وكيف عبّر عن رأيه! ومن تمعّنه لي بفضول واهتمام، أدار رأسه ونظر إلى البحر الرمادي باتّجاه الريح. اجتاحت العزلة والكآبة عينيه، وأصبحت خطوط فمه شديدة وقاسية، كان واضحاً أنّه في مزاج متشائم، ثم سألني فجأة وهو يستدير نحوي: «ثم ما الغاية من ذلك؟ إن كنتُ أنا خالداً، فما الحكمة من هذا الخلود؟».

تلعثمت، كيف يمكنني أن أشرح مثاليتي لهذا الرجل؟ وكيف أصوغ بكلمات ما أشعر به وأحسه! شيء مثل انسياب الألحان العذبة التي تسمعها في منامك، شيء أنا مقتنع به لكنه سامٍ لا يمكن التعبير عنه.

«ما الذي تؤمن به إذن؟»، واجهته بسؤال آخر.

«أؤمن أن الحياة فوضى»، أجاب على الفور. «تشبه الخميرة، وهي عبارة عن هياج، شيء يتحرك وقد يتحرك لمدة دقيقة أو ساعة أو سنة أو حتى مائة عام، ولكنه في النهاية سيتوقف عن الحركة، الكبير يأكل الصغير طالما كلاهما يتحرك، والقوي

يأكل الضعيف؛ ليحافظ على قوته، وسعيد الحظ من يأكل غيره ويتحرك لفترة أطول من غيره، هذا كلّ ما في الأمر. ما الذي تستنتجه من كلّ هذه الأشياء؟».

وأدار ذراعه في إشارة متعجلة نحو عدد من البحارة ممن كانوا يفتلون الحبال في وسط السفينة:

«إنهم يتحرّكون كما تفعل السمكة الهلامية، وهم يتحركون لكي يأكلوا وحتى يظلوا على قيد الحياة ويستمروا بالحركة، هذه هي الحقيقة، إنهم يعيشون في خدمة بطونهم ومِعدهم لخدمتهم، حلقة دائرية لا تفضي إلى مكان، وكذلك حالهم، وفي النهاية، يتوقفون عن الحركة ولا يغادرون موضعهم وذاك هو موتهم».

قاطعته: «إن لهم أحلاماً، أحلاماً وضّاءة ومشرقة».

قاطعني بحماس: «من الدود والكدح».

«وأكثر من ذلك..».

«دود ذو شهية أكبر وحظ أوفر في إشباعه». بدا صوته قاسياً يخلو من الخفة والمزاح.

«انظر يا هذا، إنهم يحلمون برحلات محظوظة تجلب لهم المزيد من النقود، وأن يصبحوا ربابنة سفن، ويأملون في إيجاد الكنوز. وباختصار، في الفوز بمراكز أفضل تيسّر لهم التهام زملائهم الآخرين وبأن يستمتعوا الليل بطولة فيما يقوم شخص آخر بالعمل القذر نيابة عنهم، وأنا وأنت مثلهم أيضاً، ليس هناك فرق بيننا إلا في كوننا التهمنا أكثر وأفضل مما فعلوا، وها أنا التهمتهم الآن وأنت أيضاً، لكنك التهمت أكثر مني في الماضي، نمت في فراش أنعم ولبست ثياباً أفخر وأكلت وجبات أكثر دسامة. من الذي رتب هذا الفراش؟ ومن صنع تلك الثياب؟ وطبخ تلك الوجبات؟ بالتأكيد لست أنت، فأنت لم تصنع شيئاً بعرقك يوماً، عشت على دخل جناه والدك وضمنه لك. فأنت مثل طائر السفن، يحط على مقدمة السفينة، ويأخذ مما صاده غيره. أنت واحد من حشد الرجال الذين شكّلوا ما يسمونه حكومة، هم أسياد جميع الرجال الآخرين، يأكلون طعاماً قد تعب غيرهم في الحصول عليه، ويودون أن يأكل بعضهم بعضا، أنت ترتدي ملابس تدفئك، وهي من صنع غيرك الذين يرتجفون برداً وهم يرتدون خرقاً ممزقة ويسألونك أو يسألون المحامي أو وكيل أعمالك الذي يتولى شؤونك المالية عن وظيفة».

«لكن هذا خارج نطاق الموضوع»، صحت.

«إطلاقاً». وأخذ يقذف بالكلمات بسرعة فائقة وبريق عينيه يزداد حدّة.

«إنها الضآلة، والدناءة، إنها الحياة! فما فائدة ومعنى خلود حياة الحقارة هذه؟ ما هي الغاية وما جدواها؟ أنت لم تصنع طعاماً، ومع هذا فقد استهلكت أو أتلفت طعاماً قد يكفي لعشرين روحاً من التعساء الذين أنتجوه ولم يتذوقوا منه شيئاً. فما هي غاية خلودك؟ وخلودهم؟ فكّر في نفسك وفيّ مثلاً، ما الذي يرقى إليه الخلود الذي تتباهى به عندما تنقلب حياتك وتتقاطع مع حياتي؟ كنت ترغب في العودة إلى اليابسة، وهو

مكان مناسب لنوع الحقارة الذي تعيشه، أن أبقيك على متن هذه السفينة لهي نزوة لي، حيث تزدهر حقارتي وسأبقيك. فأما أصنع منك إنساناً أو أحطّمك. قد تموت اليوم، أو هذا الأسبوع، أو الشهر المقبل، ويمكنني أن أقتلك الآن، بضربة من قبضتي؛ لأنك ضعيف بائس، ولكن إذا كنا خالدين، فما السبب وراء ذلك؟ أن نعيش أنا وأنت حياة حقارة وخسة طوال حياتنا، لا يبدو أنّه الشيء المناسب الذي قد يفعله الخالدون، مرّة أخرى، ما معنى هذا كله؟ ولماذا أبقيتك هنا؟..».

«لأنك الأقوى»، تمكنت من الإفصاح بهذا.

«ولكن لماذا أنا الأقوى؟»، سارع في الحال بقول استفساراته الأبدية، «ألأنني أمثُّل قطعة أكبر من خميرة الحياة مما تمثله أنت؟ ألا ترى ذلك؟ ألا تراه؟!».

«لا أرى إلا إنعدام الأمل واليأس عندها». قلت محتجاً.

«أوافقك الرأي. إذن، لِمَ التحرك أصلاً ما دامت الحركة هي البقاء حياً؟ بدون التحرك وكونك جزءاً من الخميرة لن يكون هناك شعور باليأس. لكن، وهنا تكمن الحقيقة، نريد أن نعيش ونتحرك، مع أنّه لا سبب يدعونا لذلك؛ لأنه يحدث أن يكون من طبيعة الحياة أن نحيا ونتحرك، أن نعيش وننتقل، لو لم يكن لهذا، لماتت الحياة؛ وبسبب هذه الحياة التي فيك فإنك تحلم بالخلود، إن الحياة التي فيك حيّة، وتريد الاستمرار في الحياة إلى الأبد. أوه! حقارة أبدية».

وأدار لارسن عقبه فجأة ورحل. لكنه توقف قرب مؤخرة السفينة ونادى عليّ:

«بالمناسبة، كم المبلغ الذي أخذه منك كوكي؟».

«مائة وخمسة وثمانون دولاراً سيدي».

فأومأ برأسه، وبعد لحظات، هبطتُ إلى المطبخ لإعداد مائدة الطعام، وسمعته يشتُم بصوت عالٍ بعض رجال كانوا عنده على السطح.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل السادس

وبحلول فجر اليوم التالي، كانت العاصفة قد أدبرت وجرّت الشبح بخفة في المياه الهادئة دون نسمة ريح إلا من بعض النسمات الشاردة التي تهبّ بين حين وآخر. وكان وولف لارسن يذرع مؤخرة السفينة وعينه تفتش البحر باتّجاه الشمال الشرقي، حيث من المقدر أن تهبّ منه الريح التجارية الشرقية.

انشغل الرجال جميعهم على سطح السفينة بتجهيز قواربهم لموسم الصيد، كان هناك سبعة قوارب على متن الشبح معدّة لهذا الغرض، زورق تجديف للقبطان، وستة للصيادين، يتكون طاقم المركب الواحد من ثلاثة رجال: صياد، ومجدّف قارب، والثالث يوجه القارب. أما على الشبح فأن الطاقم يتكون من مجدّفي القوارب وموجّهيها فقط، ومن المفترض أن يقوم الصيادون بنوبات حراسة حسب أوامر وولف لارسن.

كل هذا وأكثر، علمت كذلك أن «الشبح» تعتبر أسرع مركب شراعي في أسطولي سان فرانسيسكو وفيكتوريا على السواء، والواقع إنها كانت ذات يوم يختاً خاصاً، وقد صُممت سريعة على هذا الأساس، وحتى خطوط هيكلها والمعدات التي جُهّزت بها تشي بذلك ـ رغم جهلي بمثل هذه الأشياء ـ أخبرني بذلك جونسون في حديث قصير دار بيننا ليلة أمس أثناء نوبة الحراسة الثانية، تكلم بحماس عن سفينة يحبها كما يتكلم محبي الخيول عن الخيل. لكن جونسون كان مشمئزاً من السلوك العام على متن السفينة، كما فهمت منه؛ لأن سمعة وولف لارسن سيئة جداً بين القباطنة في أساطيل الصيد. وكانت «الشبح» هي نفسها التي جذبت جونسون وأغرته بالتعاقد على هذه الرحلة. لكنه بدأ بالفعل يشعر بالندم. كما أخبرني بأن «الشبح» هي مركب شراعي حمولتها ثمانين طناً ومن طراز رفيع، عرضها ثلاثة وعشرين قدماً، ويزيد طولها عن تسعين قدماً. عارضتها الأمامية رائعة وزنها غير معروف لكنه يجعلها مستقرة وهي تحمل قلوعاً بأحجام هائلة. والمسافة من السطح إلى الصَّاري الرئيس أكثر من مائة قدم، أما الصَّاري الأمامي فهو أقصر من ذلك بعشرة أقدام، وقدُّمت هذه التفاصيل حتى نقدّر حجم هذا العالم العائم الصغير الذي يضم اثنين وعشرين رجلاً. أنّه عالم صغير جداً، ذرة، بقعة، وإني لأتعجب من جرأة الرجال على المغامرة في البحر على متن اختراع صغير وهشّ كهذا.

كان من المعروف عن وولف لارسن إبحاره المتهور، وأنه لا يهتم برفع أشرعة جيدة. سمعت هندرسون وستانديش وهو صياد من كاليفورنيا يتحدثان، قبل عامين دمّر لارسن «الشبح» بعاصفة في بحر بيرنغ، ومن ثم وُضعت الصواري الحالية فيها، وهي أقوى وأثقل من سابقاتها، ويقال أنّه قال عندما وضعها، أنّه يفضل أن تضيع السفينة، أو تغرق على أن يفقد خشبات الصواري هذه.

يبدو أن لكل رجل على متن السفينة، باستثناء جوهانسون الذي اغتبط لترقيته، عذراً للإبحار على متن الشبح. نصف الرجال إلى الأمام هم بحارة في المياه العميقة

وعذرهم، أنهم لم يعرفوا شيئاً عن قبطانها، وأولئك الذين يعرفون، همسوا بأن الصيادين، وإن كانوا مهرة حاذقين، إلا أن سمعتهم سيئة بسبب ميولهم للمشاكسة والشغب، حتى إنهم لم يجدوا سفينة صيد محترمة تقبل أن تتعاقد معهم.

تعرفت على رفيق آخر من الطاقم، اسمه لويس، وهو رجل اجتماعي بوجه مرح، إيرلندي يسكن نوفا سكوشيا([11])، وهو مستعد لأن يظل يتكلم طالما يجد من يستمع إليه. حدث الأمر بعد ظهر ذلك اليوم حين كان الطباخ نائماً، جاء لويس يبحث عن خيوط الصوف، كنت أقشر البطاطا التي لا تنتهي. وأسرّ لي أنّه كان مخموراً حين وقّع ورقة التعاقد مع وولف لارسن، وقد أكد لي مراراً وتكراراً، أن العمل مع لارسن هو آخر شيء قد يفكر فيه لو كان صاحياً في تلك اللحظة. ويبدو أنّه كان يصطاد عجول البحر بانتظام كلّ موسم في الاثنتي عشرة سنة الماضية، وهو واحد من أفضل اثنين أو ثلاثة من نخبة قادة القوارب في كلا الأسطولين.

قال وهو يهزّ رأسه بتشاؤم «آه يا صديقي، هذه أسوأ سفينة للصيد يمكن أن تختارها إن لم تكن مخموراً كما كنت حينها. إن صيد العجول هو الفردوس الذي يبتغيه كلّ صياد ما لم يكن على ظهر هذه السفينة. مات مساعد القبطان أولاً، لكن تذكّر كلامي، سيلحقه آخرون، سيموتون قبل أن تنتهي هذه الرحلة. أنصِتْ إليّ، بيني وبينك وبين الصَّاري هناك، وولف لارسن شيطان وستكون الشبح هي الجحيم بعينه لمجرد إنها له. ألا أعرف؟ كيف لا أعرف؟ ما زلت أذكر ما فعله لارسن في هاكوديت قبل عامين حين أمر رجاله أن يصطفوا، وأطلق النار على أربعة منهم فقتلهم، ألم أكن يومذاك على ظهر سفينة (إيمال). لا أبعد عنهم أكثر من ثلاثمائة قدم؟ وقد قتل لارسن رجلاً آخر بلكمة من قبضته في نفس العام، نعم أيها السيد، ضربه حتى هلك وسحق رأسه كقشرة بيض. أوَلم يصعد حاكم جزيرة كورا ورئيس الشرطة وسيد ياباني على متن الشبح برفقة نسائهم كضيوف للارسن؟ وكن سيدات رقيقات ناعمات كالأشكال التي تراها مرسومة على مراوحهن. ألم تراوده نزواته الشيطانية يومها ليقذف بأزواجهن إلى لجة البحر ويضعهم في زورق صغير، متظاهراً بأنه حادث. ولم يمضِ أسبوع حتى أنزل السيدات التعيسات على الشاطئ المقابل للجزيرة ليعبرن على أقدامهن منطقة جبلية وعرة، وليس في أرجلهن إلا صنادل رقيقة لا تقاوم أكثر من ميل. كلّ هذا ولا أعرفه؟!

هذا هو وولف لارسن، الوحش، الذي ورد ذكره في سفر التنزيل، ولا يمكن أن تتوقع منه أي خير. لكن، تذكّر بأني لم أقل لك شيئاً، ولم أهمس لك ولا كلمة وإلا سيكمل لويس المرح البدين المسكين رحلته هذه في بطون الأسماك». ثم أطلق صوتاً كالشخير وقال: «وولف لارسن! اسمع ما سأقول، وولف أنّه بالضبط كالذئب، فهو ليس أسود القلب كبعض الرجال، لأن لا قلب له على الأطلاق. إن اسمه وولف،([12]) وهو مطابق له تماماً، ألا تتفق معي في أنهم أحسنوا تسميته؟».

«لكن إذا كان معروف عنه كلّ هذا السوء»، تساءلتُ، «فكيف للرجال أن يتقدموا للعمل معه على متن هذه السفينة».

«وكيف يمكنك أن تجعل الرجال يفعلون أي شيء على أرض الله وبحره؟»، قال بحماس رجلٍ كِلتيٍّ،([13]) «كيف ستجدني أعمل معه لو لم أشرب الخمر حتى الثمالة حين دونت اسمي معهم! هناك بعض البحارة الذين لا يستطيعون الإبحار مع قبطان أفضل منه كالصيادين، وهناك أولئك الذين لا يعرفون الحقيقة، كالتجار الملاعين التعساء هناك أمامك، لكنهم سيعرفون ذلك عاجلاً أم آجلاً وسيندمون على اليوم الذي ولدوا فيه، وإنني أكاد أبكي على حظهم العاثر، ولا أنسى المتاعب التي سيكابدها لويس الطيب؛ لكن تذكّر بأني لم أنبس ببنت شفة عن هذا الأمر، تذكّر ذلك».

«الصيادون هم الأشرار»، قذف بكلماته فجأة، يبدو بأنه يعاني من فرط كلام مرضيّ، «انتظر حتى تسوء أخلاقهم أكثر، ويظهر معدنهم حين يراوغون، ويتملصون من أعمالهم، ستجد وولف لارسن لهم بالمرصاد، وهو من سيغرز خوف الله في قلوبهم السود المتعفنة. انظر إلى ذلك الصياد هورنر، جوك هورنر، قد تراه هادئاً لطيفاً رقيق الكلمات كفتاة، حتى لتظنّ أن الزبدة لن تذوب في فمه، أليس هو من قتل قائد الدفّة في قاربه العام الماضي؟ بلى لقد فعل ذلك وقيل أنّه حادث مؤسف، غير أني قابلت مجذّف ذلك القارب في يوكاهاما، وأخبرني ما حصل بالضبط. أترى الصياد سموك هناك، الشيطان الأسود الضئيل، ألم يسجنه الروس ثلاثة أعوام في مناجم الملح بسايبيريا؛ بسبب الصيد الجائر في جزيرة كوبر التي تعود ملكيتها لهم؟! قيّدوا يديه ورجليه بسلاسل مع رفيقه، وبعد أن حصل شجارٍ في ما بينهم وتبادلوا الشتائم، قتل سموك صديقه وأرسله إلى أعلى المنجم بعد أن قطّعه، وكان يضع في سطله ساقاً مرّة، وذراعاً مرّة، ورأساً مرّة اخرى، حتى تخلص من جثّته بالكامل».

«أنت لا تعني ما قلته. أليس كذلك؟»، صرخت مفزوعاً مما سمعت.

«أعني ماذا؟ أنا لم أتفوه بكلمة؛ لأني أصمّ وأبكم، وهذا ما يجب أن تكونه أنت من أجل والدتك. لم أفتح فمي يوماً إلّا لأتفوّه بالخير عنهم وعنه لعنة الله على روحه، ليته يتعفّن في المطهر لعشرة آلاف سنة ثم يهوي بعد ذلك إلى أعمق قرار في الجحيم».

كان جونسون، الرجل الذي دعك صدري حتى أدماه عندما صعدت على متن الشبح، أقلّ الرفاق شُبهة. وفي الواقع، فلم يكن هناك شيء غامض بشأنه، قد يصُدم المرء باستقامته ورجاحته التي خففتها حشمته ووقاره، وقد يحسبها البعض خجلاً وحياء، لكنه لم يكن كذلك إطلاقاً. فهو يملك شجاعة إيمانه بما يعتقد ويقيناً برجولته، وهذا ما جعله يحتج في بداية معرفتنا عندما ناديته «يونسون». وعلى هذا الأساس، أصدر لويس الحكم وتكهناته بشأنه:

«أما هذا الرجل الطيب، جونسون برأسه المربع، أنّه أفضل بحّار يقف في مقدمة المركب هناك. وهو مجذّف قاربي، وللأسف سيصطدم قريباً مع وولف لارسن، هكذا يبدو التوتر على سطح المركب، فأنا وحدي من يعرف، وأكاد أراها تختمر

وترتفع كعاصفة في الأفق، كلمته كأخ له ونصحته، لكنه لا يهتم بالنذر ويعتبرها مجرد إشارات كاذبة.

يتذمر عندما لا يناسبه الأمر، وسيكون هناك دائماً من ينقل تلك الكلمات مباشرة إلى وولف لارسن. أن وولف لارسن قوي، ومن طبيعته، أنّه يكره القوي وسيرى هذه القوة في جونسون الذي لن يخضع له بكلمات: «حاضر سيدي، وشكراً للطفك سيدي»، عندما يشتمه أو يضربه. إن المواجهة قادمة، أوه إنها كذلك. والله وحده يعلم أين سأجد مجدّف قارب جديد بدل جونسون. ماذا يستفيد هذا الأحمق من ردّه عندما ناداه الرجل العجوز بـ «يونسون»؟، بأن يقول له: «اسمي جونسون سيدي»، ثم يتهجّى أحرف اسمه حرفاً حرفاً! ليتك رأيت وجه الرجل العجوز، توقعت أنّه سينقضّ عليه على الفور، لكنه لم يفعل حتى الآن وسيفعل ذلك، وسيحطم قلبه ورأسه المربع ذلك، وإن لم يحدث هذا، فأنا لا أعرف شيئاً عن حياة البحّارة».

أصبح توماس ماكريدج لا يُطاق، فأنا مجبر على مناداته بسيّدي كلما خاطبته، وأظن أن أحد أسباب تعجرفه هذا هو أن وولف لارسن قد أبدى له بعض الرضى، وهذا شيء لا سابقة له، أن يتلطف قبطان مع الطباخ في سفينته، ولكن هذا ما حدث بكل تأكيد. أطل وولف لارسن برأسه لمرتين أو ثلاث مرات في المطبخ ومزح مع ماكريدج، ووقف إلى جانبه في مؤخرة السفينة بعد ظهر اليوم وتحدث معه لخمس عشرة دقيقة كاملة، وحين عاد ماكريدج إلى المطبخ كان وجهه مشرقاً مشحماً، وعاد إلى عمله وهو يترنم بأغانٍ ريفية ساخرة بصوته المزعج وطبقة صوته المصطنعة الناشزة.

«أنا دائماً على وفاق تام مع الرؤساء»، علّق بنبرة سرية، «لأني أعرف الطريقة الصحيحة، أعرفها بكل تأكيد؛ لأجعل نفسي محلّ تقدير. أما مع رئيسي الأخير، فقد فكرت بأنه لا ضيرَ من الذهاب إلى مقصورته، والثرثرة قليلاً، وشرب كأس وديّة معه. وقال لي: «انظر إلى نفسك يا ماكريدج، لقد فاتك المركز الذي كان من الممكن أن تكون فيه»، فقلت له: وما هو؟ «يجب أن تكون سيداً نبيلاً، وليس عليك أبداً أن تعمل لكسب قوتك» هذا ما قاله، وليعاقبني الله يا همپ، إن لم يكن هذا ما قاله بالضبط بينما كنتُ جالساً في مقصورته أدخّن سيجاراً وأشرب من خمره الخاص».

قادتني هذه الثرثرة الحثيثة إلى اضطراب وقد شتّتتني، لم أسمع صوتاً كرهته هكذا من قبل، كلماته زيتية الملمس، وابتسامته الدهنية الزلقة، وغروره الفظيع؛ تحزّ أعصابي فأرتعشُ قرفاً. كان وبكل تأكيد أكثر شخص مثير للاشمئزاز التقيت به على الإطلاق. القذارة في طبخه لا توصف، ولأنه يطبخ كلّ ما يؤكل على السفينة، اضطررت إلى انتقاء ما آكله بحذر شديد، إذ اخترت الأقل قذارة من بين ما يصنع.

آلمتني يديّ كثيراً، كانتا غير معتادتين على العمل، تغيّر لون أظافري وباتت سوداً وكان الجلد محبَّبا بفعل الأوساخ التي لم تتمكن فرشاة التنظيف من إزالتها، ثم جاءت القروح بانبثاقٍ مؤلم لا ينتهي، وحرقت ساعدي حرقاً كبيراً؛ لأني فقدت توازني بسبب ارتجاج السفينة فأمسكت بموقد المطبخ، ولم تكن ركبتي أفضل، فالتورم لم

يخفَ، وكانت الرضفة لا تزال على حالها، فلم يساعدني عرجي من الصباح حتى الليل في شفائها، إن ما أحتاجه هو الراحة لأُشفى.

راحة! لم أُدرك من قبل معنى هذه الكلمة، كنت أستريح طوال حياتي دون أن أعلم ذلك. أما الآن، لو تمكّنت من الجلوس لنصف ساعة دون أن أفعل شيئاً، ولا حتى لأفكر، فسيكون أكثر شيء ممتع في العالم. لكنّه الإلهام، من ناحية أخرى. سأكون قادراً على تقدير حياة العاملين في الحياة الأخرى. لم أتصوّر البتّة أن يكون العمل شيئاً فظيعاً كهذا، فأنا أعمل من الساعة الخامسة والنصف صباحاً وحتى الساعة العاشرة ليلاً، عبداً للجميع ولا لحظة واحدة لنفسي إلا الوقت الذي أختلسه في وقت مناوبة الحراسة الثانية.

دعني أصمت للحظة وأنظر إلى البحر الذي يلمع تحت الشمس، أو أحملق في بحّار يرتقي إلى قارِيَّة([14])الشراع الثاني أو يعبر قوس السفينة وها أنا أسمع الصوت الكريه ذاته ينادي «ها أنت هنا يا همپ، لا تتلكّع، فقد راهنتُ عليك».

هناك علامات مزاج سيّئ متفش في مضاجع الصيادين، ويدور القيل والقال حول قتال دار بين سموك وهندرسون. يبدو أن هندرسون هو أفضل الصيادين، وهو رفيق بطيء ثقيل الحركة، لا يُثار بسهولة، ولكن لا بد أنّه استثير، لأن سموك كانت لديه عين مصابة وكدمات، وبدا شريراً بشكل خاص حين دلف إلى المقصورة لتناول العشاء.

حدث شيء رهيب قبل العشاء، يدل على قسوة هؤلاء الرجال ووحشيتهم. كان من بين طاقم السفينة شاب فلّاح يدعى هاريسون، وهو ريفيّ دميم المنظر تسيطر عليه روح المغامرة، يبدو أن هذه أول رحلة له على متن سفينة، كان هبوب الرياح الخفيفة يؤثر على السفينة فتبطئ سيرها، وحين يُلّف أحد الأشرعة على الآخر يُرسل أحد البحارة إلى أعلى القارِيَّة الأمامية ليفكّ التشابك. وبطريقة ما، حدث أن التف طرف الشراع عبر الفتحة المؤدية إلى القارِيَّة. وكما فهمت، فهناك طريقتان لإصلاح ما حدث، الأولى: إنزال الشراع الأمامي، وفكّ القماش المتشابك، وهذه عملية سهلة لا تنطوي على خطر، والثانية: أن يتسلّق البحار لنهاية القارِيَّة، ويفك الطيات في مكان مرتفع كهذا، وفي هذا خطر جسيم.

طلب جوهانسون من هاريسون أن يرتقي حبال الأشرعة، وكان خوف الصبي واضحاً للجميع، وله الحق في ذلك، فقد تكون القارية على ارتفاع ثمانين قدماً فوق سطح السفينة، كيف له أن يثق بنفسه في ارتقاء تلك الحبال الرفيعة؟ لو أن النسيم كان ثابتاً لما كان الأمر بهذا السوء، لكن الشبح كانت تتمايل في البحر الواسع، ومع كلّ لفّة يتمايل قماش الأشرعة ويتلوّى وتتأرجح حبال الرايات وتهتزّ، وبحركتها تلك ما يكفي لأن تنوش أي رجل يعترضها كأنه ذبابة تقع عليها ضربة سوط.

سمع هاريسون الأمر وفهم ما طُلِب منه، لكنه تردّد. ربما كانت هذه هي المرة الأولى التي يكون فيها في مكان مرتفع كهذا في حياته، أما جوهانسون الذي اشتعلت فيه عدوى وولف لارسن، فقد انفجر بسيل من الإساءة والشتائم.

وعندما سمع ذلك وولف لارسن، قال بفظاظة: «هذا يكفي يا جوهانسون، أنا من يتولّى مهمة الشتائم واللعنات على متن هذه السفينة، وإن احتجتُ إلى مساعدتك فسأطلبها منك».

«حاضر سيدي»، قال جوهانسون بخضوع.

وفي هذه الأثناء، بدأ هاريسون يرتقي الحبال، كنت أنظر إلى الأعلى من باب المطبخ، وأستطيع أن ألاحظ خوفه وارتجافه وكأنّه مصابٌ بحمى، تابع الصعود ببطء وحذر شديد، بوصة واحدة لكل خطوة، فبدا لي مثل عنكبوت ضخم يحبو على خيطان شبكته.

كان صعوده مثل تسلّق جبل عمودي الانحدار، فالحبال تمرّ عبر قطع مختلفة من القارِيّة والصَّاري وتوفّر له مماسك منفصلة ليديه ورجليه، لكن المشكلة كانت الريح، فلم تكن قوية كفاية ولا ثابتة كفاية لتبقي الشراع مفرود، وحين وصل هاريسون إلى منتصف تسلقه تحركت الشبح طولياً جهة الريح، ثم ارتدّت بين قمّتي موجتين، فتوقف هاريسون عن الحركة وشدّ قبضتيه حيث كان. ها هو على ارتفاع ثمانين قدماً. يمكنني رؤية التوتر المؤلم في كلّ عضلة من جسمه وهو يمسك بتلابيب حياته.

أُفرِغ الشراع فتأرجحت القارِيَّة وسط السفينة، وارتخت حبال الأشرعة، وعلى الرغم من أن ذلك حدث بسرعة فائقة، إلا إني رأيتها تئنّ تحت ثقل جسمه، ثم تأرجح السداد إلى الجانب فجأة وبسرعة، ثم دوى الشراع الكبير كأنه مدفع، ومالت ثنيات الأشرعة بصفوفها الثلاثة على القماش بحدة كأنها وابل من الرصاص. كان هاريسون لايزال متشبثاً بمكانه، لكنه قام بحركة طائشة متسرعة وقفز في الهواء، لكن قفزته توقّفت بفعل الحبال التي اشتدّت وكسرت ممسك هاريسون وانفلتت يده من قبضتها وقاومت اليد الأخرى ثقله للحظة حتى انفلتت هي الأخرى، فأخذ جسمه يرتفع وينزلق مع طيات الشراع لكنه تمكن من أن ينقذ نفسه وأمسك برجليه، بات معلقاً من قدميه ورأسه للأسفل، وبجهد سريع أعاد يديه إلى الحبال وأمسكها من جديد، وبذلك فقد بات يلزمه وقت طويل ليعود إلى موضعه السابق، وقد علق هذا الكائن البائس.

«أراهن بأن لا شهية له لتناول العشاء»، سمعت وولف لارسن يقول ذلك، جاء صوته من زاوية المطبخ «ابتعد من تحته، هيه جوهانسون، انتبه! إنها قادمة».

وفي الحقيقة، فقد كان هاريسون مريضاً جداً، كأي شخص يعاني من دوار البحر، ولفترة طويلة كان يمسك بموضعه غير المستقر، واستمر جوهانسون مع ذلك، يحثّه بعنف على إكمال مهمته.

«إنه لأمرٌ مخز»، سمعت جونسون يهدر بلغة إنجليزية بطيئة وصحيحة، كان يقف قرب حبال الأشرعة والصواري الرأسية على مسافة بضعة أقدام مني، «الولد راغب في العمل، وسيبلي أحسن لو أعطي فرصة، لكن هذه..». وتوقف لبرهة لينطق حكمه النهائي بكلمة «جريمة قتل».

«هشش، هلا فعلت!»، همس له لويس، «حباً بوالدتك، أغلق فمك».

لكن جونسون تابع تذمره، فتكلّم الصياد ستانديش مع وولف لارسن: «اسمعني! هذا مجدّف قاربي ولا أريد أن أفقده».

«لا بأس يا ستانديش، صحيح هو مجدّف قاربك عندما يكون فيه؛ لكنه بحّاري عندما يكون على متن سفينتي، ولي كامل الصلاحية بأن أفعل به ما أشاء».

«لكن هذا ليس سبباً لـ ..»، بدأ ستانديش في سيل من الكلام.

«هذا يكفي، دع الأمور تجري كما هي»، نصحه لارسن، «أخبرتك بوضوح ولينتهِ الموضوع عند هذا الحد، هذا الرجل هو أحد بحّارتي ولي أن أصنع من لحمه حساءً وأتناوله، إذا ما رغبتُ في ذلك».

كان هناك بصيص غضب في عيني الصياد، لكنه استدار ودخل الدرج السفلي للمُدَفّى ولم ينزل وإنما بقي رافعاً رأسه يتطلع للأعلى، وهذا حال جميع الرجال على سطح السفينة الآن، يتطلعون إلى الأعلى ويشاهدون حياة إنسان في قبضة الموت. كانت قسوة هؤلاء الرجال، الذين منحتهم المنظمة الصناعية السيطرة على حياة الرجال الآخرين، مروعة. أنا الذي عشت خارج دوامة العالم ما كنت لأتصور أبداً أن يجري عمله بهذه الطريقة. لطالما بدت الحياة شيئاً مقدساً غريباً، لكنها هنا لا تُعد شيئاً، ما هي إلا رمزاً في حساب التجارة. ومع ذلك، يجب أن أذكر أن البحارة أنفسهم كانوا متعاطفين، مثل حالة جونسون لكن الأسياد (الصيادون والقبطان) كانوا غير مبالين البتة. حتى احتجاج ستانديش نشأ عن حقيقة كونه لا يرغب في أن يخسر مجدّف القارب، لو كان هناك مجدّف قارب آخر من قوارب الصيد، لما شكل الأمر له إلا مصدر تسلية كالبقية.

ولنعد إلى هاريسون، احتاج جوهانسون إلى عشر دقائق كاملة من شتم وإهانة لهذا الصعلوك المسكين حتى تحرك، ووصل في فترة وجيزة إلى نهاية القارِيَّة، وفرج ساقيه على العارضة فأصبحت لديه فرصة أكبر بالتشبّث ثم فكّ ما تشابكَ من طيات الشراع، وأصبح حراً في العودة هبوطاً بطيئاً، على طول حبال الرايات إلى الصَّاري، لكنه فقد أعصابه. غير آمن كما كان موقفه الحالي، يكره أن يتخلى عن مكانه هذا إلى مكان غير آمن على حبال الرايات.

نظر إلى الارتفاع الشاهق الذي يتعين عليه اجتيازه نزولاً إلى سطح السفينة، فاتّسعت عيناه وبدأ يرتجف من الخوف بعنف، لم أرَ في حياتي تجسداً للخوف على وجه إنسان كالذي أراه الآن. أمره جوهانسون أن يهبط لكن عبثاً، كان الفتى عرضة لأن يقع من القارِيَّة في أية لحظة، لكن الخوف شلّ حركته، وفي هذه الأثناء، كان لارسن يذرع السطح ويتحدث مع سموك دون أي اهتمام بما يجري، بالرغم من أنّه صاح بحدة مرّة واحدة على الرجل الذي يتولى دفّة القيادة:

«لقد ابتعدت عن مسارك يا رجل، كن حذراً، إلا إذا كنت تبحث عن المتاعب».

«حاضر سيدي»، أجاب قائد الدفّة وأدار العجلة درجتين للأسفل.

وكان مذنباً في إزاحة دفة الشبح عدّة نقاط عن مسارها حتى يتسنى للريح الصغيرة أن تملأ الشراع الأمامي وتحافظ عليه بثبات، سعى جاهداً لمساعدة هاريسون المسكين وغامر بغضب وولف لارسن.

مرّ الوقت وكان الترقب مروعاً بالنسبة لي، بينما اعتبره توماس ماكريدج مدعاة للسخرية، كان يمدّ رأسه باستمرار من باب المطبخ ويُطلق بعض التعليقات السمجة. ما أشدّ كرهي له! وكيف تنامت كراهيتي له في هذا الوقت العصيب حتى أصبحت كتلاً عملاقة. وهذه هي المرة الأولى التي أجد فيها نفسي ميَّالا للقتل، استشطت غضباً وأصبحت أرى الدنيا «حمراء» كما قد ينمقها كُتّابنا التصويريين.

ربما لا تزال الحياة مقدسة بصورة عامة، لكنها في حالة توماس ماكريدج أصبحت مدنسة بكل تأكيد. شعرت بالخوف عندما أدركت بأنني كنت أراها حمراء، وسرعان ما راودتني فكرة: هل دنّستني وحشية بيئتي المحيطة بي؟ أنا! الذي رفضت عقوبة الإعدام حتى في أكثر الجرائم الصارخة والمروعة.

مرت نصف ساعة كاملة، ثم رأيت جونسون ولويس يتشاجران، وانتهى الأمر بأن نحّى جونسون ذراع لويس التي تعيقه وبدأ في التقدم، عبَر سطح السفينة، وقفز نحو حبال الأشرعة الأمامية، وبدأ في الصعود، لكن عين وولف لارسن لمحته فصاح:

«هيه، أنت، ماذا تفعل؟».

توقف جونسون عن صعوده ونظر إلى قبطانه بعينه، وقال:

«لأنزل الولد من هناك».

«ستنزل من على هذا الحبل اللعين وعليك اللعنة إن لم تفعل. هل تفهم؟ انزل!».

تردد جونسون ولكن سنوات طويلة من طاعة أسياد السفن تغلبت عليه، فنزل بهدوء إلى سطح السفينة ومضى قُدماً.

وفي الساعة الخامسة والنصف، هبطتُ لأُعدّ المائدة، لكنني عرفت ما الذي أقوم به بصعوبة؛ لأن ذهني كله مع هذا المخلوق البائس الذي يُصارع الموت، بوجهه الشاحب، وهو يرتجف كحشرة.

وفي الساعة السادسة، عندما كنت أقدّم العشاء، وخرجت إلى سطح السفينة لجلب المزيد من الطعام من المطبخ، رأيتُ هاريسون في نفس موضعه. كان الحديث على طاولات الطعام عن أشياء أخرى ولا يبدو على أحد منهم أنّه يكترث لحياته المعرضة للخطر، وحين ذهبت إلى المطبخ مرّة أخرى بعد فترة قصيرة سرّني رؤية هاريسون يترنح بوهن من الحبل إلى كوّة السلوقية. يبدو أنّه استجمع شجاعته للنزول أخيراً، وقبل أن نطوي صفحة هذه الحادثة، يجب أن أذكر المحادثة التي دارت بيني وبين وولف لارسن في المقصورة عندما كنت أغسل الأطباق.

«بدوت على وشك أن تُصاب بغثيان هذا المساء. ما الأمر؟».

وأدركت أنّه يعلم سبب شعوري بالغثيان تماماً كهاريسون، وبأنه يحاول جرّي لفتح هذا الموضوع، فأجبت:

«بسبب المعاملة الوحشية التي تعرّض لها هذا الصبي».

ضحك ضحكة خفيفة وقال: «إنه كدوار البحر. بعضهم يعاني منه والبعض الآخر لا».

قلت معترضاً: «ليس الأمر كذلك».

«بلى، إنّه كذلك»، ثم استطرد: «إن الأرض مليئة بالوحشية بقدر ما يعجّ البحر بالحركة، بعض الرجال يتأثّرون بالأولى كما قد يتأثر الآخرون بالثانية، هذا هو السبب الوحيد».

فقلت معترضاً مرّة أخرى: «لكنك أنت الذي تسخر من الحياة البشرية، ألا تضع أي قيمة لها على الإطلاق؟».

«قيمة؟ أيّة قيمة؟»، ونظر إلي، وعلى الرغم من ثبات نظرته إلا أن هناك ابتسامة ساخرة فيها، «أي نوع من القيمة؟ وكيف يمكنك قياسها؟ ومن يقدرها؟».

أجبت: «أنا».

«إذن ما قيمتها بالنسبة لك؟ أعني ماذا تعني حياة شخص آخر بالنسبة لك؟ ما قيمتها؟».

قيمة الحياة؟ كيف يمكنني وضع قيمة ملموسة عليها؟ بطريقة ما، أنا الذي كنت دائماً سريع البديهية أجيد الإفصاح عن رأيي، خانني التعبير مع وولف لارسن. وقد أعزو ذلك إلى شخصية هذا الرجل لكن الجزء الأكبر كان منظره المغاير لحقيقته تماماً، بخلاف المادّيين الآخرين الذين قابلتهم من قبل ومن كان لي معهم شيء مشترك، لم أجد شيئاً مشتركاً بيني وبينه، ربما تكون سذاجة عنصرية عقله هي التي أربكتني، فهو ينفذ مباشرة إلى جوهر المسألة، ويجرد كلّ سؤال وتفاصيل غير ضرورية من أهميتها بصورة نهائية؛ لذلك كان الحديث معه كأني أسبح في مياه عميقة دون قرار.

قيمة الحياة؟ كيف يمكنني الإجابة على هذا السؤال في الوقت الحالي؟ قدسية الحياة التي قبلتها باعتبارها من المسلمات، وكونها ذات قيمة جوهرية كانت حقيقة بديهية لم أشكّك بها مطلقاً، ولكن عندما تحدّى البديهية عجزت عن الكلام.

قال: «تحدثنا عن هذا الأمر يوم أمس، أؤمن بأن الحياة عبارة عن هياج، شيء خمري يلتهم الحياة التي قد يعيشها، وأن هذا العيش ما هو إلا جشع قذر. ولماذا أقول هذا؟ حسناً، لو كان هناك أي شيء في العرض والطلب، فإن الحياة ستكون أرخص شيء في العالم، لا يوجد سوى الكثير من الماء، والكثير من الأرض، والكثير من الهواء كذلك، لكن الحياة التي تطالب بالولادة لا حدود لها، الطبيعة مسرفة، انظر إلى الأسماك وملايين البيوض التي تضعها، وانظر إلى نفسك وإليّ، في صلب كلّ منا احتمالية إنتاج ملايين البشر، فلو استفدنا من إمكانياتنا واستفدنا من كلّ جزء وآخر جزء منها، ووجدنا الوقت الكافي لذلك؛ لأمكننا أن نغدو أبوين لأمم وشعوب

تملأ القارات. الحياة؟ إيه! لا قيمة لها، وهي أرخص من كل رخيص، تذهب متوسلة في كلّ مكان، فتجود عليها الطبيعة بسخاء، وحيثما يكون هناك متسع لحياة واحدة، تزرع ألف حياة، وهذه الحياة تلتهم الحياة الأخرى حتى تبقى أشد أشكالها قوة وأكثرها شراهة».

فقلت: «صحيح أنك قرأت كتب داروين، لكنك قرأتها على نحو خاطئ، حين خلصت إلى أن الكفاح من أجل الوجود يفرض عليك تدمير الحياة بوحشية».

هز كتفيه وقال: «أتعرف أنك تعني بقولك قيمة حياة الإنسان فقط، ولا ضير برأيك من تدمير حياة المواشي والطيور والأسماك بقدر ما تستطيع أنت وأنا وأي إنسان آخر، مع أن حياة الإنسان لا تختلف عن حياة هذه المخلوقات، لكنك تشعر بأنها تختلف وتفكر في إيجاد سبب لهذا الاختلاف. لماذا يجب أن أكون حريصاً على هذه الحياة الرخيصة والتي لا قيمة لها؟ هناك بحارة أكثر مما تحتاج إليه السفن الموجودة على البحر، وهناك عمّال أكثر مما تحتاجه المصانع أو الآلات. لماذا هذا؟ وأنت الذي تعيش في البر تعرف أنكم تؤوون الفقير من شعبكم في الأحياء الفقيرة من المدن وتفلتون المجاعة والأوبئة عليهم، وتعرف أيضاً أنّه لا يزال هناك المزيد من الفقراء الذين يهلكون بسبب قلة الخبز وقلة اللحم، (الذي دمّرته الحياة)، ولا تعرفون ماذا تفعلون بهم. هل سبق لك أن رأيت عمّال الأرصفة في لندن وهم يقاتلون مثل الحيوانات البرّية للحصول على فرصة للعمل؟».

ثم اتَّجه نحو السلالم المؤدّية إلى المهاجع، لكنه استدار؛ ليقول كلمته الأخيرة: «هل تعرف أن القيمة الوحيدة للحياة هي ما تضعه الحياة على نفسها من قيمة؟ وهو بالطبع أمرٌ مبالغ فيه، لأنها تتحيز لصالحها بطبيعة الحال. خذ هذا الرجل الذي كان معلقاً في الأعلى على سبيل المثال، لقد تمسّك بحياته كما لو أنها شيء ثمين، كنز يتجاوز الماس أو الياقوت قيمة، فهل هو كذلك بالنسبة لك؟ أو لي؟ على الإطلاق. أما لنفسه؟ نعم. لكنني أرفض تقييمه، وهو مع الأسف يبالغ في ذلك. هناك الكثير من الحياة التي تطالب بأن تُولد، فلو كان قد سقط وتناثر دماغه على سطح السفينة مثل العسل حين يسقط من قرصه، لما كانت هناك أية خسارة للعالم، فهو لا يساوي شيئاً للعالم، فالعرض من أمثاله فائض، وكان يساوي شيئاً لنفسه فقط، ولإظهار مدى زيف هذه القيمة فإنه لا يعلم أنّه فقَد نفسه عندما يموت، فهو وحده من صنّف نفسه باعتبارها أثمن من الماس والياقوت، وبسقوطه على سطح السفينة يذهب الماس والياقوت، وينتشر على سطح السفينة ليغسله دلو من مياه البحر، وحتى أنّه لا يعلم أن الجواهر قد ولّت، فهو لا يخسر شيئاً، لأنه بفقدانه فقَد معرفته بالخسارة. ألا ترى؟ وماذا تقول حيال ذلك؟».

«أنت ثابتٌ على مبدأ على الأقل»، كان هذا كلّ ما يمكنني قوله، وذهبت لغسل الصحون.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل السابع

وأخيراً، وبعد ثلاثة أيام من هبوب رياح متغيرة، دخلنا مجال الرياح التجارية الشمالية الشرقية. صعدت إلى سطح السفينة بعد ليلة هانئة ارتحت فيها بالرغم من ألم ركبتي، ووجدت الشبح تسبح في زبد من الجانبين، وجميع أشرعتها مفرودة باستثناء شراع الصَّاري الأمامي. كان النسيم عليلاً، آه ما أروع الرياح التجارية! أبحرنا طيلة النهار والليل كذلك واليوم الذي تلاه، يوماً بعد يوم والريح ثابتة وقوية، أبحرت الشبح بنفسها دون الحاجة لسحب وشد الأشرعة وضبط عدّتها، ولا تغيير في الأشرعة العُليا، ولا عمل يقوم به البحارة الا توجيه دفّة القيادة. ترتخي الأشرعة عند مغيب الشمس ليلاً وفي صباح اليوم التالي، بعد أن تستسلم لندى الفجر وتسترسل، تُشد من جديد وهذا كلّ ما في الأمر.

كانت السرعة التي نقطعها متغيرة من وقت لآخر: عشر عُقد، إحدى عشرة عُقدة، اثنتا عشر عُقدة، وتدفعنا الرياح الشمالية شرقية بجرأة لمائتين وخمسين ميلاً ما بين الفجر والفجر الذي يليه. وقد أحزنني هذا وأفرحني في آن واحد، لأننا نبتعد عن سان فرانسيسكو، لكننا نتوجه نحو المناطق الاستوائية الجميلة، وأخذت درجات الحرارة بالارتفاع، وبحلول مناوبة الحراسة الثانية، صعد البحّارة إلى سطح السفينة عراة الصدور وبدؤوا بدلق دلاء الماء على رؤوس بعضهم بعضاً. وأصبحنا نرى السمك الطائر نهاراً، ويبحث الحراس ليلاً عمّا سقط منها على سطح السفينة، وفي الصباح، يُرشى توماس ماكريدج على نحو وافٍ فنشم رائحة السمك المقلي في المطبخ، في حين يُقدم لحم الدلافين من مقدمة السفينة حتى مؤخرتها حين يصطاد جونسون هذه المخلوقات الجميلة من نهاية الدَّقل المائل([15]).

يبدو أن جونسون يقضي كلّ وقت فراغه هناك، أو في الأعلى عند منصة الصَّاري، يراقب الشبح تشقّ الماء تحت ضغط الشراع. هناك عاطفة وعشق في عينيه، وهو يحدق بنشوة وافتتان إلى الأشرعة المنتفخة وانسيابية حركة السفينة فوق الجبال السائلة التي تتحرك معنا في موكب فخم.

مرّت الليالي والأيام جميعها بدهشة ومتعة جارفة، ورغم ضيق وقت فراغي بسبب عملي المُنهِك، إلا أني كنت أسرق لحظات أتأمل فيها هذا الجمال اللامتناهي الذي لم أحلم قط بأن العالم ممكن أن يحتويه. فوقي السماء زرقاء صافية كزرقة البحر نفسه وتحت المقدمة يبدو لونه كلمعان الحرير اللازوردي، وفي الأفق، تتناثر غيوم شاحبة، لا تتغير أبداً، ولا تتحرك أبداً، كمشهد فضي للسماء الفيروزية المثالية.

لا أنسى في إحدى الليالي، عندما كان ينبغي أن أكون نائماً، أنني اضطجعت على مقدمة السفينة، ونظرت إلى أسفل حيث التموج الطيفي من الزبد ينزاح من مقدمة السفينة، بدا صوته وكأنه خرير مياه الغدير فوق أحجار تكسوها الطحالب في وادٍ صغيرٍ هادئ.

جذبتني أنغامه بعيداً عن نفسي، فلم أعد لحظتها همپ صبي الطباخ، ولا فان وايدن الشاب الذي أفنى خمسة وثلاثين عاماً بين دفات الكتب، إلى أن سمعت صوتاً أثارني أعرفه حق المعرفة خلفي، إنه صوت وولف لارسن، صوتٌ قوي لرجلٍ واثقٍ بنفسهِ، ورخيمٍ تقديراً للكلمات التي كان يقتبس منها:

يا لروعة الليل المداري المتلألئ

حين يترك أثر السفينة حاشية من نور

ويُمسك بالسماء الحارقة ويروضها

وتهدر سفينتي عبر الأراضي المرصعة بالنجوم

إلى حيث تلتهب فَلْكَات الحوت المذعور

وندّبت الشمسُ ألواح معشوقتي الصغيرة

وشدّ حبالها الندى

نندفع بدويّ على الطريق العتيق، طريقنا الخاص ومخرجنا

ننحرف جنوباً على الطريق الطويل، طريقٌ طالما كان جديداً.

«إيه يا همپ، أيروق لك سماع هذا؟»، سألني بعد توقف لزم لِقُفَلَة الشِّعر.

نظرتُ إلى وجهه، كان يشّع بضوءٍ كالبحر نفسه، وعيناه تومضان في تألق النجوم.

أجبته ببرود: «إنه لأمر مثير للدهشة، وإن كان لي أن أقول، يجب عليك أن تبدي حماسة».

صاح: «لماذا يا رجل؟! إنّه العيش. إنها الحياة».

كررت كلماته له: «والتي هي شيء رخيص وبلا قيمة».

ضحك لارسن وكانت أول مرّة استشعر فيها المرح الصادق في صوته.

«آه، لا أستطيع أن أجعلك تفهم، لا أستطيع أن أنفذها إلى عقلك، ماهية هذه الحياة. الحياة بلا قيمة بكل تأكيد إلا في نظر نفسها. وأستطيع أن أخبرك أن حياتي ذات قيمة كبيرة الآن ـ لنفسي طبعاً ـ وقيمتها تتجاوز السعر الذي ستعترف بأنه مبالغ فيه بإفراط، لكن لا يمكنني فعل شيء حيال ذلك، لأن الحياة هي التي تضع ذلك التقييم».

بدا وكأنه ينتظر الكلمات التي تعبّر عن الفكرة التي تراوده لكنه تابع في النهاية:

«أتعلم. يملؤني إحساس غريب، أشعر بأن كلّ الأزمان يتردد صداها في نفسي، وكأن قوى الوجود كلها ملكي. أنا أعرف الحقيقة، الخير من الشر والخطأ من الصواب، أكاد أؤمن بالله، لكن..»، ثم تغير صوته واختفى النور الذي كان يضيء وجهه، واستطرد: «ما هذا الوضع الذي أجد نفسي فيه؟ من فرح العيش وابتهاج الحياة؟ هذا الإلهام، وقد أكون مصيباً في نعتها بهذه المسميات. هذا ما يحدث عندما لا يكون هناك أي خطأ في عملية الهضم، وعندما تكون معدة الرجل في حالة جيدة

وشهيته ممتازة، وكل شيء على ما يرام، إنها رشوة العيش، وشمبانيا الدم، وعناء الهياج ـ الذي يجعل بعض الرجال يفكرون بالأفكار المقدسة، وآخرين يرون الله أو يخلقونه عندما لا يستطيعون رؤيته. هذا هو كلّ شيء، وسكر الحياة، وإثارة الخميرة وزحفها، وهذيان الحياة المجنونة مع الوعي بأنها على قيد الحياة. باه! سأدفع ثمنها يوم غد عندما يدفع السكير. أعلم أنني سأموت، في البحر على الأرجح، وسينحسر هذا البحر في نفسي، ولا يبقى منها إلا فسادها ليتغذى عليها الغير، وسأكون جيفة، تغادرني كلّ قوة وحركة في عضلاتي حتى تصبح قوة وحركة في زعانف وحراشف وأحشاء الأسماك. باه! باه! مرّة أخرى. الشمبانيا فقدت فقاعاتها وانتهى بريقها وباتت مشروباً لا طعم له».

وتركني كما جاء فجأة، بخفة ووزن النمر. ظلت الشبح تحرث طريقها في البحر وهدير المقدمة يشبه الشخير، كنت أصغي إليه، فتحولت غبطتي السامية إلى يأس غادرني ببطء بعد أن قاطعني وولف لارسن فجأة. وعند ذلك، رفع أحد بحّارة المياه العميقة من وسط السفينة صوته الجهور، وبدأ يغني «أغنية الرياح التجارية».

أنا الرياح التي يعشقها البحّارة

ثابتة وقوية وصادقة

يتبعون طريقي، تهديهم الغيوم إليه

عبر البحر المداري الأزرق الذي لا تُسبر أغواره

* * *

وألحق القارب خلال النهار وعتمة الليل

أتتبّع آثاره ككلب صيد

وأكون أقوى وقتَ الزوال

أما بعد طلوع الفجر فأُيبّس خيش أشرعتها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثامن

أظنّ أحياناً أن وولف لارسن مجنون أو شبه مجنون على أقلّ تقدير؛ بسبب مزاجه الغريب والمتقلب، وأحياناً أخرى أظنّه رجلاً عظيماً، عبقريًّا على وشك أن يولد. وأنا مقتنع تماماً بأنه الأنموذج المثالي للإنسان البدائي الذي وُلِد متأخِّرا بعدّة أجيال أو بعد ألف عام مما ينبغي. وهو مفارقة تاريخية في هذا القرن الذي بلغ ذروته في الحضارة. وهو بالتأكيد من دعاة الفردانية الأكثر وضوحاً. ليس هذا فحسب، بل هو وحيدٌ جداً، فليس بينه وبين الرجال على متن السفينة أيّ انسجام أو توافق، لأن فحولته الجبارة وقوة إدراكه العقلي تصنع جداراً بينه وبينهم. فهم كالأطفالِ بنظره. حتى الصيادين، يعاملهم كالأطفال ويهبط بنفسه إلى مستواهم ويلاعبهم كما يلاعب المرء جراء الكلاب. وفي بعض الأحيان يتفحّصهم بيد جرّاح علم تشريح الأحياء، ويتلمس طريقه في عملياتهم العقلية، ويتفحص أرواحهم وكأنه يودّ معرفة المادة التي كونت هذه الروح.

وقد رأيته عشرات المرات، على المائدة يحقّر هذا الصياد أو ذاك بعينين باردتين لا تخلوان من الاهتمام. يفكّر في إجاباتهم وردود أفعالهم، أو نزاعاتهم التافهة بنوع من الفضول الذي يضحكني أنا المتفرج والذي يفهم الوضع جيداً. أما فيما يخصّ فورات هياجه وغضبه، فأنا على يقين بأنها غير حقيقيّة، وبأنها تجارب من نوع ما لكنها في الأساس عادات وضعية أو موقف رآه مناسباً لاتخاذه تجاه زملائه الرجال، وباستثناء حادثة الرفيق الذي مات أول الرحلة، لم أره غاضباً بحق، ولا أتمنّى أن أراه أبداً في غضب حقيقي يستوجب حضور قوته بأكملها.

وبينما أتناول مسألة تقلبات مزاجه، سأروي ما حصل لتوماس ماكريدج في المقصورة، وأكمل بنفس الوقت الحادث الذي أشرت إليه مرّة أو مرّتين من قبل. في أحد الأيام، وبعد انتهاء وجبة طعام الساعة الثانية عشرة، كنتُ قد فرغت للتوّ من ترتيب المقصورة حين هبط وولف لارسن وتوماس ماكريدج سُلّم الطابق السفلي للسفينة، وعلى الرغم من أن للطباخ غرفة صغيرة تطل على المقصورة الفاخرة إلا أنّه لم يجرؤ على البقاء هناك، ولا أن يلاحظه أحد، كان يمر منها وإليها مرّة أو مرتين في اليوم كشبحٍ خجول.

قال وولف لارسن بلهجة ودية: «إذن أنت تعرف كيف تلعب الـ «ناب»([16]). كان عليّ أن أخمّن بأنّ أي رجل إنجليزي يعرفها، تعلمتها بنفسي في السفن الإنجليزية».

انشرحت أسارير توماس ماكريدج، هذا الثرثار التافه، وغمرته سعادة بالغة؛ لأنه صادق القبطان وتكلم معه. كان من الممكن أن يسبب لي الجهد القليل الذي بذله والتصنع المقرف الذي حاول فيه أن يبدو كرجل وُلِد في مكانٍ محترم؛ الشعور بالغثيان لولا أنّه منظر يبعث على الضحك. تجاهل وجودي تماماً، وخمنت بأنه لم يلمحني أصلاً. لا أتخيل النشوة التي أظهرَتها عيناه الزائغتان بلونهما الشاحب كبِحار الصيف الراكدة.

«أحضر أوراق اللعب يا همپ»، أمرني وولف لارسن بينما جلسا على الطاولة، «وأحضر معك علبة السيجار والويسكي، ستجده في صندوق أمتعتي».

عدت بما طلب في الوقت المناسب؛ لأسمع الطباخ يتحدث بلهجة كوكنية ويلمّح بأنه لا بد وأن يكون هناك سرٌّ في أمره، وبأنه قد يكون سليل عائلة نبيلة وأن ولادته نتيجة خطيئة اقترفها والده، وبأنه قد يكون رجلاً يُرسل إليه المال سراً ليبقى بعيداً عن إنجلترا، وقد صاغها بهذه الكلمات «يُدفع لي بسخاء يا سيدي، يدفعون لي بسخاء كي أُبعد صنارتي وأظل بعيداً عنهم».

جلبت أقداح الويسكي المعتادة لكن وولف لارسن عبس وهز رأسه وأشار لي بيده أن أحضر الكؤوس. وحين ملأ ثلثي الكأسين بالويسكي غير المخفف، علقّ ماكريدج: «نخب الرجل النبيل؟»، وشربا نخب اللعبة الشهيرة «ناب»، وأشعلا السيجار واندمجا بخلط الأوراق ولعبها.

لعبا مقابل المال، وزادا من قيمة الرهان، شربا الويسكي الخالص، وأحضرت لهما المزيد. لا أدري إن كان وولف لارسن يغش، لكنه كان يفوز بانتظام. رأيتُ الطباخ يذهب لإحضار المزيد من المال من غرفة نومه ويمشي مترنحاً لكنه لم يجلب سوى بضعة دولارات في كلّ مرّة، واضح أنّه ثمل ولا يكاد أن يرى الأوراق أمامه أو يجلس بثبات، وقبل أن يذهب مرّة أخرى إلى غرفة نومه لإحضار المال، شبك إصبعه المدهن بصِدار وولف لارسن وأعلن وكرر كلامه «لدي المال، أنا أقول لك بأن لدي المال. فأنا ابن رجل نبيل».

لم يتأثر وولف لارسن بالشراب على الرغم من أنّه كان يشرب معه كأساً بكأس، وكأسه كانت أكثر امتلاءً. لم يتغير فيه شيء ولم تسليه تصرفات صديقه.

وفي النهاية، مع الاحتجاجات الصاخبة للطباخ بأنه يمكن أن يخسر كرجل نبيل، وضع آخر أمواله على الطاولة وخسر. عندها أحنى رأسه على يديه وبكى. نظر وولف لارسن إليه بفضول، وكأنه على وشك تشريحه، ثم غير رأيه، كما لو أنّه استنتج أنّه لم يكن هناك شيء لاكتشافه.

قال لي لارسن بأدب متقن: «همپ. أرجوك أمسك بيد السيد ماكريدج وساعده للذهاب إلى سطح السفينة، إنه ليس على ما يرام». ثم أضاف بصوت منخفض لأسمعه أنا فقط: «وأخبر جونسون بأن يدلق عليه بضعة دلاء من الماء المالح».

تركت السيد ماكريدج برفقة بحَّارين يبتسمان بخبث بعدما علمِا ما يجب فعله مع ماكريدج، الذي كان يهذي بهدوء بأنه ابن سيّد نبيل. وبينما نزلت السلالم لتنظيف الطاولة سمعته يصرخ بعد أول سطل من الماء، كان وولف لارسن يُحصي غنائمه.

«مائة وخمسة وثمانون دولاراً بالتمام والكمال». قال بصوت عالٍ، «تماماً كما توقعت، فقد صعد هذا المتسول إلى السفينة وليس بحوزته أي مال».

«وما كسبته يا سيدي ملكي». قلت له بجرأة.

فرمقني بابتسامة غريبة وقال «همپ، لقد درست بعض قواعد النحو أعتقد أن جملتك خاطئة، كان عليك أن تقول (كان ملكي) وليس (ملكي)».

«إنه سؤال لا يتعلّق بقواعد النحو بل بالأخلاق».

ومرّت دقيقة قبل أن يردّ.

«أتعلم يا همپ»، قال بجدّية بطيئة يشوبها توتّر وحزن لا يمكن تحديده، «هذه هي المرة الأولى التي أسمع فيها كلمة (أخلاقيات) من فم رجل، أنت وأنا الرجال الوحيدون على هذه السفينة ممن يعرفون معناها»، وأطرق برأسه لحظات ثم تابع مرّة أخرى، «في فترة من فترات حياتي، حلمت بأني قد أتحدث مع رجال يستعملون مثل هذه المفردات، وبأني أرتفع بنفسي عن واقع حياتي التي ولدتُ فيها وأخالط رجالاً يتحدثون عن أشياء مثل (الأخلاقيات). وهذه المرة الأولى التي أسمع أحدهم ينطقها، وهذا كله بالمناسبة خاطئ بالنسبة لك، فهي ليست قضية أخلاقية ولا إشكالاً لغوياً، بل مسألة واقع وحقيقة».

«أفهم»، قلت، «بأنك من يملك المال في الواقع».

أشرق وجهه، يبدو أن بُعد نظري وفطنتي أبهجاه، فأضفت: «لكن واقعك هذا ما هو إلا تحاشياً للإجابة عن المسألة الحقيقية، ألا وهي مسألة الحق».

«آه» علّق وهو يلوي فمه، «أرى بأنك لا زلت تؤمن بأشياء من قبيل الحق والباطل؟».

«وأنت لا؟ إطلاقاً؟»، سألته.

«أبداً ولا ذرة. القوة هي الحق. وهذا كلّ ما في الأمر، والضعف هو الباطل. وهو تعبير ضعيف الصياغة للقول بأن من الخير للمرء أن يكون قوياً ومن الشر له أن يكون ضعيفاً. أو الأفضل من ذلك، من الممتع أن يكون المرء قوياً لما يجلبه من مغانم، ومن المؤلم أن يكون ضعيفاً، لما يسببه من مغارم. الآن، امتلاك هذا المال هو شيء ممتع. أنّه لأمر جيد لأحد أن يمتلكه، ولكي أكون قادراً على امتلاكه؛ فأنا أظلم نفسي والحياة التي في داخلي إذا أعطيته لك وتخليت عن امتلاكه».

«لكنك تُسيء إليّ بحرماني منه». اعترضت على كلامه.

«على الإطلاق. لا يمكن للإنسان أن يؤذي إنسانا آخر، يمكنه أن يسيء إلى نفسه فقط. وكما أراها، أخطئ دائماً عندما أفكّر في مصالح الآخرين، ألا ترى؟ كيف يمكن لجزيئتين من خميرة الحياة أن تخطئ أحدهما بحقّ الأخرى بالسعي إلى التهام بعضهما؟ إن تراثهما الفطري هو السعي للالتهام، وتجنّب التهامهما من قبل غيرهما، وعندما تشذّان عن هذه القاعدة فهما تُخطآن».

«إذن أنت لا تؤمن بالإيثار؟».

بدا كأن لهذه الكلمة وقعاً مألوفاً على أذنه، على الرغم من أنّه تفكّر فيها بعناية. «دعني أرى، هذا يعني شيئاً عن التعاون، أليس كذلك؟».

«حسناً، بطريقة ما أصبح هناك نوع من الربط»، أجبت غير متفاجئ هذه المرة بالفجوات التي تخلّلت مفرداته، والتي تنمُّ عن معرفة اكتسبها رجل متعلّم ذاتياً، لم يوجّهه أحد في دراساته، وعن شخص فكّر كثيراً وتحدّث قليلاً، أو لم يتحدث على الإطلاق. «الإيثار هو فعل يؤدّيه الشخص من أجل رفاهية الآخرين، فهو عمل لا أناني، على عكس الفعل الذي يتم القيام به من أجل الذات، وهو ما يعرف بالأنانية».

هزّ رأسه إيجاباً وقال: «آه نعم. أتذكره الآن. مرّ المصطلح عليّ أثناء قراءتي لسبنسر».

صحت متفاجئاً: «سبنسر! هل قرأت له شيئاً؟».

«ليس كثيراً. فهمت قدراً لا بأس به من كتابه (المبادئ الأولية)، لكن كتابه (علم الأحياء) أخرج الريح من أشرعتي، واستعصى عليّ فهمه، وتركني كتابه (علم النفس) في ركود لوقتٍ طويل. بصراحة لم أستطع أن أفهم ما كان يرمي إليه، عزوت السبب إلى عجز في عقليتي منعني من فهمه، لكني قررت حينها أن السبب كان رغبتي في الاستعداد لقراءته؛ لأني لا أقف على أساس ثقافي متين. وحده سبنسر وأنا نعرف عِظم الجهد الذي بذلته لفهمه؛ لكنني فهمت بعض من كتابه (بيانات في الأخلاقيات)، وفيه صادفت (الإيثار)، وأتذكّر الآن كيف استعملها في سياق كلامه».

تساءلت عما يمكن أن يحصل عليه هذا الرجل من هذا العمل، فأنا أتذكر سبنسر بما فيه الكفاية؛ لأعرف أن الإيثار كان ضرورياً لمَثَلِهِ الأعلى في السلوك. ومن الواضح أن وولف لارسن قد عدّل تعاليم الفيلسوف العظيم رافضاً بعضها واختار بعضاً منها وفقاً لاحتياجاته ورغباته.

«وماذا صادفك أيضاً أثناء قراءتك لسبنسر؟»، سألته.

جذب لارسن حاجبيه قليلاً بجهد ليستجمع أفكاره ويصوغها بعبارات لم يسبق له التلفظ بها من قبل. شعرت بأن روحه مبتهجة، وها أنا أحاول النفاذ إلى روح رجل يحاول سبر أغوار أرواح غيره. كنت أرِد أرضاً بكراً، أرضاً غريبة تنبسط أمامي.

قال: «لأختصرها لك بعبارات قليلة قدر الإمكان. يعرض سبنسر الأمر كالتالي: أولاً، يجب على المرء أن يتصرف لمصلحته الخاصة ـ والقيام بذلك هو أخلاقيّ وجيد ـ وثانياً، يجب عليه أن يعمل لصالح أطفاله. وثالثاً، يجب عليه التصرف لصالح عرقه».

فقاطعته: «وأعلى وأرقى وأقوى التصرفات، هو ذلك الفعل الذي يستفيد منه الرجل وأولاده وبنو جنسه في الوقت نفسه».

«لا أتّفق معك في هذا، لا أرى أيّة ضرورة ولا منطق في ذلك، بالنسبة لي، حذفت الابناء والعِرق ولن أضحّي بأي شيء في سبيلهما؛ ففيهما إجهاد للذهن والمشاعر، وأنت تدرك ذلك بنفسك، من وجهة نظر رجل لا يؤمن بخلود الإنسان، وما أن وضعت الخلود نصب عيني، حتّى أصبح الإيثار في هذه الحالة مجرد دفع عرض عمل. وقد أرفع روحي إلى مستويات أعلى ولا شيءَ أبديًّا أمامي سوى الموت

المفترض لمدة وجيزة لهذه الخميرة المتحركة الصارخة التي تسمى حياة. فما الذي يدعوني للقيام بأي تصرف من باب التضحية؟ أية تضحية تتطلّب أن أضيّع خطوة أو حركة واحدة من أجلها ما هي إلا غباء، وليست غباءً وجنوناً فحسب، بل هي خطيئة بحق نفسي وفِعلٌ شرير. لا ينبغي عليّ أن أفقد أية خطوة أو حركة إذا أردت أن أحصل على أقصى استفادة من خميرة حياتي، كما لن يصبح من الأسهل أو الأصعب التغلب على عدم الحركة الأبدية التي تأتي إليّ بفعل التضحيات أو عدم الأنانية».

«إذن، فأنت شخص فردانيّ، وماديّ، ومنطقيّ ومُتْعَويّ»([17]).

«كلمات كبيرة، أخبرني ماذا تعني بـ (متعوي)؟».

أومأ لي موافقاً عندما عرّفتها له فتابعت: «وأنت أيضاً رجل لا يمكن الوثوق به في أقل شيء يمكن أن تبرز لك فيه مصلحة».

«الآن بدأت تفهم الحقيقة».

«أنت رجل تماماً دون ما يسميه العالم مبادئ أخلاقية».

«معك حق».

«رجل يجب أن يخاف منه المرء دائماً ويخشاه..».

«هذه هي الطريقة الصحيحة لصياغتها».

«كما يخاف المرء من الأفعى أو النمر أو القرش».

«والآن، بِتّ تعرفني. وتعرفني كما يعرفني الآخرون ولهذا هم يلقبونني بالذئب».

«بل أنت وحش» قلت له بتهوّر: «أنت كاليبان([18]) الذي يتأمّل سيتيبوس([19])، الذي يتصرف كما تتصرف أنت في أوقات فراغك جراء نزواتك وهواك».

غطت سحابة مظلمة جبينه، وكان واضحاً أنّه لم يفهم تلميحي، واستنتجت بأنه لم يقرأ القصيدة. فاعترف قائلاً:

«أنا أقرأ الآن ديوان براوننغ، ولم أقطع شوطاً كبيراً في قراءته؛ لأن قصائده صعبه وفقدت قدرتي على التحمل وتهت».

كي لا أكون مملاً، سأقول أنني أحضرت الكتاب من غرفته وقرأت له الجزء المذكور فيه «كاليبان» بصوتٍ عالٍ. فسرّه ذلك، كان أسلوباً بدائياً في التفكير والنظر إلى الأشياء التي فهمها تماماً، حتى أنّه توقف مراراً وتكراراً لإبداء تعليق أو نقد، وعندما انتهيت طلب مني قراءته للمرة الثانية والثالثة، ثم انغمسنا بنقاش معاً في الفلسفة والعلوم والتطور والدين، وقد تحاشى لارسن عدم دقة التعليم الذاتي الذي حصل عليه، بحتمية ووجاهة العقل البدائي. كانت بساطة تفكيره هي قوته، وماديته البسيطة كانت أكثر قبولاً من مادية تشارلي فورسيث المعقدة، ولستُ ـ كما صاغها

فورسيث ـ من المثاليين المثقفين المزاجيين؛ لاقتنع بسهولة، لكن ذلك الذئب لارسن اقتحم آخر معاقل إيماني بقوّة حازت على الاحترام، حتى لو لم اقتنع بها.

مرّ الوقت واقترب موعد العشاء، ولم أوضب موائد الطعام بعد، فشعرت بقلق وتوتر، وعندما حملق توماس ماكريدج من أعلى الدرج، علَت وجهه علامات المرض والغضب، جهزت نفسي للنهوض والقيام بواجباتي، لكن وولف لارسن ناداه:

«هيه كوكي، تدبر أمر الخدمة بمفردك اليوم، إن همپ مشغول معي».

ومرة أخرى، حصل ما لم يسبق له مثيل ولم يكن في الحسبان. في تلك الليلة، جلست على الطاولة مع القبطان والصيادين، بينما قدّم لنا توماس ماكريدج الطعام وغسل الأطباق بعد ذلك ـ إنها النزوة، مزاج كاليبان لوولف لارسن، وهو مزاج أتوقع أنّه سيجلب لي المتاعب، وفي غضون ذلك تحدثنا وتحدثنا، وطال حديثنا وسط اشمئزاز الصيادين، الذين لا يستطيعون فهم كلمة واحدة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل التاسع

قضيتُ ثلاثة أيام من الراحة، ثلاثة أيام من الراحة المباركة قضيتها مع وولف لارسن، أتناول طعامي على مائدة مقصورة الطعام، ولا أفعل شيئاً سوى مناقشة الحياة والأدب والكون، وفي هذه الأثناء كان توماس ماكريدج يستشيط غضباً، ويقوم بعملي فضلاً عن عمله.

«احذر من العواصف المفاجئة، هذا كلّ ما يمكنني قوله لك»، حذّرني لويس بهذه الكلمات خلال نصف ساعة قضيتها أتسكع على ظهر السفينة بينما كان وولف لارسن منخرطاً بتسوية خلاف دار بين الصيادين، «لا يمكنك معرفة ما سيحدث»، تابع لويس ردًّا على استعلامي للحصول على مزيد من المعلومات المحددة: «هذا الرجل متقلّب ومتغيّر شأنه شأن تيارات الهواء أو التيارات المائية، لا يمكنك أبداً تخمين اتّجاهه، فحين تتصور أنك أصبحت تعرفه وبأن لك حُظوة عنده، تجده ينقلب على عقبيه، ويقابلك بالصراخ والعويل حتى يمزّق جميع أشرعتك الجيدة ويحيلها إلى خرق».

لذلك لم أتفاجأ تماماً عندما حصل ما تنبّأ به لويس، أجرينا نقاشاً ساخناً حول الحياة بالطبع، وفيه تماديتُ أكثر من اللازم، وجهّت له نقداً لاذعاً دون توقّف عن شخصيته وعن حياته، والحق أنني كنت أُشرّح شخصيته وروحه كما اعتاد أن يفعل مع الآخرين. صحيح أن نقطة ضعفي في الكلام هي أن كلامي يأتي استفزازياً وحادًّا؛ لكنني رميت كلّ احترازات ضبط النفس عرض الريح وجلدته بالكلام حتى بدأ يزمجر، واستحال لون وجهه البرونزي إلى سواد بفعل الغضب وتوهّجت عيناه، وخلَتا من أي صفاء وعقلانية، لا شيء سوى الغضب المروع لرجل مجنون، وكان الذئب الذي يسكن داخله هو ما رأيته، وذئبٌ مجنون كذلك.

وثب عليّ وهو يزمجر فأمسك بذراعي، حاولت أن أبدو صلباً لأصدّها مع أني كنت أرتجف في داخلي فزعاً؛ لكن القوة الهائلة لقبضته كانت فوق احتمالي، كان يمسك بي من العضلة ذات الرأسين بيد واحدة، وعندما شدّ قبضته وهنتُ وصرخت بصوت عالٍ، لم تعد ساقاي تحملانني وعجزت عن الوقوف منتصباً وتحمّل المعاناة، كان الألم شديداً فقد سحق العضلة ذات الرأسين حتى أصبحت كلُباب الورق.

وبدا أنّه بدأ يستعيدُ رشده؛ لأن بصيصاً من نور طاف في عينيه وخفّت قبضته وأطلق ضحكة قصيرة تشبه العواء، سقطت على الأرض أشعر بألم شديد، بينما جلس هو وأشعل سيجاراً وراقبني كما تراقب القط الفأر. وبينما كنت أتلوّى من الألم، استطعت أن أرى في عينيه الفضول الذي لاحظته عدة مرات، ذلك العجب والحيرة، هذا البحث، وذلك الاستعلام الأبدي عن ما يدور حوله.

وأخيراً، زحفتُ وتمكنت من الوقوف على قدمي وهبطت الدرج. ها قد انتهى الطقس الجميل ولم يتبقَّ أمامي سوى العودة إلى المطبخ. كان ذراعي الأيسر مخدراً، كما لو

كان مشلولاً، ومرت أيام قبل أن أتمكن من استخدامه من جديد، وأسابيع قبل أن يزول التيبّس والألم نهائياً، كلّ هذا الألم ولم يفعل لارسن شيئاً سوى وضع يده على ذراعي، وضغط دون أن يلويها أو يسحبها بعنف، أحكم قبضته بضغط ثابت فقط، ما كان يمكن أن يفعله بي لم أدركه تماماً حتى اليوم التالي عندما مدّ رأسه من باب المطبخ، وكدليل على تجدد الودّ، سألني كيف حال ذراعي فقال وهو يبتسم:

«كان من الممكن أن يحدث ما هو أسوأ من هذا بكثير».

كنت أقشر البطاطا في تلك اللحظة، تناول أحداها من القدر، معتدلة الحجم وطازجة وغير مقشرة ثم ضمّ قبضته عليها، فإذا بالبطاطا المهروسة تنساب من بين أصابعه طرية. ثم قذف المتبقي من بقايا اللُبّ من يده في القدر وغادر. أصبحت لدي رؤية واضحة عمّا يمكن أن يحصل معي لو أن الوحش قد استخدم قوّته الحقيقية على ذراعي.

لكن ثلاثة أيام من الراحة كانت جيدة رغم كلّ شيء؛ لأنها أعطت ركبتي الوقت الذي احتاجته لتشفى، فتحسن حالها وخفّ الورم، ويبدو أن الرضفة قد هبطت إلى مكانها الطبيعي. غير أن ما قد تنبأته من متاعب بسبب هذه الأيام الثلاثة قد حصل بالفعل. من الواضح أن ماكريدج كان يعتزم أن يُدفّعني الثمن، كان يعاملني بشراسة ويشتمني باستمرار ويكوّم عليّ أعماله، حتى أنّه غامر برفع قبضته بوجهي، لكنّي زمجرت عليه ـ كحيوان ـ بشدة لدرجة أني أخفته وانكمش مبتعداً عني.

ليس من اللطيف أن أتخيل نفسي وأصورها هكذا، أنا همفري فان وايدن، مقرفص في إحدى زوايا مطبخ السفينة كريهِ الرائحة أؤَدي عملي، ووجهي يرتفع ليقابل وجه مخلوق على وشك أن يضربني، فأكشّر عن أنيابي وأزمجر ككلب، وتتلألأ عيناي خوفاً وعجزاً وشجاعة ـ تلك التي تأتي من الخوف والعجز ـ لا أحب هذه الصورة؛ لأنها تذكرني بالفأر في مصيدته، لكن لا يهمني التفكير في الأمر؛ لأنها كانت اختيارية، ولأن الضربة المهددة لم تتمّ.

تراجع توماس ماكريدج بِغَيضٍ ووحشية؛ لأنني زمجرت عليه. كنا كزوجين من الوحوش محشورين في مكانٍ واحد، يزمجر أحدنا على الأخر، لكنه كان جباناً، يخاف أن يضربني؛ لأني لم أجبن بالقدر الكافي الذي يخوّله للهجوم عليّ، ولذلك اختار طريقة جديدة لتخويفي، لم يكن هناك سوى سكين واحدة في المطبخ استحالت إلى شفرة طويلة وناعمة بفعل سنوات الاستخدام العديدة والتآكل، كان شكلها قاسياً بغرابة، كنت أرتعش في كلّ مرّة أستخدمها في البداية، استعار الطباخ حجراً من جوهانسون وشرع يشحذ السكين، فعل ذلك بتفاخر كبير وهو يرمقني بنظرات عابرة من حين لآخر، شحذها لأعلى ولأسفل طوال اليوم، وفي كلّ مناسبة يجد فيها سكيناً وحجراً يبدأ بالشحذ، حتى أصبحت شفرة السكين حادة جداً فجرب حدّتها باستخدام طرف إبهامه أو أظافره، أو حلق الشعر عن ظهر يده، وكان ينظر على طول الحافة ببراعة مجهرية، ويجد ـ أو يتظاهر أنّه وجد ـ عدم مساواة طفيفة في حافتها في مكان ما، ثم يضعها على الحجر مرّة أخرى ويشحذ ثمّ يشحذ ويشحذ، حتى انفجرتُ ضاحكاً بصوتٍ عالٍ. كان مثيراً للسخرية بحقّ لكنه كان خطيراً

أيضاً، لأنني علمت أن ماكريدج قادر على استخدامها، وأن هناك شجاعة ـ أصلها الجبن مثلي تماماً ـ تكمن تحت جبنه المتأصل، وهذه الشجاعة من شأنها أن تدفعه إلى ذات الشيء الذي قد تحتج طبيعته على فعله والذي هو خائف منه.

تهامس البحارة فيما بينهم: «كوكي يشحذ سكينه لهمپ»، وسخر بعضهم من هذا الموضوع، فاعتبرَ الأمر إطراءً وشعرَ بسعادة، وبدأ يسرهم بمعلومات مسبقة، وغموض يكتنف ايماءاته، حتى قام جورج ليتش ـ صبي المقصورة السابق ـ بمزحة سمجة حول هذا الموضوع، وصادف أن ليتش كان أحد البحارة الذين أمروا بدلق الماء على ماكريدج بعد لعبه الورق مع القبطان، ويبدو أن ليتش قد قام بمهمته على أتم وجه؛ لأن ماكريدج لم يسامحه عليها ولحقه بسيل من اللعنات والسباب الذي طال أجداده ولطخ سمعتهم، وتابع ماكريدج تهديداته بالسكين الذي كان يشحذه لقتلي، فضحك ليتش وألقى عليه المزيد من سباب أولاد شوارع تلغراف هيل، وقبل أن نفطن إلى ما يحصل أنا وهو، مزّق ماكريدج ذراع ليتش اليمنى من الكوع إلى الرسغ بشرطة مائلة سريعة للسكين، ثم تراجع بعيداً وعلى وجهه تعبير شرير يلوح بالسكين أمامه في موقف دفاعي، لكن ليتش أخذ الأمر بهدوء شديد، على الرغم من أن الدم كان ينفث على سطح السفينة بسخاء كالماء من النافورة وقال له:

«سأنال منك يا كوكي، وسأقسو عليك هذه المرة، ولن أكون في عجلة من أمري، سأنال منك عندما لا تكون هذه السكين معك».

ثم التفت ومشى مبتعداً بهدوء. ضجّ وجه ماكريدج بخوف لما فعله وما يتوقعه عاجلاً أم آجلاً من الرجل الذي طعنه، لكن سلوكه تجاهي كان أكثر شراسة من أي وقت مضى. بالرغم من خوفه من الجزاء الذي يتوقع أن يدفع ثمنه، ألا أنّه رآه درساً جيداً لي، وأصبح أكثر استبداداً وإثارة.

كانت هناك شهوة على غرار الجنون أيضاً، جاءت مع مشهد الدم الذي أراقه، فبدأ يرى الدماء أينما نظر. سيكولوجية الموضوع متشابكة للأسف، لكنّي أستطيع قراءة طريقة تفكيره بوضوح كما لو كان كتاباً مطبوعاً.

مرّت عدة أيام، ولا تزال الشبح تبحر في أمواج الزبد بانتظام، ويمكن أن أقسم أنني رأيت سطوة الجنون تزداد في عيون توماس ماكريدج، وأعترفُ بأنني أصبحت خائفاً منه بل شديد الخوف؛ لأنه لم يكفّ عن شحذ سكينه، وإنما استمر طوال اليوم، كانت النظرة في عينيه وهو يتحسس حافة الشفرة ويكشر في وجهي بلا شك هي نظرة آكلي اللحوم، كنت خائفاً من أن أدير له ظهري، وحتى عندما أغادر المطبخ، كنت أخرج من الباب وأنا أمشي إلى الوراء. وقد تجمع الصيادون والبحّارة بمجاميع؛ ليتسلّوا برؤيتي وأنا أخرج بهذه الطريقة، كان التوتر أكثر مما أستطيع احتماله حتى أني فكرت بأني قد أفقد عقلي بسببه، وسيكون اجتماعاً على سطح هذه السفينة بين المجانين والقَتَلة. الخطر محيقٌ بي في كلّ ساعة وكل دقيقة من وجودي هنا، كنت روحاً إنسانية تعاني في محنتها، ومع هذا لم تقدم أية روح من مقدمة السفينة حتى مؤخرتها تعاطفاً إنسانياً ولا جاءت لنجدتي، فكّرت في بعض الأحيان بأن أضع نفسي تحت رحمة وولف لارسن، لكن رؤية الشيطان المستهزئ في عينيه

التي شككت بأهمية الحياة وسخرت من قيمتها تمنعني من القيام بذلك، وفي أوقات أخرى كنت أفكر بجدية في الانتحار، وكانت قوة فلسفتي المفعمة بالأمل تهبّ لنجدتي وتمنعني من السير في الجانب المظلم تحت جنح الليل.

حاول وولف لارسن عدة مرات أن يغريني لأدخل معه في نقاش، لكنني كنت أعطيه إجابات قصيرة وأمتنع عنه. أخيراً، أمرني بالجلوس على طاولة المقصورة لفترة من الوقت وترك الطباخ يقوم بعملي، ثم تحدثت بصراحة وأخبرته بما كنت أتجرعه من توماس ماكريدج؛ بسبب الأيام الثلاثة من المحسوبية التي أظهرها لي، فنظر لي وولف لارسن بعينين مبتسمتين.

«إذن أنت خائف منه؟»، سألني ساخراً.

«نعم. أنا خائف منه»، أجبت بكل صدق.

«هذا حالكم يا أصدقائي»، صاح بنبرة يشوبها الغضب، «تستسلمون لعاطفتكم فيما يتعلق بأرواحكم الخالدة وتخافون من الموت، ولمجرد رؤيتك لهذا الكوكني الجبان ممسكاً بسكين، يتغلب تمسك الحياة بنفسها على كلّ ترّهاتك وحماقاتك، ولمَ لا يا عزيزي، فأنت ستعيش إلى الأبد، أنت إله، ولا يمكن قتل الإله، ولا يمكن لكوكي أن يلحق بك أذى، وبما أنك متأكد من بعثك، فما الذي تخاف منه؟

أمامك حياة أبدية، أنت مليونير في الخلود ومليونير لن تنفد ثروته؛ لأنها أقل عرضة للفناء والزوال من النجوم، ودائمة كدوام الفضاء والزمن. ومن المستحيل بالنسبة لك أن تنتقص من مبادئك، فالخلود شيء لا بداية له ولا نهاية، الخلود هو الخلود، ومع أنك تموت هنا، والآن، ألا أنك ستعيش في مكان آخر في الآخرة، وكل هذا جميل للغاية، وهذا ينطلق من تحرير الروح ورفعها عن الجسد المسجونة فيه، كوكي لا يمكن أن يؤذيك، يستطيع فقط أن يمنحك دفعة على الطريق الذي يجب أن تخطوه إلى الأبد.

وإن كنت لا ترغب بذلك حتى الآن، لماذا لا تُقدِّم لكوكي هذه الدفعة؟ فوفقاً لأفكارك، هو أيضاً يجب أن يكون مليونيراً خالداً ولا يمكنك إفلاسه؛ لأن ورقته ستظل ورقته، وستجد من يصرفها، ولا يمكنك التقليل من طول معيشته بقتله؛ لأنه بلا بداية أو نهاية، لا بد له من العيش، في مكان ما، وبطريقة ما، ثم ادفعه، اطعنه بسكين وحرّر روحه التي تقبع في سجن سيّئ، وأنت بذلك تحسنُ إليه بتحطيمك الباب. ومن يدري؟ قد تكون روحاً جميلة جداً ترتفع إلى السماء الزرقاء وتتخلص من تلك الذبيحة القبيحة. اقتله، وسأرقّيك، وستحصل على خمسة وأربعين دولاراً شهرياً».

كان من الواضح أني لن أحصل على أية مساعدة ولا رأفة من وولف لارسن، وأيًّا كان ما علي فعله، كان عليّ أن أفعله بمفردي، فاستجمعت شجاعة الخوف التي لديّ وخططت لمواجهة توماس ماكريدج بنفس أسلحته، استعرت حجر شحذ من جوهانسون، وكان لويس قائد القارب قد توسل بي أن أحضر له الحليب المكثّف، كان في مخزن المؤن حيث تُخزن هذه الأطعمة الشهية، يقع أسفل أرضية المقصورة، وبعد أن انتهزتُ فرصتي، سرقت خمس علب من الحليب، وفي تلك

الليلة، وعندما كانت ساعة حراسة لويس على سطح السفينة، قمت بتبادلها معه مقابل خنجر قاسي المنظر مثل سكين توماس ماكريدج، صحيح أنّه كان صدئاً وباهتاً، لكني أدرت المجلخة وأمسك لويس حافتها، ونمتُ أكثر من المعتاد في تلك الليلة.

وفي صباح اليوم التالي، بعد الإفطار، بدأ توماس ماكريدج بشحذ سكينه، نظرت إليه بحذر؛ لأني كنت جاثٍ على ركبتي أفرغ الرماد من الموقد، وعندما انتهيت من رميه في البحر، وجدته يتحدث مع هاريسون بوجهه الريفي الصادق الذي يوحي بالعجب والدهشة.

«نعم»، كان ماكريدج يقول: «وماذا نفعتني العبادة سوى ضياع سنتين بالقراءة، ولكني لا أكترث، فالكأس ملأى، هل رأيت سكيناً كهذه من قبل؟ غرزتها فيه كما أغرزها في زبدة ليّنة، كانت صرخته تساوي بنسين»، ثم نظر ناحيتي ليرى إن كنت أستمع إلى ما يدور بينهم، وتابع: «لم أكن أقصد ذلك، فليساعدني الرب لم أقصد، قلتُ له إني سأصلح له الحال وتبعته، عليّ أن أقول لك إني قطعته إلى شرائط، هذا ما فعلته وأخذ يصيح ويعوي وحين حاول أن يمسك السكين ولفّ أصابعه حولها، سحبتها بقوّة فقطعت أصابعه حتى العظم، يا له من منظر! لا أستطيع أن أصفه لك..».

وقاطع سرده الشرير نداءٌ من أحد رفاق هاريسون فذهب وتركه، جلس ماكريدج على العتبة المرتفعة من باب المطبخ واستمر في شحذ السكين، وضعت المجرفة جانباً، وجلست بهدوء على صندوق الفحم المواجه له، فتفضل عليّ بنظرة خبيثة وجلست بهدوء وإن كان قلبي يدقّ بسرعة، وأخرجت خنجر لويس وبدأت بتحريكه على الحجر، فتّشت عن أيّة ردة فعل من الكوكني، ولكن لدهشتي أنّه لم يبدُ على دراية بما كنت أفعله، استمر بشحذ سكينه، وكذلك فعلتُ أنا، ولمدة ساعتين جلسنا هناك، وجهاً لوجه، وشحذنا، وشحذنا، وشحذنا، حتى انتشر الخبر في الخارج، وازدحم نصف طاقم السفينة قرب باب المطبخ لرؤية المنظر.

وقدم المتفرجون التشجيع والنصائح بالمجّان، نصحني جوك هورنر الصياد الهادئ ذو الصوت الرقيق الذي بدا وكأنه لن يؤذي فأراً بأن لا أوجّه ضربتي للأضلاع وإنما في البطن، أطعنهُ ثم ألوي يدي وسماها بـ «الطعنة الأسبانية». أما ليتش بذراعه التي يلفها الضماد فقد كان في المقدمة، وكان يتوسّل أن أترك له شيئاً من الطباخ ولا أجهز عليه بالكامل، وتوقّف وولف لارسن مرّة أو مرتين عند كسر مؤخرة السفينة ليطلّع بفضول على ما يجب أن يكون بالنسبة له إثارة الخميرة وزحفها الذي عرفّه بالحياة.

وأنا حرٌّ حين أقول إن الحياة في الوقت الحاضر افترضت نفس القيم البائسة لي، لم يكن هناك شيء جميل فيما نفعل، لا شيء إلهي ومقدس. لسنا سوى شيئين متحرّكين، جبانين جالسين نشحذ سكاكيننا على الحجر، ومجموعة من الأشياء المتحركة الأخرى، جبانة وغير ذلك، تتفرج علينا. أنا متأكد من أن نصفهم كانوا حريصين على رؤيتنا نريق دماء بعضنا، وسيشكّل لهم هذا بعض الترفيه. ولا

أحسب أن هناك من كان سيتدخل لو انقضّ أحدنا على الأخر في صراع حتى الموت.

ومن جهة أخرى كان الأمر برمته صبياني وهزلي، فها هو همفري فان وايدن يشحذ ويشحذ سكينه في مطبخ السفينة ويجرب حافتها بإبهامه! ومن بين جميع الحالات، كان هذا أكثر ما لا يمكن تصوره. أعلم أن نوعي الخاص لم يكن ليصدق ذلك. ولم أُنعت بـ «سيسي»([20]) فان وايدن طوال حياتي دون سبب، وأن يكون «سيسي» فان وايدن قادراً على فعل هذا الشيء كان بمثابة الوحي إلى همفري فان وايدن، الذي لم يكن يعلم ما إذا كان يجب أن يبتهج ام يخجل من نفسه.

لكن لا شيء حصل. وبعد ساعتين توقف توماس ماكريدج عن الشحذ وأبعد السكين جانباً ثم مد يده لي.

«ما الفائدة من جعل أنفسنا فرجة لهؤلاء المغفلين؟»، سألني: «هم لا يحبوننا، وسيسعدهم لو نحر أحدنا الآخر، وأنت لستَ بالشخص الهين يا همپ، لديك «الشجاعة» كما تسمونها أنتم الأمريكان وأنا أستلطفك نوعاً ما؛ لذلك دعنا نتصافح».

ربما كنتُ جباناً، لكنه أجبن مني، كان انتصاراً واضحاً وقد ربحته، ورفضت التخلّي عن أي من ذلك بمصافحة يده البغيضة.

«حسناً»، قال بلا كرامة: «اقبل أو ارفض، فالأمر سيّان بالنسبة لي». وليحفظ ماء وجهه، استدار بعنف نحو المتفرجين وصاح بهم: «ارحلوا فوراً من أبواب مطبخي، أيها الخنازير التافهين».

ولتأكيد كلامه، أحضر إبريقاً من الماء المغلي يتصاعد البخار منه، وحالما رأى البحارة ذلك سارعوا في الابتعاد عن الطريق. وهكذا، حصل توماس ماكريدج على انتصار صغير مكّنه من قبول الهزيمة التي ألحقتُها به بفخر، مع أنّه كان شديد الحذر عندما حاول إبعاد الصيادين.

«أرى بأن كوكي قد انتهى أمره». سمعت سموك يتحدث إلى هورنر.

«أصبت»، أجابه: «من الآن فصاعداً يتولّى همپ إدارة المطبخ، بينما يجب على كوكي أن يتوخى الحذر ويخضع له».

سمع ماكريدج كلامهم وألقى نظرة سريعة عليّ، لكنني لم أعطِ أيّة إشارة إلى أن المحادثة قد وصلتني، لم أحسب أن فوزي كان بعيد المدى وكاملاً، لكنني عقدت العزم على عدم ترك أيّ شيء اكتسبته. وبمرور الأيام، تحققت نبوءة سموك. فقد أصبح الكوكني أكثر تواضعاً وخضوعاً لي وحتى لوولف لارسن.

تسيُّدت عليه ولن أناديه بسيدي بعد الآن، وتوقّفت عن تقشير البطاطا وجلي القدور، بل قمت بأداء واجبي فقط وبالطريقة التي أراها مناسبة، وربطت الخنجر على خاصرتي مثل البحارة وعاملت توماس ماكريدج بمزيج من الاستبداد والإهانة والاحتقار.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل العاشر

زادت حميميّة علاقتي بوولف لارسن، إذا كانت الحميمة تعني العلاقة التي تقوم بين الرئيس والمرؤوس، أو الأنسب من ذلك، بين الملك ومهرّجه. لست بالنسبة له أكثر من دمية، ولا يقدّرني أكثر مما يقدر الطفل دميته. وظيفتي هي أن أكون مُسلياً، وطالما كنت كذلك فأموري على ما يرام، لكن إن شعر بالملل، أو راودته نوبة مزاج سوداوي، فسرعان ما يطلب مني ترك مائدة المقصورة والذهاب إلى المطبخ وأكون محظوظاً لو تمكنت من الفرار بحياتي وجسدي كامل.

إن وحدة الرجل تُحمل ببطء على عاتقي. لا يوجد رجل على متن هذه السفينة لا يكرهه أو يخافه، وليس هناك مَن لا يحتقره. يبدو أن القوة الهائلة الكامنة فيه تستهلكه؛ لأنه لم يجد لها متنفساً سليماً يستخدمها فيه. أنّه مثل لوسيفر([21])، لو أن تلك الروح المتكبّرة نُفيت إلى مجتمع من أشباح توملينسون([22]).

إن هذا الشعور بالوحدة سيّئ في حدّ ذاته، لكن مما يجعله أسوأ، هو التعرض للاضطهاد؛ بسبب الكآبة البدائية للعِرق. من خلال معرفتي له، تذكرت الأساطير الإسكندنافية القديمة التي قرأتُها بفهم أوضح، كان الهمجيون ذوو البشرة البيضاء والشعر الفاتح والذين ابتكروا البانثيون الرهيب من نفس نوعه. لكن عبث اللاتينين المحبين للضحك ليس جزءاً منه، فحتى عندما يضحك يكون من دعابة شرسة. لكنه نادراً ما يضحك. فهو حزين في كثير من الأحيان. وحزنه عميق مثل جذور العِرق الممتدة. إنه التراث العرقي، الحزن الذي جعل الذرية تتسم بالعقلانية في تفكيرهم والعفة في حياتهم وتعصّب شديد بنظرتهم الأخلاقية للأمور، وقد تجسّد هذا كله بين الإنجليز في الكنيسة البروتستانتية والسيدة غراندي([23]).

وفي الواقع، كان التنفيس الرئيسي عن هذه الكآبة والحزن البدائي هو الدين، وفي أكثر أشكاله إيلاماً. لكن التعويضات التي يقدمها الدين حُرم منها وولف لارسن؛ لأن ماديته الوحشية لن تسمح بذلك. ولذلك، عندما تراوده نوبات مزاجه السوداويّ، لا يبقى أمامه إلا أن يتصرف كشيطان. ولو لم يكن رجلاً فظيعاً، لكنت أشفقت عليه، كما حدث على سبيل المثال منذ ثلاثة صباحات مضت، عندما ذهبتُ إلى غرفته لأملأ قارورته بالماء، فصادفته هناك. لم يرَني. فقد دفن رأسه بين يديه، وكانت كتفاه تتحرّكان كما لو كان ينشج. بدا ممزقاً بحزن عظيم. وعندما انسحبت بهدوء، سمعت أنينه وهو يصرخ «يا إلهي! يا إلهي! يا الله!»، لم يكن يدعو الله أو يتوسّله بل كان مجرد هذر، لكنه خرج من أعماق روحه.

وعند مائدة العشاء، طلب من الصيادين علاجاً للصداع، وبحلول المساء رغم قوته البدنية إلا أنّه كان شبه أعمى وأخذ يترنّح في المقصورة.

«لم أمرض في حياتي يا همب». قال لي بينما كنتُ أقوده إلى غرفته، «ولم أعانِ من صداع إلا عندما كان رأسي يُشفى من ضربة عصا غليظة تشجّ رأسي ستّ بوصات».

واستمر هذا الصداع المعمي لثلاثة أيام، عانى فيها وولف لارسن كما تعاني الحيوانات البرية وكما يعاني أيّ شخص على السفينة، لا أحد يتعاطف معه ولا هو يشكو لأحد. كان وحيداً بالكامل.

وعندما دخلتُ إلى غرفته لأرتّب السرير وأسويّ الغرفة، وجدته بخير ويعمل بجدّ، تناثرت التصاميم والحسابات على طاولته وسريره. ووضع على ورقة شفافة كبيرة بوصلة، ومربّع في يده، كان ينسخ ما يبدو أنّه مقياس من نوع أو آخر.

«مرحباً همپ»، استقبلني بلطف: «سأنهي اللمسات الأخيرة. هل ترغب في رؤيته يعمل؟».

«لكن ما هذا؟».

فأجاب بمرح: «جهاز لتوفير العمالة للبحارة، وبفضله تغدو الملاحة ببساطة رياض الأطفال. من هذه اللحظة، سيكون بمقدور الطفل توجيه السفينة. لا مزيد من الحسابات الصعبة والمعقدة. كلّ ما تحتاجه هو نجمة واحدة في سماء ليلة ملبدة بالغيوم لتعرف على الفور أين أنت. انظر. أضع المقياس الشفاف على خريطة النجوم هذه، وأدير المقياس باتّجاه القطب الشمالي، وحددت دوائر الارتفاع وخطوط الاتّجاه على المقياس، كلّ ما عليّ فعله هو وضعها على النجم، وأدير المقياس حتى يشير إلى الأرقام المقابلة له على الخريطة الموجودة أسفلها، وبسرعة فائقة تحصل على موقع السفينة بالتحديد».

كانت في صوته رنّة انتصار وفي عينيه الزرقاوين كالبحر هذا الصباح وميضٌ من نور.

«يبدو أنك بارع في الرياضيات. أين تلقّيت دراستك؟»، سألته.

«لم يسبق لي أن رأيتُ مدرسة من الداخل، لسوء حظي. كان عليّ بذل الجهد وتعليم نفسي بنفسي. ولماذا برأيك فعلت ذلك؟»، سألني فجأة، «لأترك آثاري على رمال الزمن؟». وأطلق ضحكة من ضحكاته الساخرة، «إطلاقاً. وإنما لأسجل براءة اختراع أكسب منها المال بعد ذلك، وللكشف عن الحقارة طوال الليل بينما يقوم رجال آخرون بالعمل، هذا هو هدفي. أيضاً، لقد استمتعت بصنعها».

غمغمت: «متعة الأبداع».

«أفترض أن هذا ما يجب أن يطلق عليه. وهي طريقة أخرى للتعبير عن فرحة الحياة بأنها لا تزال حيّة، وانتصار الحركة على المادة، والسريع على الميت، وفخر الخميرة بأنها خميرة وتزحف».

رفعت يدي باستنكار عاجز عن مادّيته المتأصلة، وتابعت ترتيب السرير. واستأنف هو نسخ الخطوط والأشكال على مقياس شفاف، كانت مهمّة تتطلب أقصى درجات الدقة والانضباط، ولم أستطع إلا أن أعجب بالطريقة التي خفف بها من قوته إلى ما تقتضيه الحاجة من دقة.

وعندما انتهيت من ترتيب السرير، انتبهت على نفسي وأنا أنظر إليه بافتتان.

كان بالتأكيد رجلاً وسيماً؛ جميلاً بالمعنى الذكوري، ومرة أخرى وبانذهال شديد لاحظت بأن ملامح الخبث والشر والخطيئة قد زايلت وجهه، وكنت مقتنعاً بأنه وجه رجل لم يفعل الخطيئة يوماً. وبهذا لا أتمنى أن يُساء فهمي. ما أقصده هو أنّه كان وجه رجل لم يفعل شيئاً مخالفاً لما يُمليه عليه ضميره، أو أنّه لا ضمير له من الأساس، وأنا أميل إلى الخيار الثاني، فقد كان رجلاً بدائياً بحتاً لدرجة أنّه كان من النوع الذي جاء إلى العالم قبل تطور الطبيعة الأخلاقية، لم يكن لا أخلاقيًّا، ولكنه كان لا يهتم بالأخلاق.

وكما قلت، كان وجهه جميلاً بمعيار الجمال الرجولي، حليق الوجه ناعم البشرة، كلّ خطّ في وجهه واضح وتقاطيع وجهه بارزة كحجر كريم. استحالت بشرته البيضاء إلى لون برونزي بفعل الشمس والبحر، فيه فظاظة ورجولة مما زاد من وحشيته وجماله. شفتاه مكتنزتان مزمومتان بالحزم والقوة التي تتمتع بها الشفاه الرفيعة. وكان فمه وذقنه وفكه متماسكة وقاسية، مع كلّ ضراوة الرجل وأهميته، وأنفه كذلك، كان أنف من وُلِد ليغزو ويسيطر. يشبه منقار النسر قليلاً. ربما جاز اعتباره من الإغريق، أو ربما كان رومانياً، إلا أنّه كان أكبر حجماً بقليل من الأول وأقل انتفاخاً من الثاني. وبينما كان الوجه كله تجسيداً للقوة والشراسة، بدا أن الكآبة البدائية التي عانى منها عززت خطوط الفم والعين والجبين، بدت وكأنها تعطي هالة واكتمالاً ولولا هذا المظهر لبدا الوجه وكأنه ينقصه شيء ما.

وهكذا وجدت نفسي أقف مكتوف الأيدي أتمعّن هذا الرجل، لا أستطيع أنِ أشرح قدر اهتمامي به، من كان؟ وماذا كان؟ وكيف آلت إليه أمور حياته؟ بدا أن كلّ القوى كانت لديه وكل الإمكانات. لماذا إذن، لم يكن أكثر من السيد الغامض قبطان مركب صيد عجول البحر الذي يتمتّع بسمعة وحشيّة مخيفة بين الصيادين؟

فانطلق فضولي بسيل متدفق من الكلام فسألته:

«لماذا لم تفعل أشياء عظيمة في هذا العالم؟ بالقوة التي تملكها، كان يمكنك أن ترتفع إلى أرقى المستويات، وما دمت لا تملك ضميراً ولا يقيّدك أيُّ وازع اخلاقي، كان بوسعك أن تسود العالم وتطوّعه تحت إمرتك، ومع هذا فأنت حيث أنت الآن، في أوج حياتك، حيث يبدأ التلاشي والموت، تعيش حياة غامضة ودنيئة، وتطارد حيوانات البحر من أجل إرضاء خيلاء امرأة وحبها للزخرفة، وتستمتع بالحقارة ـ سأستعمل كلمتك الخاصة، التي هي أي شيء وكل شيء باستثناء الروعة ـ ولماذا، مع كلّ هذه القوة الرائعة، لم تفعل شيئا؟ لم يكن هناك شيء يمنعك، لا شيء يمكن أن يمنعك. ما هو الخطأ؟ هل تفتقر إلى الطموح؟ هل وقعت تحت إغراء ما؟ ما الأمر؟ أخبرني ما الأمر؟».

رفع عينيه إليّ في بداية فورة غضبي وتابعني بعين الرضا حتى انتهيت ووقفت أمامه منقطع النفَس مرعوباً. انتظر لحظة، كمن كان يبحث عن مكان يبدأ فيه بالكلام ثم قال:

«همپ. هل تعرف حكاية المزارع الذي خرج لنثر البذور؟ إذا كنت تتذكر فلن تنسى أن بعض هذه البذور قد سقطت على أماكن صخرية لا يغطيها التراب بالقدر

الكافي، وعلى الفور حاولت أن تنبت، وبما أنها سقطت في أرض ليست بالعميقة حينما سطعت عليها الشمس، احترقت؛ ولأنها لم يكن لها جذر، ذبلت. وسقط بعضها بين الأشواك، وعندما حاولت أن تنمو هي الأخرى خنقتها الأشواك وقضت عليها».

«حسناً؟»، قلت.

«حسناً؟! لم يكن الأمر حسناً؛ لأنني كنت أحد تلك البذور».

ثم أخفض رأسه وتابع النسخ، وبعد أن أنهيتُ ترتيب الغرفة، استدرت نحو الباب وإذا به يقول:

«همپ، إذا نظرت إلى الساحل الغربي للنرويج على الخارطة، ستقع عيناك على مكان اسمه راميزدال فيورد، لقد ولدت على بعد مائة ميل من هذا المسطح المائي، ولكن لم أولد نرويجياً. أنا دانماركي والدي ووالدتي دانماركيان، ولا أعرف كيف وصلا إلى هذه الرقعة القاتمة من الأرض على الساحل الغربي، ولم يخبرني أحد قط. عدا عن ذلك، لا يوجد شيء غامض في حياتي، لقد كان والداي فقيرين وأميّين، انحدرا من أجيال من الفقراء والأميين ـ فلاحو البحر الذين زرعوا أبناءهم على الأمواج كما كانت عادتهم منذ بدايات الوقت، لم يعد هناك ما أخبرك به».

فاعترضت عليه: «لكن لا يزال ما هو غامض بالنسبة لي».

«ماذا تريد مني أن أخبرك؟»، سألني بعصبية، «عن ضآلة حياة الطفل؟ والنظام الغذائي المعتمد على السمك فقط وشظف العيش؟ عن الخروج مع القوارب من الوقت الذي يمكنني فيه الزحف؟ عن إخوتي الذين ذهبوا واحداً تلو الآخر إلى أعماق البحار ولم يعودوا أبداً؟ أم عن نفسي، غير قادر على القراءة أو الكتابة، صبيّ المقصورة في سن العاشرة على متن سفن الساحل القديم؟ أم عن الأجرة القليلة والمعاملة الأكثر قسوة؟ حيث كانت الركلات والضربات تُكال إليّ صباحَ مساء، وحلّت محل الكلام، وأن الخوف والكراهية والألم كانت تجربتي الروحية الوحيدة؟ لا يهمني أن أتذكر. يطيش الجنون في ذهني عندما أستعيد هذه الذكرى الآن. ولكن كان هناك ربابنة على ساحل البحر كنت سأعود وأُقتلهم عندما أغدو رجلاً، لكن خطوط حياتي تقاطعت في ذلك الوقت في أماكن أخرى، وعندما عدت منذ وقت ليس ببعيد، وجدتهم ـ ولسوء الحظ ـ قد ماتوا كلهم عدا واحد، رفيق لي في الأيام الخوالي، وهو قائد السفينة عندما التقيت به، وعندما غادرتُه تركته مشلولاً لن يسير مجدداً».

«لكنك قرأت سبنسر وداروين، ولم تطأ قدمك داخل مدرسة قط! كيف تعلمت القراءة والكتابة». تساءلت.

«أثناء خدمتي في أحد السفن التجارية الإنجليزية، حيث عملت صبيّ طباخ في عمر الثانية عشرة وعندما بلغت الرابعة عشرة، عملت كصبي سفينة (خادم)، وبحاراً عادياً في السادسة عشرة ومتمكناً في السابعة عشرة، ثم آمراً على مقدمة السفينة. كان طموحي لا حصر له، ووحدتي كذلك، ولم أتلقَّ مساعدة ولا تعاطفاً من أحد، فعلت كلّ شيء بنفسي؛ الملاحة، والرياضيات، والعلوم، والأدب، وغير ذلك. وما

فائدة كل ذلك؟ أصبحت سيد ومالك سفينة في أوج عطاء حياتي، كما تقول، عندما بدأت في التراجع والموت. أمر محزن، أليس كذلك؟ وحينما أشرقت الشمس، احترقتُ، ولأنني بلا جذر فقد ذبلت».

«لكن التاريخ يخبرنا بأن هناك عبيداً توشحوا بالأرجوان وتقلدوا مناصب عُليا».

«نعم. ويخبرنا التاريخ أيضاً بأن الفرص كانت مواتية لهؤلاء، لا يستطيع أي أحد أن يصنع فرصة، فكل ما فعله الرجال العظام عبر التاريخ هو اقتناصهم لتلك الفرص حين تواتيهم. ويعلم الكورسيكيون بذلك، ولطالما حلمت أحلاماً عظيمة كما فعلوا، وكان بمقدوري أن أعرف الفرصة حين تأتي لكنها لم تأتِ مطلقاً، لقد نمى الشوك حولي وخنقني، ويمكنني أن أؤكد لك يا همب بأنك بتَّ تعرف عني أكثر مما يعرفه أي رجل حي باستثناء أخي».

«وماذا يعمل؟ وأين هو الآن؟».

«سيد باخرة مقدونيا، صيّاد عجول البحر، سنلتقي به على الأرجح على ساحل اليابان، ينعته الرجال بـديث لارسن».

«الموت لارسن!»، صحت لا إرادياً: «هل هو مثلك؟».

«تقريباً. إنّه كتلة حيوان دون أيّ رأس. لديه كلّ ما عندي من.. من..».

«وحشيّة»، اقترحت عليه.

«نعم، شكراً لك على الكلمة، فيه كلّ وحشيّتي، لكنه يستطيع القراءة أو الكتابة بصعوبة».

«ولم يفلسف الحياة أبداً»، أضفت.

«لا». قالها لارسن وكسا وجهه حزنٌ أبلغ من أن يوصف، ثم أضاف: «إنه أكثر سعادة لتركه الحياة وشأنها، فهو مشغول جداً بأن يعيشها لا أن يفكر فيها، كان خطئي هو في فتح الكتب والاغتراب فيها على الإطلاق».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الحادي عشر

بلغت الشبح أقصى نقطة إلى الجنوب من القوس الذي ترسمه بسيرها في المحيط الهادي، وقد بدأت في الانحراف غرباً ثم ستتجه إلى الشمال صوب جزيرة معزولة. يُشاع بأنهم سيملؤون خزانات السفينة بالمياه العذبة قبل المباشرة بموسم الصيد على طول ساحل اليابان، جرّب الصيادون أسلحتهم وبنادقهم وتدربوا عليها حتى شعروا بالرضا التام، وجهّز مجذّفو القوارب وقادتها مُعاوَّدهم([24]) وربطوا المجاديف ومساندها بالجلد والجدايل؛ كي لا يصدروا صوتاً حين يقتربون من عجول البحر، وجهزّوا قواربهم كـ «فطيرة التفاح» كما وصفها ليتش على حد قوله.

وبالمناسبة، التأم جرح يده على خير ما يرام لكن الندبة سترافقه مدى الحياة، ويعيش ماكدريدج هذه الأيام في خوف دائم منه، ولا يجرؤ على المغامرة والصعود على سطح السفينة بعد مغيب الشمس. هناك عدة شجارات تدور رحاها في السَلوقية، يقول لويس إن ثرثرة ما قد شاعت في السفينة، فتعرّض اثنان من النمامين للضرب المبرح من قِبل رفاقهم بعد أن عُرف مصدرها، وهز رأسه أسفاً حين بدأ يتحدث عمّا ينتظر جونسون مجدّف قاربه، وكان جونسون مذنباً في التعبير عن رأيه بحرية كبيرة، وقد اصطدم مرتين أو ثلاث مرات مع وولف لارسن بسبب نطق اسمه الخاطئ، وضرب جوهانسون ضرباً مبرحاً يوم أمس حتى نطق الرجل اسمه بصورة صحيحة. ولكن بطبيعة الحال، من غير المنطقي أن يضرب جونسون وولف لارسن.

وزودني لويس بمعلومات إضافية عن ديث لارسن توافق الوصف المختصر الذي أعطانيه القبطان. وقال كذلك بأنه من المحتمل أن نصادف هذا «الموت» على سواحل اليابان وحينها «عليّ أن أحذر من العواصف المُفاجئة»، كما تنبأ لويس: «لأنهما يمقتان بعضهما بعضاً كجراء الذئاب».

يقود ديث لارسن السفينة البخارية الوحيدة في الأسطول، وتدعى مقدونيا، وتحمل أربعة عشر قارباً، بينما تحمل باقي السفن ستة قوارب فقط. وهناك حديث صاخب عن المدفع الذي على متنها، وعن غارات وحملات غريبة قد تقوم بها، بدءاً من تهريب الأفيون إلى الولايات المتحدة وتهريب الأسلحة إلى الصين، إلى تجارة الرقيق والقرصنة المفتوحة. ومع ذلك، لا يسعني إلا أن أصدقه لأنني لم أعهده يكذب من قبل، فضلاً عن معرفته الواسعة بعجول البحر والأساطيل التي تصطادها.

وكما هو الحال في السَلوقية وفي المطبخ، احتدم القتال بين الرجال حتى في مؤخرة السفينة وفي مهاجع نومهم. إن هذه السفينة هي الجحيم بعينه! يتقاتل الرجال فيما بينهم، ويتطلع الصيادون إلى معركة دامية بين سموك وهندرسون؛ لأن نزاعهم القديم لم يكن حاسماً، وهددهم لارسن بقتل الناجي منهما إذا اقتتلا، ويقول بصراحة إن الموقف الذي يتخذه غير قائم على أية اعتبارات أخلاقية؛ لأنه غير مهتم لحياة الصيادين لو قتل أو أكل أحدهم الآخر، لكنه يحتاجهم أحياء ليقوموا بعملية الصيد

ويعدهم أنهم لو تمالكوا أنفسهم حتى انتهاء موسم الصيد، فسيقيم لهم كرنفالاً يمكن لجميع الضغائن أن تظهر فيه، ويصبح بوسع كلّ فرد منهم أن ينتقم من غريمه ويرميه في البحر، وسيدبر هو قصة فقدان هؤلاء الهالكين في البحر، وأكاد أجزم أن دمه البارد قد أرعب الصيادين رغم شرهم ووحشيتهم، إلا أنهم بالتأكيد خائفون منه.

أما توماس ماكريدج، فكان يتودّد لي كما يخضع الجرو لسيده. حاولت جاهداً أن لا أظهر خوفي منه؛ لأن لديه تلك الشجاعة النابعة من الخوف ـ شيء غريب أعرفه حق المعرفة ـ ويمكن أن تستحوذ عليه في أية لحظة وتسيطر على خوفه وتدفعه لقتلي. ومن الجدير بالذكر، أن ركبتي قد تحسنت رغم الألم الذي أشعر به عند حركتي لفترات طويلة وتحسن وضع ذراعي التي عصرها وولف لارسن كذلك. وخلاف ذلك فأنا بحالة رائعة، أشعر بأني في مزاج ممتاز، فعضلات جسمي تزاد قوة وحجماً، إلا إن يديَّ كانتا بمظهر محزن، كشيء مسلوق، وأطراف أصابعي يكسوها السَّأف([25]) وأظافري مكسورة متغير لونها. يبدو أن حوافها قد آوت الفطريات أيضاً، وأعاني من الدمامل، بسبب النظام الغذائي، على الأرجح؛ لأنني لم أصب بهذه الطريقة من قبل.

وقد استمتعت قبل ليلتين برؤية وولف لارسن يقرأ الكتاب المقدس، عُثِر على نسخة منه، بعد البحث غير المجدي عن واحدة في بداية الرحلة، في صندوق أمتعة الرجل الميت، وتساءلت عمّا سيستفيده وولف لارسن منه، وقد قرأ لي بصوت مرتفع بعضاً من سِفر الجامعة، وخُيّل إليّ بأنه إنما يترجم ما في نفسه حين يقرأ لي. فسحرني وأسرني بصوته الذي كان يتردد بعمق وحزن بين جدران المقصورة الضيقة. قد يكون غير متعلم، لكنه يتقن التعبير عن أهمية الكلمة المكتوبة، أستطيع أن أسمعه الآن، كما سأفعل دائماً، ذلك الحزن البدائي النابض بالحياة في صوته وهو يقرأ:

«جمعت لنفسي أيضاً فضة وذهباً وخصوصيات الملوك والبلدان. اتخذت لنفسي مغنّين ومغنّيات وتنعّمات بني البشر سيدة وسيدات.

فعظمت وازددت أكثر من جميع الذين كانوا قبلي في أورشليم وبقيت أيضاً حكمتي معي

ثم التفتّ أنا إلى كلّ اعمالي التي عملتها يداي وإلى التعب الذي تعبته في عمله فإذا الكل باطل وقبض الريح ولا منفعة تحت الشمس».([26])

«الكلّ على ما للكلّ. حادثة واحدة للصديق وللشرّير للصالح وللطاهر وللنجس. للذابح وللذي لا يذبح. كالصالح الخاطئ. الحالف كالذي يخاف الحلف.

هذا شرّ كلّ ما عمل تحت الشمس، أن حادثة واحدة للجميع وأيضاً قلب بني البشر ملآن من الشر والحماقة في قلبهم وهم أحياء وبعد ذلك يذهبون إلى الأموات.

لكلّ الأحياء يوجد رجاء فإن الكلب الحيّ خير من الأسد الميت.

لأن الأحياء يعلمون إنهم سيموتون. أما الموتى فلا يعلمون شيئاً وليس لهم أجر بعد لأن ذكرهم نُسي.

ومحبتهم وبغضهم وحسدهم هلكت منذ زمان ولا نصيب لهم إلى الأبد في كلّ ما عُمل تحت الشمس». ([27])

«هاك إياها يا همپ». قال وهو يغلق الكتاب على إصبعه وينظر إليّ، ثم تابع: «فكّر الواعظ الذي كان ملكاً لأورشليم وإسرائيل مثلما أفكر أنا، أنت تسميني متشائماً، أليس هذا أشد التشاؤم سواداً؟... كله خيلاء وإزعاج للنفس. أو، الكل باطل ولا منفعة تحت الشمس. أو، حدث واحد للأبرار والأشرار وللطاهر وللنجس وللعاصي والقديس. وهذا الحدث هو الموت وهو شيء شرير كما يقول هذا الواعظ؛ لأنه كان يحب الحياة، ولا يريد الموت كما يقول: ولكلب حي خيرٌ من أسد ميت. وهو بذلك يفضل الخيلاء وإزعاج النفس على السكون والرقود بلا حراك في القبر. وهو مطابق لرأيي أنا، فالحركة والزحف هي جشع ودناءة، لكن انعدام الحركة والركود كالحجر، أمر تعاف النفس أن تفكر فيه، وهو أمر بغيض للحياة التي في داخلي، التي جوهرها هو الحركة، وقوة الحركة، ووعي قوة الحركة، الحياة بحد ذاتها هي عدم الرضا، لكن التطلع إلى الموت هو عدم رضا أكبر».

قلت: «أنت أسوأ من عُمر، فهو على الأقل، بعد المعاناة التي قاساها في شبابه، توصّل إلى الرضا، وحوّل ماديته الصرفة إلى شيء بهيج».

«من هو عمر؟»، سألني وولف لارسن، ولم أعد أعمل في ذلك اليوم ولا اليوم الذي تلاه ولا الذي بعده.

يبدو أنّه خلال قراءاته العشوائية، لم يحظَ بفرصة التعرف على رباعيات عمر الخيّام، فكان كمن وقع على كنز حين اكتشفها أخيراً، ولحسن الحظ، كنت أحفظ ثُلثي الرباعيات وتمكنت من استرجاع الثلث الأخير دون صعوبة. تحدثنا لساعات وتوقفنا لنناقش مقطعاً شعرياً واحداً، ووجدته يقرأ في الكثير منها أسى عميق ودعوة إلى التمرد والثورة، ولعمري لم أفطن لها أبداً أثناء قراءتي، من المحتمل أنّي قرأتها بعين سعادتي الخاصة، ولأن ذاكرته كانت جيدة؛ بعد قراءتي الثانية وفي بعض الأحيان الأولى، تمكن من استرجاع الرباعيات بنفسه ـ قرأ نفس الأسطر وجمّلها باختلاجاته وثورة عاطفته.

كنت مهتماً لمعرفة أيّ الرباعيات أقرب إلى قلبه، ولم أتفاجأ عندما اختار واحدة كانت وليدة انفعال آني، وتختلف تماماً عن الفلسفة الفارسية الواضحة ورمز الحياة الودود:

عجباً! دون أن يسألوني، عجّلوا بقدومي إلى هذا المكان. بأي حق؟

ودون أن يسألوني عجّلوا بوجودي في هذا الزمان!

لتُرَق كؤوس خمر محرمة ولتغرِق ذِكرى تلك الوقاحة!

«عظيم»، صاح وولف لارسن، «عظيم، الوقاحة هي الكلمة الرئيسية! لم يكن بإمكانه استعمال كلمة أفضل».

وعبثاً ما حاولت معه واعترضت ونفيت تحليله، لأنه غمرني بالحجة وأصرّ عليها.

«ليست طبيعة الحياة أن تكون خلاف ذلك، فحين تعلم أنها صائرة إلى الفناء، لا تستطيع إلا أن تتمرد وتثور دائماً، وقد وجد الواعظ بأن الحياة وأعمالها بما تشتمله من خيلاء وإزعاج شرّ، لكنه وجد بأن الموت، أي الكف عن كونك تعيش خيلاء وإزعاجاً أشرّ من ذلك، وتراه فصلاً بعد فصل يؤرقه القلق من الحدث الوحيد الذي سيصير إليه الجميع، مثل عمر، ومثلي ومثلك. فبالنسبة لك، ثُرتَ ضد الموت عندما شحذ كوكي سكّينه لقتلك، كنتَ خائفاً من الموت؛ لأن الحياة التي فيك، والتي تكونك، هي أكبر منك، لا تريد أن تموت، حدثتني عن غريزة الخلود، وأنا أتحدث عن غريزة الحياة وهي أقوى من الموت، التي عندما يلوح الموت قريباً، تسيطر عليك غريزة ما يسمى بالخلود. وقد تغلبت فيك (لا يمكنك إنكاره) يوم شهَر طباخٌ كوكنيّ مجنون سكّينه عليك».

«أنت تخاف منه الآن، وكذلك تخشاني، ولا يمكنك إنكار ذلك، فلو شددت على عنقك هكذا..»، وقبض بيده على رقبتي فانقطع نفسي، «... وبدأت أعتصر الحياة منك بالتدريج، لتوهّجت غريزة الخلود لديك، أما غريزة الحياة، التي تتوق إلى العيش فسوف تثور في الحال، وسوف تناضل لتنقذ نفسك، إيه؟ (أرى الخوف من الموت في عينيك) تضرب الهواء بكلتا ذراعيك وتبذل قوتك الضئيلة لتكافح من أجل العيش، يدك تمسك بذراعي وكأنها فراشة حطّت لتستريح هناك، أرى صدرك يخفق، ولسانك يتدلى، وجلدك يستحيل داكناً وحدقتيك عائمتين، وها أنت تنادي: «أريد أن أعيش، أريد أن أعيش، أريد أن أعيش». أنت تريد أن تعيش الآن وفي هذه اللحظة وفي هذا المكان وليس في الحياة الآخرة، وأنت تشكّ الآن في خلودك، أليس كذلك؟ ها! ها! ولست واثقاً منه ولن تغامر به، فهذه الحياة الوحيدة التي أنت واثق من حقيقة وجودها، وها قد أحاط بك الظلام وازدادت العتمة، إنه ظلام الموت، والتوقف على أن تكون حياً، والكفّ عن الشعور، وعن الحركة، ها هي تلتف حولك وتهبط عليك وترتفع من حولك. ها قد جحظت عيناك وأصبحتا كزجاجتين، وصوتي يتناهى إليك خافتاً وبعيداً، ولا يمكنك رؤية وجهي. ومع ذلك، لا زلت تقاوم قبضتي، فتركل بقدميك ويلتفّ جسمك حول نفسه كأفعى وصدرك يخفق وينقبض مطالباً بالحياة».

بعد ذلك لم أعد أسمع شيئاً؛ فقد لفّني الظلام وفقدت وعيي تدريجياً بالضبط كما وصفه، وعندما عدت إلى وعيي، كنت مُستلقياً على الأرض، ولارسن يدخن سيجارته، ويتمعّنني بفضوله المألوف ثم قال:

«حسناً، هل أقنعتُك؟ هاك اشرب من هذا، أريد أن أطرح عليك بعض الأسئلة».

أدرت وجهي صوب الأرض وقلت بوضوح بالرغم من الألم الشديد في حنجرتي: «لقد كانت حججُك... قسرية أكثر من اللازم».

«ستكون على ما يرام خلال نصف ساعة»، أكد لي، «وأعدُك ألا أستخدم أية إيضاحات جسدية أخرى، انهض الآن، يمكنك الجلوس على كرسي».

وكأنني لعبة في يد هذا الوحش، استأنفنا نقاشنا حول عمر الخيام والواعظ وقضينا نصف الليل في ذلك.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثاني عشر

شهدت الأربع والعشرون ساعة الأخيرة كرنفالاً من الوحشية، يبدو أن العنف قد انتقل كوباءٍ معدٍ ابتداءً من المقصورة وحتى سَلُوقية المركب؛ لذا تراني لا أكاد أعرف من أين أبدأ. كان وولف لارسن هو السبب الحقيقي وراء ذلك، زاد تكلف العلاقات بين الرجال وتوترت بالأحقاد والشجارات والضغائن، واختلّ التوازن الطبيعي على السفينة، وتأججت المشاعر الشريرة فيها كما يشتعل اللهب في المرج.

حاول توماس ماكريدج ـ الواشي الحقير ـ أن يستعيد حظوته عند القبطان والتقرّب إليه عبر نقل كلام الرجال إليه، وأجزمُ أنّه هو من نقل كلام جونسون المتهور إلى وولف لارسن، اشترى جونسون طقم ثياب مصنوع من الجلد المشمع من متجر السفينة (وهو نوع من المتاجر المصغرة، فيه تُخزن مختلف البضائع التي تُلبي احتياجات البحّارة، ويُخصم ثمنها من أرباح صيدهم اللاحقة، وكما هو الحال مع الصيادين، فانٍ مجدّفي القوارب وقادتها يتقاضون أجورهم على أساس «الرسوم» أي قدراً معيناً من المال لكل جلد عجل يصطادونه في قاربهم)، وكانت نوعيته رديئة للغاية على ما يبدو، ولم يتهاون جونسون في أخبار الجميع بذلك.

وقد سبب ما شهدته صدمة لي؛ لأني لم أعرف شيئاً عن تبرم جونسون بخصوص المتجر، كنت قد انتهيت للتو من كنس المقصورة وانخرطت في مناقشة مع وولف لارسن عن شخصية هاملت ـ التي يعتبرها أفضل ما جاد به قلم شكسبير ـ حين هبط جوهانسون سلم السفينة الداخلي يتبعه جونسون، وخلع الأخير طاقيته التزاماً بأعراف البحر ووقف باحترام وسط المقصورة يتأرجح بشدة بفعل ارتجاج السفينة يواجه القبطان مباشرة.

قال لي وولف لارسن: «أغلق الأبواب وأسدل الستائر».

ففعلت ذلك. لاحظت قلقاً شديداً يشعّ من عيني جونسون، لكنني جهلت السبب، ولم أتخيل ما سيحدث حتى حدث، لكنه كان يعرف منذ البداية ما الذي ينتظره بشجاعة، وفي فعله هذا وجدتُ دحضاً تاماً لكل مادية وولف لارسن؛ فقد كان البحار جونسون متأثراً بالفكرة والمبدأ والحقيقة والإخلاص، كان على حق، وهو يعلم أنّه على حق؛ لذا لم يكن خائفاً ولم يخشَ شيئاً، فهو مستعدٌ للموت من أجل الحق إذا اقتضت الحاجة، وسيكون صادقاً مع نفسه، مخلصاً لروحه. وفي هذا تصوير انتصار الروح على الجسد، واللاخضوعية والعظمة الأخلاقية للروح التي لا تعرف أية قيود وترتفع فوق الزمان والمكان والمادة بثقة لا تقهر ولا تولد من شيء سوى الخلود والأبدية.

ولكن للعودة إلى موضوعنا، صحيح بأني لاحظت القلق يتوهج في عيني جونسون، لكنني أخطأت في تقديره وحسبته بسبب خجل الرجل وإحراجه، وقف جوهانسون، على بعد عدة أقدام إلى جانبه، وجلس وولف لارسن أمامه مباشرة على بُعد ثلاث

يارِدات على أحد كراسي المقصورة، وران صمت ملحوظ بعد أن أغلقت الأبواب وأُسدلت الستائر، استمر دقيقة كاملة حتى كسره وولف لارسن بقوله:

«يونسون».

«اسمي جونسون يا سيدي». صحّح له البحّار بجرأة.

«حسناً يا جونسون، عليك اللعنة، هل لديك أدنى فكرة لماذا أرسلتُ بطلبك؟».

«نعم ولا. سيدي»، جاء جوابه بطيئاً، «أُنجز عملي على أكمل وجه، ويعرف رئيسي ذلك وكذلك أنت يا سيدي؛ لذلك لا مجال لأي شكوى بهذا الصدد».

«وهل هذا كلّ شيء؟»، سأله وولف لارسن بنبرة لطيفة ومنخفضة.

«أنا أعلم بأنك تُضمر لي شيئاً». تابع جونسون بلكنته الواضحة وإنجليزيته البطيئة، «أنت لا تستلطفني، أنت.. أنت.».

«تابع»، حثّه وولف لارسن على الكلام، «لا تخشَ من جرح مشاعري».

«لستُ خائفاً»، ردّ البحار بشيء من الغضب: «وإذا كانت كلماتي بطيئة؛ فلأنني لم أمكث في ذلك البلد القديم بقدرك. أنت لا تحبني يا سيدي؛ لأنني رجلٌ حقيقي وهذا هو السبب يا سيدي».

«إن فيك من الرجولة أكثر مما ينبغي للتقيّد بضوابط هذه السفينة، إذا كان هذا هو ما تقصده، وإذا كنت تعرف ما أقصده»، ردّ عليه وولف لارسن.

«أنا أعرف الإنجليزية، وأفهم قصدك جيداً يا سيدي». أجاب جونسون واعتلت وجهه حمرة غضب لتقليل شأن معرفته باللغة الإنجليزية.

«جونسون»، قال وولف لارسن بنبرة من يريد صرف كلّ ما مضى قبل الشروع بالموضوع الرئيسي: «أفهم أنك لستَ راضياً عن نوعية المعاطف المشمّعة؟».

«نعم. أنا غير راضٍ عنها، لأنها من النوع الرديء يا سيدي».

«ولهذا أطلقت للسانك العنان بذمّها».

«أنا أقول ما أفكر فيه يا سيدي». أجاب البحّار بشجاعة، ولم يغفل عن كياسة السفينة التي تطالبه بأن يُلحق كلمة سيدي بكل خطاب يقوله.

وفي هذه الأثناء، ألقيتُ نظره خاطفة نحو جوهانسون، كان يشدّ قبضته ويُرخيها وهو يرمق جونسون بنظرة شريرة ووجه شيطاني، لاحظت كذلك تلوُّنا أسودَ، لا يزال مرئياً بشكل خافت تحت عين جوهانسون، وهو علامة الهزيمة التي تلقاها قبل بضع ليالٍ من جونسون، ولأول مرّة، بدأت أتكهّن بأن شيئاً فظيعاً كان على وشك أن يشرع به، وهو ما لم أتصوره.

«هل تعرف ماذا يحدث للرجال الذين يتحدثون بسوء عن متجري وعنّي؟»، سأله وولف لارسن.

«أعرف يا سيدي».

«ماذا؟»، سأله لارسن بحدّة وإلحاح.

«ما أنت ومساعدك على وشك القيام به يا سيدي».

وجه وولف لارسن كلامه لي: «انظر إليه يا همپ، انظر إلى هذا الجزء من الغبار المتحرك، هذا التجمع للمادة التي تتحرك وتتنفس وتتحدّاني وتعتقد تماماً أنها مكونة من شيء جيد، متأثرة بخيالات إنسانية معينة مثل العدل والصدق، وأن عليها أن ترقى إليها على الرغم من كلّ المضايقات والتهديدات الشخصية. ما رأيك بهِ يا همپ؟».

«أظن أنّه رجل أفضل منك»، أجبته مدفوعاً بطريقة ما برغبتي بأن أمتصّ جزءاً من الغضب الذي شعرت أنّه كان على وشك أن يصبّه على رأس جونسون، «خيالاته الإنسانية كما تختار أن تسميها، تنبع من النبالة والرجولة، أما أنت فليس لديك خيالات ولا أحلام ولا مُثُل، أنت فقيرٌ مُعدم».

أومأ برأسه بسحرٍ وحشيّ وقال: «أنت محق تماماً يا همپ، ليست لدي خيالات إنسانية تنبع من نبالة ورجولة، فأنا أتّفق مع الواعظ حين يقول: إن الكلب الحي خيرٌ من الأسد الميت. عقيدتي الوحيدة هي العقيدة النفعية، وهي البقاء على قيد الحياة، انظر إلى هذه القطعة من الهياج التي نسميها (جونسون)، عندما لا يغدو هياجاً وإنما مجرد غبار ورماد، لن يكون له نبل أكثر من أي غبار ورماد، بينما سأظل حياً وأزأر».

«هل تعرف ماذا سأفعل؟»، سألني.

هززت رأسي.

«حسناً، سأُمارس صلاحياتي الصاخبة وأُريك مدى نجاح وإخفاق النبالة، راقبني فقط».

كان جالساً على بعد ثلاث ياردات من جونسون، ترك الكرسي بقفزة كاملة، دون أن يقف، واثباً كحيوان بري، ومثل النمر غطى المساحة التي تفصله عن جونسون، كان كانهيار جليدي سعى جونسون دون جدوى لصدّه، ألقى ذراعاً لحماية معدته ومدّ الذراع الأخرى لحماية رأسه لكن قبضة وولف لارسن كانت في المنتصف، هوت على صدره، أطلق جونسون نَفَساً بصوت ساحق مدوٍّ، نفسٌ طُرد من رئتيه فجأة، كتنهيدة رجل كان يحمل فأساً لفترة طويلة، فتراجع إلى الوراء قليلاً، وتمايل من جانب إلى آخر في محاولة لاستعادة توازنه.

وأعجز عن ذكر تفاصيل أخرى للمشهد الرهيب الذي أعقب ذلك، كان مثيراً للاشمئزاز، يُشعرني بالغثيان حتى الآن عندما أفكر فيه، قاتل جونسون بشجاعة كافية، لكنه لم يكن نداً لوولف لارسن، وزاد الأمر سوءاً وجود جوهانسون مع لارسن لقتاله، ما جرى كان مخيفاً، ما كنت أتصور أن الإنسان يمكن أن يتحمل كلّ هذا، ولا يزال على قيد الحياة، كافح جونسون رغم معرفته بأن لا أمل له بالنجاة ولا

حتى قليلاً ـ وكان يعرف هذا جيداً ـ لكن رجولته المتأصلة فيه منعته من التوقف عن القتال حتى النهاية.

فاق الأمر احتمالي لأشاهده، شعرت بأني سأُجَنّ إن لم أترك المكان في الحال، لذا، ركضت نحو السلم لفتح الأبواب والهروب إلى سطح السفينة، لكن وولف لارسن أدرك الأمر فترك ضحيته للوقت الراهن ووثب باتّجاهي فاعترض طريقي وقادني إلى زاوية المقصورة، وصاح في وجهي:

«إنها ظاهرة الحياة يا همپ، ابقَ هنا وشاهد؛ فقد يتسنى لك أن تجمع معلومات عن خلود الروح، علاوة على ذلك، كما تعلم، لا يمكننا أن نؤذي روح جونسون، إنه فقط الشكل العابر الذي يمكننا هدمه».

بدت لي كأنها قرون من الزمن، لكن الضرب لم يستمر لأكثر من عشر دقائق، التف وولف لارسن وجوهانسون على المسكين وأوسعاه ضرباً بقبضاتهما وركلاه بأحذيتهم الثقيلة، ما أن يسقط على الأرض حتى يجراه لينهض على قدميه، فيعاودان ضربه من جديد ويسقط أرضاً، عُميت عيناه من الضرب فلم يعد يرى ما حوله وكان الدم ينزف من أنفه وأذنيه وفمه فملأ المقصورة، وعندما لم يعد بإمكانه النهوض استمرا في ضربه وركله، حتى قال وولف لارسن أخيراً:

«على رسلك يا جوهانسون، يكفي».

لكن الوحش الكامن فيه كان لا يزال هائجاً مما اضطر وولف لارسن أن يجرفه بظاهر يده، قد تبدو دفعة طفيفة، لكنها أطاحت بجوهانسون، وضرب رأسه في الحائط؛ فوقع على الأرض شبه متفاجئ للحظات، يتنفس بصعوبة ويرمش بعينيه بغباء.

«افتح الباب على مصراعيه يا همپ».

أطعت الأوامر، حمل الوحشان الرجل وهو فاقد الوعي كأنه كيس قمامة، وصعدا الدرج عبر الممر الضيق حتى وصلا إلى سطح السفينة، كان الدم المتدفق من أنفه يصب على أقدام قائد الدفّة لويس رفيقه في القارب، الذي استمر يأخذ ويعطي بالكلام وينظر بهدوء إلى صندوق البوصلة دون اكتراث.

لكن الأمر مختلف بالنسبة لجورج ليتش، صبي المقصورة السابق، لم يفاجئنا شيء من مقدمة السفينة حتى مؤخرتها أكثر من سلوكه المترتب عليه؛ فقد جاء إلى مؤخرة السفينة دون أوامر وجر جونسون للأمام، وبدأ بتضميد جراحه بلطف قدر الإمكان، أما جونسون، فكانت هيئته غير معروفة وليس هذا فقط، نظراً لأن معالمه، كسِمات إنسانية، كانت غير معروفة على الإطلاق، فقد تغيّر لونها وتورّمت في الدقائق القليلة التي انقضت بين بداية الضرب وجرّ الجسد إلى الأمام.

وبحلول الوقت الذي انتهيت فيه من تنظيف المقصورة وتطهيرها، كان ليتش يعتني بجونسون، خرجت إلى سطح السفينة لاستنشق الهواء النقي، وأحاول تهدئة أعصابي المتوترة، كان وولف لارسن يدخّن سيجاراً ويفحص جهاز قياس سرعة السفينة المقطور في مؤخرة الشبح عادة، لكنه نُقِل داخلها لأغراض أخرى، وفجأة

تناهى صوت ليتش إلى أذني، متوتراً وَعِراً بغضب شديد. التفتّ فرأيتَه واقفاً أسفل كسر مؤخرة السفينة على جانب منفذ السفينة، كان وجهه متشنجاً شاحبَ اللون، وعيناه تومضان، رفع قبضته المشدودة إلى الأعلى وهو يقول:

«لعنة الله على روحك وليقذف بها إلى الجحيم يا وولف لارسن، حتى الجحيم أكثر مما تستحق أيها الجبان المجرم الخنزير».

هالني ما سمعت وتوقعت أن يقتله وولف لارسن فوراً، لكنها لم تكن نزوة عابرة حتى يفنيه، قام وولف لارسن من مكانه ومشى الهوينى حتى وصل إلى كسر مؤخرة السفينة واتكأ بمرفقه على زاوية المقصورة وحدّق بفضول بوجه الصبي المتحمس.

وجّه الصبي سيل الاتّهامات إلى وولف لارسن كما لم يفعل من قبل، وتجمع البحارة بمجاميع مرتابة خارج كوّة السلوقية؛ ليتفرجوا ويسمعوا، أما الصيادون فقد خرجوا من مهاجعهم على عجالة وتكوّموا هناك، وبينما استمر وابل الشتائم ينهال من فم ليتش، لاحظتُ الخوف على وجوههم، لا مِن كلمات الصبي ذاتها، وإنما من جرأته المفرطة، فحتى هم لم يستطيعوا أن يتخيّلوا أنّه بإمكان أي مخلوق مواجهة وولف لارسن وجهاً لوجه، وقد أعجبت بالصبي أيما إعجاب، فقد رأيتُ فيه لامبالاة رائعة للخلود تتصاعد فوق الجسد ومخاوفه، كما في أنبياء العهد القديم عندما يثورون لإدانة الآثم.

وأية إدانة كانت! فقد جذب روح وولف لارسن وعرّاها ليخزيها بين الرجال، وأمطرها بوابل من لعنات الرب والسماوات السبع وذواها بذم استقاه من الحرم الكنسي لكنائس الكاثوليك في العصور الوسطى، ووجَّه إليه العديد من الاتهامات، ترتفع إلى ذروة الغضب السامية وشبه الإلهية، ثم تهبط إلى أشد المعاملة إساءة وأكثرها سوءاً.

استحال غضبه إلى جنون، وغطى الزبد شفتيه، وكان في بعض الأحيان يختنق ويقرقر فيصبح كلامه غير مفهوم، وكان وولف لارسن غارقاً في فضوله لا يزال هادئاً يستند على مرفقه وينظر إلىً الأسفل، هذا التحرك الوحشي لخميرة الحياة، هذا التمرد الرائع وتحدّي المادة التي تحركت، كلّ هذا لفت انتباهه وحيُّره.

وفي كلّ لحظة كنت أنا والبقية ننتظر أن يهجم عليه لكن نزوة كهذه لم تراوده، وحتى بعد أن ذوت السيجارة، فقد استمر في النظر بصمت وفضول.

ووصلت نشوة ليتش بسبب غضبه العاجز وصمت لارسن المهين له إلى ذروتها فأخذ يصرخ بأعلى صوته «خنزير. خنزير. خنزير! لماذا لا تنزل إلى هنا وتقتلني أيها المجرم؟ أنت تستطيع فعل ذلك وأنا لا أخاف منك، لا أحد سيعترض طريقك عليك اللعنة! وإني لأفضّل الموت بعيداً عنك على أن أبقى حياً تحت براثنك، هيا تعال يا جبان. اقتلني. اقتلني!».

وفي هذه المرحلة، تدخلت روح توماس ماكريدج الشاذة ونقلته إلى مكان الحادث، كان يستمع من عند باب المطبخ، لكنه خرج الآن لقذف بعض الخردة على الجانب

ظاهرياً، لكن من الواضح أنّه جاء لرؤية مشهد القتل الذي كان على يقين أنّه سيحدث، ابتسم بشحوب بوجه وولف لارسن، الذي بدا أنّه لم يره، لكن الكوكنيّ كان قليل الحياء ومجنوناً رسمياً، التفت إلى ليتش وقال:

«انتبه إلى ألفاظك، ياللهول!».

غَضِب ليتش، ولم يعد عاجزاً، هنا، في النهاية، كان هناك شيء جاهز لتنفيسه، ولأول مرّة منذ حادثة الطعن، ظهر الكوكني خارج المطبخ دون أن يحمل سكينه، غادرت كلماته فمه بصعوبة حتى ضربه ليتش، كافح ثلاث مرات للوقوف على قدميه، وسعى جاهداً للوصول إلى المطبخ، وفي كلّ مرّة يطيح به ليتش أرضاً.

«أوه يا إلهي». صاح مستغيثاً، «ساعدوني. أبعدوه عني. ألا ترون؟ أبعدوه عني».

ضحك الصيادون بارتياح عارم. ها هي المأساة قد انتهت وبدأت المهزلة، احتشد البحّارون في الخلف بجرأة يضحكون ويكشرون لمشاهدة ضرب الكوكنيّ الكريه، أعترف بأني شعرت بفرح كبير تصاعد بداخلي وسرور؛ لأن ليتش أوسع توماس ماكريدج ضرباً، بالرغم من أن الضرب كان فظيعاً تقريباً مثل الذي تسبب به ماكريدج لجونسون، لكن تعبير وجه وولف لارسن لم يتغير قط، لم يغير من وضعية جلوسه حتى، واستمر في النظر بفضول كبير. ورغم يقينه البراغماتي، بدا كما لو أنّه شاهد مسرحية وحركة الحياة على أمل اكتشاف المزيد، ويتبصر في كتاباتها المجنونة شيءٌ ما فلت منه حتى الآن، وهو مفتاح الغموض الذي يكتنفه، والذي من شأنه أن يجعل كلّ شيء واضحاً وسهلاً.

لكن الضرب كان مشابهاً تماماً للذي شاهدته في المقصورة، سعى ماكريدج دون جدوى لحماية نفسه من الصبي الغاضب، وعبثاً ما حاول أن يلوذ في المقصورة، تدحرج تجاهها، وزحف نحوها، ورمى نفسه بطريقها عندما صرعه ليتش أرضاً، لكن الضربة تبعت الضربة بسرعة مذهلة، كان يطرق الأرض مثل الريشة، حتى أصبح أخيراً مثل جونسون، يتعرض للضرب والركل وهو مستلقٍ على سطح السفينة، ولم يتدخّل أحد، كاد ليتش أن يقتله، إلا أنّه اكتفى بهذا القدر من الانتقام، فابتعد عن خصمه المتكور وهو ينحب ويعوي كجرو، ومشى إلى الأمام.

لكن هاتين المسألتين كانتا فقط الأحداث الافتتاحية لبرنامج اليوم، ففي فترة ما بعد الظهيرة حصل شجار حادّ بين سموك وهندرسون، سُمع وابل الرصاص من المُدَّفى تبعه تدافع الصيادين الأربعة الآخرين على سطح السفينة، كان عمود من الدخان السميك الحاد ــ وهو النوع الذي يصنعه البارود الأسود دائماً ــ يتصاعد من فتحة الدرج مما حدا بوولف لارسن لأن يتدخل. وصل صوت الإطلاقات النارية والشجار إلى آذاننا، كان الرجلان كلاهما مُصابٌ، وكان لارسن يقرّعهما؛ لأنهما عصيا أوامره وسببا لنفسيهما إعاقة قبل بدء موسم الصيد، وفي الواقع، فقد كانت جراحهم بالغة، وبعد أن انتهى من ضربهم وتقريعهم بدأ بإجراء عمليات جراحية بطريقة قاسية، ثم ضمّد جراحهم، وقد عملتُ كمساعد له بينما نظّف الجروح التي سببتها الرصاصات وضمدها، وقد احتمل الرجلان تلك العملية القاسية دون مخدر سوى جرعات الويسكي.

ثم وفي أول مناوبة حراسة، وصلت المشاكل إلى المقدمة في سلوقية المركب، بدأت من نقل الأحاديث والحكايات التي سبّبت بضرب جونسون، ومن الضوضاء التي سمعناها ورؤية الكدمات التي تملأ وجوه الرجال، كان واضحاً أن نصف رجال السلوقية قد ضرب النصف الآخر ضرباً مبرَّحا.

أما نوبة الحراسة الثانية فقد آلت إلى قتال آخر بين جوهانسون ولاتمير الصياد الأمريكي النحيل. وكان سببه التعليقات التي أبداها الأخير حول الضجّة التي أحدثها جوهانسون أثناء نومه، وعلى الرغم من هزيمة جوهانسون، إلا أنّه أقلق نوم الجميع في المُدَفّى الليل بطوله لأنه كان يستعيد ـ أثناء نومه ـ كلّ ما جرى معه في النهار من قتال مراراً وتكراراً.

وبالنسبة لي، أرهقت ليلتي الكوابيس، كان يومي فظيعاً كحلم مزعج، أخذت الأعمال الوحشية تتلاحق، والمشاعر المتأججة والقسوة بدم بارد دفَّعت الرجال لأن يسعوا لقتل أحدهم الآخر والسعي إلى الأذى والتشويه والتدمير، تَلِفت أعصابي وأصيب دماغي بصدمة من هول ما حصل. مرّت كلّ أيامي في جهل مقارنة بحيونة الإنسان، في الحقيقة، لم أعرف الحياة إلا في مراحلها الفكرية، وحتى الوحشية التي مررت بها كانت وحشية فكرية كسخرية تشارلي فوروسيث من حين لآخر وحكمه الساخرة القاسية، والذكريات المؤلمة العرضية للزملاء في بيبيلوت، والانتقادات اللاذعة لبعض الأساتذة خلال أيام دراستي الجامعية.

وهذا كلّ شيء، لكن ما يفعله الرجال بتنفيس غضبهم على الآخرين على شكل كدمات على الجسد أو إراقة للدماء، كان شيئاً جديداً غريباً ومخيفاً بالنسبة لي، فلم أُدعَ «سيسي» فان وايدن بلا سبب. بعد كلّ شيء تقلّبت بلا هوادة على مرتبتي يتقاذفني كابوس إلى آخر، واتضح لي أن جهلي بحقائق الحياة كان تاماً بالفعل، فضحكت بمرارة على نفسي ووجدت في فلسفة وولف لارسن المحرّمة تفسيراً أكثر ملاءمة للحياة مما وجدته في فلسفتي.

وكنتُ خائفاً عندما أصبحت واعياً بتوجه فكري، كانت الوحشية المستمرة من حولي هدّامة في تأثيرها، إنها محاولة لتدمير كلّ ما كان أفضل وألمع في حياتي، كان تعليلي لإلقاء اللوم على توماس ماكريدج الذي تعرض للضرب شيئاً سيئاً، إلا أنني لم أستطع أن أمنع نفسي من الاستمتاع بذلك، حتى وإن أرهقتني ضخامة خطيئتي ـ وكانت خطيئة بكل تأكيد ـ إلا أنني ضحكت بمجون بسببها، لم أعد همفري فان وايدن بعد الآن، أنا همپ، صبي المقصورة على متن سفينة الصيد (الشبح)، ووولف لارسن قبطاني، وتوماس ماكريدج والآخرون رفاقي، وكنت أتلقّى انطباعات متكرّرة من الموت الذي ختمهم جميعاً.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثالث عشر

قمت بعمل توماس ماكريدج لثلاثة أيام فضلاً عن مهامي، وإني لأُطري على نفسي إجادتي للعمل، وعلمت بأن طبخي نال استحسان وولف لارسن وعبّر البحّارة عن رضاهم في هذه الفترة الوجيزة.

«هذه أوّل لقمة نظيفة أتناولها منذ أن أبحرنا»، قال لي هاريسون عند باب المطبخ عندما أعاد قدور وأواني العشاء من مؤخرة السفينة، وأضاف: «يمكنك تذوّق طعم شحم عَفِنٍ في طعام تومي بطريقة أو بأخرى، أراهن على أنّه لم يغيّر قميصه هذا منذ أن غادر سان فرانسيسكو».

«أعلم بأنه لم يفعل»، أجبته.

«وأراهن بأنه ينام فيه كذلك»، أضاف هاريسون.

«أصبت، ولن تخسر رهانك؛ لأنه يرتدي القميص ذاته ولم يخلعه ولا مرّة طيلة هذه الفترة».

وقد تكرَّم وولف لارسن على ماكريدج بثلاثة أيام فقط ليتعافى من آثار الضرب المبرح، وفي اليوم الرابع، جرّه من قفا رقبته وأخرجه من فراشه ليقوم بمهامه في المطبخ، كان توماس ضعيفاً يتألم ويكاد لا يرى ما هو قريبٌ جداً من عينيه المتورمتين، ولم يشفع له بكاؤه عند وولف لارسن؛ لأنه بلا شفقة، بل هدده قبل أن يغادر:

«إياك وطبخ قاذورات الطعام بعد الآن، نريد طعاماً نظيفاً خالياً من الشحوم، وارتدِ قميصاً نظيفاً من حين لآخر وإلا رميتك في البحر، مفهوم؟».

دخل ماكريدج يعرج بصعوبة ويتحرك بوهن من باب المطبخ، وسببت له حركة خفيفة من تموجات الشبح بأن يتأرجح، وفي محاولة يائسة ليثبّت نفسه، مد يده إلى الدرابزين الذي يحيط بالموقد ويحفظ الأواني من السقوط، لكنه أخطأ الهدف وبكل ثقله التصقت يده على السطح الحار للقدر، فسمعت صوت حسيس وفاحت رائحة احتراق جلده ولحمه فصرخ من شدة الألم.

«يا إلهي. يا إلهي ماذا فعلت بنفسي؟». ظلّ يبكي وهو جالسٌ على صندوق الفحم يرعى جرحه الجديد وهو يتحرك في مقعده إلى الأمام والخلف: «لماذا يصيبني كلّ هذا؟ يؤلمني كلّ ما يحصل معي، حاولت قدر استطاعتي أن أكون مُسالماً ولا أؤذي أحداً. لماذا يحدث معي كلّ هذا؟».

انسابت دموعه على خديّه المتورمين المبقعين بآثار الضرب، وطاف على وجهه المشوه بالألم تعبيرٌ وحشي من الكراهية وقال:

«أوه، أنا أبغضه، أنا أكرهه».

«مَن تعني؟» سألته.

لكن المسكين لم يُجب، بل انخرط في البكاء من جديد ينعى حظه السيّئ، والواقع أن تخمين من يكرههم ماكريدج أسهل من أن أحزر من لا يفعل، فقد رأيتُ فيه شيطاناً مريداً يكره العالم بأسره، وكنت أظنه في بعض الأحيان يكره حتى نفسه؛ لأن الحياة ظلمته وعاملته بشكل بشع ووحشيّ، وفي مثل هذه اللحظات، كانت الشفقة عليه تخالجني وأتعاطف معه، شعرت بخزي من نفسي؛ لأني فرحت لما أصابه من ألم، فلم تكن الحياة عادلة معه وتآمرت عليه الظروف فشكّلته على هذه الصورة التي هو فيها والوضع الذي يعاني منه، فما احتمالات أن يكون شخصاً آخر غير ما هو عليه؟ وكما لو أنّه كان يجيب على أفكاري الصامتة، ناح وقال:

«لم تُتح لي فرصة واحدة في الحياة، ولا حتى نصف فرصة، مَن الذي اهتمّ بإرسالي إلى المدرسة؟ لا أحد. أو وضع لقمة في فم تومي الجائع؟ لا أحد أيضاً. ومن مسح الدم النازف من أنفي عندما كنتُ طفلاً؟ أو فعل أي شيء من أجلي؟ اللعنة. لا أحد. لا أحد».

«لا عليك يا تومي»، قلت له ووضعت يدي على كتفه لأُواسيه، «ابتهج، كلّ شيء سيكون على ما يرام في نهاية المطاف، أمامك عمرٌ طويل وبإمكانك أن تصنع من نفسك ما يروق لك».

«هذا غير صحيح، إنه كذب»، صاح في وجهي ودفع يدي عن كتفه، «أنت تكذب وتعرف أنك تكذب، شُكّلت حياتي على هذا النحو وانتهى الأمر، أما أنت يا همپ، فالأمر مختلف معك، ولدتَ سيداً نبيلاً، ولم تعرف ماذا يعني أن تتضور جوعاً، وتتكوّر على نفسك لتبكي من خواء معدتك التي تصدر أصواتاً كأنّ فأراً بداخلك ينهش، كلا، لن يتحسن الحال حتى لو أصبحت رئيساً للولايات المتحدة غداً، فكيف لهذا أن يعوض يوم حرمان واحد قضيته في طفولتي ونمتُ بمعدة خاوية؟

أوه، هل يمكن ذلك؟ أنا أتساءل، ولدتُ للشقاء والمعاناة وقاسيتُ وحدي من العذاب أكثر مما يحتمله عشرة رجال، قضيتُ نصف عمري البائس في المستشفيات، عانيت من الحُمّى في إسبانيا وهافانا ثم نيو أورليانز، وكاد الاسقربوط يفتك بي عندما قضيت ستة أشهر أتعفن في باربادوس. وهاجمني الجدري في هونولولو، وانكسرت ساقاي في شنغهاي وعانيت من فقر الدم في ألاسكا، وتكسرت ثلاثة أضلاع عندي والتوت أحشائي في سان فرانسيسكو، وها أنا ذا هنا، انظر إلي! انظر إلى أضلاعي المنفلتة من عمودي الفقري من جديد، سأبصق دماً قبل أن تنقضي ثمان ساعات. أوه، هل تظن أن أحوالي ممكن أن تتحسن؟ أنا أسألك الآن. من سيحسّنها؟ الله؟ أوه أظنه يكرهني عندما قدّر لي أن أذهب في رحلة على متن هذا العالم الدامي الذي صنعه».

واستمر تذمره على القدر لمدة ساعة أو أكثر، ثم عاد إلى عمله يعرج ويتألم وفي عينيه حقد وكراهية لكل المخلوقات، ومع هذا، كان تشخيصه لمرضه صحيحاً، ففي ذلك اليوم، عانى من نوبات غثيان شديدة جعلته يتقيأ دماً ويعاني من الألم الشديد.

وكما قال، يبدو أن الله يكرهه لدرجة يمنع عنه الموت، لكن حالته بدأت تتحسن وازدادت شخصيته شراً ولؤماً أكثر من أي وقت مضى.

مضت عدّة أيام قبل أن يتمكن جونسون من أن يخطو الهوينى على سطح السفينة ويقوم بعمله رغماً عن إرادته، كان لا يزال مريضاً، لاحظته أكثر من مرّة يتسلق بصعوبة حبل الشراع الثاني عالياً أو يقف مرهقاً عند دفّة القيادة، لكن الأسوأ من هذا، هو معنوياته التي يبدو أنها تحطمت؛ فقد كان ذليلاً أمام وولف لارسن وخاضعاً لجوهانسون، لكن الأمر مختلف بالنسبة لسلوك ليتش الذي أخذ يجوب سطح السفينة كشبل نمر، يُجاهر بكراهيته لوولف لارسن وجوهانسون علناً.

«سأنال منك يوماً ما، أيها السويديّ مسطّح القدمين». سمعته يقول هذا لجوهانسون ذات ليلة على سطح السفينة، فشتمهُ الأخير في الظلام، ثم سمعت رشقة ضربت المطبخ بشدة، وعلا صوت السُباب وضحكات الاستهجان، وعندما هدأت الأوضاع تسللتُ إلى الخارج ووجدت سكيناً كبيرة مغروزة في الخشب الصلب مسافة بوصة واحدة، ثم جاء جوهانسون يبحث عنها لكنه لم يجدها لأني أخذتها وسلمتها سراً لليتش في اليوم التالي، فابتسم لي ابتسامة صادقة حوَت من الشكر ما يكفي أكثر من إطناب الكلام الذي اعتاد رفاقي الأكاديميون التقوّه به.

كنت على وفاق مع الجميع، أنا الوحيد الذي لم يخُض أي جدال أو عراك مع أي أحد على متن هذه السفينة، قد لا يستلطفني الصيادون لكنهم لا يكرهونني، وبينما كان كلّ من سموك وهندرسون يتماثلان للشفاء تحت سطح السفينة في الظلّ يتأرجحان في أرجوحتيهما الشبكيتين ليلاً ونهاراً، أكدّا لي بأني حاذق مثل أية ممرضة وبأنهما سيكافئانني عندما يقبضان مالهما نهاية الرحلة (كأنني في حاجة إلى نقودهما! أنا الذي أستطيع شرائهما معاً هم والشبح بما فيها من معدات لعشرات المرات!)، وقد أُنيطت بي مهمة رعايتهما والعناية بهما حتى يتماثلا للشفاء وفعلت ما بوسعي لهما.

عانى وولف لارسن من نوبة صداع أخرى استمرت يومين، يبدو أنها كانت عنيفة مثل سابقاته لأنه ناداني لمساعدته وكان مطيعاً لأوامري كطفلٍ مريض، إلا أنّ لا شيء مما فعلت خفّف عنه، على الرغم من أنّه ترك التدخين واحتساء الشراب بناء على طلبي، وإني لأعجب كيف لرجل قوي البنية ـ كوولف لارسن ـ أن يصاب بمثل هذه النوبات.

«هذه يدُ الربّ تعاقبه، أؤكد لك». كما يراها لويس: «إنها جزاء لأفعاله المشينة وسيناله الكثير منها وإلا.».

«وإلا ماذا؟»، قاطعته.

«وإلا يكون الربّ جالساً يومئ برأسه لا أكثر ولا يقوم بعمله كما يجب، مع أنّه لا يجوز لي أن أقول ذلك على هذا النحو».

وكنتُ مُخطئاً حين ذكرتُ بأني على وفاق تام مع الجميع، لم يستمر توماس ماكريدج بكرهي فقط وإنما أوجد سبباً جديداً آخر لذلك، ولم يستغرقني وقت طويل

لأكتشفه، فقد علمتَ أخيراً أنّه يبغضني؛ لأني أكثر حظاً منه، ولدتَ في مجتمع راقٍ كما قال: «وُلدتَ رجلاً نبيلاً».

«لم يمُت أي أحد حتى الآن»، شاكستُ لويس عندما بدأ كلّ من سموك وهندرسن بالحركة على سطح السفينة مستغرقين في محادثة ودية جنباً إلى جنب.

نظر إليّ يتفحصني بعينيه الشريرتين الرماديتين وهز رأسه معترضاً: «العاصفة قادمة، أؤكد لك. وستكون كقرع الكرِّ وصواريه عندما تُمسكه الأيدي، عندها ستعوي إيذاناً بقدومها، شعرت بذلك منذ فترة طويلة وها أنا أشعر باقترابها كما أتحسس حبل الصَّاري تحت جنح الليل، إنها قادمة، قادمة».

«من سيموت أولاً؟»، تساءلت.

«أعدك بأن لا يكون لويس العجوز». قال وضحك: «أشعر بها في عظامي، أعلم بأنّي سأكون في مثل هذا الوقت من العام القادم أحملق في وجه أمي العجوز المنهكة من مراقبة البحر وهي تنتظر أولادها الخمسة الذين أودعتهم عنده».

«ماذا كان يقول لك؟»، سألني توماس ماكريدج بعد لحظات.

«إنه سيعود إلى بيته يوماً ما لرؤية أمه العجوز».

«لم أحظَ بواحدة أبداً لأزورها». قال الكوكني هذا ونظر إليّ نظرة الميؤوس منه، جوفاء وتعيسة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الرابع عشر

راودتني اليوم فكرة أني لم أُعر الجنس اللطيف الاهتمام المطلوب، ولهذا الغرض، بالرغم من أني لم أفطر على مثل هذا الحب بدرجة كبيرة على حد علمي، إلا أني لم أخرج من وسط رعاية النساء طيلة حياتي حتى الآن؛ فقد ظلت أمي وأخواتي حولي على الدوام، وكنت أحاول الهرب منهن دائماً؛ لأن اهتمامهن الزائد يزعجني وقلقهن المستمر على صحتي يرهقني، وكذلك الغارات التي تشنها هؤلاء النسوة على وكري وعبثهن بفوضاي المنظمة ـ التي أفتخر بها ـ وقلبها رأساً على عقب لتصبح فوضى أسوأ وأقل نظاماً على الرغم مما يوحي بها منظرها المنظّم، وأعجز عن إيجاد أي شيء أبحث عنه بعدما يغادرن، لكنّي الآن، أتحسر على هذا، فكم سأرحب بوجودهن حولي، وأن أسمع حفيف فساتينهن الذي لطالما مقتُّه! أنا موقن في حال عدت إلى المنزل، لن يزعجني وجودهن أبداً، فليرعَينني وليسهرن على راحتي طوال اليوم، وليكنسن وينظفن وليُعِثن الفوضى في عريني متى ما رغبن في ذلك، كلّ ما سأفعله هو أن أكون ممتناً لكل شيء وأكون شاكراً؛ لأن لي أماً وأخوات.

دفعني كلّ هذا إلى التساؤل: أين هنّ أمهات هؤلاء العشرين رجلاً الموجودين على متن الشبح؟ وقد راعني التفكير بأن يكون الرجال مفصولين عن النساء، يجوبون العالم بمفردهم، فهو أمر غير صحي وغير طبيعي على الأطلاق، وما خشونة الطبع والعنف إلا نتائج حتمية لهذا، يجب أن يكون لهؤلاء الرجال زوجات وأخوات وبنات، حينها يكونون قادرين على احتواء اللطف والعطف ولين العريكة، والحال هنا يقول بأنه لا أحد منهم متزوج، وتمضي السنوات دون أن يلتقي أحدهم بامرأة محترمة أو يقع في محيط يتأثّر فيه بالرقة التي تشع من هذا المخلوق فتكون الخلاص لهم، إنهم رجال لا اتّزان في حياتهم، فقد تطورت رجولتهم المائلة إلى العنف بطبيعتها أكثر مما ينبغي، أما الجانب الرقيق والروحاني في نفوسهم فقد تقزّم واضمحل، بل انمسخ في الواقع.

إنهم مجموعة عُزّاب يتناحرون ويتقاتلون بعنف مع بعضهم، تزداد قساوتهم يوماً بعد آخر جرّاء ذلك، كنت أظن أحياناً بأنه من المستحيل أن يكون لهم أمهات، فهم يبدون صنفاً خاصاً يختلف عن الإنسان، نصفه وحش ونصفه الآخر إنسان، لا يمتّ لغريزة الجنس بصلة وإنما يولد بعد أن يفقس من بيوضه بفعل حرارة الشمس كبيوض السلاحف، أو إنهم يُبعثون إلى الحياة بأبسط أشكالها بدائية ويقضون أيامهم كلها بقسوة ووحشية ويموتون في النهاية غير محبوبين كما عاشوا.

صيّرني انحراف أفكاري الجديد فضولياً فتحدّثت إلى جوهانسون ليلة أمس (وهي المرة الأولى التي أتحدث فيها معه منذ بدء الرحلة) فأخبرني بأنه غادر السويد في الثامنة عشرة من عمره وهو يبلغ ثمانية وثلاثين عاماً الآن، وإنه لم يرجع إلى وطنه طوال هذه الفترة، وقد قابل رجلاً من بلدته قبل سنتين في إحدى منازل توقف البحّارين في تشيلي فعلم منه أن والدته لا تزال على قيد الحياة.

«لا بد أنها الآن عجوزٌ طاعنة في السن». قال ذلك وهو يتأمل صندوق البوصلة، ثم رمق هاريسون بنظرة ثاقبة عندما رآه ينحرف نقطة واحدة عن مساره.

«متى كانت آخر مرّة كتبت لها خطاباً؟».

أجرى حساباته بصوت عالٍ وقال: «كان ذلك في 1881. لا، في 1882. كلا في 1883، أي منذ عشر سنوات، كتبت لها من ميناء صغير في مدغشقر عندما كنت أقايض بضاعة هناك». صمت برهة ثم تابع كما لو أنّه يوجه كلامه لوالدته التي أهملها في الجزء القصي من الكرة الأرضية:

«كما ترى، كنت أعتزم زيارتها كلّ سنة، فلماذا أكتب؟ فالسنة مدة قصيرة، وفي كلّ سنة يحدث ما يعيق زيارتي فلا أذهب، لكنني الآن رئيس البحّارة وسأقبض حوالي خمسمائة دولار حينما نرسو في سان فرانسيسكو، وسأسافر على متن سفينة إلى ليفربول وسأقبض المزيد من المال كذلك، وسأدفع ثمن مروري من هناك إلى وطني، ولن تحتاج إلى العمل بعد ذلك».

«وهل ما زالت والدتك تعمل الآن؟ كم تبلغ من العمر؟»

«حوالي سبعين عاماً، نحن نعمل منذ ولادتنا حتى مماتنا في وطني، ولهذا السبب نحن نعمّر، وسأعيش أنا قرابة المائة عام».

لن أنسى حديثي هذا مع جوهانسون ما حييت؛ لأنها كانت كلماته الأخيرة معي وقد تكون كلماته الأخيرة أيضاً، عندما عدت إلى المقصورة قررت ألّا أنام هناك تلك الليلة، كانت ليلة هادئة وكانت السفينة تسير عقدة واحدة في الساعة؛ لأننا خرجنا من مجال الرياح التجارية، فتأبطتُ وسادة وبطانية وصعدت إلى سطح السفينة.

وبينما اجتزت بين هاريسون وصندوق البوصلة الموضوع فوق المقصورة، لاحظت أن السفينة قد انحرفت ثلاث نقاط كاملة، خلته نائماً ففكرت أنّه من الأجدر بي أن أحذّره حتى لا يطاله توبيخ بسبب ذلك أو ما هو أسوأ، لكنه لم يكن نائماً وإنما كان يحدق بعينين واسعتين ويبدو عليه اضطراب شديد عجز عن الرد عليّ.

«ما الأمر؟ هل أنت مريض؟».

هز رأسه كما لو أنّه يحاول أن يستفيق.

«حريٌ بك أن تعود إلى مسارك الصحيح إذن!».

فأضاف نقاطاً أخرى، رأيت بطاقة البوصلة تتحرك ببطء نحو الشمال. الشمال. الغرب وتثبت في مكانها.

أمسكت حاجيات نومي من جديد وتحضّرت للبدء، عندها لفتت انتباهي حركة غير عادية فنظرت نحو درابزين مؤخرة السفينة وإذا بي ألمح يداً قوية تقطر ماءً تمسك به، وظهرت يدٌ أخرى من الظلام لتمسك به هي الأخرى، راقبت ما يجري مذهولاً، ما الشيء الذي انبثق من عمق المجهول الذي أنا على وشك رؤيته؟ أياً كان ما سأشاهده، علمت بأنه شرٌ، ثم رأيتُ رأساً بشعر رطب وضحت ملامحه، بلا شك

يعود لوولف لارسن، غطى الدم الذي انساب من جرح في رأسه خده الأيمن، سحب نفسه إلى الأعلى بحركة سريعة وانتصب واقفاً على سطح السفينة ينظر بسرعة كعادته إلى الرجل قرب عجلة القيادة كما لو أنّه يريد التأكد من هويته حتى يأمن جانبه، انهمرت مياه البحر منه بصوت مسموع فأوجست خيفة من منظره ثم تقدّم نحوي فانكمشت على نفسي لا إرادياً لأني رأيت الموت يلوح من عينيه.

«لا تخف يا همپ»، قال بصوت منخفض: «أين جوهانسون؟».

هززت رأسي، لا أعلم.

«جوهانسون؟»، صاح بصوت خفيض مرّة أخرى: «جوهانسون؟».

«أين هو؟»، سأل هاريسون هذه المرة.

يبدو أن الشاب قد استعاد رباطة جأشه، لأنه أجاب بثبات وثقة: «لا أعلم يا سيدي، رأيته يذهب إلى الأمام قبل قليل».

«وأنا كذلك ذهبت إلى الأمام، لكنك ستلاحظ أني لم أرجع من نفس الطريق الذي ذهبت منه. كيف تفسر ذلك؟».

«لا بدّ أنك كنت فوق سطح السفينة يا سيدي».

«هل ترغب أن أبحث عنه في المُدَفّى يا سيدي؟»، سألته.

هزّ وولف لارسن رأسه بالنفي: «لن تجده هناك يا همپ، لكنك تنفعني، تعال معي، ولا تبالِ بفراش نومك، اتركه حيث هو».

مشيت خلفه، لم يكن هناك ما يُثير الشُبهات في وسط السفينة.

«هؤلاء الصيادون الملاعين، أكسل من أن يقفوا للحراسة أربع ساعات».

ووجدنا في مقدمة السَلوقية ثلاثة بحّارة نائمين، فقلب لارسن كلّ واحد منهم ونظر في وجهه، كانوا طاقم حراسة سطح السفينة، وكان من عادات السفينة في الطقس الجيد أن يُسمح للحراس بالنوم ماعدا قائدهم، ومدير الدفّة والكشّاف.

«مَن الكشّاف؟»، سألهم.

«أنا يا سيدي»، أجابه هولي أوك، أحد صيادي المياه العميقة برعشة خفيفة في صوته، «أغمضت عيني هذه اللحظة، أنا آسف يا سيدي، لن تتكرر هذه مرّة أخرى».

«هل لاحظت أي حركة أو سمعت أي صوت على سطح السفينة؟».

«كلا يا سيدي، أنا..».

فأدار لارسن وجهه عنه باحتقار تاركاً إيّاه يفرك عينيه متفاجئاً كيف أفلت من العقاب بهذه السهولة.

«تحرك بلطف»، حذرني وولف لارسن هامساً وهو يستدير نحو غطاء كوّة السلوقية ويتهيّأ للنزول.

تبعته وقلبي يخفق بسرعة، لا أعرف ما الذي على وشك أن يحصل بقدر معرفتي ما حدث، أريق دم وولف لارسن، ولا أظنه ذهب إلى جانب السفينة وشُجّ رأسه مصادفة، فضلاً عن اختفاء جوهانسون.

كانت هذه المرة الأولى التي أهبط بها إلى السَلوقية، ولن أنسَ انطباعي عنها لفترة طويلة، وقفت أسفل الدرج على قدمي أتفحّصها، وقد بُنيت في مقدمة السفينة على شكل مثلث وعلى امتداد اضلاعه الثلاثة عُلّق اثنا عشر سريراً مزدوجاً فوق بعضها، مع أنها ليست أكبر من غرف الاستقبال ومع هذا فقد حُشر فيها اثنا عشر رجلاً ليأكلوا ويناموا ويعيشوا. صحيح أن غرفتي الخاصة في منزلي ليست كبيرة، لكنها ممكن أن تحوي دزينة سلوقيّات مجتمعات كهذه، أما ارتفاع السقف، فعشرات المرات أعلى من سقف السلوقيّة.

كانت تنبعث منها رائحة عفونة وتعرّق، وبالاستعانة بضوء المصباح الخافت المتأرجح، استطعت أن أرى أرجاء هذه الغرفة الضيقة، وقد عُلّقت على كلّ مساحة فارغة في جدرانها أحذية البحّارة ومعاطفهم المشمعة وملابسهم المختلفة النظيفة والمتّسخة على حدٍّ سواء، تتأرجح مع حركة السفينة وتصدر صوتاً كحفيف الأشجار على سقف المنزل، وصدَر صوت ارتطام قويّ لأحد الأحذية على الحائط، وبالرغم من كونها ليلة هادئة في البحر، إلّا أن أصوات صرير خشب الأرضية والحديد الذي يربطها معاً شكّلت أنغاماً مستمرة.

ولم يبالِ النائمون الثمانية بهذه الأصوات ــ وكذلك الحارسان في الأسفل ــ، وكان الهواء راكداً عفناً بروائح تنفسهم وآذانهم مُلئت بشخيرهم وتنهداتهم وزمجراتهم شبه الحيوانية وهم نائمون، ولكن هل كانوا نائمين حقاً؟ أجميعهم؟ هذه المهمة التي كان وولف لارسن بصدد التحقّق منها ــ أن يجد الرجال الذين يتظاهرون بالنوم وما هم بنيام، وقد ذكّرني فعله هذا بقصة للكاتب الإيطالي بوكاتشيو.

أخذ المصباح من مكانه وناولني إياه، وبدأ بالأسّرة الأمامية جهة موقع النجوم، وفي السرير العلوي يرقد أوفتي أوفتي وهو بحّار كانكي([28]) رائع كما سمّاه رفاقه، يضطجع على ظهره ويغط في نوم عميق ويتنفس بانتظام كامرأة مسالمة، وضع إحدى ذراعيه تحت رأسه والثانية فوق بطانية تغطي جسده. جسّ لارسن نبضه فاستيقظ الكانكي بوداعة كما كان نائماً، لم يتحرّك جسده على الإطلاق إلا أنّ عينيه تحركتا وحملق في لارسن بعينين واسعتين، فوضع الأخير سبابته على فمه يطلب منه التزام الصمت، فأغمض عينيه من جديد.

رقد لويس الضخم في السرير السفلي، وهو يتقصد عرقاً بفعل الحرارة وكثرة الشحم، كان نومه مصطنعاً فما أن أمسك لارسن برسغه ليتفحص نبضه حتى انتفض بجسده وكاد يرتكز على كتفيه وعقبيه للحظات، وانفرجت شفتاه عن أسنان وسخة كبيرة، وتفوّه بتمتمات مبهمة:

«الشلن يساوي ربع جنيه لكن أبقِ مصابيحك مُضاءة وبعيدة للفكة، وإلا رماها الجُباة في وجهك مقابل ستة بنسات».

ثم رقد على جنبه وتنهد عميقاً وقال: «الستة بنسات هي الدبّاغ[29]، والشلن هو باقة زهر، لكن ما هو الحصان الصغير لا أعلم».

اقتنع لارسن بنوم أوفتي وتمتمات لويس وتابع طريقه نحو زوج الأسرّة التالي، التي يشغلها كلّ من ليتش وجونسون، وبينما انحنى لارسن ليجسّ نبض جونسون، وقفت أنا متصلباً أحمل المصباح في يدي ورأيت ليتش يرفع رأسه خلسه إلى مستوى حافة السرير ليتطلع إلى ما يجري. لا بد أنّه علِم بمقصد لارسن من تحرّي صدق نوم النائمين، وفي تلك اللحظة قُذف المصباح من يدي وغرقت السلوقية بظلام دامس، يبدو أنّه قفز في اللحظة ذاتها مباشرة فوق لارسن.

كانت الأصوات الأولى التي سمعتها الآن جلبة عراك هائج بين ثور وذئب، سمعت صرخة ألم عالية صدرت عن وولف لارسن وزعيقاً يائساً يجمد الدم صدر عن ليتش، ويبدو أن جونسون قد انضمّ إليهما على الفور، وهكذا علمت أن المظهر الخانع الذليل الذي كان عليه في الأيام الماضية ما هو إلا خطة مدروسة للتظليل.

وقد استولى عليّ الرعب من هذا الصراع في الظلام، فاتجهت نحو السلم ووقفت عند الدرجة الأخيرة أرتجف عاجزاً عن الصعود، هاجمني مغص شديد في معدتي، سببه رؤيتي لأيّ عنف جسدي وتوقعي الدائم بأن ضربة ما ستنالني، وفي هذه اللحظة، عجزتُ عن الرؤية، لكني سمعت وقع الضربات وصوت انسحاق اللحم البشري، وصوت ارتطام الأجساد ببعضها والأنفاس المسحوبة تحت ضغط الضربات والألم المفاجئ.

يبدو أن أكثر من رجل قد تآمر للقضاء على القبطان ومساعده، لأن أصواتاً كثيرة قد انضمّت لتدعم ليتش وجونسون.

«ليجلب أحدكم سكيناً». صاح ليتش.

«اضربه برأسه، واسحقه وانثر دماغه». صاح جونسون.

ولم يصدر وولف لارسن بعد هذه الضربة أيّ صوت، كان يقاتل بضراوة وبصمت لينجو بحياته، فقد كان يقاتل من جميع الجهات برغم الألم الذي يشعر به، لأنه تعرض لضربة اسقطته أرضاً منذ البداية ولم يتمكن من الوقوف على قدميه، ورغم قوته الهائلة، فلم أشعر بأن هناك بصيص أمل لنجاته.

وقد نالني بعض من القوة الهوجاء التي كانوا يتصارعون بها فيما بينهم، وأوقعوني أرضاً فأصبت لكني تمكنت أن أنفذ بجلدي، وفي خضم الارتباك الحاصل في المكان زحفتُ إلى سرير منخفض فارغ وابتعدت عن طريقهم.

«أمسكناه جميعنا. نلنا منه!». أسمع صيحات ليتش.

«أمسكتم بمَن؟»، تساءل هؤلاء الذين كانوا بالفعل نياماً وقد أيقظهم شجار لا يعرفون سببه.

«إنه رئيس البحّارة اللعين»، أجابهم ليتش بصوت متشنج مخنوق.

وتعالت صيحات الفرح، أما بالنسبة لوولف لارسن فقد كان محصوراً تحت سبعة رجال أقوياء لا أظن أن لويس كان معهم، حتى أصبحت السلوقيّة كخلية نحل غاضبة مهتاجة بواسطة قاتل ما.

«ما هذه الضجّة في الأسفل؟»، سمعت صوت لاتمير ينادي من أعلى الكوّة، لا يجرؤ على النزول إلى الجحيم الذي يعلم بأنه يفور في الظلام أسفل منه.

«ألن يحضر أحدكم سكيناً؟ أحضروا سكيناً!»، طالب ليتش في أول لحظة هدوء مرّت.

ويعزى سبب الارتباك الذي حصل إلى كثرة المشاركين في عملية الاغتيال تلك، فقد سدّو طريق بعضهم، بينما تمكن لارسن الذي يركّز على هدف واحد من تحقيقه، وهو أن يشق طريقه عبر الأرض ليصل إلى الدرج، وبرغم الظلام الحالك، تمكنت من تتبع خطواته من صوتها، لن يستطيع أي رجل أن يفعل فعلته إلا العمالقة، وحالما تمكن من الوقوف أسفل الدرج، خطوة خطوة، أحكم قبضته عليه، ولم يتمكن حزمة الرجال جميعهم من جرّه إلى الأسفل، سحب نفسه إلى الأعلى من الأرض حتى استقام ومن ثم تسلق الدرج بيديه وقدميه.

تمكنت من رؤية ما يحصل بالفعل؛ لأن لاتمير ذهب لإحضار فانوس وأمسكه ليرى ما الذي يحصل أسفل الكوة، كان وولف لارسن قرب قمة الدرج، على الرغم من أني لا أستطيع رؤيته بل حزمة الرجال الذين يحاولون إسقاطه، كان المنظر شبيهاً بكومة أرجل لعنكبوت ضخم تتأرجح مع حركة السفينة المعتادة وتصعد هذه الكومة بفترات متباعدة رويداً رويداً للأعلى، حتى كادت تقع وتعثّرت ومن ثم استعادت سيطرتها واستمرت بالصعود.

«مَنْ هناك؟»، صاح لاتمير.

يمكنني رؤية وجهه المحتار يضيؤه النور القادم من فانوسه.

«لارسن»، سمعت صوتاً مكتوماً يخرج من هذه الكومة.

مد لاتمير يده إليه ورأيتُ يداً تُمسك بها فسحبه للأعلى بسرعة وأمسك لارسن بحافة الكوّة باليد الأخرى، بينما استمر الرجال يمسكون بطريق هروبهم، فبدؤوا بالسقوط الواحد تلو الآخر ليرتطموا بقاع الكوّة الحاد فتدوسهم أرجل الباقين الذين يحاولون شق طريقهم في الظلام. كان ليتش آخر من أفلت يده من الدرج وأخذ يركل بقدميه ويضرب برأسه رفاقه الآخرين تحته، ثم اختفى وولف لارسن والفانوس ولفّنا الظلام جميعاً.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الخامس عشر

كان هناك سبابٌ وأنينٌ حين نهض الرجال الذين ارتطموا بأرضية السلوقية.

«ليشعل أحدكم عود ثقاب، خُلع إبهامي»، قال أحد الرجال، يدعى بارسونز وهو رجل كئيب داكن البشرة قائد قارب ستانديش مع هاريسون الذي يعمل مجدَّفا فيه.

«ستجده منثوراً على الأرض»، أجابه ليتش الجالس على حافة السرير الذي أختبئُ فيه.

وبعد المحاولة مع عيدان الثقاب، أُشعل المصباح البحري بضوئه الخافت ودخانه، وأخذ البحارة يضمدون جراحهم ويتحسّسون رضوضهم على ضوئه الغريب، وأمسك أوفتي أوفتي بإبهام بارسونز وسحبه ليعيده إلى مكانه، انتبهت إلى أنّ مفاصل أصابعه مشققة الجلد ويبرز عظمها منها، كان يفتخر بها غير متقزز من المنظر وهو يبتسم ليكشر عن أسنان بيض جميلة وهو يشرح أن جروحه كانت بسبب لكمه للارسن على فمه.

«إذن كنت أنت، أيها الشحّاذ الأسود!»، رد عليه كيلي بصوت عدواني متشنج، وهو بحّار من أصول أمريكية ـ آيرلندية، يعمل في تفريغ المراكب وتحميلها، وهذه رحلته الأولى في البحر وهو الآن مجدّف قارب كيرفوت، وحالما أنهى اتهامه بصق دماً وبضعة أسنان وحرّك رأسه بوجهه المشاكس نحو أوفتي أوفتي الذي انكمش وقفز إلى سريره، ثم عاد مرّة أخرى يلوح بسكينه الحادة الطويلة.

«أوه، اذهب إلى مكانك واضطجع، أنت تزيدني تعباً». قاطعه ليتش، من الواضح أنّه على الرغم من شبابه وقلة خبرته كان زعيم السلوقية، «هيا يا كيلي، اترك أوفتي وشأنه، كيف يمكنه أن يميزك في الظلام بحق الجحيم؟!».

تراجع كيلي راضخاً وهو يتمتم بينما ابتسم الكانكي فبدت أسنانه البيض امتناناً لليتش، كان كائناً جميلاً تكاد تكون تقاسيم وجهه اللطيفة أنثوية وهناك رقة وحلم في عينيه الواسعتين، وهذا نقيض ما عُرف عنه بين أصدقائه من قسوة وسرعة هجوم.

«كيف تمكن من الهرب؟»، سأل جونسون.

كان يجلس على جانب سريره، وضعية جلوسه تشير إلى امتعاض شديد وقلة حيلة، ولا يزال يتنفس بصعوبة. وقد مُزق قميصه بالكامل أثناء القتال، وهناك شقّ كبيرٌ في وجنته يصبّ دماً ينساب على صدره العاري ويستمر نحو فخذه الأبيض حتى يُراق على الأرض.

«لأنه شيطان، كما قلت لكم من قبل»، أجابه ليتش وهو يضرب الأرض بقدمه، بدت ثورته وخيبة أمله بعينيه الدامعتين، ثم قال وهو عاجزٌ عن كبح دموعه من الانهمار: «ولم يجلب أيٌّ منكم سكيناً!».

لكن بقية البحّارة كانوا خائفين يفكرون بعواقب ما فعلوه ولم يعيروه اهتماماً.

«كيف سيعرف من هاجمه بالضبط؟»، سأل كيلي وتابع الكلام ونظرة القاتل المتعطش للدماء تعلو وجهه: «إلّا إن وشى أحدكم بذلك».

«سيعرف حالما يضع عينيه في أعيننا»، أجابه بارسونز: «نظرة واحدة منه كفيلة بذلك».

«أخبره بأنك وقعت على درابزين سطح المركب حين تموجت السفينة فخُلعت أسنانك»، أجابه لويس باستخفاف، وهو الرجل الوحيد الذي لم يغادر سريره وكان فخوراً بأنه لا يعاني من أية رضوض تشير إلى أنّه شارك بقتال الليلة، ثم قال وهو يضحك: «انتظروا حتى يراكم غداً، العصابة بأكملها».

«سنقول بأننا ظنناه جوهانسون»، قال أحدهم، بينما قال الآخر: «أعرف ما سأقول، إني سمعتُ جَلَبة ونهضت من سريري وأُصبت بفكي جراء فضولي، ولم أتمكن من معرفة الجاني ولا ما الذي يجري في العتمة فشاركت في القتال على أية حال».

«وكنت أنا الذي كنت تضربني»، أجابه كيلي وقد أشرق وجهه إعجاباً بالفكرة للحظات.

ولم يُشارك ليتش وجونسون في النقاش، كان واضحاً لرفاقهم مصير هذين الرجلين المحتوم وهو أسوأ العواقب ولا سبيل للأمل فهم في عداد الأموات الآن، استمع ليتش إلى مخاوفهم لفترة ثم صرّح قائلاً:

«انتم تزيدون همي! شلة من الإمّعات الثرثارين، لو فعلتم بأيديكم أكثر مما تتكلمون بأفواهكم لكان قد مات الآن، لماذا لم يجلب لي واحد منكم ـ واحد فقط ـ سكيناً عندما طلبتها منكم؟ أنتم تقرفونني بشكواكم وخوفكم من العواقب كما لو أنّه سيقتلكم عندما يراكم! تعلمون يقيناً بأنه لن يفعل ذلك؛ لأنه لا يود خسارة المال، لا يوجد مجدّفي قوارب ولا قادة في هذه الرقعة من البحر وهو يحتاجكم في عمله بشدة، من سيجدّف أو يقود قواربه أو يرفع أشرعة سفينته إن قتلكم؟ أنا وجونسون من سنتحمل العواقب فقط، لذا اذهبوا إلى أسرّتكم واغلقوا أفواهكم، أريد أن أنال قسطاً من الراحة».

«حسناً، حسناً»، تحدث بارسوناز: «ربما لن يقتلنا لكن تذكروا كلماتي جيداً، سيكون قاسياً في تعامله معنا من الآن فصاعداً».

طوال هذا الجدال والقلق يأكلني؛ لأني مُدرك لحالتي، ماذا سيحصل عندما يكتشف هؤلاء الرجال وجودي بينهم؟ لن أتمكن من شق طريقي إلى الدرج كما فعل وولف لارسن، وفي هذه اللحظة، صاح لاتمير من أعلى الكوّة:

«همپ، يريدك الرجل العجوز في الأعلى».

«هو ليس هنا». أجابه بارسوناز.

«بلى. أنا هنا». وحاولت أن أحافظ على ثبات وثقة صوتي وأنا أخرج من السرير.

نظر إليّ البحّارة باهتمام والخوف الشديد يعلو وجوههم ويشوبه شرر يتطاير كردّ فعل لخوفهم.

«أنا قادم»، صحت على لاتمير.

«لا لن تفعل»، صاح كيلي ووقف حائلاً بيني وبين الدرج، وكوّر يده اليمنى بقبضة يستعد لتسديدها. «أيها الواشي اللعين. سأخرسك إلى الأبد».

«دعه يذهب»، أمره ليتش.

«كلا وأنت حي»، جاءه الرد غاضباً.

لم يغير ليتش من جلسته على طرف السرير، وقال مرّة أخرى بصوت أكثر حدة: «أقول لك دعه يذهب».

تراجع الآيرلندي، تقدّمت نحوه فتنحى عن طريقي، وعندما وصلت إلى الدرج، استدرت نحو دائرة الوحوش التي كانت تنتظر الأوامر لتنقضّ عليّ في الغرفة شبه المظلمة، وشعرت بتعاطف مفاجئ معهم وتذكرت كيف صاغ ماكريدج الكلام بقوله إن الله كرهه لدرجة استمتع بعذابه، فقلت لهم بهدوء:

«أنا لم أرَ ولم أسمع شيئاً. ثقوا بي».

«أنا أقول لكم أنّه رجل طيب»، سمعت ليتش يقول لهم بينما كنت أرتقي السلم، «هو لا يحب الرجل العجوز أكثر مما تكرهونه أنتم وأكرهه أنا».

وجدت وولف لارسن في المقصورة، عارياً، يصب دماً بانتظاري، حيّاني بإحدى ابتساماته الماكرة.

«تعال وأدِّ مهمّتك يا دكتور، لقد منّت عليّ النجوم ومن حسن حظي أنك موجود معنا هنا في هذه الرحلة، لا أعلم كيف كانت الشبح ستكون دونك، وإن كان علي أن أقدم لك أي عرفان، فسأقول لك إن قبطان هذه السفينة شديد الامتنان لك».

علمت ببساطة عدّة الشبح الطبية، فسخّنت الماء في موقد المقصورة وبدأت بتجهيز الأشياء اللازمة لأضمّد جروحه، استمر لارسن بالضحك والكلام وهو يتفحص جراحه بعين فاحصة، لم يسبق لي أن رأيته عارياً من قبل، كان منظر جسده يحبس الأنفاس، لم أثمن جمال الجسد البشري العاري من قبل، وأنا بعيد كلّ البعد عن ذلك، لكن وجدت فيه من الجمال الذي لا بدّ أن يقدره حس الفنان الذي بداخلي.

عليّ القول إني أُعجبت بتقاطيع جسده المثالية، وبجمالها الرهيب إن صح التعبير، لاحظت الرجال في السلوقية، صحيح أن عضلاتهم مفتولة قوية، إلا أنّ هناك ما يعيبهم، تضخّم غير مرغوب هنا والتواء غير محبب هناك، دقّة في عظم الساق أو قصر في عظمة الفخذ، أرجل طويلة جداً أو قصيرة جداً، ضمور عضلات أو بروز عظام، أستثني منهم أوفتي أوفتي الذي كانت تقاطيع جسمه متناسقة ومحببة، لكنها كانت أنثوية.

لكن جمال وولف لارسن كان رجولياً، مفتول العضلات يكاد يكون أحد الآلهة في كماله. كلما تحرك أو رفع يديه، تحركت عضلاته وبرزت من تحت الجلد، ونسيت أن أذكر أن لونه البرونزي كان في وجهه فقط، أما جسده فكان ناصع البياض أملس

الشعر بفضل أصوله الإسكندنافية. ولا زلت أتذكر كيف رفع يده ليتحسس الجرح في رأسه، حينها نفرت العضلة ذات الرأسين كأنها شيء حي تحت جلده الأبيض.

وهي ذات العضلة التي كادت أن تسلبني حياتي ذات مرّة، والتي سدد العديد من اللكمات المميتة بفضلها، لا أستطيع أن أشيح ببصري عنه، وقفت بلا حراك أمسك بقطعة قطن فيها مادة معقمة تقطر على الارض، فلاحظ جمودي وانتبه إلى أني كنت أحملق به فقلت:

«أحسن الله تصويرك».

«حقا؟ وأنا أيضاً لطالما ظننت هذا الشيء، وتساءلت عن السبب».

«الغاية..»، بدأت بالكلام، فقاطعني قائلاً:

«بل المنفعة والاستخدام، وُجِد هذا الجسد ليُستخدم، هذه العضلات وجدت لتُمسك وتحطم وتمزق الأحياء الذين يحولون بيني وبين الحياة، لكن هل فكرت يا همپ في الأشياء الحية الأخرى؟ إن لها عضلات هي الأخرى، وهي للقبض والإمساك والتمزيق والتحطيم أيضاً، وعندما تحول بيني وبين أن أكون حياً، أمسكها وأمزقها وأدمرها، ولا تفسر الغاية التي تحاول الحديث عنها ذلك، وإنما الاستخدام والمنفعة».

«وهذا ليس جميلاً»، اعترضت عليه.

«أتقصد بأن الحياة ليست جميلة؟»، وابتسم: «ومع هذا أنت تقول بأني أُحسِنَ تصويري وخلقي. انظر؟»

وضغط لارسن بقدميه وأصابعهما على أرضية الكابينة فتيبّست أصابعه وتوتّرت عروقه وتصلّبت عضلات قدميه وفخذيه من تحت جلده، ثم قال: «تحسسها».

كانت عضلاته صلبة كالفولاذ، لاحظت كذلك بأنه توتّر لا إراديًّا وانكمش حذراً، كانت عضلاته تشكل نفسها بلطف حول ردفيه وأعلى ظهره وعبر كتفيه، ويداه مرفوعتان قليلاً مشدودتا العضلات معقوفتا الأصابع كأنها مخالب، وحتى تعبير عينيه فقد تغير واعتراه الترقب والاحتراس كمن يترقّب معركة.

«إنه الثبات والاتّزان»، قال ذلك وبدأ يسترخي ويعيد جسمه إلى وضعه الطبيعي ثم تابع: «القدمان لتمسكا الأرض التي تقفان عليها والساقان للانتصاب ولأحافظ على اتّزاني، واليدان والأسنان والأظافر للقتال ولأمنع الآخرين من قتلي، هذا هو الانتفاع والاستخدام وهي كلمة أفضل من الغاية».

لم أجادله، فقد رأيتُ ميكانيكيّة القتال الوحشية البدائية بأُمّ عيني، وأعجبت بشدة بها كما لو أني رأيت محركات سفينة حربية أو سفينة ركاب المحيط الأطلسي، وقد فاجأتني سطحية جروحه نظراً للقتال العنيف الذي دار بينه وبينهم في السلوقية، وشعرت بفخر وزهو وأنا أضمد جراحه التي كان معظمها سطحياً وكدمات ما خلا بعض الجروح الخطيرة كالضربة التي تلقاها قبل أن يصعد على سطح السفينة أول مرّة والتي شجت جمجمته بعمق بوصات، وأخرى ضمّدتها تحت إشرافه ونظفتها

وخطتها بعد أن حلقت الشعر من حواف الجرح. وانتقلت بعد ذلك إلى فخذه المجروح كأنما نهشه كلب مسعور، قال إن أحد البحّارة نهشه بأسنانه منذ بداية القتال ولم يفلته حتى وصل إلى أعلى الدرج وركله ليسقط أرضاً.

«بالمناسبة يا همپ، انتبهت إلى كونك رجلاً بارعاً باستخدام يديك». بدأ لارسن بالكلام بعدما أنهيت عملي: «وكما تعلم، ينقصنا شخص الآن بعد موت جوهانسون، من هذه الساعة، ستكون رئيساً للبحّارة، بمرتب خمسة وسبعين دولاراً شهرياً، وسينادونك في مقدمة السفينة ومؤخرتها بالسيد فان وايدن».

«لكني.. لكني أجهل الملاحة كما تعلم».

«هذا ليس ضرورياً».

«لا أحب الجلوس في المناصب العالية»، اعترضت عليه: «أجد الحياة عابرة وغير مستقرة بما فيه الكفاية في مكاني المتواضع، فأنا شخص بلا خبرة، ومن الفئة المتوسطة كما ترى، ولا قدرة لي على المساومات».

ابتسم لكلامي كما لو أن الموضوع قد سُوّي.

«لن أكون رئيس بحّارة لهذه السفينة الملعونة».

فازدادت ملامحه حدّة وقدحت عيناه شرراً ومشى نحو باب غرفته وقال:

«تصبح على خير سيد فان وايدن».

«تصبح على خير سيد لارسن»، أجبته بوهن.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل السادس عشر

لا يمكنني القول إن منصب رئيس البحّارة قد انطوى في حالتي على أية متعة غير التخلص من غسل الأطباق والأواني؛ فقد كنت أجهل أبسط مهام رئيس البحّارة؛ ولكنت فشلت بكل تأكيد لولا تعاون البحّارة معي، فأنا لا أعرف أياً من تلك التفصيلات الدقيقة للحبال وأربطة الصواري والتوصيلات وغيرها، لكن البحّارة تحملوني حتى تعلمت كلّ شيء وقد أثبت لويس أنّه معلم ممتاز، وبهذا فقد عانيت قليلاً مع الرجال تحت إمرتي.

والأمر مختلف بالنسبة للصيادين الذين يمتلكون خبرة بنسب متفاوتة في الملاحة، فقد عاملوني باستخفاف واعتبروني نكتة، والواقع أنّي أنا كنت أعدّ نفسي نكتة كذلك، فكيف بي أنا رجل البرّ الغريب الذي لا يفقه شيئاً من فن الملاحة أن يشغل منصب رئيس البحّارة!؟ ومع هذا، فقد آلمني موقفهم دون أن أعترض عليه، لكن وولف لارسن كان يُصرّ على آداب المهنة بدقة متناهية في حالتي ـ أكثر مما حظي به المسكين جوهانسون ـ وبعد عدة شجارات وتهديدات والكثير من التذمّر، أذعن البحّارون، فأصبح الجميع ينادونني بالسيد فان وايدن من مقدمة السفينة حتى مؤخرتها، حتى وولف لارسن، ماعدا في بعض المرات غير الرسمية ناداني بـِهمپ.

كان الأمر مُسلِّيا، فحينما تغير الريح اتّجاه السفينة لعدة نقاط أثناء تناولنا العشاء، وحين أهم بمغادرة الطاولة، يخاطبني لارسن: «سيد فان وايدن، هل لك أن تُعيد السفينة إلى مسارها». وأذهب أنا إلى سطح السفينة، وأجر لويس معي لأتعلم منه ما عليّ القيام به، ثم وبعد دقائق أكون قد تعلمت وفهمت كلّ التعليمات وتمكنت منها، فأباشر بإصدار الأوامر. وأتذكر حادثة حصلت في وقت سابق، حين ظهر لارسن، وأنا أعطي الأوامر والتعليمات، دخن سيجارته ونظر بهدوء حتى انتهيت ثم تقدم نحوي ووقف إلى جانبي في مؤخرة السفينة وقال: «أهنئُك يا همپ. أستميحك عذراً، سيد فان وايدن، لا أظنك بحاجة إلى أقدام والدك لتقف عليها بعد الآن، يمكنك أن تعيدها إليه في قبره، اكتشفت قوتك الخاصة وتعلّمت كيف تقف بمفردك دون الحاجة لأحد، إن بضع عواصف والقليل من العمل على الحبال وضبط الصواري وحل بعض المشاكل هنا وهناك من شأنه أن يؤهلك لقيادة سفينة صيد حين ننتهي من رحلتنا هذه».

والحقّ إني خلال الفترة بين موت جوهانسون ووصولنا إلى أراضي صيد عجول البحر، قضيت أسعد أيامي على متن الشبح، فقد كان وولف لارسن متعاوناً معي، والبحّارة يساعدونني ولم يعد لي أي تواصل حادّ مع توماس ماكريدج، ويمكنني القول إن هذه الأيام التي انقضت زادت من ثقتي واعتزازي بنفسي، فأنا ابن البرّ، الملاح الذي تعوزه الخبرة أصبحت ثاني رجل في السفينة بعد وولف لارسن، ليس هذا فحسب وإنما كنت أقوم بعملي على أكمل وجه، أحببت حركة السفينة تحت

قدمي وشعرت بحميمية مع الشبح وهي تبحر شمالاً وغرباً في البحر الاستوائي ومنها إلى جزيرة صغيرة حيث ملأنا خزاناتنا بالمياه منها.

غير أن سعادتي لم تكن خالصة ووجدَت ما ينغّصها؛ فقد كانت فترة أقل بؤساً تتخلّل فترات مآسٍ عظيمة سابقة ولاحقة بالنسبة للبحّارة في الشبح التي يعتبرونها جحيماً لا يطاق، لم ينسَ وولف لارسن محاولاتهم للقضاء عليه ولا الضربة التي تلقاها قبل ذلك، أرهقهم بالعمل ليل نهار ولم يترك لهم لحظة راحة، وحرَص على أن تكون حياتهم لا تُطاق.

كان وولف لارسن يتفنّن في المضايقة والازعاج، كان يعلم سايكولوجية صغائر الأمور، وكيف إن سفاسف الأمور قد تقود الطاقم إلى حافة الجنون عندما يستمر التركيز عليها، رأيته يستدعي هاريسون في منتصف الليل من فراشه ليعيد فرشاة دهان إلى مكانها الصحيح، وأقلق راحة اثنين من الحرّاس ليرافقاه ويشاهدانه وهو ينقلها من مكان إلى آخر، صحيح أنها أمور تافهة لكن عندما تتكرر لألف مرّة بطريقة ماكرة فمن شأنها أن ترهق عقل الرجال وتنكّد عليهم.

ومن الطبيعي أن ينشأ تذمّر بينهم وأن تحدث انفجارات صغيرة بصورة مستمرة احتجاجاً على ذلك؛ لينالوا بعد ذلك اللكمات من وولف لارسن، وهناك باستمرار رجلان اثنان أو ثلاثة يطببون جراحهم التي سببها لهم الرجل العجوز، ومن المستحيل أن يقوموا بتمرد جماعي بوجود مخزن العتاد والأسلحة في مقصورته وفي المُدَفّى، ومن الطبيعي أن يكون ليتش وجونسون هما الضحيّتان الذي يصبّ عليهما لارسن جامّ غضبه ومزاجه المتقلب، وفطرت قلبي علامات الحزن العميق والأسى التي استقرت في وجه جونسون وفي عينيه.

كان الأمر مختلفاً بالنسبة إلى ليتش، فهو رجلٌ تتملّكه غريزة القتال المتوحّش، يبدو كأنه ممسوس بحقد وغضب غير مستقرّين، مستعدّ للانفجار في أية لحظة، لم يُسمح له حتى بالحزن، شُوّهت شفتاه لتنمّا عن تكشيرة دائمة، تتحول إلى زمجرة حالما يلمح وولف لارسن، بصوت رهيب وشرير ـ أظنه لا إرادياً ـ رأيته يتبع لارسن بنظراته كما يتبع الحيوان سجّانه ويطلق غرغرة من حنجرته تخرج بصوت مخيف من بين أسنانه.

وأتذكر أنني في إحدى المرات ـ في يوم مشمس ـ اقتربت منه ووضعت يدي على كتفه لأمهد له الأوامر التي على وشك تكليفه بها، كان ظهره لي، لكن ما أن لمست يدي كتفه حتى وثب واستدار مبتعداً عني يزمجر ويحرك رأسه، فقد أخطأ التقدير وخالني عدوه اللدود.

سيحاول ليتش وجونسون قتل وولف لارسن متى ما سنحت لهم الفرصة، بيد أن تلك الفرصة لم تأتِ أبداً؛ لأن لارسن أذكى من أن يسمح بذلك، فضلاً عن أنهما لا يملكان الأسلحة المناسبة، فلن تكون لهما الغلبة أبداً لو استخدما أيديهما فقط، ففي كثير من المرات كان يتقاتل باليد مع ليتش الذي يقاتل كقطة برية بيديه وأسنانه حتى يسقط مغشياً عليه من الإعياء والألم على سطح السفينة ولم يُهزم لارسن قطّ.

وقد تحدى شيطانه شيطان لارسن، ولا يظهران معاً على السطح في وقت واحد إلا وبدأ كلاهما بالسباب والزمجرة والهجوم على بعضهما. رأيت ليتش مرّة يهجم على لارسن دون إنذار أو تحريض ولا حتى استفزاز، ففي إحدى المرات رماه بسكين حادة وثقيلة أخطأت عنق لارسن بمسافة بوصة واحدة وفي مرّة أخرى أسقط ليتش قضيباً فولاذياً مُجدلاً من أعلى الصَّاري المِزِّيني([30])، كانت مهمة صعبة يقوم بها والسفينه تتأرجح لكنه رماه من ارتفاع خمسة وسبعين قدماً، وأوشكت على إصابة رأس لارسن، ولكنها أخطأته بينما كان يخرج من مقصورته ويتجه نحو الممر، وانغرزت بعمق بوصتين في خشب السطح الصلب، وفي مرّة اخرى، سرق من المُدَفّى مسدساً ملقماً بالرصاص، وخرج قاصداً السطح؛ ليقتل لارسن فأمسكه كيرفوت وجرده من سلاحه.

ولطالما تساءلت، لماذا لم يقتله لارسن وينتهي من الموضوع؟ لكنه كان يضحك، يبدو أنّه يستمتع بالأمر ويتلذذ به كما لو أنّه يروض حيواناً ضارياً ليصبح قطته الأليفة.

«في ذلك متعة وإثارة تهبها للحياة»، وضّح لي: «وعندما يضع الإنسان حياته على كفه ـ والإنسان مقامر بطبيعته ـ وأعظم رهان يمكن أن يضعه على الطاولة هي الحياة نفسها، وكلما كانت المخاطرة أعظم كانت المتعة أكبر، فلماذا أحرم نفسي من الاستمتاع بإثارة ليتش إلى درجة الحُمّى؟ وأنا بفعلتي هذه أسديه خدمة، فشعور العظمة متبادل بيننا، هو يعيش بمعايير أفضل من أيّ رجل آخر هنا لكنه لا يعلم بذلك؛ لأنه يملك ما لا يملكونه وهي الغاية، ليفعل شيئاً وينتهي منه، تلك النهاية التي تحاول الوصول، تلك الرغبة بقتلي، والأمل بأنه قد يتمكن من قتلي. صدقّني يا همپ، هو يعيش حياة ذات معنى الآن، وأشكّ بأنه كان يحيا حياة مماثلة من قبل، واني لأغبطه صراحة، في بعض الأحيان وأنا أراه متوقّد الإرادة يغلي بقمة عاطفته وعقلانيته».

«آه، لكن في هذا الأمر جبن ونذالة»، صحت: «فلك اليد العليا وكل الامتيازات».

ثم سألته بجدية: «من بيننا نحن الاثنين، أنت وأنا، من الأجبن برأيك؟».

«لو كان الموقف كريهاً في نظرك، فأنت تتصالح مع ضميرك حين تجعل نفسك جزءاً منه، ولو كنت رجلاً عظيماً كما تدّعي، صادقاً مع نفسك، لكنت أنضممت إلى ليتش وجونسون لكنك خائف وجبان، تريد أن تعيش، فالحياة التي في داخلك تصرخ طالبة منك أن تعيش بغض النظر عن الثمن الذي يفرضه ذلك البقاء، وهكذا فأنت تعيش بذلّ وخسّة، وغير صادق مع أقصى أحلامك ومخطئ بحقّ كلّ ما آمنت به، ولو كان هناك جحيم فستُرمى روحك في قعره دون شكّ، أما أنا، فأسلك سلوكاً أكثر شجاعة، ولا أقترف معصية وصادقٌ مع نفسي ومع دوافع هذه الحياة، أنا مخلصٌ مع نفسي على الأقل وهذا ما ينقصك أنت».

لسَعني صدق كلماته، ربما بعد كلّ شيء، أنا فعلاً أتصرف بجبن، وكلما أمعنت النظر وفكرت فيما قال، وجدت أن من واجبي تجاه نفسي أن أفعل ما نصحني به وأن أنضمّ إلى ليتش وجونسون في محاولة قتله، وهنا كما أعتقد بدأت بتقليب

الأمور بضمير متزمت يتبع أصلي البيوريتاني[31]، وجزمت بأن تخليص العالم من هذا الوحش لهو من أكثر الأفعال نبلاً وأخلاقية، لأن الإنسانية ستغدو أفضل وأكثر سعادة بغيابه، والحياة أسهل وأكثر عدلاً.

فكّرت بالموضوع وقلبته من كلّ الجهات وأنا راقد في فراشي أراجع تفاصيل الحقائق والوضع، وتحدثت مع جونسون وليتش خلال فترة الحراسة الليلية عندما كان لارسن في الأسفل، يبدو أن الرجلين قد فقدا كلّ أمل بسبب كآبة جونسون وحزنه الحاد، ولأن ليتش قد أرهق نفسه واستنفد طاقته ورغبته في القتال، لكنه أمسك يدي بحميمية في إحدى الليالي وقال:

«أظنك صادقاً يا سيد فان وايدن، لكن، أبقَ حيث أنت وأبقِ فمك مطبقاً ولا تتحدث بأي شيء، نحن هالكان لا محالة وأنا متأكد من ذلك، وقد ينفعنا تضامنك يوماً ما عندما نحتاج منك أن تقدم لنا خدمة ضرورية».

لاحت جزيرة (وين رايت) باتّجاه مهبّ الريح في اليوم التالي مقابلة لمنتصف السفينة، حينها تنبأ وولف لارسن بنبوءة، فهاجم جونسون وهاجمه ليتش دفاعاً عن رفيقه، فقال بعد أن انتهى من جَلدِهما:

«ليتش، أنت تعلم بأني سأقتلكما عاجلاً أم آجلاً، أليس كذلك؟».

جاءته تكشيرة ليتش كجواب على سؤاله.

«وأنت يا جونسون، ستسأم من حياتك حتى ترمي نفسك في البحر، أراهنك على ذلك».

والتفت نحوي وقال: «كان اقتراحاً مني إليه، وأراهنك على مرتب شهر إن فعلها».

تمنيت أن يجد ضحاياه فرصة للهروب أثناء ملء براميل المياه، لكن وولف لارسن اختار موقعه جيداً، رست الشبح على بعد نصف ميل خارج خط الأمواج لهذا الشاطئ الوحيد في ممر منحرف وضيق بجدران بركانية متسارعة لا يمكن لأي شخص أن يتجاوزها بسهولة، وملأ ليتش وجونسون الصناديق الخشبية الصغيرة وأنزلاها إلى الشاطئ تحت إشرافه المباشر، هذا لأنه رافقهم إلى هناك؛ لذا، لم تكن لديهما أية فرصة للهرب في أحد القوارب.

إلّا أن هاريسون وكيلي حاولا الهرب، فهما يعملان في مركب واحد، وكانت مهمتهما هي التنقل بين السفينة والشاطئ، يحملان صندوقاً خشبياً صغيراً واحداً في كلّ رحلة، وقبل موعد العشاء بقليل، انطلقا في مهمتهما باتّجاه الشاطئ يحملان صندوقاً فارغاً، ثم غيّرا من وجهتهما وانحرفا يساراً حول الصخور الشاطئية التي نتئت من البحر وحالت بينهما وبين حريّتهما، تقع خلف قاعدتها الرغوية القرى الجميلة للمستعمرين اليابانيين والوديان التي توغلت في عمق المناطق الداخلية، كان بمقدور الرجلين أن يتحديا لارسن حالما يصلان إلى بر الأمان.

وكنت قد لاحظت بأن هندرسون وسموك يتسكعان على سطح السفينة طيلة فترة الصباح، والآن عرفت سبب وجودهما هناك، فقد حملا أسلحتهما وفتحا النار برويّة

وبدم بارد على الهاربَين، بداية، تراشقت رصاصاتهم على سطح الماء على جانبي القارب، وعندما استمر الرجلان بالتجديف بشجاعة اقتربت تلك الرشقات شيئاً فشيئاً، قال سموك وهو يصوّب بحذر: «والآن راقبني كيف أحطّم مجداف كيلي الأيمن».

كنت أنظر للمشهد بمنظاري ورأيتُ شفرة المجداف تتشظّى بعدما أصابها سموك، ثم كرر هندرسون الضربة واختار مجداف هاريسون الأيمن هذه المرة، فاستدار القارب وانحرف، وسرعان ما أصاب المجدافين الآخرين فحاول الرجلان التجديف بقطع الخشب المتبقية لكنها سقطت من أيديهما بفعل تصويب هندرسون وسموك، وحاول كيلي أن يأخذ قطعة خشب ويجدف بيده لكنه رماها وصرخ؛ لأنها جرحت يده، حينها استسلم الفارّان وتركا المركب عائماً حتى أُرسل مركب آخر من الشاطئ بأمر من وولف لارسن وأخذهما معه وأعادهما إلى السفينة من جديد.

في وقت متأخر من بعد ظهر ذلك اليوم، رفعنا المرساة وانطلقنا، لم يكن أمامنا شيء سوى الصيد لثلاثة أو أربعة أشهر في مناطق عجول البحر، كان جو السفينة قاتماً والنظرة سوداوية لما سيأتي حتى ساد جوٌّ جنائزي على الشبح. أما أنا فتابعتُ عملي بقلب مُثقل بحزن وكرب شديد، وعاودت وولف لارسن نوبة الصداع الغريبة تلك فلازم سريره، ووقف هاريسون قرب دفّة القيادة بفتور لا تكاد تحمله ساقاه، حتى أنّه استند عليها جزئياً لتمسكه من أن يقع، كما لو أن ثقل جسده قد أعياه.

أما بقية الرجال، فقد كانوا متجهّمين وصامتين، وعندما مررت بكيلي، وجدته متكوراً على نفسه فوق كوّة السلوقية، وقد وضع رأسه بين ركبتيه ويديه فوق رأسه في موقف من اليأس لا يطاق.

وجدت جونسون مستلقياً بطوله على رأس السلوقية، يحدّق بالزبَد المضطرب الذي يتلاطم في مقدمة السفينة، وتذكرت برعب اقتراح وولف لارسن، يبدو ـ من المرجح ـ أنّه سيؤتي ثماره، حاولت اقتحام أفكار الرجل المهووسة بأن أقنعه بالعدول عنها، لكنه ابتسم لي بحزن ورفض الطاعة.

فاقترب مني ليتش عندما عُدت إلى مؤخّرة السفينة وقال:

«أريد أن أطلب منك معروفاً يا سيد فان وايدن، إن حالفك الحظ وعدت مرّة أخرى إلى سان فرانسيسكو، هل لك أن تبحث عن مات ماكارثي؟ هو والدي، يعيش على التلة خلف مخبز مايفير، يدير محل إسكافي يعرفه الجميع، لذا لن تجد صعوبة في البحث عنه، أخبره أنّي آسف شديد الأسف على المتاعب التي سببتها له وكل الأشياء التي فعلتُها، وليرعَه الربّ بالنيابة عني».

أومأت له لكنني قلت له: «سنعود جميعنا إلى سان فرانسيسكو يا ليتش وستكون برفقتي عندما أذهب لزيارة مات ماكارثي».

«لكم أود تصديقك»، قال وهو يصافحني: «لكنني لا أستطيع؛ لأن وولف لارسن سينال مني وأنا واثق من ذلك، وكل ما أتمناه هو أن يعجّل في ذلك».

وبعد مغادرة ليتش وعيت على رغبة في قلبي تأمل في أن يقوم لارسن بقتله بسرعة إن كان سيقوم بذلك على أية حال، فاجتاحتني كآبة عميقة ولفّتني بين طياتها، بدا أن الأسوأ لا مفرّ منه، وبينما كنت أذرع سطح السفينة، ساعة تلو الأخرى، وجدت نفسي متأثراً سلبياً بأفكار وولف لارسن البغيضة، ما الغاية من هذا كله؟ أين عظمة الحياة التي تسمح بهذا التدمير الوحشي للأرواح البشرية؟ كانت الحياة شيئاً رخيصاً ومخزياً بعد كلّ شيء، وكلما كان فناؤها أسرع كان أفضل، فاستندت أنا أيضاً على درابزين سطح السفينة وحدّقت مطولاً في البحر، مع يقيني بأنني عاجلاً أم آجلاً سأغرق، أنزل إلى الأسفل، وأدخل أعماقاً خضراً باردة في غياهب النسيان.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل السابع عشر

من الغريب القول أنّه لا شيء مميّز حصل على متن الشبح هذه الأيام بالرغم من أن الوضع ينذر بالشر بصورة عامة، أبحرنا شمالاً وغرباً حتى وصلنا سواحل اليابان ولحقنا بقطيع من عجول البحر لا نعلم من أين أتى في المحيط الهادئ الذي لا حدود له، كانت العجول تسير شمالاً في هجرتها السنوية إلى مخابئ بحر بيرينغ، أبحرنا معها شمالاً، نقتلها ونسلبها حياتها، ومن ثم نسلخها ونرمي جثثها منزوعة الجلد إلى القروش لتلتهمها ونملّح الجلود ليتسنى لنساء المدن الراقية فيما بعد تزيين أكتافهن بها.

كان ذبحاً وحشياً، وكل ذلك من أجل المرأة، لم يأكل أحد من لحم عجول البحر ولا استفاد من زيوتها.

وبعد انتهاء يوم من القتل الجيد، امتلأ سطح السفينة بالجلود والأجساد المسلوخة، وأصبحت الأرضية زلقة بفعل الدهون والدماء، واستحالت فتحة تصريف السفينة حمراء وكذلك الحال بالنسبة للصواري والحبال والقضبان المبقعة بلون الدم الغامق، والرجال، كجزارين ينفذون عملهم بجدٍ، عراة بأذرعٍ حمر يغطيها الدم، يمسكون بسكاكين لتمزيق وسلخ وإزالة الجلود عن هذه المخلوقات البحرية الجميلة التي قتلوها.

كانت مهمّتي الإشراف على عدّ الجلود التي تأتي من القوارب، لتُسلخ ثم يُنظف سطح السفينة جيداً لتعود كسابق عهدها من جديد، صحيح أنّه عمل مقرف وغير ممتع ـ فقد ثارت معدتي وروحي ضد هذا المشهد ـ لكن، مع هذا، بطريقة ما، كان تولّيي لهذا المنصب وإرشاد العديد من الرجال للقيام بالأعمال جيداً بالنسبة لي، فقد طور ما لدي من قدرة تنفيذية قليلة، وأصبحت أعي الخشونة والصلابة التي اكتسبتها والتي تعتبر شيئاً ممتازاً لتطور «سيسي» فان وايدن.

بدأت أشعر بشيء واحد بصورة أكيدة، ألا وهو أني لن أكون الرجل نفسه الذي كنت عليه مرّة أخرى، في حين صمد أملي وإيماني في الحياة الإنسانية أمام الانتقادات المدمرة التي وجهها وولف لارسن، إلا أنّه كان سبباً في تغيير الأمور البسيطة، لقد فتح عينيّ على العالم الحقيقي الذي لم أعرف منه شيئاً عملياً، والذي تقلصت مبتعداً عنه دائماً، تعلمت أن أنظر عن كثب إلى الحياة كما هي، وأن أدرك أن هناك أشياء مثل الحقائق في العالم، والخروج من عالم العقل والفكرة وأن أضع قيماً معينة على مراحل الوجود الملموسة والموضوعية.

وعندما وصلنا إلى أراضي الصيد، أصبحت أرى وولف لارسن أكثر من أي وقت مضى، فعندما يكون الطقس جيداً نكون بين قطيع العجول ويكون كلّ البحّارة في قواربهم ولا يبقى على سطح الشبح إلا أنا ولارسن وماكريدج الذي لا يمكن أخذه بعين الاعتبار بطبيعة الحال، لكننا لم نكن نتسكع هناك، ففي هذه الأثناء، تنتشر ستة قوارب كمروحة من السفينة، يبتعد أول قارب باتّجاه الريح وآخر قارب سُفالة الريح

مسافة عشرين ميلاً، ويبحرون بخط مستقيم عبر البحر حتى المغيب أو حينما تسوء أحوال الطقس، وكان من واجبنا أن نبحر بالشبح باتّجاه الريح حتى آخر قارب؛ لتكون لكل القوارب فرصة متساوية في العودة إلينا إن حصل أي طارئ، سواء كان شجاراً يدور بينهم أو عاصفة تهدّدهم.

ولم يكن الأمر هيِّنا أن يقوم رجلان فقط بقيادة سفينة ضخمة كالشبح، خصوصاً عندما تهبّ علينا ريحٌ عاتية، كان علينا أن نوجّه السفينة ونراقب القوارب ونرفع الأشرعة أو نضبطها أحياناً، لذا أخذتُ على عاتقي التعلّم بسرعة وبمفردي، وقد تعلمت توجيه السفينة وقيادتها بسرعة، لكن التسلق إلى منصة الصَّاري العالية ونقل وزني كله باستخدام يدي عندما أترك درجات السلم الحبليّ وأتسلق لمكان أعلى كان أصعب، لكنني تعلمته وبسرعة فائقة أيضاً؛ لأنني شعرت إلى حد ما برغبة شريرة في إثبات نفسي أمام وولف لارسن، لإثبات حقي في العيش بطرق أخرى غير استخدام عقلي، ولم يمضِ وقت طويل حتى استمتعت بلقب رئيس البحّارة وأنا متشبثٌ بقدميّ على ارتفاع شاهق بينما أتنقل ببصري مستخدماً منظاري على امتداد البحر بحثاً عن القوارب.

وأتذكر يوماً جميلاً انطلقت فيه قوارب الصيد باكراً في صبيحته وأخذت رصاصات الصيادين تزداد بُعداً وخفوتاً حتى لم نعد نسمع صوتها؛ لأنهم أبحروا بعيداً عرض البحر، وكانت نسمات الريح تهبّ من الغرب لكنها توقفت عن الهبوب في الوقت الذي تمكنّا فيه من الوصول إلى آخر قارب باتّجاه الريح، وراقبتهم واحداً تلو الآخر من على منصة الصَّاري، ستة قوارب تختفي من على وجه الأرض وهي تتبع عجول البحر غرباً. بقينا طافين، نتحرك بصعوبة على سطح البحر، عاجزين عن الإبحار، كان لارسن قلقاً لأن البارومیتر تعطل ولم يسرّه منظر السماء شرقاً، تمعّنها بحذر وقلق ثم قال:

«إذا حدث وجاءت العاصفة من هناك قوية ومفاجئة فستُبعدنا عن مهب الريح، ولن تجد بعض الأسرّة في السلوقية والمُدَفّى من يبيت فيها».

وما أن دقت الساعة السابعة حتى ركَد البحر كزجاج، وعندما انتصف النهار كان الحرّ خانقاً ـ رغم وجودنا في خطوط العرض الشمالية ـ وخلا من أيّة طراوة، بل كان مالحاً ومرهقاً يذكّرني بمصطلح كاليفورنيّ قديم «طقس الهزّة الأرضية»، كان هناك شيء مشؤوم تعجز عن لمسه لكنك تشعر أنّه على وشك الحدوث، وامتلأت السماء جهة الشرق بالغيوم وغطّتنا كقمم جبال مسنّنة سودٍ من الجحيم، يمكنك تصور وديانها ومنحدراتها والظلال التي تتخللها ومع هذا، كنا نتأرجح بلطف ولم تهبّ علينا أية ريح.

«هذا ليس عدلاً»، قال لارسن: «أمّنا الطبيعة العجوز على وشك أن تقف على قائمتيها الخلفيتين وترفع قامتها للأعلى ثم تعوي علينا بملء فمها، ستجعلنا نتقافز يا همپ لنسحب قواربنا، وسنخسر نصفها على الأرجح، من الأفضل أن تُسرع وترخي الأشرعة الثانوية».

«لكن إن كانت ستعوي، ماذا سيحصل لنا ونحن الاثنان فقط على متن السفينة؟» سألته بنبرة اعتراض.

«علينا أن نبذل ما في وسعنا لننجو من بدايتها، ومن ثم نسرع إلى قواربنا قبل أن تتمزّق أشرعة السفينة، لا يهمني ما سيحدث بعد ذلك، ستثبت الصواري السفينة وتجتازها بأمان، علينا ـ أنا وانت ـ أن نفعل بالمثل، غير أن علينا عملاً كثيراً نقوم به».

استمر الهدوء بينما تناولنا عشاءنا، التهمت طعامي بسرعة وتوتّر وأنا أفكر في ثمانية عشر رجلاً في قوارب تجوب البحر خلف رقعة الأرض وفوقنا تتجمع غيوم كجبال تحاول أن تطبق علينا وتفتك بنا، لا يبدو على وولف لارسن التأثر لكني لاحظت عندما عدت إلى سطح السفينة التواء منخريه وتسارع حركته بشكل ملحوظ، كان وجهه متجهماً وقد زاد تجعّد وجهه حدة، إلا أن عينيه كانتا صافيتي الزرقة هذا اليوم، تتوقّدان ذكاءً وحنكة، أدهشني استمتاعه بالأمر بطريقة وحشية بربرية، وسعادته بوجود خطر يهدد حياته وشعوره بإثارة وهو يتصدى له بمعرفته، إنها أحدى أعظم لحظات حياته عندما يسارع تيار الحياة ويفيض ويغمره.

وقد رأيته مرّة، يضحك بصوت عالٍ دون أن يدرك ذلك، يسخر من العاصفة القادمة ويتحداها، رأيته كما لو أنّه قَزَمٌ صغيرٌ خرج من قصص الليالي العربية يواجه عفريتاً ضخماً وشريراً، كان يتحدى القَدَر دون خوف أو وَجَل.

دخل إلى المطبخ وتحدث إلى ماكريدج: «كوكي، أريدك أن تأتي إلى سطح السفينة بعد أن تنتهي من غسل الأواني والقدور، كن مستعداً».

«همپ»، قال بعد أن لاحظ نظرة الافتتان التي أنظر بها نحوه: «هذا الوضع يتغلب على الويسكي الذي احتسيته وهنا أخطأ صديقك عمر، وأجزم بأنه عاش نصف حياة فقط».

أصبح النصف الغربي من السماء معتماً، وتلاشت الشمس خافتة عن الأنظار، كانت الساعة الثانية بعد الظهر حين انحدر علينا شفق طيفي تشوبه أضواء ارجوانية ضالّة، تألّق وجه لارسن حين غمرته هذه الأضواء ولخيالي المتحمس دوره حين تخيلته مُحاطاً بهالة نورانية، لفّنا هدوء غريب بينما كانت الإشارات ونذر الشؤم تحيط بنا من كلّ جانب وتنبئنا بصوت وحركة تقترب منا، أصبح الجو قائظاً لا يُحتمل، كان العرق يقف على جبهتي ويتحرك أسفل أنفي، شعرت بوهن، وكاد يغشى عليّ فسارعت إلى الدرابزين لاستند عليه.

بعد ذلك، عبرت نسمة هواء خفيفة كهمسٍ خجول، جاءت من جهة الشرق ورحلت كما جاءت بسرعة وفجأة، حتى أنها لم تحرك قماش الشراع المتدلي غير أني شعرت بها تلامس وجهي وتبرده قليلاً.

«كوكي»، صاح وولف لارسن على توماس ماكريدج، فجاء المسكين بوجه خائف يرثى له.

«اترك عارضة الصَّاري الأمامية وفك حبال المقدمة وحين يتم الأمر أطلقها لتتحكم فيها حبال البكرة، وإذا ارتكبت فوضى، فسيكون هذا آخر ما تقوم به على الإطلاق. تفهم؟».

«وأنت يا سيد فان وايدن، كن مستعداً لتعبر الأشرعة الرئيسية، ومن ثم اذهب إلى الأشرعة الثانوية وافردها بسرعة قدر استطاعتك، وكلما كنت أسرع كان ذلك أسهل عليك، وبالنسبة لكوكي، إذا لم يبدِ نشاطاً في عمله فاضربه بين عينيه».

كنت على دراية بمديحه لي، وسعدت لذلك، لأنه لم يرفق تعليماته بأي تهديد، كنا طافين في اتّجاه الشمال الغربي، وكان في نيته أن يغير مساره بشكل كلي مع هبوب النفخة الأولى.

«سنستخدم النسيم في صالحنا»، شرح لي، «حسب آخر إطلاقات نارية، كانت القوارب تتجه قليلاً نحو الجنوب».

ثم استدار وذهب إلى مؤخرة السفينة نحو عجلة القيادة، أما أنا فمشيت إلى مقدمة السفينة ووقفت هناك، فمرّت نسمة ريح، لحقتها نسمة أخرى فتحرّك قماش الأشرعة قليلاً.

«الحمد لله أنها لا تأتي على حين غرة يا سيد فان وايدن». قال ماكريدج بحماس.

وكنت ممتناً بالفعل؛ لأني تعلمت عن الملاحة ما يكفي في هذه الفترة لأعلم صواب كلماته، فأنا أدرك الخطر الذي يحيق بنا لو كانت كلّ أشرعتنا مفتوحة، وأية كارثة تنتظرنا حينها.

استحال همس الريح نفثاً، وامتلأت الأشرعة فحرّكت الشبح، ووضع لارسن كلّ جهده ليحوّل عجلة القيادة يساراً فأبحرنا، وأصبحت الريح تدفعنا من الخلف وتنفث أقوى، وتطرق الأشرعة الرئيسية بحيوية حتى عجزت عن رؤية أي شيء في مكان آخر بالرغم من أني شعرت بارتفاع وحركة السفينة حين تغير ضغط الريح الذي غير اتّجاه الأشرعة الأمامية والرئيسية، وأشغلت يدي بالشراع المثلث الأمامي والشراع المُشَدَّد، وحين انتهيت من مهمتي هذه كانت الشبح تتقافز نحو الجنوب الغربي والريح بجانبها وجميع أشرعتها ممتلئة نحو الميمنة، ودون أن أتوقف لألتقط أنفاسي، على الرغم من احتياجي لذلك، قفزتُ إلى الشراع الثانوي، وقبل أن تهبّ ريح عاتية تمكنت من لفها وتثبيتها، ثم ذهبت إلى مؤخرة السفينة؛ لأخذ المزيد من التعليمات من وولف لارسن.

أومأ وولف لارسن موافقاً وراضياً عمّا فعلت وترك دفّة القيادة لي، كانت الريح تتصاعد باطّراد والبحر يرتفع، وجّهت السفينة لمدة ساعة وأصبحت كلّ لحظة أكثر صعوبة من سابقتها؛ لقلة خبرتي في توجيه السفينة بالسرعة التي نسير بها الآن.

«والآن خُذ المنظار وتتبع بعض القوارب، اجتزنا عشر عقد ونحن نبحر الآن بسرعة اثنتا عشرة أو ثلاث عشرة عقدة. هذه (الفتاة الكبيرة) تعرف كيف تسبح في الماء».

ثبتّ نفسي على منصة الصَّاري الأمامية بارتفاع سبعين قدماً فوق مستوى سطح السفينة، وبدأت أجوب امتداد الماء المنبسط أمامي ببصري، فأدركت على الفور حاجتنا لزيادة السرعة إذا ما أردنا استرداد أي من رجالنا، في الواقع، بينما كنت أدقّق في البحر العنيف متلاطم الأمواج الذي كنا نشقّ طريقنا عبره، شككت في أن هناك قارباً لايزال طافياً، من غير الممكن أن تتغلب هذه القوارب الضعيفة على ضغط الريح والماء، لم أشعر بقوّة الرياح العنيفة بصورة كاملة؛ لأننا كنا نسير معها، لكن من موقعي العالي تمكنت من النظر لأسفل كما لو كنت خارج الشبح وبعيداً عنها، ورأيت هيكلها يشق طريقه بحدة البحر الرغوي ويمزقه بغريزة الحياة، في بعض الأحيان كانت ترفع وتركب موجة عظيمة تغطي ميمنتها بالكامل وتحجبه عن الرؤية، وتغطي سطح السفينة إلى البوابات بماء المحيط الغاضب.

في مثل هذه اللحظات، أبدأ من القائم المواجه لاتّجاه الريح وأقفز إلى الجو بسرعة مذهلة، كما لو أنني تشبثت بنهاية بندول ضخم مقلوب، قوسه بين القوائم الأكبر، بارتفاع سبعين قدماً أو أكثر. تغلب عليّ رعب هذه العملية المبتذلة في أحد المرات، فتشبثت لفترة قصيرة بيدي، وقدماي ضعيفتان ترتجفان، غير قادر على اقتفاء أثر القوارب المفقودة أو التي تصارع مياه البحر، لكني نظرتُ إلى الأمواج الصاخبة أسفل مني التي تسعى لأن تطغى على الشبح وتغرقها.

وفكرة أن يكون الرجال يصارعون هذه الأمواج الغاضبة ثبتتني وفي خضم بحثي عنهم نسيت نفسي، فبحثت لساعة ولم أرَ سوى بحر عارٍ خرب حتى ضرب عمود من أشعة الشمس الصاخبة المحيط وتحول سطحه إلى لَون فضي غاضب، لمحت بعدها بقعة صغيرة سوداء تتجه نحو السماء للحظة وابتلعتها الأمواج، وانتظرت بصبر، ومرة أخرى ظهرت بقعة سوداء من بين اللظى الغاضب على بعد درجتين من يسار مقدمة السفينة، لم أحاول الصراخ وإنما أرسلت الأخبار الجديدة إلى وولف لارسن بتلويحة من يدي، فغيّر مساره، ثم أشرت له تأكيداً على أن تلك البقعة أمامنا مباشرةً.

ازداد حجم البقعة بسرعة، ولأول مرّة قدّرت السرعة التي نبحر بها وأهميتها، ثم طلب وولف لارسن مني النزول، وعندما وقفت بجانبه على دفّة القيادة أعطاني إرشادات وتحذيرات:

«توقع أن يتفكك كلّ شيء من مكانه، لكن لا عليك، مهمتك القيام بما هو مطلوب منك فقط، وأن تجعل كوكي يقف قرب الشراع الأمامي».

تمكنت من شق طريقي إلى الأمام، إذ لا خيار لدي من الجوانب؛ لأن الدرابزين المواجه للريح كان مغموراً بالمياه بقدر الدرابزين المعاكس. بعد أن أمرت توماس ماكريدج بما عليه فعله، تسلقتُ حبال الأشرعة الأمامية لبضعة أقدام، ولمحت القارب قريباً جداً، يمكنني أن أراه بوضوح، كان يركب الريح والبحر معاً ويسحب الصَّاري والشراع الذي ألقوه في البحر وجعلوه بمثابة مرساة، كان الرجال ثلاثتهم ينزحون الماء من المركب وبين الفينة والأخرى يُخفيهم جبل الأمواج عن الأنظار فأنتظر بتوتر يثير غثياني، خوفاً من أنهم لن يظهروا مرّة أخرى، وبعد ذلك، على

حين غرة، يظهر القارب ممتطياً قمة الرغوة، قوسه يشير إلى السماء، يمكنك رؤيته مبللاً وقاتماً بالكامل، يوشك أن ينقلب، ثم ترى لمحة عابرة عن ثلاثة رجال ينزحون بالماء على عجل محموم، وعندما يكاد ينقلب ويسقط في وادٍ سحيق كوّنته موجتان، تنزل مقدمته للأسفل وتبدو جهته الداخلية واضحة تقريباً وتتعامد مع الرأس، وفي كلّ مرّة يعاود فيها الظهور من جديد كانت بمثابة المعجزة.

ثم غيرت الشبح مسارها فجأة، مبتعدة عن القارب، وأدركتُ مصعوقاً أن وولف لارسن قد تخلى عن فكرة الإنقاذ المستحيلة تلك، ثم تنبّهت إلى أنّه يستعد ليناضل، فهبطت إلى السطح لأكون جاهزاً. نحن الآن في مواجهة الريح مباشرة، القارب بعيد ومواكبٌ لنا، شعرت بتخفيف مفاجئ في حركة السفينة وفقدان آني للضغط والتوتر، يرافقه تسارع في زيادة السرعة، كانت تتعجل بإبحارها في مهب الريح.

وعندما وصلت الشبح إلى الزوايا الصحيحة للبحر، أمسكتنا قوة الرياح الهائلة بالكامل (التي كنا نهرب منها حتى الآن)، ولسوء حظي ولجهلي كنت أواجهها بالكامل، وقفت أمامي كجدار، وملأت رئتي بالهواء الذي لم أستطع طرده، وبينما كنت أختنق وأعاني، كانت الشبح تتخبط للحظات، من مقدمة السفينة وتتدحرج مباشرة في اتّجاه الريح، رأيت البحر يرتفع بغضب فوق رأسي، التفتُّ جانباً لألتقط أنفاسي، ثم نظرت مرّة أخرى، فرأيت الموجة تطبق على الشبح، وعندما حدُّقت بداخلها وعبرها، ضربت أشعة الشمس، فاكتشفت لمحة من اللون الأخضر الشفاف المتسارع متبوعاً بسحابة رغوية حليبية اللون.

ثم انحدرت ففتحت أبواب الجحيم، وحدث كلّ شيء دفعة واحدة، فاكتسحتني ضربة قوية لم تصب مكاناً معيناً في جسدي لكنها أصابته بالكامل بشكل أو بآخر، فنزعت يدي عن ما تشبثت به وما هي لحظات حتى غمرني الماء وفكرت بأنه الشيء الرهيب الذي سمعت عنه، أن أرتدّ إلى الوراء، يسحبني البحر وأُدفن فيه، ضُرب جسدي وسُحق عندما انحرفت بلا حول ولا قوة، ثم انقلبت مراراً وتكراراً، وعندما عجزت عن حبس أنفاسي أكثر، تنفست المياه المالحة اللاذعة في رئتي. لكن من خلال كلّ ذلك تشبثت بفكرة واحدة ـ يجب أن أصل إلى بكرة الشراع المواجه للريح، لم أخشَ الموت ولم يراودني شك بنجاتي بطريقة ما، وبينما استمرت فكرة تنفيذي لأوامر وولف لارسن راسخة في وعيي الغائب، بدا لي أني أراه ممسكاً بدفة القيادة وسط الأمواج العنيفة يتحدى العاصفة بإرادته ويهزمها.

وارتفعت مرّة أخرى بقوّة حتى ارتطمت بما أظنه درابزيناً، وتنفست الهواء العذب، وملأت رئتي وعندما حاولت النهوض ضربت رأسي ووقعت مرّة أخرى على يدي وركبتي ودفعني الماء وأنا على هذه الحالة تحت السلوقية وغمر رأسي وعيني. وبينما كنت أحبو على هذه الصورة، أبصرت جسد توماس ماكريدج مكوماً يئنّ من الألم ولم يكن لدي الوقت لأصل إليه وأساعده؛ لأن علي أن أعيد بكرة الحبال إلى وضعها، وعندما وصلت إلى سطح السفينة نظرت حولي ورأيت كلّ شيء قد استحال حطاماً من جميع الجهات، كان هناك تصدع وتحطم للخشب والفولاذ وتمزق للقماش، كانت الشبح أشلاء ممزقة إلى شظايا، أفرغت الأشرعة الأمامية والعلوية من هواءها بفعل الحركة المفاجئة؛ لعدم وجود أحد يطويها ويثبتها في

الوقت المناسب، فتمزقت إلى شرائط، وتشظت عارضة الصَّاري وسقطت على عرض السفينة، كان الهواء كثيفاً بسبب الحطام المتطاير، وكانت الحبال التي فسختها الريح ودعاماتها تلتف على نفسها وتهسهس مثل الثعابين، وفوق هذا كله، سقطت قارية الشراع الثانوي.

أخطأتني قاعدة الصَّاري بعدة بوصات فنجوت منها، إلا أنّها دفعتني إلى العمل، ربما لم يكن الوضع ميؤوساً منه، تذكرت تحذير وولف لارسن، كان يتوقع أن ينهار كلّ شيء، وها قد حصل ما تنبأ به، وأين كان حين حصل كلّ هذا؟ لمحته يلف الشراع الرئيسي، ويمسك به بعضلاته الهائلة، وعندما رُفعت مؤخرة السفينة عالياً في الهواء أحيط جسده بموجة بيضاء من البحر تمر عبره، كلّ هذا وأكثر، عالم كامل من الفوضى والحطام، في خمس عشرة ثانية، رأيتها وسمعتُها واغتنمتها.

لم أتوقف لرؤية ما حلّ بالقارب الصغير، وإنما قفزت نحو الشراع المثلث الأمامي والشراع المُشَدَّد الذي بدأ يصفق، يمتلأ ويفرغ من الهواء بالتتابع، لكن بالاستعانة باستدارة القماش واستخدام قوتي الكاملة كلما صفق، تمكنت من لفّه وضبطه، وأعلم جيداً أنّي بذلت قصارى جهدي، لأني استمرَّيتُ بسحب الحبال حتى تشققت نهايات أصابعي، وبينما كنت أسحب الشراع المثلث، انفصل أحد الأشرعة المُشَدَّدة وطار بعيداً، تابعت السحب والاحتفاظ بما وصلت إليه إلى الآن، حتى توقف الشراع عن الحركة وتمكنت من ربطه دون عناء، كان وولف لارسن بجانبي مشغول يناضل وحده حتى صاح:

«أسرع وأنهِ عملك، ثم انزل للأسفل».

مشيت خلفه ولاحظت أن الشبح كانت صامدة، فعلى الرغم من كلّ الحطام والخراب الذي حل بها إلا أن هناك بعض الفوضى المنظمة، ما زالت تعمل وستستمر بالعمل رغم تحطم باقي أشرعتها، ما عدا الشراع المثلث الأمامي كان مدفوعاً للخلف في مهب الريح والشراع الرئيسي منكس إلى الأسفل، ولا يزالان يثبتان مقدمتها وهي تشق طريقها في البحر الغاضب المتهور.

بحثت عن القارب، بينما كان وولف لارسن يخرج عدّة القارب من حبال الأشرعة والبكرات من بين الحطام، ورأيت القارب يرتفع إلى الأعلى محمولاً بموجة على بُعد أقدام منّا، وها قد أجرى حساباته بإتقان فقد انجرفنا عليه إلى حد ما، وليس عليه إلا ربط المقابض بكلا الطرفين؛ لكي نرفعه على متن الشبح، ولكن هذا لم يتم بسهولة كما هو مكتوب.

كان كيرفوت قرب قوس القارب وأوفتي أوفتي في المؤخرة بينما جلس كيلي في المنتصف، وبينما اقتربنا منه ارتفع القارب بموجة بينما انخفضنا بأخرى، حتى أصبح فوقنا تقريباً، واستطعت رؤية رؤوس الرجال الثلاثة يراقبون بوجل وينظرون إلى الأسفل وفي اللحظة الثانية، ارتفعت الشبح فهبط القارب أسفل منّا وبدا لي أنّه لمن الغريب والمثير أن لا تسحق الشبح القارب في أية لحظة كقشرة بيض عندما يتحرك الموج.

مررت عدّة الحبال والبكرات إلى أوفتي أوفتي في الوقت المناسب بينما فعل لارسن الشيء ذاته مع كيرفوت، ثم ربطت العدّتان بالتتابع، وقام الرجال الثلاثة، الذين صمموا التوقيت بدقة، بقفزة متزامنة على متن السفينة، وعندما تحركت الشبح وارتفع جانبها من الماء، رُفع القارب بإحكام على متنها، وقبل أن تعود إلى وضعها، قمنا بتدويره على الجانب وتحويله لأسفل على سطح السفينة. لاحظت أن الدم ينفث من يد كيرفوت اليسرى. بطريقة ما، تحطمت إصبعه الوسطى بالكامل لكنه لم يعطِ أي اهتمام لذلك، وبيده اليمنى الوحيدة ساعدنا في تثبيت القارب في مكانه.

«أوفتي، ثبت قاعدة البكرة في موضعها». أصدر وولف لارسن أوامره حالما انتهينا من القارب: «وأنت يا كيلي، تعال إلى مؤخرة السفينة لإرخاء حبل الشراع الرئيسي، واذهب أنت يا كيرفوت لترى ماذا حل بالطباخ، أما أنت يا فان وايدن فتسلق الصَّاري وتخلص من كلّ عقدة ضالّة في طريقك».

وبعد أن أنهى إصدار أوامره، ذهب إلى مؤخرة السفينة بقفزاته الغريبة الشبيهة بوثبات النمر، وأمسك بدفّة القيادة بينما كنت أكدح بربط حبل الصَّاري الأمامي، تحركت الشبح ببطء، هذه المرة، عندما دخلنا حوض البحر وجَرَفنا فيه، لم تكن هناك أشرعة لتحمل السفينة، وصل الماء إلى منتصف الطريق إلى منصة الصَّاري وسُويَّت بقوّة الريح العاتية حيث كان من المستحيل أن أسقط، كانت الشبح تقريباً على أطراف دعاماتها والصواري موازية للماء، نظرت لا للأسفل، ولكن في الزوايا اليمنى عمودياً، إلى سطح السفينة، لكن ما رأيته لم يكن سطحها بل ما يفترض أن يكون؛ لأنه دُفن تحت قعر ماء هابط، ورأيت الصَّاريين يتصاعدان من هذا الماء، وكان هذا كلّ شيء. غاصت الشبح تحت البحر في الوقت الحالي، كلما حاولت الحركة هرباً من الضغط الجانبي، كانت تعّدل من وضعيتها وتحرر سطحها أكثر، كانت أشبه بظهر حوت عبر سطح المحيط.

ثم أسرعنا بوحشية عبر البحر الهائج، بينما علقتُ مثل ذبابة على منصة الصَّاري أبحث عن القوارب الأخرى. لمحت القارب الثاني بعد نصف ساعة، كان مقلوباً وقعره يواجه السماء، يمسك بحافته كلّ من جوك هورنر ولويس السمين وجونسون، وبقيت هذه المرة في الأعلى بينما تمكن لارسن من معالجة الموقف بنجاح، فرمينا لهم حبالاً ذات خطافات تعلقوا بأطرافها كأنهم قرود، أما القارب فقد ارتطم بجانب السفينة وتحطم فتناثرت خشباته، جمعنا حطامه على سطح السفينة ليُعاد ترميمه من جديد.

وغاصت الشبح من جديد في موجة عالية، غمرتها هذه المرة لثوانٍ خلتُها لن تعاود الظهور من تحت الماء مرّة أخرى؛ فقد غطى الماء السفينة حتى الدفّة التي ارتفاعها أعلى من الخصر، غاصت تحت الماء المتلاطم لعدة مرات، وشعرت في مثل هذه اللحظات بأني وحيدٌ جداً مع الله، وحيدٌ أراقب فوضى غضبه، وعندها تظهر الدفّة من جديد يقف خلفها وولف لارسن عريض المنكبين يمسكها بيديه ويثبت السفينة في مسارها بإرادته وحده كأنه إله على الأرض يسيطر على العاصفة، ويخرج من مياهها ويركبها، ليصل إلى غاياته الخاصة، آه يا الله، إنّي لأعجب كلّ العجب! أن

يعيش هؤلاء الرجال الصغار ويتنفسوا ويعملوا، ويقودوا مركباً هشّا متواضعاً من الخشب والقماش عبر هذا النزاع المادي هائل.

وكما في السابق، تأرجحت السفينة من الماء ورفعت سطحها مرّة أخرى، لتقف بين الأمواج المتلاطمة، الساعة الآن الخامسة والنصف وبعد نصف ساعة من الآن سينتهي النهار ويحل الظلام والشفق الغاضب، لمحت القارب الثالث، كان مقلوباً رأساً على عقب ولا أثر لطاقمه، كرر لارسن مناوراته بأن يثبت، ومن ثم يستدير باتّجاه الريح ويسير نحوها، لكنه أخطأ هذه المرة بمسافة أربعين قدماً، فعبر القارب مؤخرة السفينة.

«إنه القارب الرابع». صاح أوفتي أوفتي، إذ تمكن من قراءة الرقم المكتوب عليه باللحظات التي ارتفع بها من على الزَبد وانقلب إلى الأسفل، كان قارب هندرسن وفُقد معه هولي أوك وويليامز. طاقم آخر من بحّارة المياه العميقة، فُقدوا في البحر بلا شك لكن القارب بقي، فحاول وولف لارسن أن يستعيده أكثر من مرّة، نزلت على سطح السفينة ورأيت هورنر وكيرفوت يحتجّون دون جدوى على المحاولة.

«لن تسلبني عاصفة قاربي حتى لو كانت تهبّ من الجحيم». صاح علينا، وبالرغم من أننا اقتربنا أربعتنا لنسمع ما يقول إلا أن صوته جاء بعيداً وضعيفاً كما لو أنّه يبعد عنا فراسخ.

«سيد فان وايدن». صاح لكنني سمعته صراخه همساً بسبب الفوضى والصخب، «ابقَ قريباً من البكرات مع جونسون وأوفتي، وليذهب البقية إلى مؤخرة السفينة نحو الشراع الرئيسي، بسرعة تحركوا! والا سأبحر بكم إلى الجحيم. مفهوم؟».

وعندما حرّك الدفّة بقوّة وانحرف قوس الشبح، لم يكن للصيادين إلا أن يذعنوا ويطيعوا ويستفيدوا من هذه الفرصة المحفوفة بالمخاطر، أيقنتُ مدى خطورة هذه الفرصة عندما غُمرتُ تحت البحر المتلاطم مرّة أخرى وكافحت للنجاة وأمسكت بتلابيب الحياة حين تشبثت بحاجز قرب قاعدة الصَّاري الأمامية، تمزقت أصابعي وافلتت يدي وانجرفت إلى الجانب ومنه إلى البحر، لا أستطيع السباحة وقبل أن أغرق في غياهب البحر أمسكتني يدٌ قوية وعندما خرجت الشبح أخيراً من تحت الماء علمت بأني أدين بحياتي لجونسون، رأيته ينظر بقلق ويتلفت حوله ولاحظت بأن كيلي الذي تقدم آخر لحظة مفقود.

وبعد ما أخطأ الهدف ولم يصل إلى القارب؛ لأنه لم يكن في المكان المناسب كما في المرة السابقة، قرر لارسن معاودة المناورة بطريقة مختلفة هذه المرة، واجه الريح مباشرة واتجه يميناً وعندما وصل استدار على عقبه فصاح جونسون في أذني: «عظيم!»، حين نجحنا في عبور الطوفان المصاحب، وعلمت حينها بأنه لم يقصد حنكة وولف لارسن بكلامه، وإنما أداء الشبح ذاتها.

غمر الظلام كلّ شيء وليس هناك أي أثر للقوارب، لكن وولف لارسن امتنع عن الاضطراب المخيف كما لو كان يسترشد بالغريزة الواثقة، هذه المرة، برغم كوننا شبه مغمورين بالماء باستمرار، لم يكن هناك أية دوامة يمكن أن تجرفنا فيها،

فاصطدمنا مباشرة بقارب مقلوب، وحطمناه بالكامل عندما حاولنا تحريكه داخل السفينة.

مرت ساعتان من العمل الشاق، حيث اشترك الجميع ـ صيادان، وثلاثة بحّارة وولف لارسن وأنا ـ نثني الأشرعة واحداً تلو الآخر، الشراع المثلث الصغير، ومن ثم الشراع الرئيسي، وأخذت الشبح بسطحها الذي يخلو من الماء الآن تتأرجح بين الأمواج العاتية كقطعة فلين بقماش أشرعتها الصغيرة.

ازدادت جروح أصابعي سوءاً، تشقّقت نهاياتها منذ أن بدأنا بثني الأشرعة، كنت أعمل ودموع الألم تنساب على خدي، وحين انتهى كلّ شيء، خارت قواي واستسلمتُ كامرأة وتكومت على سطح السفينة بحزن وإرهاق.

وفي هذه الأثناء، وجدوا ماكريدج كفأر غريق تحت رأس السلوقية حيث كان يختبئ وجرّوه من مؤخرة السفينة إلى المقصورة، لاحظت بذهول اختفاء المطبخ بالكامل وحل محله مساحة نظيفة على سطح السفينة تدل على مكانه.

وجدت الصيادين والبحّارة متجمعين في مقصورة الطعام، حيث أُعدَّت القهوة على الموقد الصغير، شربنا الويسكي وأكلنا الخبز القاسي، لم يكن الطعام في حياتي مرحباً به مثل هذه المرة، ولم أتذوق قهوة ساخنة ألذّ من هذه، هذا ما فعله بنا عُنف الشبح، تتحرك وتتماوج وتتقلب حتى تعذّر على البحارة الحركة دون التمسك بشيء، ومرات عديدة، بعد صرخة: «ها هي قادمة!»، نتكوم على جدار المقصورة كما لو كان على سطح السفينة.

«لتذهب الحراسة إلى الجحيم». سمعت وولف لارسن يقول عندما أكلنا وشربنا حد التخمة، «ليس هناك ما ينبغي عمله على سطح السفينة وإن اعترضنا شيء، فلن نتمكن من ردعه؛ لذا، انهضوا يا سادة واخلدوا إلى النوم».

انصرف البحّارة بعد أن أطفؤوا المصابيح الجانبية فيما بقي الصيادان لينامان في مقصورة الطعام، وقبل أن ينام كيرفوت، قطعت أنا ولارسن إصبعه المهروس ثم خطنا الجرح، أما ماكريدج الذي كان يشكو من ألم داخلي طيلة فترة خدمته في تقديم الطعام وتحضير القهوة، فقد أقسم الآن أن له ضلعاً مكسوراً أو اثنين، وبعد فحصه تبين أن ثلاثة من أضلاعه مكسورة بالفعل لكننا أجلنا قضيته إلى اليوم التالي، لسبب رئيسي هو أنني لم أعرف شيئاً عن الأضلاع المكسورة وأحتاج أولاً إلى القراءة عنها.

قلت لوولف لارسن: «لا أظن أن الأمر يستحق ذلك، قارب محطم لقاء حياة كيلي».

«لكن حياة كيلي لا تساوي الكثير، تصبح على خير».

وبعد كلّ ما مرّ، عانيت آلاماً لا تطاق؛ بسبب تمزق أطراف أصابعي وبعد أن فقدنا ثلاثة قوارب، لا يسعني الكلام عن حركة الشبح وكأنها تثب بمرح عرض البحر، فكرت بأنه سيستحيل علي النوم إلّا أن عينيّ أغلقتا حالما لامس رأسي الوسادة بسبب الإرهاق الشديد، نمت بعمق طوال الليل، واستمرت الشبح تصارع وحيدة دون توجيه وتشق طريقها خلال العاصفة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثامن عشر

في صبيحة اليوم التالي، وبينما كانت العاصفة تلفِظ أنفاسها الأخيرة وتوشك أن تخمد، تمكنّا أنا وولف لارسن من إعادة أضلاع ماكريدج إلى مكانها بمساعدة كتب علم التشريح والجراحة، وبعدما توقفت العاصفة جاب لارسن البحر ذهاباً وإياباً في المكان الذي واجهتنا العاصفة فيه وقليلاً باتّجاه الغرب، وبينما كنا نصلح القوارب ونصنع أشرعة جديدة ونطويها، رأينا سفن صيد عجول البحر واحدة تلو الأخرى تجوب البحر في بحث محموم عن قواربها المفقودة، حمل معظمها قوارب وطواقم لا تعود إليها التقطتها من عرض البحر؛ لأن الجزء الأكبر من الأسطول كان متجهاً إلى الغرب منا، وكانت القوارب المبعثرة على نطاق واسع، تتجه في رحلة جنونية إلى أقرب ملجأ.

عاد اثنان من زوارقنا مع طاقميها سالمين بفضل إنقاذ السفينة (سيسكو) لهم، فشعر وولف لارسن بفرحة عارمة بينما حزنت أنا؛ لأنه أعاد سموك ونيلسون وليتش من سفينة (سان دييغو)، وبذلك تكون العاصفة التي دامت خمسة أيام قد جرّدتنا من أربعة رجال: هندرسون وهولي أوك وويليامز وكيلي، وعاد بقية الطاقم يصطادون مجدداً من جوانب القطيع.

وعندما تبعناه شمالاً، بدأنا في مواجهة الضباب البحري المخيف، ويوماً إثر يوم، تنزلق القوارب من السفينة فما تكاد تلامس الماء حتى يبتلعها الضباب، كنا ننفخ البوق في فترات منتظمة ونطلق قنبلة كلّ ربع ساعة، وما أسرع ما تُفقد القوارب لنجدها بعد ذلك. من عادة قارب الصيد أن يباشر عمله مع أية سفينة صيد تلتقطه، حتى تستعيده السفينة التي تملكه، لكن وولف لارسن، كما هو متوقع لحاجته إلى القوارب، استحوذ على أول قارب ضالّ وأجبر رجاله أن يعملوا لحسابه، دون السماح لهم بالعودة إلى سفينتهم عندما شاهدناها، أتذكر كيف أكره لارسن الصياد ورفيقيه بقوّة السلاح الموجه نحو صدورهم على الصمت حين مرت سفينتهم وسألنا قبطانهم عن رجاله.

أما توماس ماكريدج وتمسكه الغريب بالحياة، فسرعان ما عاد إلى ممارسة واجباته المضاعفة كطباخ وصبي مقصورة، وتعرض جونسون وليتش للتخويف والضرب أكثر من أي وقت مضى، حتى أنهما أصبحا يتطلعان لموتهما بنهاية موسم الصيد، وعاش باقي الطاقم حياة الكلاب وعملوا مثلها بفضل سيدهم الظالم، أما بالنسبة لوولف وارسن وأنا، فقد قطعنا شوطاً جيداً على الرغم من أنني لم أتمكن من التخلص من فكرة أن الحل الأسلم يكمن في قتله، إلا أنّه فتنني بشكل لا حد له، وخفت منه كثيراً، ومع ذلك، عجزت عن تخيله مطروحاً وقد تغلب عليه الموت وقهره، كان هناك طيف من شباب أبدي وقوة طاغية تحيط بصورته في مخيلتي، فلا أراه إلا حياً ومسيطراً دائماً يدمر نفسه وينتصر في النهاية.

ومن تصرفاته غير السوية، عندما كنا في خضم القطيع، كان البحر قاسياً للغاية لدرجة أنّه لا يمكن إنزال القوارب، فقام بإنزال قاربي صيد بطاقميهما وآثر أن يخرج للصيد معهم بنفسه، كان صياداً ماهراً بالفعل، فقد جلب الكثير من الجلود رغم أن الصيادين ذكروا استحالة الصيد في مثل هذه الظروف، كان رجلاً لا يهاب شيئاً، يحمل حياته بين كفيه ويكافح لمواجهة الصعاب العظيمة.

كنت أتعلم الملاحة البحرية كلّ يوم، وإن صادفنا يوم مشمس صافٍ ـ وهو أمر نادر الحدوث ـ كنت أشعر بالرضا لقيادتي الشبح والتعامل معها والتقاط القوارب بنفسي. أُصيب وولف لارسن بإحدى نوبات صداعه، فوقفت على عجلة القيادة من الصباح حتى المساء، أبحر عبر المحيط بعد آخر قارب سُفالة الريح، ثم أتجه إليه وألتقطه مع الخمسة الآخرين دون أمر أو اقتراح منه.

واجهتنا العواصف بين فترة وأخرى، فالمنطقة ذات مناخ عاصف متقلب، وإني لأذكر إعصاراً واجهناه في منتصف يونيو لن أنساه أبداً لأنه خلّف أثراً بارزاً في حياتي بكاملها بعد ذلك.

لا بد أن الإعصار قد هاجمنا على مقربة من مركز دورانه، هرب وولف لارسن منه بثني مزدوج للأشرعة المثلثة أولاً، ومن ثم بصواري عارية (بلا أشرعة) حتى تمكنا أخيراً من الهروب جنوباً. لم أرَ في حياتي بحراً عظيماً كهذا، صحيح أننا واجهنا بِحاراً بموجات عاتية لكنها لا تقارن بهذا البحر، امتدت موجاته لنصف ميل من قمة إلى قمة وترتد فوقها، وأنا واثق من أنها تفوق صارينا الرئيسي ارتفاعاً، حتى أن وولف لارسن نفسه لم يجرؤ على الخوض فيه، على الرغم من أنّه كان يبتعد جنوباً ويخرج من قطيع عجول البحر.

هدأ الإعصار عندما أصبحنا في مسار البواخر العابرة للمحيط الهادئ، وفوجئنا بأن وجدنا أنفسنا وسط قطيع آخر من عجول البحر، وقد خمّن الصيادين أنّه نوع من قطعان الحراسة الخلفية للقطيع السابق وهو شيء غريب، لكن المكان كان يعج بقوارب الصيد وتسمع ضربات الأسلحة في كلّ مكان، وبذا جرت المذبحة المريعة خلال اليوم الطويل.

في تلك الليلة، وبعدما انتهيت من فرز الجلود التي جلبها آخر قارب على سطح السفينة، اقترب مني ليتش وهمس بصوت منخفض:

«هل يمكنك أخباري يا سيد فان وايدن، كم نبعد عن الشاطئ؟ وما هو الاتّجاه الذي يجب أن نسلكه إلى يوكوهاما؟».

سرّني ما يرمي إليه ليتش من سؤاله، فأعطيته الاتّجاهات والمسافة.

«نحن على مسافة خمسمائة ميل والاتّجاه هو غرب ـ شمال ـ غرب».

«شكراً لك يا سيدي». هذا كلّ ما قاله قبل أن يختفي في الظلام.

وفي صباح اليوم التالي، كان القارب رقم ثلاثة قد اختفى وعلى ظهره كلّ من جونسون وليتش فضلاً عن كلّ ما يحتاجانه من أدوات وأكياس نوم، واختفت

كاسحات المياه من كل القوارب الأخرى، استشاط لارسن غضباً حين علم بذلك فأبحر بنا غرباً وشمال غرب، وأمر صيادِيَن بارتقاء قمة الصَّاري والبحث في البحر باستخدام منظاريهما وهو يثب على سطح السفينة كنمر غاضب، وقد علم بتعاطفي وتضامني مع الفارّين ومع ذلك أرسلني للاستطلاع أعلى الصَّاري.

كانت الريح تهبّ بشكل متقطع، وكان البحث عنهما كمن يفتش عن إبرة في كومة قش، وأن نجد هذا القارب الصغير في هذا البحر اللامتناهي كان أمراً شبه مستحيل، لكنه وضع الشبح في مكان يحول فيه بين الفارّين وبين اليابسة، وبعد أن أتمّ هذا، أخذ يجوب ما يعرف بأنه مسارهما ذهاباً وإياباً.

وفي صبيحة اليوم الثالث، بعد الساعة الثامنة صباحاً بقليل، علت صرخة من سموك وهو على قمة الصَّاري ينبّئ بأنه لمح القارب من بعيد، اصطف كلّ الطاقم على الدرابزين، وهبّ نسيم هائج من الغرب يتوعّد بمزيد من الرياح خلفه، وهناك، على الطريق الفضي المضطرب للشمس المشرقة، ظهرت بقعة سوداء ثم اختفت.

أبحرنا صوبه مسرعين، شعرت بثقل في صدري كأنما استحال قلبي رصاصاً، وشعرت بالغثيان بسبب ترقبي لما سيحدث، رأيتُ عيني لارسن تومضان ببريق فيه نشوة الانتصار، فطاف وجهه أمامي وشعرت برغبة مُلحّة بأن أنقضّ عليه.

لم أقلق بسبب العنف الذي على وشك أن يطال جونسون وليتش، ولهذا السبب بالذات قد أكون فقدت صوابي، وأعلم أني تسللت إلى مهاجع البحّارة وأخذت مسدساً ملقَّماً بيدي وكنت على وشك الصعود إلى سطح السفينة عندما سمعت صرخة أخرى:

«هناك خمسة رجال على متن هذا القارب!».

استطعت أن أسند نفسي بمشقة، كنت واهناً أرتعش من التوتر، انتظرت حتى تأكد الجميع من صحّة الخبر، وحين فعلوا لم تحملني ساقاي فوقعت على الأرض مصدوماً مما كنت على وشك القيام به، وكذلك، كنت شاكراً؛ لأني لم أقترف أية جريمة فأعدتُ المسدس وصعدت إلى سطح السفينة.

لم يلاحظ أحد غيابي لحسن الحظ، كان المركب قريباً بما فيه الكفاية لنعلم أنّه أكبر من أن يكون قارب صيد عجول البحر، وتصميمه كان مختلفاً أيضاً، وبينما اقتربنا منهم، أُنزل الشراع وأُزيل الصَّاري ورُفعت المجاديف وانتظرنا طاقمه أن نرفعهم إلى سطح سفينتنا.

وفي هذه الأثناء، نزل سموك إلى سطح السفينة، ووقف إلى جانبي ثم بدأ يقهقه فنظرت إليه مستفهماً.

«بالحديث عن الفوضى!»، واستمر بالضحك.

«ما الذي يدعوك إلى الضحك؟»، سألته.

قال وهو يضحك مرّة أخرى: «ألا ترى هناك في أشرعة المؤخرة، هناك في الأسفل؟ لألعن وأعجز عن صيد عجلٍ مرّة أخرى إن لم تكن هذه امرأة».

نظرت عن كثب لكنني لم أكن متأكداً حتى اندلعت صيحات التعجب من كل جانب، احتوى القارب على أربعة رجال وكان راكبه الخامس امرأة بالتأكيد، كنا متحمّسين بشدّة، جميعاً باستثناء وولف لارسن الذي شعر بخيبة أمل شديدة؛ لأنه لم يكن قاربه ولا ضحيّتي خبثه.

أنزلنا الشراع الأمامي الصغير وأمسكنا بقماشته باتّجاه الريح وبسطنا الشراع الرئيسي حتى امتلأ بالريح، وضربت المجاديف الماء وبعد عدة ضربات كان القارب إلى جانبنا، نظرت لأول مرّة إلى المرأة، كانت تلفّ نفسها بمعطف رجالي طويل وفضفاض؛ لأن الصباح كان بارداً، ولم أتمكن من رؤية شيء سوى وجهها وشعر كثيف بنّي ينساب من تحت قبعة البحارة التي كانت تضعها فوق رأسها.

عيناها كبيرتان، بنيتان ولامعتان، وفمها حلو وحساس، ووجهها بيضاوي دقيق، على الرغم من تعرضها للشمس والرياح الشديدة التي أحالته إلى لون قرمزي جميل.

بدت لي تلك المرأة وكأنها كائن قادمٍ من عالم آخر، شعرت برغبة قوية في الاقتراب منها كما يفعل رجل يتضور جوعاً حين تقع عينه على الخبز، ولي الحق في ذلك لأن عينيّ لم تقعا على امرأة منذ مدة طويلة، أعلم أنني ضعت في ذهول وخدر، فهي إذن امرأة؟ نسيت نفسي وواجباتي ولم أشارك في مساعدة القادمين الجدد على متن السفينة، وعندما رفعها أحد البحارة إلى ذراعي وولف لارسن الممدودتين، نظرَت إلى وجوهنا الغريبة وابتسمت بمرح وعذوبة، ابتسامة لا تصدر إلا عن امرأة، وبما أنني لم أرَ ابتسامة واحدة منذ فترة طويلة، فلدرجة ما نسيت وجود هذه الابتسامات.

«سيد فان وايدن!»، أعادتني صيحة لارسن إلى نفسي بسرعة.

«هل لك أن تأخذ السيدة لترتاح قليلاً، جهز المقصورة الاحتياطية واطلب من كوكي أن يقوم بالأمر، وافعل شيئاً لوجهها فهو محترق بالكامل».

ثم استدار بفظاظة ورحل مبتعداً عنّا، ليستجوب الرجال الجدد، أُلقي القارب في البحر ليجرفه دون هدف، حتى أن بعضهم صاح: «مؤسف جداً أن يضيع ويوكاهاما قريبة منّا».

لا أعلم لماذا شعرت بخوف من هذه المرأة التي كنت أرافقها إلى الخلف؟ تصرفتُ ببلاهة أيضاً، وعندما أمسكت ذراعها لمساعدتها على ارتقاء السلالم، أدركت للمرة الأولى أن المرأة مخلوق هش ورقيق، شعرت بالدهشة من صغر حجمها ونعومتها، في الواقع، كانت امرأة نحيلة وحساسة كمعظم النساء، لكن بالنسبة لي، كانت نحيلة وحساسة للغاية لدرجة أني خشيت أن تتحطم ذراعها في يدي، كل هذا الوصف بصراحة؛ لإظهار انطباعي الأول، بعد حرماني من النساء لمدة طويلة بشكل عام وتجاه (مود بروستر) بشكل خاص.

«لا حاجة لأن تتكبّد عناء من أجلي». احتجَّت عندما أجلستها على كرسي وولف لارسن الذي جلبته لها من مقصورته: «كان الرجال يبحثون على اليابسة هذا الصباح، ولا بد أن تصل السفينة هذا المساء، ألا تعتقد؟».

إيمانها البسيط في المستقبل القريب أخذني على حين غرة، كيف يمكنني أن أوضح لها الموقف؟ وأن أشرح لها أن هذا الرجل الغريب يطارد البحر كأنه القدر، وكل ما استغرقني شهوراً لأتعلمه؟ لكنني أجبت بصراحة:

«لو كان القبطان غير قبطاننا هذا، فسأقول لكِ بأنكم ستكونون على شاطئ يوكوهاما يوم غد. لكن قبطاننا رجل غريب، وأتوسل إليكِ أن تكوني مستعدة لأيّ شيء. تفهمين؟ لأيّ شيء».

«أنا... أنا أعترف أنني أكاد لا أفهم ما ترمي إليه»، وتردّدت في كلامها، كان في عينيها اضطراب لا خوف. «أم هل هو مفهوم خاطئ حين أقول إن ركاب السفينة المحطمة يلقون كلّ مساعدة واحترام من أية سفينة تلتقطهم؟ كما تعلم. نحن قريبون جداً من اليابسة».

«بصراحة، أنا لا أعرف»، حاولت طمأنتها. «وددتُ أن أعدّك للأسوأ هذا إذا حدث سوء، هذا الرجل، هذا القبطان، هو وحش وشيطان، ولا يمكن التنبؤ بأية خطوة قد يقدم عليها».

شعرت بحماسٍ شديد، لكنها قاطعتني: «أوه. حسناً»، وبدا صوتها متعباً، كان التفكير بحدّ ذاته يجهدها، وكانت على وشك الانهيار الجسدي.

لم تطرح أية أسئلة أخرى ولم أُدلِ بأي تعليق، كرُّست نفسي لخدمتها كما أمرني وولف لارسن، وبأن أجعلها ترتاح، فبحثت بين أشيائه ووجدت مرهماً مهدِّئا لحروق الشمس، وأخذت من مخزن لارسن الخاص زجاجة خمر ووجهت ماكريدج بأن يجهز المقصورة الصغيرة الاحتياطية.

هبّت الريح سريعة وقطعت الشبح المسافات، وحين انتهى إعداد الحجرة كانت الشبح تندفع في البحر بنشاط، وكدت أنسى قصة ليتش وجونسون حتى سمعت صرخة سموك من فوق أعلى الصَّاري: «ها هو القارب».. ثم نظرت إلى المرأة فوجدتها مستلقية على الكرسي وعيناها مغلقتان، أعياها التعب، فشككت أن تكون قد سمعت شيئاً، وعقدت العزم على منعها من رؤية الوحشية التي كنت أعلم أنها ستتبع أسر الهاربين، كانت متعبة ومن الأفضل أن تنام.

كانت هناك أوامر سريعة، وأقدام تضرب أرضية سطح السفينة وصفعات لِثنيات الأشرعة، أبحرت الشبح لتقتفي أثر القارب، تحرك الكرسي عندما زادت سرعتها وبدأ ينزلق على أرضية المقصورة فقفزت لأمسكه في الوقت المناسب؛ لأمنع المرأة من السقوط.

أثقل النوم عينيها المنهكتين فلم تُبدِ إلا نظرة متحيرة، وعندما نهضت تعثّرت قليلاً وهي ترتجف فقُدتها إلى الحجرة، وحين رآني ماكريدج كشر عن أسنانه ضاحكاً فدفعته عن الطريق وأمرته بالعودة إلى مطبخه، فانتقم مني بأن نشر إشاعات بين الصيادين مفادها إني أصبحت الآن (خادم السيدة).

كانت تتكئ عليّ بكل ثقلها وأعتقد أنها غطت في نوم عميق مرّة أخرى في الفترة بين الكرسي والحجرة، واكتشفت ذلك حينما كادتِ أن تقع بسبب ارتجاج السفينة

المفاجئ، استفاقت وابتسمت ابتسامة ناعسة ثم غطت في النوم من جديد، تركتها نائمة ودثّرتها ببطانيات البحّارة الثقيلة ورأسها يستند على وسادة استلفتُها من فراش وولف لارسن.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل التاسع عشر

صعدتُ إلى السطح ووجدت السفينة تتّجه قريباً من الميناء وتسير بسرعة باتّجاه مهب الريح بكامل أشرعتها مفتوحة وبنفس المسار المألوف أمامنا، وكان جميع رجال الشبح على سطحها؛ لأنهم يعلمون بأن شيئاً ما سيحصل عندما يُجر كلّ من ليتش وجونسون إلى السفينة.

جاء لويس إلى مؤخرة السفينة؛ لتسلم دفّة القيادة حوالي الساعة الرابعة، كان الجو رطباً ولاحظته يرتدي معطفه المشمع فسألته:

«ما الذي ينتظرنا؟».

«زوبعة صغيرة يافعة يا سيدي، يرافقها زخات من المطر تكاد ترطب خياشيمنا».

«من سوء الحظ أننا لمحناهما». قلت له، بينما كانت الشبح تجنح نحو نقطة في عرض البحر حيث القارب يتقافز على الأمواج، ثم يظهر واضحاً في خطّ رؤيتنا.

حرك لويس الدفّة درجة وماطل لكسب الوقت ثم قال: «أعتقد أنهما لن يتمكنا من بلوغ اليابسة يا سيدي».

«أتعتقد ذلك؟».

«أجل يا سيدي. ألا ترى؟»، وهبّت نفخة ريح قوية فجأة على السفينة فاضطر إلى تحريك الدفّة بسرعة ليحافظ عليها في مسارها بعيداً عن الريح، «لن يصمد قاربهما الخفيف في مثل هكذا بحر بعد ساعة من الآن، ومن حسن حظهم أن نكون هنا وننقذهما».

اندفع لارسن إلى مؤخرة السفينة قادماً من وسطها حيث كان يتحدث مع الرجال الذين تم إنقاذهم، كانت وثباته الشبيه بوثبات القطط أكثر وضوحاً من المعتاد وعيناه تلمعان بشرود.

«ثلاثة مزيّتي ماكنات والرابع مهندس»، قال دون تحية: «لكننا سنجعل منهم بحّارة أو مجدّفي قوارب على أقل تقدير. ما أخبار السيدة؟».

شعرت بوخزة حادة وألم كأنّ سكيناً غُرزت في صدري عندما ذكرها ولا أعلم لماذا. فكرت بأنه غباء وسخف من جهتي لكنه استمر رغماً عني، وحرّكت كتفي بصعوبة لإجابة سؤاله.

زمّ وولف لارسن شفتيه وأطلق صفرة استهجان طويلة.

«ما اسمها؟»، سألني.

«لا أعلم. ما زالت نائمة، وهي متعبة جداً، في الحقيقة كنت أنتظر أن أعرف الأخبار منك، أي سفينة كانت؟».

«باخرة بريد»، أجاب باقتضاب، «اسمها (مدينة طوكيو) وهي قادمة من سان فرانسيسكو ومتجهة إلى يوكوهاما، عطّلها الإعصار وشقها إلى نصفين كالمنخل، وظل ركابها في البحر أربعة أيام ولا أعلم شيئاً عن المرأة، هل هي خادمة أم زوجة أم أرملة؟ حسناً حسناً».

هزّ رأسه بطريقة مازحة ورمقني بعينين ضاحكتين.

«هل ستقوم بـ..»، بدأت بالكلام وكنت على وشك أن أسأله إذا ما كان عازماً على إيصال الناجين إلى يوكوهاما.

«أقوم بماذا؟».

«أعني ماذا تنوي أن تفعل مع ليتش وجونسون».

هز رأسه مرّة أخرى، «في الواقع يا همپ أنا لا أعرف، فكما ترى وبوجود الإضافات الجديدة، لدي كلّ الطاقم الذي أحتاجه».

«وبعد أن نفّذا كلّ خطط الهرب التي أراداها، لماذا لا تغير معاملتك معهما وتأخذهما معك على متن السفينة وتتعامل برفق معهما؟ مهما كان شنيعاً ما عملاه فقد نالا جزاءه».

«معي؟».

«نعم معك»، أجبته بثبات، «وإني لأحذرك يا وولف لارسن بأني قد أنسى حبي للحياة لرغبتي في قتلك إن أسرفت في الإساءة لهؤلاء المساكين».

«أحسنت!»، صاح وولف لارسن: «أنا فخور بك يا همپ، وجدت قدميك وبثأر أيضاً، أنت فرد مستقل الآن، ولسوء حظك أنّك عشت حياة سهلة؛ لكنك الآن تتطور وأنا معجب بك أكثر».

ثم تغيّر صوته واكتست تعابير وجهه طابع الجدية وهو يسألني: «هل تصدق الوعود؟ هل هي شيء مقدس عندك؟».

«بالطبع».

«لنعقد اتفاقاً في هذه الحالة، إن أقسمتُ لك بأني لن أمدَّ يدي على ليتش وجونسون، هل تقسم لي أنك لن تحاول قتلي؟».

ثم سارع بالقول: «أوه، ولا تعتقد بأني أفعل هذا خوفاً منك، فلست خائفاً منك».

لم أصدق ما تسمعه أذني، ما الذي حصل لهذا الرجل؟

«هل نحن متّفقان». سألني بفارغ الصبر

«متّفقان».

ومد يده ليصافحني فصافحته بصدق، وأكاد أقسم أني رأيت شيطاناً ساخراً يلمع من عينيه في هذه اللحظة.

تمشينا من مؤخرة السفينة إلى الجانب المحميّ منها. كان القارب قريباً منا وفي متناول اليد وفي وضع حرج، رأيتُ جونسون يتولى القيادة بينما كان ليتش ينزح الماء من القارب، كانت سرعتنا تفوق سرعتهما غير أن لارسن أشّر للويس بأن يبتعد عنهما قليلاً. فمشينا جنباً إلى جنب مع القارب بمسافة أقل من قدم باتّجاه الريح، غطّت الشبح القارب ففرغ شراع القارب من الهواء وانحرف، غيَّر الرجلان مكانيهما فخسر القارب تقدُّمه، وبينما ارتفعت السفينة بموجة عالية، انخفض القارب وبات في خطر وشيك.

نظر ليتش وجونسون في هذه اللحظة في وجوه رفاقهم الذين اصطفوا على درابزين السطح في وسط السفينة، لم يحييهما أحد، كانا في عداد الأموات في عيون رفاقهم، يحول بينهما الخليج الذي يفصل بين الأحياء والأموات.

وفي اللحظة التالية، أصبحا في الاتّجاه المعاكس، حيث وقفنا أنا ولارسن، كنا نسقط في تجويف الموجة بينما امتطى القارب قمتها، نظر إليّ جونسون فرأيتُ الإرهاق واليأس باديين على وجهه، لوحت له بيدي وردّ تحيتي لكن تحيته كانت بلا أمل كما لو أنّه كان يودعني، لم أتمكن من رؤية عيني ليتش؛ لأنه كان ينظر إلى لارسن بزمجرته وتكشيرته القديمة التي تنمّ عن كره عميق.

ثم ذهبا نحو منتصف السفينة، فامتلأ الشراع مرّة أخرى بالريح ومال القارب الضعيف حتى كاد ينقلب، ارتفعت فوقه موجة بيضاء ثم تكسرت كأنها ندف ثلج ملأت المكان، ثم خرج القارب مرّة أخرى نصف غارق، وليتش يفرغ المياه منه وأمسك جونسون دفّة القيادة بصعوبة ووجهه شاحب قلق.

أطلق وولف لارسن ضحكة صغيرة اخترقت أذني، ثم انطلق إلى جانب مؤخرة السفينة، خلته سيصدر الأوامر لرجاله بأن يحركوا السفينة لكنها بقيت في مسارها ولم يعطِ أية إشارة، وقف لويس بتروٍّ على دفّة القيادة، لكنني لاحظت أن البحارة المتجمعين إلى الأمام يحوّلون وجوههم المضطربة باتّجاهنا، لا تزال الشبح تسير إلى الأمام، حتى تضاءل القارب إلى بقعة، فرَنَّ صوت لارسن يأمرهم وذهب نحو الميمنة.

توقفنا على بعد ميلين باتّجاه الريح من القارب الذي يصارع الأمواج عندما أُنزل الشراع المثلث الأمامي واتخذت السفينة مساراً معيناً، لم تُصنع قوارب صيد عجول البحر لتواجه الريح بهذه الطريقة، فكل ما يأمله طاقمها هو الحفاظ على أماكنهم حتى يتمكنوا من أن يسبقوا السفينة حينما تكون بعكس اتّجاه الريح، لكن وفي خضم هذه الفوضى، ليس هناك من أمل في نجاة ليتش وجونسون وركوبهما على متن الشبح، بدءا يجدفان بعكس اتّجاه التيار وهي مهمة شاقة وبطيئة في هذا البحر الهائج، وهما عرضة لأن تبتلعهما الأمواج المتلاطمة في أية لحظة، راقبناهما وهما يمتطيان قمة الموجة البيضاء، ومن ثم يغرقان تحتها مراراً وتكراراً.

كان جونسون بحاراً ممتازاً، وكان يعرف الكثير عن القوارب الصغيرة كما يعرف عن السفن، وقبل أن تنتهي ساعة ونصف، أوشك أن يكون بمحاذاتنا لكنه أخفق في هذه الموجة وسيحاول اللحاق بنا في الموجة التالية.

«غيرتما رأيكما إذن»، سمعت لارسن يتمتم لنفسه ولهما كما لو أنهما سيسمعانه: «وتريدان العودة إلى السفينة. إيه؟ حسناً واصلا التجديف إذن».

ثم أصدر أمراً لأوفتي أوفتي الكانكي الذي حلّ محل لويس عند دفّة القيادة.

«ادفع بتلك الدفّة قدر ما تستطيع».

تتابعت أوامره، واستمرّت السفينة بالإبحار، ركدت الأشرعة الرئيسية بسبب الرياح الضعيفة وأصبحنا نسابق الريح ونتقافز مع الشبح حين أرخى جونسون شراعه بخطر وشيك وقلص المسافة التي تفصلنا بمائة قدم، ضحك وولف لارسن مرّة أخرى، كان واضحاً أن في نيته أن يعبث معهما كدرس لهما، بدلاً من ضربهما، وإن كان درساً خطيراً، لأن القارب الضعيف كان في خطر محدق؛ نتيجة لإرهاق الرجلين.

استجمع جونسون قواه وزاد من سرعة تجديفه وغير اتّجاهه ولحقنا، ليس لديه حل آخر؛ لأن الموت كان محيطاً به من كلّ جانب وكانت مسألة وقت لا أكثر حتى تبتلعهما إحدى الموجات العملاقة تلك وتقلب القارب وينتهي أمرهما.

«إنه الخوف من الموت الذي يعتمر قلبيهما»، تمتم لويس كلماته في أذني بينما تقدُّمت لأعدّل الأشرعة الأمامية.

«أوه. سيعذبهما قليلاً ومن ثم يلتقطهما»، أجبته بحذر، «فهو عازم على أن يلقنهما درساً، وهذا كلّ ما في الأمر».

«أتعتقد ذلك؟»، نظر إليّ بدهاء وهو يتساءل.

«بكل تأكيد، ألا تعتقد ذلك؟».

«لا أظن شيئاً سوى سلامتي هذه الأيام، إنها مشكلة مثيرة للاهتمام لكنّي مشغول بالعمل، وفي الواقع إن عقلي مشوش بفعل ويسكي سان فرانسيسكو وما فعله منظر المرأة في الجزء الخلفي هناك بعقلك أكثر. آه، أعرف جيداً كيف أميز الذي يتصرف بجنون صرف».

«ماذا تقصد؟»، سألته بينما زاد من سرعته وبدأ يستدير.

«ماذا أقصد؟»، صاح عليّ: «أنت الذي سألتني، وليس هذا ما أعني وإنما ما يعنيه لارسن الذئب، كما أقول لك الذئب وولف لارسن».

«إذا حدثت مشكلة، هل ستقف إلى جانبي؟»، سألته باندفاع، لأنه عبّر عن مخاوفي بكلماته».

«أقف معك؟ إن لويس السمين لا يقف مع أحد إلا مع نفسه، وأنا أكتفي من هذه المتاعب، لقد بدأت ونحن في بدايتها، أخبرك بذلك، نحن في بداية المشاكل».

«لم أحسبك جباناً لهذه الدرجة!».

رمقني بنظرة ساخرة وقال: «إذا لم أرفع يداً على هذا الأحمق المسكين» ـ وأشار صوب القارب الصغير ـ «أتعتقد أني سأسعى لأن يُحطَّم رأسي من أجل امرأة لم تلمحها عيني قبل هذا اليوم؟».

استدرت بسخط وابتعدت عنه إلى المؤخرة.

«ارفع الشراع الثاني سيد فان وايدن»، قال لارسن عندما وصلتُ إلى مؤخرة السفينة.

شعرت بالارتياح، على الأقل فيما يخص الرجلين، كان من الواضح أنّه لا يرغب في الهروب بعيداً عنهما، دبّ فيّ الأمل بسبب فكرتي هذه ووضعت الأمر حيز التنفيذ فوراً، ما أن فتحت فمي لإصدار الأوامر اللازمة، حتى اتجه الرجال المتحمّسون إلى حبال الرايات والإسقاطات، وتسابق الآخرون للصعود، لاحظ وولف لارسن هذا الحماس الذي دبّ فيهم بابتسامة قاتمة.

زادت سرعتنا مع ذلك، وعندما ابتعدنا عن القارب عدة أميال خفّفنا سرعتنا وانتظرناه، كلّ العيون كانت تراقبه وهو يقترب، حتى وولف لارسن، لكنه كان الرجل الهادئ الوحيد على سطح السفينة، حتى لويس، بالرغم من أنّه كان يحدق بثبات ألا أن الارتباك كان بادياً على وجهه، وقد عجز أن يخفيه.

أخذ القارب يقترب أكثر فأكثر، يسرع خلفنا كشيء حي، يعلو ويهبط مع كلّ موجه تخفيه ثم تعيده إلى أنظارنا، بدا أن استمرارهما بالحياة مستحيلٌ؛ لأن الأمر ازداد سوءاً بزخات مطر كثيفة أخذت تتساقط، ومن بين زخات المطر والأمواج المتلاطمة ظهر القارب وهو يكاد يكون فوقنا.

«تمسّك بالدفة هنا». صاح لارسن، وقفز بنفسه إلى الدفّة وأدارها.

ومرة أخرى، انطلقت الشبح تسابق الريح، طاردنا جونسون وليتش لمدة ساعتين، ننتظرهم قليلاً، ثم نهرب منهم مراراً وتكراراً، ونخوض في وديان الأمواج وجبالها حتى ضربتنا موجة مطر كثيف على بعد ربع ميل حجبت عنّا الرؤية، ولم نرَ الشراع الضعيف وقاربه مرّة أخرى، حتى بعد أن أزاحت الريح المطر عنّا، لا أثر للقارب على سطح البحر الغاضب، توهّمت للحظة أني رأيتُ قاع القارب مقلوباً يلوح في الأفق وهذا كان كلّ شيء، انتهت آثار الوجود بالنسبة لليتش وجونسون.

بقي الرجال بمجاميع على سطح السفينة، لم ينزل أي أحد منهم للأسفل، ولا نبسوا بكلمة ولم يتبادلوا النظرات حتى، بدا كلّ رجل مذهولاً، يفكّر عميقاً بما حصل، ليس متأكداً تماماً، في محاولة لإدراك ما حدث، لأن لارسن أمهلهم القليل من الوقت للتفكير، وضع الشبح في الحال على مسارها وهذا يعني اللحاق بقطيع العجول وليس ميناء يوكوهاما.

لكن الرجال لم يكونوا بحماسهم حين شدوّا الحبال وأرخوها، سمعتهم يطلقون اللعنات والشتائم بينهم لكنها خرجت من أفواههم مخنوقة وثقيلة وبلا حياة كحالهم، لكن الأمر مختلف بالنسبة للصيادين، فقد روى لهم سموك الذي لا يصمت قصة، فنزلوا إلى مهاجعهم وهم يضحكون.

وعندما مررت بالمطبخ من الجهة التي تواجه الريح، اقترب مني المهندس الذي أنقذناه ووجهه شاحب وشفتاه ترتعشان وقال: «يا إلهي، أي نوع من السفن هذه؟».

«لديك عينان ورأيت ما حصل». أجبته بوحشية بسبب الألم والخوف الذي يعتصر قلبي.

«ماذا عن وعدك؟»، قلت لوولف لارسن.

أجاب: «عندما قطعت هذا الوعد، لم يكن في نيتي أن آخذهما على متن السفينة مرّة أخرى، وعلى أي حال، ستتفق معي على أني لم أضع يدي عليهما».

«أبعد ما يكون. أبعد ما يكون». وضحك بعد لحظات.

لم أجبه، كنت عاجزاً عن الكلام وعقلي مشتت بالكامل، أعلم بأنه يجب أن يكون لدي وقت للتفكير، كانت هذه المرأة التي تنام حتى الآن في المقصورة الاحتياطية، مسؤولية يجب أن أضعها في الحُسبان، وكان الفكر العقلاني الوحيد الذي خفق في ذهني، هو أنني يجب ألا أفعل شيئاً على عجل إذا كنت سأقدّم لها أية مساعدة على الإطلاق.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل العشرون

مضت بقية النهار بهدوء، فبعد أن رطبت الزوبعة الفتيّة خياشيمنا، أخذت تخف وتتلاشى، وتسلّم المهندس والمزيتون الثلاثة تجهيزات عمل من متجر الشبح الصغير بعد مقابلتهم الودودة بوولف لارسن وخُصصت أماكنهم في قوارب الصيد مع الصيادين وحُددت أوقات نوبات الحراسة. وأُرسلوا إلى السلوقية ليناموا، ذهبوا باحتجاج، لكن أصواتهم لم تكن عالية؛ فقد شعروا بالرعب لما رأوه بالفعل من شخصية وولف لارسن، في حين أن حكاية الويل التي سمعوها بسرعة في السلوقية أخمدت فيهم أية نيران تمرد.

أما الآنسة بروستر ـ التي عرفنا باسمها من المهندس ـ فقد غطّت في نوم عميق ولم تظهر حتى صباح اليوم التالي، طلبتُ من الصيادين خفض أصواتهم عند تناولهم العشاء، لذلك لم تنزعج، كان في نيتي أن تُقدّم لها وجبات طعام خاصة، لكن وولف لارسن رفض ذلك وقال: «مَنْ هي حتى تترفع عن الجلوس على طاولة المقصورة وعن الاختلاط بمجتمع المقصورة؟».

والحق أن وجودها في صالة الطعام كان فيه شيء من التسلية، صمت الصيادون كالبطلينوس، إلا جوك هورنر وسموك، لم يتهيبا حضورها بل كانا يختلسان النظر إليها من زوايا عيونهم بين الفينة والأخرى ويشاركان في الحديث حتى، أما الرجال الأربعة الآخرون فتسمرت عيونهم على أطباق طعامهم وكانوا يمضغون الطعام بثبات ودقة مدروسة، آذانهم تتحرك وتتذبذب مع فكوكهم، مثل أذني العديد من الحيوانات.

لم يكن لدى وولف لارسن الكثير ليقوله في البداية، ولم يفعل أكثر من الرد عليها عندما تخاطبه، ليس خجلاً منها فهذا أمر بعيد كلّ البعد عنه، بل لأن هذه المرأة كانت نوعاً جديداً بالنسبة له، سلالة مختلفة عن تلك التي يعرفها، كان فضولياً، درسها بعناية، ونادراً ما تركت عيناه وجهها إلا إذا تبعت حركات يديها أو كتفيها. تمعنتها أنا كذلك، وعلى الرغم من أني حافظت على انسيابية المحادثة، إلا أني كنتُ خجولاً بعض الشيء، ولم تكن لدي أيّة رباطة جأش، أما هو، فكان توازنه مثالياً، وثقته بنفسه عالية لا يمكن لأي شيء هزها، فلن يتهيب امرأة أكثر من العاصفة والمعركة.

«ومتى سنصل إلى يوكوهاما؟». سألَته وهي تنظر مباشرة في عينيه.

هذه هي اللحظة، سؤال سطحي ألقت به، توقفت الفكوك عن المضغ والآذان عن الاهتزاز بالرغم من أن أعينهم استمرت مسمّرة في أطباقهم إلا أن آذانهم أصغت بانتباه لجوابه.

«خلال أربعة أشهر وربما ثلاثة إذا كان موسم الصيد جيداً».

سحبت المرأة نفساً عميقاً ثم تلعثمت وهي تقول:

«أنا.. أنا افترضت.. قيل لي أن يوكوهوما تبعد مسافة إبحار يوم واحد. إنه..».

وتوقفت ونظرت إلى وجوه الجالسين على الطاولات غير المتعاطفة التي تحدق بقوّة في أطباقها، ثم قالت:

«هذا ليس عدلاً».

فأجاب: «هذا أمر يجب أن تحسميه مع السيد فان وايدن»، وأشار برأسه نحوي وهو يغمز بعينه لي بمكر وسخرية، «فالسيد فان وايدن كما يمكن أن نسميه السلطة التي تمثل أشياء مثل (الحقوق). أما بالنسبة لي، فأنا بحار فقط أنظر إلى الوضع بشكل مختلف بعض الشيء، قد يكون من سوء حظك أن تبقي معنا، ولكنه بالتأكيد حظنا الجيد».

وابتسم لها مجاملاً فغضت بصرها أمام نظراته، لكنها رفعتها مرّة أخرى، بتحدٍّ ونظرت إلى عيني، فقرأت السؤال غير المعلن هناك: هل كان كلامه صحيحاً؟ لكنني قررت أن أكون محايداً، لذا لم أجب.

«ماذا تعتقد؟». سألتني.

«هذا أمر مؤسف، خاصة إذا كان لديكِ أيّة ارتباطات خلال الأشهر القليلة المقبلة، ولكن بما أنكِ تقولين إنكِ تتّجهين إلى اليابان للعناية بصحتك، يمكنني أن أؤكد لكِ أنها لن تتحسن في أي مكان أكثر من هذه السفينة».

رأيت عينيها تومضان بسخط وإهانة، وهذه المرّة كنت أنا الذي أخفضت بصري، شعرت أن وجهي يحمّر خجلاً منها، كان تصرفاً جباناً، لكن ماذا عساي أن أفعل؟

ضحك وولف لارسن وقال: «السيد فان وايدن يتحدث بصوت السلطة».

أومأت برأسي مؤيداً لكلامه، وبعد أن استردت الآنسة عافيتها، انتظرت بترقب.

«لا يعني أن هناك الكثير لأتحدث بشأنه الآن، لكنه تطوّر بشكل رائع، كان عليكِ رؤيته عندما صعد على متن هذه السفينة لأول مرّة، كان نموذجاً إنسانياً متهالكاً يرثى له لا يمكن للمرء تصوره. أليس كذلك يا كيرفوت؟».

فوجئ كيرفوت من التحدث مباشرة معه على حين غرة، فجفل وسقطت السكين من يده على الأرض إلا أنّه تمالك نفسه وأومأ موافقاً لكلام لارسن.

«طور نفسه بتقشير البطاطا وغسل الأطباق. إيه كيرفوت؟».

فشخر الأخير موافقاً لكلامه مرّة أخرى.

«انظري إليه الآن، صحيح أنّه ليس مفتول العضلات لكن لديه عضلات، وهو أقوى بكثير مما كان يوم جاء إلى الشبح، أيضاً، ولديه قدمان يقف عليهما، لن يخطر هذا على بالكِ عند النظر إليه الآن، لكنه لم يكن قادراً على الوقوف بمفرده في البداية».

ضحك الصيادون بأصوات عالية كصهيل الخيول، لكنها نظرت إليّ بتعاطف عوّض عن بذاءة وولف لارسن. وفي الحقيقة، لقد مرّ وقت طويل منذ أن تلقيت

التعاطف لدرجة أني ضعفت، وأصبحت حينئذٍ ـ وبكل سرور ـ عبداً راغباً فيها، لكنني كنت غاضباً من وولف لارسن، تحدى رجولتي بإهاناته، وسخر من قدمين ادَّعى أنّه كان مساهماً في حصولي عليها.

أجبته بمثل وقاحته: «قد أكون تعلّمت الوقوف على قدمّي كما تقول، لكن يتعيّن علي أن أدوس بهاتين القدمين على بعض الناس».

نظر اليّ بوقاحة وقال بإجحاف: «إذن فلا يزال تعليمك ناقصاً».

ثم التفت إلى السيدة وقال:

«نحن مضيافون جداً على الشبح، اكتشف السيد فان وايدن ذلك، ونحن نبذل قصارى جهدنا لجعل ضيوفنا يشعرون بأنهم في منازلهم، أليس كذلك يا سيد فان وايدن؟».

أجبته: «حتى لتقشير البطاطس وغسل الصحون، ناهيك عن دقّ أعناقهم بدافع الزمالة».

«أتوسل إليكِ ألّا تأخذي انطباعات كاذبة عنّا من السيد فان وايدن»، قال ذلك بقلق زائف: «ستلاحظ الآنسة بروستر، أنّه يحمل خنجراً في حزامه»، وتنحنح، «وهو أمر غريب للغاية بالنسبة إلى ضابط السفينة، وعلى الرغم من التقدير الذي يلقاه، فإن السيد فان وايدن أحياناً ـ كيف يمكنني صياغتها؟ ـ عدواني وميّال لاتخاذ إجراءات قاسية إذا اقتضت الضرورة، فهو عقلاني وعادل في لحظاته الهادئة، وبما أنّه هادئ الآن، فلن ينكر أنّه هدد حياتي بالأمس فقط».

كنت على وشك أن أختنق، وعيناي تتقدان ناراً بلا شك، فلفت الانتباه لي وقال:

«انظري إليه الآن، يجد صعوبة في ضبط نفسه أثناء وجودك، فهو غير معتاد على وجود السيدات على أية حال، يجب علي أن أسلح نفسي قبل أن أتجرأ على الذهاب معه إلى سطح السفينة».

ثم هز رأسه بحزن وتمتم: «سيّئ جداً. سيّئ جداً». فانفجر الصيادون بالضحك.

كانت أصوات رجال البحر من خوار وقرقرة تدوّي في مكان محصور، فأنتجت تأثيراً وحشياً، بل إن الوضع برمته كان وحشياً بربرياً، ولأول مرّة، فكرت فيما يتعلق بهذه المرأة الغريبة وأدركت التنافر الذي يخلقه وجودها في هذا الوسط، وفطنت إلى أنني ـ أنا شخصياً ـ جزء من الوسط ذاته، فقد عرفت هؤلاء الرجال وطريقة تفكيرهم، وكنت منهم، أعيش حياة صيد عجول البحر وآكل من أجر صيد العجول وأفكّر كتفكير محترفي صيد العجول أيضاً، ولم أعد أشعر بغرابة، لا من الملابس الخشنة ولا من الوجوه المتجهمة ولا الضحكات الوحشية ولا حتى جدران مقصورة الطعام والمصابيح البحرية المتأرجحة.

وفيما كنت أفرد الزبدة على قطعة خبز وقعت عيناي على يدي، فرأيتُ عُقد أصابعي مسلوخة وملتهبة وأصابعي متورمة وأظافري محاطة بلون أسود، وشعرت بلحيتي الكثة النامية كأنها مرتبة محشية على رقبتي، كما لاحظت أن كُمّ قميصي ممزق

وأن أحد أزرار قميصي الأزرق الذي أرتديه مفقود، وحتى الخنجر الذي ذكره لارسن أحسست بوجوده الآن معلقاً عند وركي، كان وجوده طبيعياً، حتى أني لم أفكر بالأمر حتى هذه اللحظة، وهي لو نظرت إليه بعينيها لقدرت كم يبدو ذلك غريباً فعلاً.

لكنها تكهّنت بالسخرية المبطنة في كلمات لارسن، فرمقتني بنظرة تعاطف وحنوّ مرّة أخرى مصحوبة بحيرة لولا أن السخرية جعلت من الموقف أكثر حيرة بالنسبة لها.

«ربما تمرّ سفينة من هنا فتأخذني معها». اقترحَت عليه.

«لن تكون هناك أية سفن عابرة عدا سفن صيد العجول». أجابها لارسن.

«ليس معي ثياب، لا شيء». اعترضت عليه: «ألا تدرك يا سيدي، أنني لست رجلاً، كما وأنني لست معتادة على الحياة المتشردة اللامبالية التي يبدو أنك ورجالك تعيشونها».

«كلما أسرعتِ في الاعتياد عليها كان أفضل لكِ، سأزوِّدك ببعض القماش والأبر والخيوط وأتمنى أن لا يكون هذا عملاً شاقاً، أن تخيطي لنفسك رداءً أو اثنين».

حركت شفتيها وكأنها تعلن عن جهلها بصنع الملابس، كانت خائفة وحائرة، وإن كانت تسعى بشجاعة لإخفاء ذلك لكنها كانت واضحة بالنسبة لي.

«أحسبكِ مثل السيد فان وايدن، معتادة على أن يقوم الناس بالأشياء نيابة عنكِ، حسناً، لا أظن أن القيام ببعض الأمور بنفسك سيخلع أياً من مفاصلك، بالمناسبة، ماذا تعملين لكسب قوتك؟».

نظرت إليه بدهشة واستغراب ظاهرين، فتدارك نفسه وقال:

«لا أقصد الإساءة صدقيني، الناس يأكلون؛ لذا عليهم أن يعملوا شيئاً ليتمكنوا من شراء طعامهم. هؤلاء الرجال هنا يصيدون العجول ليعيشوا، ولنفس الغرض أبحر أنا بهذه السفينة والسيد فان وايدن يكسب قوته في الوقت الحاضر على الأقل بمساعدتي، والآن أخبريني ماذا تعملين لكسب قوتك؟».

هزت كتفيها استهجاناً.

«تطعمين نفسك؟ أم يقوم بذلك شخصٌ آخر؟».

«أخشى أن عليّ القول بأن شخصاً آخر تولى أمر الإنفاق عليّ طيلة حياتي». وضحكت وهي تحاول بشجاعة أن تكون ساخرة، لكني لاحظت الرعب في عينيها، وهي تنظر إلى وولف لارسن.

«وأحسب أن أحدهم يرتب سريرك؟».

«أنا من أقوم بذلك». قالت بحدة.

«غالباً؟».

هزّت رأسها باستنكار.

«هل لديكِ أدنى فكرة عمّا يفعلونه بالرجال الفقراء في الولايات المتحدة ـ من لا يعملون شيئاً لكسب قوتهم ـ مثلك؟».

«أجهل تماماً هذا الأمر»، دافعت عن نفسها، «ماذا يفعلون بالرجال الفقراء الذين هم مثلي؟».

«يرسلونهم إلى السجن، بتهمة عدم كسب لقمة العيش، وفي حالتهم تسمى (التشرد)، فلو كنتُ السيد فان وايدن الذي يعزف إلى الأبد على مسائل الصواب والخطأ، لسألتكِ بأيّ حق تعيشين وأنتِ لا تفعلين شيئاً لتستحقي العيش؟».

«لكن بما أنك لست السيد فان وايدن، فأنا لست مضطرة للإجابة، أليس كذلك؟».

وابتسمت له بعينين ملؤهما الرعب، فأثارت شفقتي وانسابت العاطفة إلى قلبي وقرّرت أن عليّ التدخل بأية طريقة وحرف المحادثة باتّجاهات أخرى.

«هل كسبتِ في حياتك دولاراً واحداً من جهدك الشخصي؟»، وجه لها سؤالاً موقناً من جوابه وفي وجهه نزعة انتقام المنتصر.

«نعم. فعلت»، أجابت ببطء. وتمنيت أن أضحك بصوت عالٍ لرؤيتي سيماء وجهه المكتئب، «أتذكر أن والدي أعطاني دولاراً في إحدى المرات عندما كنت صغيرة إن بقيت هادئة تماماً لخمس دقائق».

ابتسم لها على نحو متساهل فأضافت: «كان هذا فيما مضى، ولا تتوقع أن تطلب من بنت في التاسعة من عمرها أن تكسب لقمة عيشها».

«كان ذلك منذ وقت طويل، أما الآن». ثم تابعت بعد توقف طفيف: «فأنا أكسب حوالي ألف وثمانمائة دولار في السنة».

وبحركة واحدة ارتفعت أعين الطاقم من أطباقهم واستقرت عليها، فالمرأة التي تجني ألف وثمانمائة دولار في السنة جديرة بأن ينظروا إليها، حتى أن وولف لارسن لم يخفِ إعجابه بها.

«تكسبينه كمرتب أم مقطوعة؟». سألها.

«مقطوعة». أجابت على الفور.

«ألف وثمانمائة يعني مائة وخمسين دولاراً في الشهر، حسناً يا آنسة بروستر، الشبح ليست شيئاً حقيراً، اعتبري نفسك تتقاضين أجراً أثناء إقامتك معنا».

لم تشكره؛ لأنها ليست معتادة حتى الآن على نزوات الرجال، ولا أن تتقبلها برباطة جأش.

«نسيتُ أن أسألكِ. ما هي طبيعة عملك؟ ماهي البضاعة التي تبيعينها؟ وما هي الأدوات والمواد التي تحتاجينها للقيام بعملك؟».

«حبر وورق»، وضحكت ثم أضافت: «آه وآلة كاتبة أيضاً».

«أنتِ مود بروستر». قلتَ ببطء وثقة كما لو أني أتهمها بجريمة قتل.

نظرت مباشرة الي عينيّ بفضول وقالت: «كيف عرفت؟».

«ألستِ هي؟».

اعترفت بهويتها بإيماءة من رأسها، حان دور وولف لارسن ليقع في حيرة. إذ لا يعني الاسم وسحره شيئاً له، كنت فخوراً بأنه عنى لي شيئاً، وللمرة الأولى، فبرغم التعب والإرهاق اقتنعت بأني تفوقت عليه.

«أتذكر إني كتبت مرّة نقداً لمجلد صغير من..»، ما أن بدأتُ بالكلام حتى قاطعتني:

«أنت؟»، صاحت: «إنه أنت..». كانت تحدّق بي في عجب.

فأومأت لها تأكيداً على هويتي أنا الآخر.

«همفري فان وايدن»، قالت، ثم تنهّدت بارتياح غير مدركة لما يعنيه هذا الارتياح لوولف لارسن، «ما أعظم سروري برؤيتك».

«أتذكر ذلك النقد جيداً»، تابعت بسرعة بعد أن أدركت حرج ملاحظتها، «وكان نقداً مجاملاً لطيفاً».

«لا على الأطلاق»، أنكرتُ بجرأة: «أنتِ تشكّكين في حكمي الرصين وتقللين من قيمة معاييري، علاوة على ذلك، يشاركني كلّ النقّاد زملائي في الرأي، ألم يُدرج لانج قصيدتك (قبلة محتملة) من بين أفضل أربع سونيتات في اللغة الإنجليزية من فئة الأدب النسوي؟».

«لكنَّك نعتّني بالسيدة مينيل([32]) الأمريكية!».

«أليس هذا صحيحاً؟».

«لا ليس كذلك، لقد جرحتني».

«إنما يُقاس المجهول من الكُتّاب أو الشعراء بمقارنتهم بالمشهور منهم»، أجبتها بأرقى طريقة أكاديمية، «وبصفتي ناقداً، فقد اضطررت إلى وضعك في مكانة أحدهم، وقد أصبحتِ الآن مقياساً يُقارن بكِ الآخرون، لدي على أرفف مكتبتي سبعة مجلدات صغيرة من تأليفك، فضلاً عن مجلدين بحجم أكبر، والمقالات التي ـ إن سمحتِ لي ـ لا تقلّ شأناً ورصانة عن أشعارك، ولن يطول الوقت حتى تظهر شخصية أدبية غير معروفة في إنجلترا وسيطلق عليها النقاد اسم مود بروستر الإنجليزية».

«هذا كرمٌ منك، أنا متأكدة من ذلك». تمتمت.

وقد أعطاني التشابه الاصطلاحي بين كلماتها ونبرة صوتها المستخدمة في استضافة الجمعيات ـ في حياتي السابقة في الجزء الآخر من العالم ـ نوع من الإثارة والذكرى الغنية بالتفاصيل، لكنه كان مصحوباً بمرارة الحنين إلى الوطن.

«إذن أنتِ مود بروستر». قلت بشيء من الجدية وأنا أنظر إليها.

«وأنت همفري فان وايدن». قالت وهي تنظر لي بجدية وشيء من الرهبة: «كم هو غريب؟. لا أفهم هذا، لا نتوقع منك بالتأكيد أن تكتب لنا عن قصة رومانسية بحرية جامحة بقلمك الرصين».

«لا. أؤكد لكِ أني لستُ هنا لأجمع المعلومات لكتابة نصّ أدبي. لست مستعداً لهذا الشيء، ولا أميل إلى كتابة الأدب الروائي».

«قل لي. لماذا دفنت نفسك في كاليفورنيا على الدوام؟»، سألتني: «هذا ليس عدلاً منك، فنحن سكان المناطق الشرقية في الولايات المتحدة لم نرك إلا مرّات قليلة، قليلة جداً، يا عميد الخطابات الأمريكية الثاني».

انحنيتُ لها احتراماً ودحضت مجاملتها بقولي: «كدت أن التقي بكِ ذات مرّة في فيلاديلفيا، بخصوص الشاعر براوننغ، وكنت ستلقين محاضرة أو شيئاً من هذا القبيل، لكن موعد قطاري تأخر أربع ساعات».

نسينا المكان الذي كنا فيه، وتركنا وولف لارسن عالقاً وسط فيضان ثرثرتنا بصمت، غادر الصيادون الطاولات، وذهبوا على سطح السفينة، لكن حديثنا استمر، بقي لارسن وحده، حتى وعيت فجأة على وجوده مستنداً على الطاولة، يستمع بفضول إلى حديثنا الغريب عن عالم لم يكن يعرفه.

فتوقفت في منتصف الجملة، نعم عدنا إلى الحاضر، بكل مخاطره وقلقه، اندفع عليّ بقوّة مذهلة ضربت الآنسة بروستر بالمثل، ذعرٌ غامض ومجهول يهرع إلى عينيها، وهي تنظر إلى وولف لارسن.

فنهض على قدميه وضحك بارتباك بنبرة رنانة وقال: «أوه، لا تهتمّا لأمري، اعتبراني غير موجود، هيا تابعا كلامكما، استميحكما عذراً».

لكن أبواب الكلام أُغلقت ونحن أيضاً نهضنا من الطاولة وضحكنا بارتباك ووجل.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الحادي والعشرون

نفّس وولف لارسن عن الغمّ الذي شعر به لإهمالنا إياه أنا وعود بروستر أثناء حديثنا على الطاولة بطريقة ما، وكان توماس ماكريدج هو الضحية، فهو لم يبدّل أسلوبه في الخدمة ولم يغيّر قميصه، بالرغم من أن الأخير قال أنّه قد تغير، وإن كان رداؤه يدل على العكس، ولا دلّت تراكمات الشحوم في الموقد والقدور على نظافته العامة، كان يقول له:

«لقد حذرتك يا كوكي، وعليك أن تنال جزاءك».

كان وجه ماكريدج يشحب من تحت طبقات السخام التي كانت تغطيه، وعندما نادى وولف لارسن في طلب حبل واثنين من الرجال، هرب الكوكني البائس من المطبخ بذعر وأخذ يتقادى البحّارة ويتملص منهم وهم يسعون خلفه ساخرين، كانوا يفضلون أموراً أخرى على أن يربطوه بالحبل ويلقوه في البحر لتسحبه السفينة؛ لأنه كان يُطعم رجال السلوقية طعاماً ليناً ورديئاً تزدريه النفس وتعافه، ومن المرجح أنّه سيعاقب ويُسحب، كانت الشبح تنزلق عبر المياه بسرعة لا تزيد عن ثلاثة أميال في الساعة، وكان البحر هادئاً إلى حد ما، ربما شاهد ماكريدج رجالاً يُسحبون من قبل؛ لذلك هو لا يجرؤ على الغطس فيه إلى جانب ذلك، كان الماء شديد البرودة وبنيته ضعيفة لن تحتمل هذه القسوة.

وكالعادة، كان الحرّاس في الأسفل، حضر الصيادون أيضاً لرؤية التسلية المنشودة، بدا على ماكريدج خوف مسعور من الماء وأظهر رشاقة وسرعة لم نحلم قطّ أنّه قد يملكها، انحنى في الزاوية اليمنى لمؤخرة السفينة والمطبخ، ثم وثب كقطة إلى أعلى المقصورة وركض إلى الخلف، لكن مطارديه أحبطوا خطته فاستدار وركض عبر المقصورة والمطبخ مسرعاً نحو كوة السلوقية وكان هاريسون المجدّف يركض في أعقابه ويحاول الإمساك به، لكن ماكريدج قفز فجأة وأمسك بذراع مرفاع الشراع المثلث وحدث الأمر في لحظات، ركّز وزنه بالكامل في يديه واستدار بجسده في الهواء وضرب هاريسون بكلتا قدميه في أسفل معدته فتأوه هاريسون لا إرادياً وتكوّر على نفسه فوق سطح السفينة.

استقبل الصيادون هذا العمل البطوليّ بتصفيق حار وهدير ضحكات، في حين أن ماكريدج كان يتملص من نصف ملاحقِيه عند الصَّارية الأمامية، ركض بعد ذلك إلى الخلف ليتجاوز البقية كأنه عدّاء في ملعب كرة قدم، وعندما وصل إلى المؤخرة ذهب إلى النهاية وكانت سرعته كبيرة جداً حتى أنّه عندما حاول أن يستدير نحو المقصورة انزلق وسقط معه نيلسون الذي كان يدير الدفّة؛ لأن جسد ماكريدج المندفع بسرعة عنيفة ضرب قدميه، لكن الكوكني وحده من نهض؛ لأن جسده النحيل ـ بسبب الضغط ـ كسر قدم الرجل القوية كأنها أنبوب بخار.

استلم بارسونز الدفّة، واستمر السعي وراء ماكريدج ودار السفينة مراراً وتكراراً حتى أعياه الخوف. كان البحّارة ينادون بصوت عالٍ على بعضهم، ويصرخون

بالاتّجاهات بينما وقف الصيادون يهتفون لهم ويضحكون، سقط ماكريدج على الكوة الأمامية تحت ثلاثة رجال لكنه تمكن من الخروج من هذه الفوضى كالأنقليس، فمه ينزف دماً وقميصه الذي سبب كلّ هذه الفوضى قد تمزق إرباً وقفز نحو حبال أشرعة السفينة الرئيسية وبدأ يتسلق صعوداً حتى وصل إلى قمة الصَّاري.

اندفع ستة بحارة نحو منصة الصَّاري للحاق به فتجمعوا هناك وانتظروا بينما قام اثنان منهم أوفتي أوفي وبلاك مجدّف قارب لاتمير بتسلق الأعمدة الفولاذية الرفيعة، يرفعون أجسادهم إلى الأعلى بأيديهم.

كانت مهمة محفوفة بالمخاطر؛ لأنها كانت على ارتفاع أكثر من مائة قدم من على سطح السفينة، وهم ممسكين بأيديهم فقط وليسوا بمأمن من ركلات ماكريدج الوحشية، استمر الأخير يركلهم بلا هوادة حتى تمكن الكانكي من إمساك قدم الكوكني بيد والتشبث بيد واحدة فقط، وكرر بلاك نفس العملية فأمسك بقدم ماكريدج الثانية، ثم اشتبك الثلاثة معاً وتأرجحوا وكافحوا وبدأوا ينزلقون على وشك السقوط حتى أمسكتهم أيدي رفاقهم على منصة الصَّاري.

وبعد أن انتهت المعركة الجوية، جيء بماكريدج وهو ينتحب ويتمتم ويخرج من فمه رغوة دموية إلى سطح السفينة، وكان وولف لارسن يمسك بحبل معقود عقدة منفرجة وضعه تحت كتفي الكوكني، ثم حُمل إلى مؤخرة السفينة وقُذف في الماء، فنزل الحبل أربعون ـ خمسون ـ ستون قدماً حتى صاح لارسن: «يكفي!»، فتولى أوفتي أوفتي مهمة شد الحبل، وعندما تحركت الشبح إلى الأمام، سحبت الطباخ معها على سطح الماء.

كان مشهداً يثير الشفقة، على الرغم من أنّه لا يمكن له الغرق، ولديه تسع أرواح إضافية، إلا أنّه كان يعاني من آلام شبه الغرق، فقد كانت الشبح تسير ببطء وعندما ترفع مؤخرة السفينة موجة فأن السفينة تنزلق إلى الأمام فتسحب البائس على سطح الماء حينها يتمكن من التقاط أنفاسه للحظات، ولكن بين كلّ ارتفاع وانخفاض لمؤخرة السفينة وبينما يمتطي قوس مقدمة السفينة موجة أخرى بكسل كان المسكين غارقاً تحت الماء.

كنت قد نسيت وجود مود بروستر معنا، وتذكرتها حالما خطت بخفة لتقف إلى جانبي، كان هذا أول ظهور لها على سطح السفينة منذ أن ركبت على متنها، فاستقبلها صمت مطبق، سألتني بعدها:

«ما سبب كلّ هذه البهجة؟».

«اسألي القبطان لارسن». أجبتها باقتضاب وبرود على الرغم من أن الدم كان يغلي بعروقي لمجرد التفكير أنها ستشهد مثل هذه الوحشية.

فأخذت بنصيحتي واستدارت لتنفذها، عندها لمحت عيناها أوفتي أوفتي الموجود أمامها مباشرة، بجسمه المتأهب والجميل وهو واقف يمسك الحبل، فسألته:

«هل أنت تصطاد؟».

لم يجبها، عينه مسمّرة على البحر أمامه ووجهه محمّر.

«سيدي سمكة قرش تقترب»، صاح فجأة.

«أسحبوا بسرعة، جميعكم معاً». صاح وولف لارسن وقفز بنفسه إلى الحبل أمامهم وهو الأسرع وصولاً إليه.

سمع ماكريدج تحذير أوفتي فبدأ يصرخ بجنون، يمكنني رؤية الزعنفة السوداء وهي تقطع الماء تحاول الوصول إليه بانسيابية بديعة وبسرعة أكبر مما نسحبه بها، كانت ضربة حظ من منّا سيصل إليه أولاً، نحن أم سمكة القرش وما هي إلا لحظات لتحدد مصيره، وعندما أصبح ماكريدج تحتنا مباشرة، انخفضت مؤخرة السفينة بسبب موجة عابرة أعطت الأفضلية للقرش الذي اختفى تحت سطح الماء، فظهر بطن القرش الأبيض بحركة سريعة إلى الأعلى وكاد لارسن يفوق سرعتها عندما سحب بكل قوته الهائلة، فارتفع جسد الطباخ من الماء وكذلك جزء من القرش، جفل ماكريدج وضمّ قدميه إلى بطنه فلم يتمكن القرش من إمساكه وغاص في الماء من جديد، وفي اللحظة التي وصل فيها توماس ماكريدج إلى السطح بدأ بالصراخ كأنه سمكة تمسكها صنارة وتكوّم على سطح السفينة على يديه وركبتيه ثم انقلب.

لكن نافورة دم كانت تتدفق، يبدو أن قدمه اليمنى مفقودة، بُترت بدقة من منطقة الكاحل، نظرت على الفور إلى مود بروستر، كان وجهها أبيضَ شاحباً والرعب بادٍ في عينيها، ولم تنظر إلى توماس ماكريدج، وإنما إلى وولف لارسن، وكان على علم بذلك، فضحك ضحكة قصيرة وقال:

«إنه مزاح الرجال، يا آنسه بروستر، قاسٍ نوعاً ما وأجزم أنّه شيء لم تعتادي عليه، لكنه مزاح رجال لا أكثر، أما القرش فلم يكن في الحسبان، إنه..».

ولكن في هذه المرحلة، قام ماكريدج، الذي رفع رأسه وتأكد من حجم خسارته، بالتعثر على سطح السفينة ودفن أسنانه في ساق وولف لارسن، انحنى لارسن ببرود نحو الكوكني وضغط بإبهامه وإصبعه على مؤخرة الفكين وتحت الأذنين ثم فتح فكي الطباخ بسهولة وحرر قدمه.

«كما كنت أقول»، وتابع كلامه وكأن شيئاً لم يحدث: «لم يكن القرش في الحسبان، لقد كان ـ وتنحنح ـ هل لنا أن نقول إنها عناية إلهية؟».

لم تُبدِ أيّة إشارة على أنها سمعت، فعلى الرغم من أن تعبير عينيها قد تغير إلى اشمئزاز يتعذر تفسيره عندما بدأت في الابتعاد، وما أن تحركت حتى تمايلت وترنحت، ومدت يدها بهدوء حتى وصلت إلى يدي، أمسكت بها في الوقت المناسب لإنقاذها من السقوط، وساعدتها على الجلوس في المقصورة، ظننت أنها قد تفقد الوعي بالكامل لكنها سيطرت على نفسها.

«هلّا جلبت لنا سدادة لوقف نزيف الأوردة يا سيد فان وايدن؟». ناداني وولف لارسن.

ترددت، فتحركت شفتاها ولم تشكل أية كلمات إلا أنها أمرتني بعينيها، ككلمة واضحة، أن أذهب لمساعدة الرجل التعيس: «من فضلك»، استطاعت أن تهمس، ولم أكن أطيع ذلك.

تطوّرت مهارتي في الجراحة لدرجة أن وولف لارسن بعد أن رفدني ببضع نصائح، تركني لأتّم مهمتي مع اثنين من البحارة لمساعدتي، وقد أخذ على عاتقه الانتقام من سمكة القرش، وضع خنزيراً مملحاً في نهاية خطاف ثقيل، وبحلول الوقت الذي ضغطت فيه الأوردة والشرايين المقطوعة، كان البحارة يغنون ويسحبون الوحش المسيء إلى سطح السفينة، لم أره بنفسي ولكن مساعدّي فعلوا، رحل الأول ثم تبعه الآخر للحظات إلى منتصف السفينة لإلقاء نظرة عمّا كان يجري، رُفع القرش بطول ستة عشر قدماً على حبال أشرعة السفينة الرئيسية، وفُتح فكّاه على مصراعيهما، وثُبّتا بوتد سميك مُسنّن الطرفين وأزال البحارة أسنان القرش، وبعد أن تمت هذه العملية قُطع الخطاف ورُمي القرش في الماء من جديد عاجزاً، بالرغم من أنّه بكامل قوته، محكوماً عليه بالموت ـ أن يعاني الجوع حتى يهلك ـ ميت وهو حي، وهذه أقل عقوبة لما قام به أقرّها الرجل الذي ابتكر هذا العقاب.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثاني والعشرون

ما أن اقتربَت مني، حتى علمت ما الأمر الذي هي بصدد الحديث عنه، راقبتها لدقائق وهي تتحدث مع المهندس بصدق، وبعد أن عمّ الصمت، سحبتها بعيداً عن مدير الدفّة كيلا يسمع، كان وجهها شاحباً متعباً وتحدّق بي بعينيها الواسعتين، شعرتُ بالخجل والقلق، لأنها أتت للبحث عن روح همفري فان وايدن، ولم يكن لدى همفري فان وايدن شيءٌ يفخر به بشكل خاص منذ مجيئه على الشبح.

مشينا إلى نهاية مؤخرة السفينة، حيث التفتَت وواجهتني، نظرتُ حولي؛ لأرى أنّه لا يوجد أحدٌ على مسافة السمع.

«ما الأمر؟»، سألتها بلطف، لكن التعبير عن العزم على وجهها بقي كما هو.

«يمكنني أن أفهم بسهولة»، بدأت بالكلام: «أنّ ما حصل صباح هذا اليوم هو حادث، لكنّي كنت أتحدث مع السيد هاسكنز، وقد أخبرني أنّه شاهد في اليوم الذي أُنقذنا فيه، وعندما كنت أنا في الكابينة، رجلين يُغرقان عمداً، يُقتلان».

كان هناك استفسار في صوتها واتهام كذلك، كما لو كنتُ مذنباً بالفعل، أو على الأقل طرفاً فيه،

أجبتها: «المعلومات صحيحة تماماً، قُتل الرجلان».

«وسمحت بذلك؟». صاحت عليّ.

«لأصيغها بشكل أفضل، لم أتمكن من منعه». أجبتها بلطف.

«لكنك حاولت منعه أليس كذلك؟»، وكان هناك تأكيد على كلمة (حاولت) ورجاء في صوتها.

ثم سارعَت بالقول بعد أن خمّنت جوابي: «أوه، لكنك لم تفعل، لكن لماذا لم تفعل؟».

هززت كتفي وقلت: «يجب أن تتذكري يا آنسة بروستر، أنك الآن مقيمة جديدة في هذا العالم الصغير، ولم تفهمي بعد القوانين التي يعمل بموجبها هذا العالم، جلبتِ معك بعض المفاهيم الدقيقة للإنسانية والرجولة والسلوك ومثل هذه الأشياء، ولكنكِ ستجدينها مفاهيم خاطئة، وقد اكتشفت ذلك بنفسي». وتنهُّدت لا إرادياً.

هزت رأسها غير مصدقة.

«ماذا تقترحين إذن؟»، سألتها: «أن آخذ سكيناً أو مسدساً أو فأساً وأقتل هذا الرجل؟».

«لا ليس هكذا».

«إذن ماذا عليّ أن أفعل؟ أقتل نفسي مثلاً؟».

«أنت تتحدث بلغة مادية بحتة»، اعترضت على كلامي: «هناك شيء مثل الشجاعة الأخلاقية، وهي لا تخلو من التأثير».

فابتسمت قائلاً: «أه، فنصيحتك هي أن لا أقتله ولا أقتل نفسي بل أن أتركه يقتلني». ورفعت يدي لأمنعها من مقاطعتي: «لأن الشجاعة الأخلاقية هي ميزة لا قيمة لها على هذا العالم العائم الصغير، كان لدى ليتش، وهو أحد الرجلين اللذين قُتلا، شجاعة أخلاقية لا توصف، وكذلك الرجل الآخر جونسون، فهي لم تضعهما في موقف سيّئ فحسب وإنما دمرتهما، وسيحصل الشيء ذاته معي إن مارست القليل من الشجاعة الأخلاقية التي قد أتحلى بها».

«يجب أن تفهمي يا آنسة بروستر بوضوح أن هذا الرجل هو وحش. أنّه بلا ضمير، ليس هناك ما هو مقدّس بالنسبة له ولا يوجد شيء فظيع للغاية بالنسبة له، فبسبب نزواته أُحتجزتُ على متن هذه السفينة في المقام الأول، وبسبب نزواته لا أزال على قيد الحياة، أنا لا أفعل شيئاً ولا أستطيع فعل شيء؛ لأنني عبدٌ لهذا الوحش وأصبحتِ الآن عبدة له أنت أيضاً؛ لأنني أرغب في العيش، مثلما سترغبين فيه أنت كذلك؛ لأنني لا أستطيع قتاله والتغلب عليه، تماماً كما لن تكوني قادرة على قتاله والتغلب عليه».

انتظرتني أتابع حديثي. فقلت:

«ماذا بعد؟ إن دوري هو دور الضعيف العاجز، أن أظل صامتاً وأتقبل الذلّ والهوان كما ستفعلين أنت بدورك، وهو أمر حسن، وهو أفضل ما يمكننا القيام به إن أردنا البقاء على قيد الحياة، النصر ليس دائماً من نصيب الأقوى؛ إذ لا قدرة لنا على قتاله، يجب أن نلجأ إلى التظاهر والحيلة إذا أردنا أن ننتصر، إن أردتِ نصيحتي فهذا ما عليكِ فعله، أعلم أن موقفي محفوف بالمخاطر، ولأصدِقكِ القول، موقفكِ أكثر خطورة، يجب أن نقف معاً، دون أن يبدو أننا نفعل ذلك، في تحالف سريّ، لن أكون قادراً على الوقوف إلى جانبكم علناً، وبغض النظر عن الإهانات التي قد تُلقي على عاتقي أو عليكِ، يجب أن نظل صامتين. يجب ألّا نستفزّ هذا الرجل ليقدم على أي تصرف، ولا نعارض إرادته، ويجب أن نستمر في الابتسام وأن نكون ودودين معه بصرف النظر عن رذالته».

مررت يدها على جبهتها بارتباك وقالت: «ما زلت لا أفهم».

«يجب أن تفعلي ما أقول». قاطعتها بحزم؛ لأني رأيت وولف لارسن ينظر نحونا وهو يمشي ذهاباً وإياباً مع لاتمير في وسط السفينة، «افعلي ما أقول لكِ ولن يمرّ وقت طويل حتى تعرفي صواب كلامي».

«ماذا أفعل إذن؟». سألَتني بعد أن اكتشفت نظرة القلق التي اعترتني بعد محادثتنا، وأنّي أشعر بالإطراء والإعجاب بنفسي لجديتي، فقلتُ باقتضاب:

«تخلّصي من كلّ الشجاعة الأخلاقية قدر الإمكان، ولا تستثيري عداوة الرجل، كوني ودودة معه وتحدثي معه وناقشيه في الأدب والفنون، فهو مولع بهذه المواضيع وستجدينه شخصاً مثيراً للاهتمام ومستمعاً جيداً. ولمصلحتكِ، حاولي

تجنّب رؤية الوحشية التي تحدث على متن السفينة قدر استطاعتك، هذا سيسهل أمر قيامكِ بدوركِ».

«تريدني أن أكذب». قالت بنبرة ثابتة ثائرة: «أن أكذب قولاً وفعلاً».

ترك وولف لارسن لاتمير وهو يتجه نحونا الآن فقلت بيأس:

«أرجوكِ، أتوسل اليكِ افهميني». قلت بسرعة، بصوت منخفض: «كل تجاربك مع الرجال والأشياء لا قيمة لها هنا، يجب أن تبدئي من جديد، وأنا أعلم ـ ويمكنني أن أرى ذلك ـ أنك اعتدتِ أن تتحكمي بالناس بعينيكِ، تتركين شجاعتكِ الأخلاقية تتحدّث عبرها كما لو أنها تنبثق منها، وقد تحكمتِ بي مسبقاً بعينيكِ وأمرتِني، لكن أرجوكِ لا تحاولي القيام بهذا مع وولف لارسن، فلو تمكنتِ من ترويض أسد بسهولة لن تتمكني من لارسن؛ إذ سيجعل منكِ موضع سخرية ولن يمنعه شيء، ولطالما كنت فخوراً بسبري أغوار نفسه ومعرفته». ثم غيرت اتّجاه المحادثة حالما وصل لارسن لينضم الينا: «إن المحررين يخافونه والناشرين يكرهونه ويرفضون نشر ما يكتب، لكنني أعرف بأن عبقريته حسب اعتقادي تم تقديرها عندما نشر عمله الرائع».

«وكانت قصيدته تُنشر في الصحف». قالت بلا تكلّف.

«بالفعل، حدث أن رأت قصيدته النور في الصحف، لكن هذا لا يعني أن المحررين لم يروا ما كانوا ينشرون». ثم التفتُّ إلى وولف لارسن وقلت: «نحن نتحدث عن هاريس».

«أوه نعم. أتذكّر عمله هذا، كانت قصيدة مليئة بالمشاعر الجميلة والإيمان العظيم بالأوهام الإنسانية، بالمناسبة يا سيد فان وايدن، حريّ بك أن تلقي نظرة على كوكي فهو يشكو باستمرار ولا يهدأ».

وهكذا تم إقصائي من مؤخرة السفينة ببساطة؛ لأني وجدت ماكريدج يغطّ في نوم عميق بفعل المادة المهدئة التي أعطيته إياها، لم أتسرع في العودة على سطح السفينة، وعندما فعلت ذلك شعرت بالامتنان لرؤية الآنسة بروستر في محادثة مستمرة مع وولف لارسن، كما قلت، سرّني هذا المنظر لأنها تبعت نصيحتي، ومع ذلك، كنت مدركاً لصدمتي الطفيفة؛ لأنها تمكّنت من فعل الشيء الذي توسلت منها القيام به وكرهته بشكل ملحوظ.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثالث والعشرون

دفعت ريح قوية الشبح بسرعة نحو الشمال إلى قطيع عجول البحر، ولقيناه عند خط العرض الرابع والأربعين في بحر قاسٍ وعاصف طاردت فيه الريح ظلال الضباب برحلة أبديّة، انقضت أيام متتالية ولم نرَ فيها الشمس ولا استطعنا أن نرصد شيئاً أو نحدد مكاننا، ثم تكتسح الريح كلّ شيء ويبدو سطح ماء المحيط صافياً، والأمواج تموج وتتلألأ حينها نعلم أين نحن، ويظل الحال ليوم أو ثلاثة أو حتى أربعة إلى أن يخيّم الضباب الكثيف فوقنا مرّة أخرى.

كان الصيد محفوفاً بالمخاطر، ومع ذلك أُنزلت القوارب يوماً بعد آخر ليبتلعها ذلك الغموض الرمادي، ولا نكاد نلمح أياً منها حتى المغيب وأحياناً لفترة أطول، حين ينسلّون خارجين من الظلال الرمادية كأشباح البحر المنذرة بالموت واحداً تلو الآخر، فاستغل واين رايت الصياد الذي ضمه لارسن لطاقمه بالإكراه هو وقاربه ورجاله فرصة البحر الملفوف بالضباب، وخرج صبيحة أحد الأيام ولم يعاود الظهور مرّة أخرى، ولم تمضِ فترة طويلة حتى علمنا أنّه ظل يتنقل مع رفيقيه من سفينة صيد إلى أخرى حتى عاد إلى سفينته الأصلية.

كانت هذه الفكرة تدور في رأسي وكنت عازماً على تنفيذها في أقرب فرصة، لكن هذه الفرصة لم تسنح أبداً، ليس من واجبات رئيس البحّارة أن يذهب في القوارب برغم أني حاولت بدهاء وكياسة مع وولف لارسن إلا أنّه لم يمنحني هذا الامتياز، ولو فعلها لكنت أخذت الآنسة بروستر معي بطريقة ما، وبالنسبة للوضع الحالي، فقد كان يقترب من مرحلة أخاف التفكير فيها، تجنبتها لا إرادياً لكن الفكرة كانت تطاردني كشبح.

كنت قد قرأت الرومانسيات البحرية في وقتي، والتي تبرز فيها، بطبيعة الحال، المرأة وحيدة في وسط حمولة سفينة من الرجال، لكنني تعلمت الآن أنني لم أفهم أبداً الأهمية الأعمق لمثل هذا الموقف ـ الشيء الذي ألح عليه الكُتّاب واستغلوه تماماً ـ وها هو أمامي الآن، وجهاً لوجه، أن تكون حيويّة قدر الإمكان، ولا يتطلب الأمر إلا أن تكون المرأة مود بروستر التي سحرتني بشخصها الآن كما سحرتني من خلال أعمالها من قبل.

لا يمكن تخيّل أي شخص آخر خارج البيئة، لقد كانت مخلوقاً دقيقاً أثيرياً، تتمايل كصفصافة بعودها المياس، خفيفة ورشيقة الحركة، لم تبدُ لي كأنها تتحرّك كبقية البشر، وإنما تتحرك بانسيابية وخفّة كطائر يحطّ على الأرض بهدوء.

كانت تشبه إلى حد كبير قطعة من خزف درسدن الثمينة، أُعجبت على الدوام بما أسميه «هشاشتها»، كما في ذلك اليوم عندما ساعدتها للنزول إلى المقصورة وخشيت أن تتكسر ذراعها في يدي؛ لذلك كنت في أي وقت مستعداً تماماً، لأضغط عليها أو أتعامل معها بقسوة فقط لأراها تنهار، لم أرَ جسداً وروحاً في مثل هذا التوافق التام، فحين تصف أبياتها الشعرية ـ كما وصفها النُقّاد بأنها رفيعة القدر

وروحانية ـ كأنك وصفت جسدها، بدا أن أشعارها تشارك روحها، ولديها سمات مماثلة، وربطها بالحياة بسلاسل رهيفة هو بالتأكيد كما تخطو على الأرض بخفة؛ لأن في تكوينها القليل من الطين.

كانت في تناقض صارخ مع وولف لارسن، فهي كلّ شيء غيره وهو كلّ شيء إلا هي، رأيتهما يتمشيان مرّة على سطح السفينة في الصباح وشبّهتهما بطرفي سلّم التطور والارتقاء في الجنس البشري، الأول: خلاصة الوحشية، والثانية: المنتَج النهائي لأرقى الحضارات. صحيح أن وولف لارسن يملك قدراً غير معقولاً من الذكاء، إلا أنّه وجّه تلك الموهبة لخدمة غرائزه الوحشية فزادت من وحشيته وقسوته، كان متين البنية مفتول العضلات، على الرغم من أنّه يسير بخطى واسعة واثقة كرجل رياضي، ألا أنّه لا شيء ثقيلاً أو متكلفاً في مشيته، كانت البرية وحياة الغاب هي ما ترفع وتخفض قدميه، فهو يمشي كقطة برشاقتها وخفتها وقوي على الدوام، أشبهه بالنمر العظيم وهو وحش له من المروءة والافتراس نصيب، كان البريق الثاقب الذي يظهر في بعض الأحيان في عينيه هو ذاته الذي لاحظته في عيون الفهود المحبوسة بقفص وغيرها من الكائنات البرية الغريبة.

لكن في هذا اليوم، لمحتهما يتمشيان معاً جيئة وذهاباً، ولاحظت بأنها هي من أنهت المشوار، وصلا إلى حيث كنت أقف عند مدخل الممر، ومع أن ملامحها لم تفضح أي شيء، إلا أني شعرت بارتباكها، أدلت بملاحظة عابرة وهي تنظر لي وضحكت ضحكة خفيفة، ثم رفعت بصرها لتنظر إلى عينيه لا إرادياً كما لو أنها فتنت به، ثم أخفضت بصرها، لكن ليس بالسرعة الكافية؛ لتخفي الرعب المسيطر عليهما.

رأيت في عينيه سبب اضطرابها، التي عادة ما تكون رمادية وباردة وقاسية، أصبحت الآن دافئة وناعمة وذهبية تتراقص فيها أضواء صغيرة تبهت وتتلاشى، أو تفيض للخارج فتملأ محجري عينيه بإشراق متوهج، قد يكون اللون الذهبي هو السبب، لكن عينيه الذهبيتين كانتا مغريتين وساحرتين، وفي الوقت نفسه تجذبان وتُقنعان، وتتحدّثان عن التعطش للدماء، لا تستطيع أيّة امرأة، ناهيك عن مود بروستر، أن تسيء فهمهما.

وقع رعبها وخشيتها على عاتقي، وفي لحظة خوف ـ أفظع خوف يمكن أن يمرّ به الرجل ـ علمت بطرق لا يمكنني تعليلها أنها عزيزة على قلبي، لكن معرفتي بأني أحبها داهمتني فجأة مع هذا الرعب، وبوجود هذه المشاعر مجتمعة اجتاحت قلبي سببت فوران دمي وثورتي، شعرت بنفسي مسلَّحا بقوّة عظيمة فنظرت في عينيّ وولف لارسن دون خوف أو وجل ـ رغماً عن إرادتي ـ لكنه استعاد نفسه واختفى اللون الذهبي والأضواء المتراقصة من عينيه وعاد اللون الرمادي البارد يشع من حدقتيه وانحنى بخفة وانصرف.

«أنا خائفة». همست لي وهي ترتجف: «أنا خائفة جداً».

أنا خائف أيضاً وبعد أن اكتشفتُ كم تعني لي، اضطرب عقلي لكني نجحت في إخفاء ذلك وأجبت بهدوء:

«كل شيء سيكون على ما يرام آنسة بروستر. ثقي بي».

أجابتني بابتسامة امتنان صغيرة عصفت بقلبي، ثم شرعت في نزول سلم السفينة.

بقيتُ واقفاً حيث تركتني لفترة طويلة، كانت هناك حاجة ملحّة لضبط نفسي، للنظر في دلالات الجانب المتغير للأشياء، جاءني الحب أخيراً في وقت لم أتوقعه إطلاقاً وفي ظل أكثر الظروف حرماناً، لكن فلسفتي آمنت على الدوام بحتمية نداء الحب عاجلاً أم آجلاً، وانشغالي لسنوات طويلة بحب الكتب جعلني غافلاً وغير مستعدّ.

وها قد أتى هذا الحب المنتظر. مود بروستر.

أعادتني ذاكرتي لأول مجلّد صغير على مكتبي ورأيت أمامي كما لو كان بالواقع، سطر المجلدات الصغيرة على رف مكتبتي، وكيف رحّبت بكل واحد منها. وفي كلّ عام يصدر مجلد، كنت اعتبره بداية عامي، عَبَّرت أشعارها عن قرابة الروح والعقل، وعلى هذا النحو، فقد استقبلتها كأصدقاء لعقلي وأصبح مكانها في قلبي الآن.

قلبي؟ اعتراني شعور مختلف الآن، شعرت كأني أقف خارج نفسي وأنظر إلي بشكل لا يصدق. مود بروستر! وهمفري فان وايدن «سمكة المياه الباردة» و«الوحش عديم الإحساس» و«شيطان التحليل النفسي» وغيرها من الصفات التي ينعتني بها صديقي فورسيث، أنا وهي واقعان في الحب! ثم ومن دون قافية أو منطق، عاد الشك يراودني فتذكرت ملاحظة صغيرة عن سيرتها الذاتية في المجلد الأحمر (مَنْ هو مَنْ؟) وقلت لنفسي: «وُلِدَت في كامبردج وتبلغ من العمر سبعة وعشرين عاماً». ثم قلت: «سبعة وعشرون عاماً وما زالت حرة وغير مرتبطة؟». كيف لي أن أعرف أنها غير مرتبطة؟ وآلمتني وخزة الغيرة حديثة العهد على حين غرة، لا شك بذلك إنها الغيرة؛ لأنني أحببت، والمرأة التي أحبها هي مود بروستر.

أنا همفري فان وايدن واقع في الحب! ومرة أخرى هاجمني الشك، لا لأنني كنت خائفاً منه أو أحجم عن مواجهته، وعلى النقيض من ذلك، فقد كنتُ مثالياً إلى أبعد درجة، اعترفت فلسفتي بالحب دائماً وأوصت به باعتباره أعظم شيء في العالم، وهو هدف وقمة الوجود، وأروع درجات الفرح والسعادة التي يمكن للحياة أن تحقّقها، وهو أعظم الأشياء التي ينبغي الترحيب بها وأخذها في الأحضان لكن وبعد أن جاءني الآن، لا أكاد أصدق، أن أكون محظوظاً لهذه الدرجة، كان أمراً جيداً جداً، يفوق حدَّ التصديق، خطرت كلمات سيمونز على بالي:

«تجولت كلّ هذه السنوات بين عالم من النساء، أبحثُ عنكِ».

ثم توقّفت عن البحث، وقررت أنّ هذا الحب ليس لي، أعظم شيء في العالم، كان فورسيث محقاً، أنا غير طبيعي، «وحش بلا عواطف»، مخلوق كتابي غريب، قادر على إرضاء أحاسيس العقل فقط، وعلى الرغم من أنني كنت محاطاً بالنساء طوال أيامي، إلا أن تقديري لهن كان جمالياً، ولا شيء أكثر من ذلك، في الواقع، في بعض الأحيان، اعتبرت نفسي خارج السرب، شخص رهباني أنكر العواطف الأبدية والعواطف العابرة التي رأيتها وفهمتها جيداً في الآخرين. والآن قد حان

دوري! جاءني الحب دون أن أحلم به أو أخطط له، في ما لا يمكن أن يكون أقل من مجرد نشوة، تركت مكاني على مقدمة السلم، وذهبت إلى سطح السفينة أتمتم مع نفسي أشعار السيدة براوننغ:

عشتُ طوال حياتي ترافقني خيالاتي

عِوَضاً عن الرجال والنساء في الماضي

ووجدتهم رفاق لطفاء ولست أذكر

موسيقى أجمل من تلك التي كانوا يعزفونها في نفسي

ولكن الموسيقى العذبة كانت تعزف ألحانها في أذني وكنت أعمى وغافلاً عمّا يدور حولي، حتى أعادني إلى الواقع صوت لارسن الحاد:

«ماذا تريد أن تفعل بحقّ الجحيم؟».

كنت قد انحرفت إلى الأمام دون دراية، وكان البحّارة يطلون السفينة وكدت أن أقلب وعاء الصِباغ بقدمي.

«تمشي وأنت نائم، ضربة شمس أم ماذا؟». سألني بحدة.

«لا، عسر هضم». أجبته وواصلت مشيتي كما لو لم يحدث شيء غير مرغوب فيه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الرابع والعشرون

من بين أكثر ذكرياتي حيوية، تلك الأحداث التي جرت على متن الشبح في الأربعين ساعة التي أعقبت اكتشافي حبّي لمود بروست. أنا الذي قضيت عمري في أماكن هادئة أجدني أخوض وأنا في الخامسة والثلاثين أكثر المغامرات طيشاً، ولم أصادف مثل هذه الحوادث والإثارة التي حُشرت في أربعين ساعة من حياتي، كما أني لا أستطيع أن أصم أذني عن صوت كبريائي وفخري الذي ينبئني بحسن صنيعي، وأخذ كلّ شيء بعين الإجلال والاحترام.

بادئ ذي بدء، في منتصف النهار، أبلغ وولف لارسن الصيادين أنهم سيأكلون من الآن فصاعداً في السلوقية، وهو شيء غير مسبوق على صائدي عجول البحر، حيث جرت العادة على أن يصنف الصيادون بشكل غير رسمي كضباط، لم يعطِ القبطان أي تفسير، لكن دوافعه كانت واضحة بما فيه الكفاية؛ فقد كان هورنر وسموك يتوددان للآنسة مود بروستر، وهو أمر مثير للسخرية في حد ذاته لكنه مسالم، ولم يسيئوا لها بشيء، ويبدو أن وولف لارسن وجد الأمر مثيراً للاشمئزاز.

استقبل الصيادون الخبر بصمت مطبق، بيد أن أربعة منهم حملقوا بالاثنين اللذين سبّبا هذا العقاب بشدة، جاك هورنر الهادئ بطبيعته لم يُبدِ أي اعتراض لكن الدم ارتفع في وجه سموك وانتفخت أوداجه وكاد أن يتحدث، راقبه لارسن بعينيه الفولاذيتين وانتظره يتكلم، لكن سموك أعرض عن الكلام دون أن ينبس بكلمة.

«هل لديك أي شيء تقوله؟». سأله بعدوانية.

كان تحدًّيا، رفض سموك أن يقبله.

«بخصوص ماذا؟». سأله سموك ببراءة أربكت وولف لارسن، بينما ابتسم الآخرون.

«أوه، لا شيء، ظننت أنك تود أن تعترض». قال وولف لارسن بلؤم.

«أعترض على ماذا؟». رد عليه سموك بهدوء.

فابتسم رفاق سموك بارتياح، كان من الممكن أن يقتله وولف لارسن وأشك بأن الدم الذي تدفق في عروقه كان سيراق لولا وجود مود بروستر، ولهذا السبب بالذات، تصرف سموك على هذا النحو، كان رجلاً متحفظاً وحذراً للغاية ليحتوي غضب لارسن الذي كان من الممكن أن يعبر عنه بأمور أعنف من الكلمات، خفت أن ينشب صراع بينهما لكن صيحة من قائد الدفّة أنقذت الموقف.

«هيه دخان!». صاح من أعلى السلالم.

«كيف هو الوضع؟». ناداه وولف لارسن.

«خلفنا مباشرة يا سيدي».

«قد تكون سفينة روسية». اقترح لاتمير.

اعترى الصيادين قلقٌ شديدٌ حين سمعوا هذه الكلمات، فسفينة روسية تعني شيئاً واحداً «سفينة حربية»، ولم يكن الصيادون على علم بموقع السفينة من البحر، ولم يعلموا أننا قريبون على حدود البحر الممنوع، ناهيك عن سجل القبطان وولف لارسن سيّئ السمعة، فتركزت كلّ العيون عليه.

«أوه نحن بأمان تام»، طمأنهم بضحكة: «لا مناجم ملح هذه المرة يا سموك، وأراهنكم خمسة لواحد أنها سفينة مقدونيا».

وعندما لم يقبل أي منهم رهانه قال: «في هذه الحالة، أراهنكم عشرة لواحد أن هناك مشكلة تتجه نحونا بسرعة».

«لا، شكراً لك»، قال لاتمير: «لا أمانع خسارة أموالي، لكني أحب أن أربح على أية حال، لا تجتمع أنت وأخوك في مكان إلا وكانت المشاكل ثالثتكم، وأراهنك عشرين مقابل واحد على ذلك».

فابتسم الجميع ومعهم وولف لارسن، ومضى العشاء بسلاسة والفضل لمعاملة لارسن الشائنة لي بقية الوجبة، يسخر منّي ويقلل من قيمتي حتى صرت أرتعش من الغضب المكبوت، ومع ذلك، علمت أنّه يتعين علي التحكم في نفسي من أجل مود بروستر، وحصلت على المكافأة حين التقت أعيننا للحظة عابرة فقرأت فيها بوضوح ما تريد مني؛ «كن شجاعاً».

تركنا المائدة لنذهب على ظهر السفينة؛ فوجود سفينة بخارية كان إثارة مرحّب بها لكسر رتابة البحر الذي نطوف عليه، وأضافت قناعة الجميع أنها مقدونيا سفينة ديث لارسن؛ مزيداً من الحماس. اعتدل الجو هذا الصباح بعد ما كانت الريح عنيفة والامواج تتلاطم مساء يوم أمس فأصبح بإمكان القوارب أن تنزل للصيد في فترة ما بعد الظهيرة، وكانت هناك بوادر لصيد مربح، أبحرنا منذ طلوع الضوء في بحر خالٍ من العجول، ونحن الآن نتجه نحو القطيع.

كان دخان مقدونيا لا يزال بعيداً خلفنا بأميال، لكنه يحاول اللحاق بنا بسرعة، وعندما أنزلنا قواربنا زادوا من سرعتهم واتجهوا شمالاً عبر المحيط، رأينا الشراع ينخفض بين الفينة والأخرى وسمعنا طلقات بنادق الصيادين فيها، ثم يرتفع الشراع من جديد، أعداد عجول البحر كثيرة هنا والرياح كانت خفيفة وهي بوادر صيد وفير، وعندما اتجهنا باتّجاه الريح نحو آخر قارب، وجدنا المحيط يعجّ بعجول البحر النائمة، كانت في كلّ مكان حولنا، أكثر مما رأيته في حياتي، متجمعة بأزواج أو ثلاثة معاً ممددة بكامل طولها على سطح المحيط، نائمة بملء جفونها ككلاب كسولة.

اقتربت السفينة وظهر جزؤها العلوي وأخذ يكبر من بين الدخان المقترب، كانت السفينة مقدونيا بالفعل؛ لأني قرأت اسمها عبر منظاري حين مرت على بعد ميل من الميمنة، نظر وولف لارسن بوحشية إلى السفينة، بينما كانت مود بروستر تنظر بفضول.

«أين هي المتاعب التي كنت متأكداً من قدومها يا قبطان لارسن؟». سألته بسرور.

نظر إليها فمرت لحظة استمتاع رقّت فيها قسمات وجهه ثم قال:

«ماذا كنتِ تتوقعين، أن يصعدوا على متن سفينتنا ويحزّوا أعناقنا؟».

«شيء من هذا القبيل». اعترفت: «فكما تعلم أن صيد عجول البحر هو أمر غريب وجديد بالنسبة لي لدرجة إني مستعدة لتوقع أي شيء».

هز رأسه وقال: «محقّة تماماً، لكن خطأكِ أنّك لم تتوقعي الأسوأ».

«وما هو أسوأ من أن تُحز أعناقنا؟». سألته بسذاجة.

«حزّ محافِظ نقودنا»، أجابها: «تحدّد قدرة الرجل على العيش الأموال التي يملكها في هذه الأيام».

فاقتبسَت: «من يسرق حقيبة نقودي يسرق شيئاً تافهاً».

«من يسرق نقودي يسرق حقي في العيش»، أجابها: «عكس ما تقوله الأقوال المأثورة القديمة؛ لأنه يسرق خبزي ولحمي وفراشي، وبفعلته هذه فهو يهدّد حياتي، فليس هناك مطابخ كافية تقدم الحساء ولا صفوف توزع الخبز، وكما تعرفين بأن الذي تكون جيوبه خاوية يموت جوعاً عادة، وتكون ميتته تعيسة ما لم يستطع ملأها بسرعة من جديد».

«لكنني أعجز عن رؤية أن هذه السفينة قد تسعى لسلبك أموالك».

«انتظري وسترين». أجاب بتجهّم.

ولم نكن في حاجة للانتظار طويلاً فقد أنزلت مقدونيا قواربها بعد أن عبرت خط قواربنا بعدّة أميال، ونعلم جيداً أنها كانت تحمل أربعة عشر قارباً مقابل الخمسة التي لدينا (نقصنا القارب الذي فرّ به واين رايت). وبدأت بإنزال قواربها قرب آخر قارب لنا باتّجاه الريح واستمرت بنشر قواربها بالعرض لتعيق مسارنا وانتهت بخفض آخر قارب أبعد بقليل من قاربنا الأول المواجه للريح، فانتهى الصيد بالنسبة لنا؛ إذ لا عجول بحر خلفنا وأمامنا المراكب الأربعة عشرة كمكنسة ضخمة، اكتسحت القطيع أمامها.

كانت قواربنا تصيد بمسافة الميلين أو الثلاثة التي تفصلها عن قوارب مقدونيا، ثم يعودون أدراجهم، هبطت الريح وغدت نسمات وأصبح المحيط أكثر هدوءاً ــ وهو وقت مثالي لصيد العجول حين تكون وسط سرب ضخم كهذا ــ ولن تصادف كهذا اليوم إلا مرّة أو مرتين وأقصى حد ثلاث في موسم الصيد ليعتبر موسماً مباركاً، احتشد الكثير من الرجال الغاضبين، الصيادين ومجدّفي القوارب وقادة الدفّة إلى جانبنا وكل رجل فيهم يشعر بأنه سُرق، يرفعون القوارب إلى وسط السفينة، ولو كان للشتائم واللعنات قوة، لدمرت ديث لارسن إلى الأبد.

«ليمُت ملعوناً لعشرات المرات إلى الأبد». علّق لويس وعيناه تتلألآن في وجهي بينما كان يستريح من شدّ جلدة قاربه.

«إصغي إلى ما يقول هؤلاء الرجال، وحاولي أن تكتشفي أهم شيء في ثنايا أرواحهم»، قال وولف لارسن: «أهو الإيمان؟ الحب؟ والمثل العليا؟ أم الخير؟ الجمال؟ والحق؟».

«لقد تشوه المعنى الفطري للحق في نفوسهم». أجابته مود بروستر وانضمت للمحادثة.

كانت تقف على بعد عشرة أمتار، وإحدى يديها ترتكز على الغطاء الرئيسي وجسمها يتمايل برفق مع حركة السفينة الطفيفة، لم ترفع صوتها، ومع ذلك، فقد ذهلتُ من لهجتها الواضحة التي تشبه رنة الجرس، آه كم كان صوتها جميلاً في أذني! وبصعوبة تجرأت أن أنظر إليها حينها خوفاً من أن أفضح نفسي، كانت ترتدي قبعة بحارة رجالية على رأسها وانساب شعرها البني الفاتح بخصل فضفاضة رقيقة تشعّ في الشمس، فكوّنت هالة من الضياء حول وجهها، كانت وبلا شكّ خلابة فضلاً عن كونها روحانية إن لم تكن قديسة، عاد إلي كلّ إعجابي القديم بالحياة على مرأى من هذا التجسّد الرائع لها، حينها غدا تفسير وولف لارسن البارد للحياة ومعناها مثيراً للسخرية والضحك حقاً.

«أنتِ عاطفية كالسيد فان وايدن»، سخر منها: «هؤلاء الرجال يشتمون ويلعنون؛ لأن رغباتهم انتُهِكت، وأيّة رغبات أعني؟ طعام جيد وفراش مريح على الشاطئ وربح يوم وفير يجلب لهم الملذات من النساء والشراب ليشبعوا نهمهم وبهيميّتهم التي تعبر عنهم بصدق، وهذا أحسن ما فيهم وأفضل ما يمكن أن يعبر عنهم وعن قيمهم العُليا ومُثلهم أن سمحتِ لي، صحيح إن تعبيرِهم عن مشاعرهم هكذا ليس مشهداً مؤثراً، إلا أنّه يفصح عن مدى تأثرهم بما حلّ بهم وكيف أن محافظ نقودهم قد تمّ المساس بها؟ ومن يمدّ يده على نقودهم، يعني أنّه مدّ يده على أرواحهم».

فقالت مبتسمة: «لكنك لا تتصرف وكأنهم مدّوا أيديهم على نقودك».

«يحدث أن أتصرف بشكل مختلف؛ لأن كلًّا من محفظتي وروحي قد تأثّر، وبالسعر الحالي للجلود في سوق لندن، واستناداً إلى تقدير عادل لما كان يمكن أن أجنيه من صيد بعد ظهر اليوم لو أن مقدونيا لم تأخذ أكثر من استحقاقها، فقدت الشبح جلوداً بقيمة ألف وخمسمائة دولار».

«أنت تتحدث بهدوء». بدأت فقاطعها: «لكنني لا أشعر بهدوء، يمكنني قتل الرجل الذي سرقني، نعم نعم أعرف أن هذا الرجل هو أخي، حميمة أكثر. باه!».

ثم تغير وجهه فجأة ورقّ صوته بصدق حين قال:

«أنتم يا أصحاب العواطف الرقيقة لا بدّ أنكم تشعرون بالسعادة حين تحلمون بوجود الأشياء الجميلة؛ لأنكم تجدون بعضها فعلاً، والآن قولا لي أنتما الاثنان هل تجداننني رجلاً جيداً؟».

قلت له: «أنت رجلٌ جيد عند النظر اليك بطريقة ما».

«لدى الجميع القوة، لأن يكونوا أخياراً». أجابته مود بروستر.

«ها أنتِ ذا!»، صاح عليها شبه غاضب: «كلماتك فارغة بالنسبة لي، لا يوجد شيء واضح وحاد ومحدّد حول الفكرة التي عبِّرت عنها، لا يمكنكِ لمسها والنظر إليها في الحقيقة، إنها ليست فكرة. إنها شعور، شيء قائم على الوهم وليس نتاج العقل على الإطلاق».

ثم تغيرت نبرة صوته ورقّت وأصبح كمن يأتمنك على سر حين تابع:

«هل تعلمين أني كثيراً ما تمنّيت أن أكون أعمى عن حقائق الحياة، وأن لا أعرف سوى خيالاتها وأوهامها، أعلم أنها أوهام خاطئة ومغلوطة ومنافية للمنطق، ولكني حين أتفحّصها ظاهرياً، يقول لي عقلي إنها خاطئة وخاطئة جداً، لكن الحياة مع الأوهام والخيالات تعطي الحياة بهجة وسعادة، فبعد كلّ شيء، السعادة هي الأجر الذي يتقاضاه الإنسان مقابل العيش، ودونها تغدو الحياة عملاً لا طائل منه، وأن تكدح في العيش دون أن يُدفع أجرك هو أسوأ من الموت، فمن يسعد يعِش الحياة لأقصاها، فتصبح أحلامك وأوهامك أقل إزعاجاً لك وأكثر رضاً من وقائعي والحقائق الثابتة بالنسبة لي».

هز رأسه ببطء، يفكر ثم استطرد: «كثيراً ما يراودني الشك في جدوى العقل، لا بد أن الأحلام أكثر جوهرية ومُرضية، فاللذة العاطفية أكثر ملاءمة ودواماً من المسرات الفكرية، علاوة على أنك تدفع ثمن لحظات فرحتك الذهنية بأن تتعرض للاكتئاب، أما السعادة العاطفية لا يتبعها أكثر من إجهاد الحواس التي تتعافى بسرعة، أنا أحسدكم، أحسدكم».

توقف فجأة وزمّ شفتيه بابتسامة غريبة ثم أضاف:

«إنني أحسدكِ من عقلي لا من قلبي، لاحظي ذلك، هكذا يملي عليّ عقلي، والحسد هو منتج فكري، فأنا مثل رجل صاحٍ ومتزن ينظر إلى مجموعة رجال سكارى، ولأنه مرهق للغاية؛ فهو يتمنى أن يكونَ سكران مثلهم».

«أو كرجل حكيم ينظر إلى مجموعة مجانين فيتمنّى أن يكون هو الآخر مجنوناً». وضحكت.

«تماماً، أنتما زوج مجانين محظوظ ومفلس، ليس لديكما ذرة منطق تتحليان به».

فقالت مود بروستر: «بالرغم من ذلك نحن نُنْفِقه بِحُريّة مثلك».

«بحرية أكبر، لأنه لا يكلِّفك شيئاً».

«ولأننا نرتكز على الخلود». ردت عليه.

«سواء كنتِ تفعلين ذلك أو تظنين أنكِ تفعلينه، الأمر سيّان، أنتِ تنفقين ما لم تحصلي عليه، وبالمقابل تحصلين على قيمة من إنفاق ما لم يكن لديكِ، أكبر مما أحصل عليه بإنفاق ما أملك، وما شقيت وتعبت للحصول عليه».

«ولماذا لا تغير أساس تعاملاتك؟». سألته لإغاظته.

نظر إليها بسرعة، شبه آملٍ، ثم قال بكل أسف: «فات الأوان على ذلك، ربما أود ذلك لكنني لا أستطيع، فقد امتلأت جيوبي بالعملة القديمة، وهو أمرٌ عنيد ومستعصٍ، لا يمكنني حمل نفسي على الاعتراف بصلاح أي شيء».

توقف عن الكلام وأشاح ببصره عنها لينظر إلى البحر الواسع، اجتاحته كآبته البدائية القديمة من جديد، بدأ يرتجف واستسلم للكآبة السوداء بالكامل، وأثناء ساعات قليلة، يمكن للمرء أن ينتظر الشيطان بداخله ليقف ويحرك، تذكرت حينها تشارلي فورسيث، وعرفت أن هذا الرجل يحزن كعقوبة يدفعها المادي على مادّيته.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الخامس والعشرون

في صبيحة اليوم التالي، قال لي لارسن على مائدة الإفطار:

«كنتَ على سطح السفينة يا سيد فان وايدن، كيف تبدو الأمور؟».

«صافية بما فيه الكفاية»، أجبته وأنا أنظر إلى أشعة الشمس التي تدفقت عبر السلم إلى المقصورة: «نسيم غربيّ خفيف وستشتدّ إن صح تنبّؤ لويس».

أومأ برأسه مسروراً وقال: «هل هناك أية أمارات على ظهور الضباب؟».

«سحبٌ كثيفة منه في الشمال والشمال الغربي».

هزّ رأسه مرّة أخرى بارتياح أكبر من ذي قبل.

«ماذا عن مقدونيا؟».

«لم يرها أحد».

أُقسمُ أنّه اكفهرّ وجهه حال سماعه للخبر، ولكن لا أستطيع تخيل سبب شعوره بخيبة الأمل! حسناً، قريباً سأعلم.

«هيه دخان». صاح أحدهم عليه من سطح السفينة فأشرق وجهه.

«حسناً». هتف وانصرف من فوره إلى سطح السفينة ومنه إلى السلوقية حيث كان الصيادون يتناولون أول إفطار لهم في المنفى.

لم نلمس، أنا ومود بروستر، الطعام الموضوع أمامنا، وإنما بقينا ننظر إلى بعضنا بصمت وتوتر، نستمع إلى صوت وولف لارسن، الذي اخترق المقصورة بسهولة من خلال الحاجز المتداخل، كان يتحدث بإسهاب، وقد استقبل الصيادون خاتمته بهدير هتاف وتصفيق، حال الحاجز السميك دون سماع ما قاله ولكن مهما كان، فقد أثر ذلك على الصيادين بقوّة، وتبع التصفيق هتافات عالية وصيحات فرح.

علمت من الأصوات على سطح السفينة بأن الصيادين تم توجيههم وبدؤوا يستعدّون لإنزال القوارب، رافقتني مود بروستر إلى السطح فتركتها في كسرة مؤخرة السفينة حيث يمكنها مشاهدة المشهد دون أن تكون فيه، لا بدّ أن الصيادين كانوا على علم بالمشروع أياً كان، وهمّتهم ونشاطهم في العمل تشهد على حماسهم، ثم صعد الصيادون على سطح السفينة بالرشاشات وصناديق الذخيرة وبنادقهم وهو أمرٌ غريب؛ لأنهم نادراً ما كانوا يستخدمون البنادق في صيد العجول؛ لأن في حال أُطلق النار عليها من مسافة بعيدة باستخدام البندقية، ستغرق قبل أن يتمكن القارب من الوصول إليها، لكن اليوم، حمل كلّ صياد بندقيته وكمية كبيرة من الخراطيش، لاحظتُ كذلك، أنهم يبتسمون بارتياح كلما نظروا إلى دخان مقدونيا، الذي كان يرتفع أعلى وأعلى مع اقترابها من جهة الغرب.

نزلت القوارب الخمسة من جانب السفينة بسرعة وانتشرت كأضلاع مروحة ثم اتجهت شمالاً, كما فعلت في ظهيرة يوم أمس، راقبتُهم لبعض الوقت بفضول فلم أجد أي شيء غير طبيعي في سلوكهم، أنزلوا الأشرعة وأطلقوا النار على العجول ثم رفعوا أشرعتهم مرّة أخرى وتابعوا طريقهم كما عهدتهم يفعلون دائماً، وكررت مقدونيا أداءها كما في اليوم السابق فقوسّت البحر بإنزال خطّ قواربها أمام قواربنا وقامت بإعاقة مسارنا. تحتاج الأربعة عشر قارباً إلى مساحة شاسعة من المحيط لصيد مريح، وعندما اعترضت طريق صيدنا بالكامل تابعَت مسيرها نحو الشمال الشرقي وهي تُنزل المزيد من القوارب أثناء سيرها.

«ما الأمر؟». سألت وولف لارسن، غير قادر على التحكّم في فضولي.

«لا تهتم لما يجري الآن»، أجاب بفظاظة: «لن تمرّ عليك ألف سنة قبل أن تعرف، وفي هذه الأثناء أدعُ لنا بأن تهبّ الريح أسرع».

ثم قال بعد لحظات: «أوه حسناً، لا مانع من إخبارك، سأردّ على شقيقي بالمثل وأجرّعه من نفس دوائه، وباختصار، سأكون أنا من يتصرف بأنانية وأقوّس البحر لا ليوم واحد بل طيلة موسم الصيد إذا أسعفنا الحظ».

«وماذا سيحدث إن لم يسعفنا؟». سألته.

«لا ينبغي لنا أن نفكر في هذا»، وضحك: «يجب أن يحالفنا الحظ ببساطة وإلا انتهى أمرنا».

ثم أمسك بدفة القيادة وذهبت أنا إلى المستشفى الذي أنشأتُه في المُدَفّى حيث يرقد المُصابان ماكريدج ونيلسون، ابتهج نيلسون؛ لأن ساقه المكسورة تتماثل للشفاء بسرعة، لكن الكوكني كان يائساً حزيناً، تعاطفتُ كثيراً مع هذا المخلوق البائس، كانت أعجوبة أنّه لا يزال يعيش ويتشبث بالحياة، حتى بعد أن حوّلت السنوات الوحشية جسده الضئيل إلى حطام متشقق، اتقدت شرارة الحياة فيه كما في السابق.

قلت له بمرح: «باستخدام قدم اصطناعية ـ وهم يصنعون أقداماً ممتازة ـ ستتمكن من المشي بتثاقل في مطابخ السفن حتى تفنى».

كان جوابه جاداً، لا بل مُهيباً: «لا أعلم ما تقول يا سيد فان وايدن، لكني متأكّد أني لن يهدأ لي بال وتقرّ لي عين حتى أرى هذا المجرم اللعين ميتاً، لن يعيش أطول مني كن واثقاً من هذا. ليس لديه حق في العيش، وكما يقول الكتاب المقدس: «كل نفس مصيرها الموت». أنا أقول: آمين. وعليّ اللعنة إن لم يكن موته قريباً».

عندما عدتُ إلى سطح السفينة، وجدت وولف لارسن يوجه السفينة بيد واحدة، ويحمل منظار البحرية بيده الأخرى، يراقب مواقع قواربنا ويولي اهتماماً خاصاً بموقع مقدونيا، وكان التغيّر الملحوظ الوحيد أن قواربنا كانت تتجه نحو الريح مجتمعة وتبتعد عدة نقاط نحو غرب الشمال. ومع هذا لا أرى الغاية من مناورتنا هذه؛ لأنّ قوارب مقدونيا الخمسة كانت تعيق قواربنا عن البحر الواسع، ثم تباعدوا ببطء نحو الغرب أكثر فأكثر عن القوارب التي في طريقهم، كانت قواربنا تجدف

فضلاً عن رفع الشراع، وكان الجميع يجدفون حتى الصيادين، فبوجود ثلاثة مجاديف تضرب في الماء تمكنت قواربنا من اللحاق بسرعة بمن أسميهم «العدو».

تضاءل دخان مقدونيا واستحال شائبة باهتة في سماء الشمال الشرقي، أما السفينة فقد كانت خارج نطاق رؤيتنا، تسكّعنا طيلة هذه الفترة وأشرعتنا تهتزّ برياح قليلة سحبتنا لفترة قصيرة، لكن وقت الراحة قد ولّى، وضع وولف لارسن الشبح في مسارها فعبرنا خطّ مراكبنا واتجهنا نحو أول مركب يواجه الريح من مراكب مقدونيا.

«أنزل الشراع المثلث الأمامي يا سيد فان وايدن»، أمرني وولف لارسن: «وقف قرب الأشرعة الأخرى».

أسرعتُ إلى الأمام وأنزلتُ الشراع كما طلب واقتربنا مائة قدم من القارب فنظر رجاله إلينا بارتياب، كانوا يحجبون البحر ويعرفون وولف لارسن ـ سمعتُه على الأقل ـ لاحظت كذلك، أن الصياد في قاربهم ـ وهو رجل إسكندنافي ضخم الجثة ـ يجلس في قوس القارب ويضع بندقية بين ركبتيه، مع أنها يجب أن تكون معلقة في مكانها في رفّ الأسلحة، وعندما وصلنا قريباً منهم حيّاهم وولف لارسن بيده وصاح:

«اصعدوا إلى السفينة والعبوا معنا».

تعني الدعوة إلى اللعب بين سفن الصيد أن يأتي البحّارة للزيارة، أي للنميمة والهذر، وتعبّر عن غرابة البحر وتُعتبر استراحة ممتعة لكسر رتابة حياة البحر.

تأرجحت الشبح بفعل الريح، أنهيت عملي في المقدمة وحان دور المؤخرة، عليّ أن أقوم بعملي للشراع الرئيسي. قال وولف لارسن وهو يذهب للقاء ضيوفه:

«هل لكِ أن تتفضّلي بالبقاء على سطح السفينة يا آنسة بروستر، وأنت كذلك يا سيد فان وايدن».

طوى القارب شراعه وجانَبَ السفينة، فتعلق الصياد ـ بشعره ولحيته الشقراء كأنه ملك البحر ـ بحافة السفينة وارتمى فوق سطحها، وبالرغم من ضخامته ألا أنّه لم يتمكن من كبح قلقه ووجله، بَانَ الشك على وجهه والارتباك، كان وجهه شفافاً على الرغم من لحيته الكثة التي كانت كدرع يغطي وجهه، ثم شعر بارتياح حالما جال ببصره بيني وبين وولف لارسن، ولاحظ وجودنا نحن فقط على سطح السفينة فأذِنَ لرفاقه بصعود السفينة، لا داعي للخوف بعد الآن؛ لأنه أضخم من لارسن بكثير، كان كجالوت بضخامته الهائلة، ربما كان طولة خمسة أقدام وثماني أو تسع بوصات ويزن مائتين وأربعين رطلاً لكنه ليس سميناً بل وزنه كله عظامٌ وعضلات.

ثم عاد القلق إلى وجهه حين دعاه وولف لارسن للنزول إلى الأسفل، لكنّه أكد لنفسه بنظرة واحدة لمرافقه الذي بالرغم من ضخامته بدا كأنه قزم أمامه فزال عنه الخوف ورافقه، وفي هذه الأثناء، وكما جرت العادة في زيارة البحارة، ذهب البحاران إلى السلوقية لأداء واجبات الزيارة بنفسهما.

ثم سمعنا فجأة صوت ارتطام وصراع عنيف، كان نزالاً بين أسد ونمر، وكان الأسد يصدر كلّ الأصوات، ولا داعي للقول بأن لارسن هو النمر.

«هل رأيتِ قدسيّة ضيافتنا». قلت بمرارة لمود بروستر.

أومأت برأسها، ولاحظتُ في وجهها علامات المرض نفسه الذي عانيت منه بشدة خلال الأسابيع الأولى لي في الشبح حين كنت أحضر قتالاً أو أشاهد عنفاً ودموية.

«أليس من الأفضل لكِ أن تذهبي إلى الأمام نحو درج السلوقية وتنتظري هناك حتى ينتهي الأمر؟». اقترحت عليها.

هزّت رأسها بالنفي وكانت تنظر نحوي بأسف، لم تكن خائفة بل كانت مرعوبة من حيونة الإنسان الموجودة على متن هذه السفينة، فانتهزتُ الفرصة وقلت:

«يجب أن تفهمي، أنّ أي دور سأقوم به في ما يجري وما سيجري، أنا مجبر عليه، إن أردنا أنا وأنتِ النجاة بحياتنا من هنا». وأضفت: «وهو أمرٌ بشع... بالنسبة لي».

«أفهم». قالت بصوت ضعيف، وبان في عينيها ما قالت.

سرعان ما صمتت الأصوات من الأسفل وظهر وولف لارسن وحده على سطح السفينة، كان هناك توهج أحمر طفيف تحت بشرته البرونزية وما عدا ذلك، لا يبدو أنّه خاض قتالاً على الإطلاق. ثم قال:

«أرسل الرجلين إلى مؤخرة السفينة يا سيد فان وايدن».

أطعت أوامره وبعد دقيقة أو اثنتين وقفا أمامه فقال لهم: «ارفعوا قاربكم إلى سطح السفينة، قرر صيّادكم أن يبقى على متن السفينة لفترة أطول ولا يريد أن يتحطم قاربكم بسبب ارتطامه المستمر بجانب السفينة».

«قلت ارفعوا قاربكم!». أعاد عليهم بنبرة أكثر حدة جعلتهم يتردّدون للحظة.

«ومن يعلم، قد يتعيّن عليكم الإبحار معي لفترة من الزمن». قال بهدوء وبتهديد مبطن فتحرّكوا ببطء للامتثال إلى أوامره، «وقد نتوصّل إلى تفاهم وديّ، بسرعة تحركوا، تعلمون أن ديث لارسن يجعلكم تتقافزون بسرعة أكبر من هذه».

فتزايدت سرعتهم بشكل ملحوظ تحت إمرته، وبينما كان القارب يتأرجح صعوداً على متن الشبح، ذهبتُ إلى الأمام لأطلق الشراع الامامي ووقف وولف لارسن عند دفّة القيادة يوجه الشبح نحو القارب التالي لمقدونيا.

وأبحرنا في الطريق دون أن نفعل شيئاً في الوقت الراهن، فحوّلت اهتمامي لأراقب وضع القوارب، هاجم قاربان من قواربنا قارب مقدونيا الثالث، بينما هاجم بقية القوارب قاربُ مقدونيا الرابع فهب قاربهم الخامس لنجدته، بدأ القتال من على مسافة بعيدة وكانت البنادق تطلق النار بانتظام، ثم هبت ريح حرّكت أمواج البحر الهادئ فتعذر الحصول على إطلاق جيد، وبين الحين والآخر، بينما كنا نقترب، كنا نلمح طلقات البنادق تتقافز من موجة إلى أخرى.

أسرع القارب الذي كنا نلاحقه وكان يسابق الريح ليفلت منّا ويلحق بقتال القوارب الجاري ويشترك معهم، ولانشغالي بالأشرعة وحبالها لم أتمكن من رؤية ما يجري، لكني رأيتُ وولف لارسن يأمر البحارَين الغربيَين عندما كنت في مؤخرة السفينة بالذهاب إلى الأمام ومنه إلى السلوقية، ففعلا ما أمرا به على مضض، ثم أمر الآنسة بروستر بالنزول إلى الأسفل وابتسم حين شاهد الرعب في عينيها.

«لن تجدي شيئاً مخيفاً في الأسفل، سوى رجل مصفّد لم يُصب بأذى، من المتحمل أن يتراشق الرصاص على السطح ولا أريدكِ أن تُقتلي كما تعلمين».

وبينما هو يتكلم، انحرفت رصاصة بواسطة الغطاء النحاسي لدرجات الدفّة بين يديه، وصرّت ثم اختفت في الهواء باتّجاه الريح.

«أترين؟»، قال لها ثم استدار نحوي: «سيد فان وايدن، هلّا استلمت دفّة القيادة مني؟».

كانت مود بروستر قد بدأت بنزول السلالم الداخلية وكان رأسها فقط لا يزال ظاهراً حينما أخذ وولف لارسن بندقية ولقمها بخرطوشة، رجوتها بعينيّ أن تنزل بسرعة لكنها ابتسمت وقالت:

«قد نكون مخلوقات ضعيفة في الأرض دون أرجل، لكن يمكننا أن نظهر للقبطان لارسن أننا شجعان مثله على أقل تقدير».

فرمقها بنظرة إعجاب سريعة.

«أنا الآن معجب بك مائة بالمائة، وأنا أُفضّل ذلك»، قال لها: «ثقافة وفكر وشجاعة، أنت امرأة حسنة الإعداد، امرأة مثقفة تصلح لأن تكون زوجة رئيس القراصنة ـ وتنحنح ـ سنتحدث عن ذلك فيما بعد». ثمّ ابتسم بينما اخترقت رصاصة جدار المقصورة.

رأيت عينيه تومضان ببريق ذهبي، بينما تصاعد الرعب والذعر من عينيها. فسارعتُ بالقول:

«نحن أشجع منه، أتحدّث عن نفسي على الأقل، أعلم بأني أشجع من القبطان لارسن».

نظر إليّ أنا هذه المرة نظرة سريعة، وتساءل إن كنت أسخرُ منه، أضفتُ ثلاث أو أربع شعرات عمودياً باتّجاه الريح من جانب الشبح وثبّتها، كان وولف لارسن لا يزال ينتظر تفسيراً، فأشرت إلى ركبتي وقلت:

«ستلاحظ هنا، أني أرتعش قليلاً، وهذا لأني خائف، جسدي خائف وحتى عقلي خائف لرغبتي في العيش، لكن روحي تسيطر على ارتعاش جسدي وهواجس عقلي، فأنا أكثر من مجرد شجاع، أنا جسورٌ باسل، أما أنت فجسدك ليس خائفاً ولا أنت، فمن ناحية، لا يكلفك الأمر أن تواجه الخطورة، ومن ناحية أخرى أن الأمر يبهجك وتستمتع به؛ لذا، قد لا تكون خائفاً يا سيد لارسن لكن يجب أن تعترف أن الشجاعة من نصيبي».

«أنت على حق»، اعترفَ فوراً: «لم أفكر في الأمر على هذا النحو من قبل، لكن هل العكس صحيح؟ أنت كنتَ أشجع مني، هل أنا أجبنُ منك؟».

فضحك كلانا على هذه العبثية والسخف، ثم نزل إلى سطح السفينة وأراح بندقيته على سياجها، جاءت الطلقات التي تلقيناها من مسافة ثلاثة أميال وبعد أن قطعنا نصف هذه المسافة، أطلق لارسن ثلاث طلقات دقيقة ضربت الأولى مكاناً يبعد خمسين قدماً عن القارب والثانية حفّت جانبه والثالثة أسقطت مجداف قائد القارب فتكوم في قعره مُصاباً.

ثم نهض لارسن على قدميه وقال: «أظن أن هذا سيفي بالغرض، لم أرغب بإصابة الصياد، وهناك احتمال كبير أنّ مجدّف القارب لا يعرف كيف يقوده، وفي هذه الحالة، لن يتمكن الصياد من قيادة المركب وإطلاق النار في الوقت نفسه».

كان تبريره مسوغاً؛ لأن القارب اندفع بسبب الريح بعيداً، فأسرع الصياد إلى الخلف، واستلم القيادة وتوقف اطلاق النار بالرغم من أن البنادق كانت تدوّي بمرح من القوارب الأخرى، وتمكن الصياد من التحكّم بقاربه أمام الريح مرّة اخرى، لكننا أسرعنا ضعف سرعتهم وباتّجاههم، وعلى بعد مائة ياردة رأيتُ مجدّف القارب يناول الصياد بندقيته، ذهب وولف لارسن إلى وسط السفينة وأزال السلك من دبوس مخنق حبال الأشرعة، ثم انحنى من فوق حافة السفينة وسدد بندقيته، رأيت الصياد يتردد مرتين، يترك مجداف توجيه القارب ويمسك بندقيته بيد واحدة لكنه يتراجع عن ذلك، ثم أصبحنا بجانب الزبد المتصاعد، حين صاح لارسن فجأة على مجدّف القارب:

«هيه أنت، استدر».

ورمى لفة الحبال نحوهم فنزلت عندهم بالضبط حتى كادت تصرع الرجل، لكنه لم يطع الأوامر بل نظر إلى صيّاد قاربه ينتظر أوامره، إلّا إن الأخير كان في ورطة، صحيح أن بندقيته بين ركبتيه، لكنه يعرف أنّه لو ترك توجيه القارب فسيصطدم بالسفينة ويتحطم، وكذلك رأى بندقية لارسن المركزة على الحافة ويعرف بأنه سيقتله قبل أن يستطيع تناول بندقيته، فقال بهدوء للرجل الآخر:

«استدر».

نفذ مجدّف القارب الأوامر، واستدار قليلاً أمام العائق ودفعه بينما شُدّ الحبل وسحب، فانحرف القارب بسرعة المياه، وثبّته الصياد في مسار مواز على بعد حوالي عشرين قدماً من جانب الشبح.

«الآن، تخلص من هذا الشراع، وتعال جانباً». أمره وولف لارسن.

لم يترك الصياد بندقيته حتى عندما مرر العدة لربط القارب، وبعد أن رُبط طرفاه الأمامي والخلفي استعد الرجلان السليمان للصعود على متن السفينة، أمسك الصياد بندقيته ليضعها في وضع آمن.

«أسقطها من يدك». صاح عليه وولف لارسن، فرماها الصياد كما لو أنها شيء بالغ السخونة حرق يده.

وحالما صعدا السفينة، رفع السجينان القارب تحت إشراف وولف لارسن وحملا رفيقهما الجريح إلى السلوقية.

قال لي وولف لارسن: «لو قامت زوارقنا الخمسة بمثل ما قمنا به أنا وأنت، سيكون لدينا طاقم كامل متكامل».

«والرجل الذي أطلقت النار عليه... هل هو.. كما آمل؟». سألته مود بروستر.

«أصبته بالكتف، والجرح ليس خطيراً، سيعيده السيد فان وايدن كسابق عهده وأفضل بغضون أسابيع».

«لكنّي لا أظنه سيفعل المثل لهؤلاء الرجال على ما يبدو». أضاف وهو يشير إلى قارب مقدونيا الثالث، الذي كنت أوجه السفينة نحوه حتى أصبحنا نحاذيه. «هذا عمل سموك وهورنر، على الرغم من أني أخبرتهم بأني لا أريد جثثاً بل رجالاً أحياء، لكن بهجة إطلاق النار وإصابة الهدف تصبح أمراً ملحًّا حين يتعلم المرء كيف يُطلق النار، هل جرّبت ذلك يا سيد فان وايدن؟».

هززت رأسي بالنفي ونظرت إلى صنيعهم، كان فِعلاً دموياً بكل تأكيد؛ لأنهم انسحبوا للانضمام إلى رفاقهم الذين تعرضوا للهجوم من قبل قواربنا، وها هو القارب يترنح في قعر الموجة، شراعه المرتخي نحو جانبه الأيمن يرفرف ويصفق في الريح، وجثث الصياد والمجدّف في قعر القارب بينما تدلى جسد قائد القارب من حافته العليا ويداه تتخبطان في الماء ورأسه يتحرك من جهة لأخرى.

«لا تنظري يا آنسة بروستر، أرجوكِ لا تنظري». توسلتّ إليها وكنت سعيداً؛ لأنها استجابت لي ولم تشاهد المنظر.

«اتّجه نحو المجموعة يا سيد فان وايدن». أمرني وولف لارسن.

وعندما اقتربنا كان إطلاق النار قد توقف، وأمسكت قواربنا الخمسة قاربَي مقدونيا، فتجمعوا ينتظروننا لنلتقطهم.

«انظر إلى هناك». صحت رغماً عني وأشرت إلى الشمال الشرقي.

عاد دخان مقدونيا يلوح في الأفق.

«نعم. كنت أنظر إليه». رد لارسن بهدوء، ثم قاس المسافة التي تفصلنا عن كتلة الضباب الكثيف، توقف للحظات ليشعر بثقل الريح على خده، «أعتقد أننا سننجح في ذلك، أؤكد لك أن أخي العزيز قد أدرك لعبتنا الصغيرة وسيسعى للانتقام منّا، انظر إلى ذلك!».

اقترب الدخان حالك السواد فجأة وبسرعة.

«سأهزمك يا أخي»، وضحك: «سأهزمك. وآمل أن تتحول محركاتك القديمة إلى خردة».

ساد ارتباك مسرع لكنه منظّم، رُفعت القوارب إلى سطح السفينة من كلّ الجوانب، وحالما وطَأ السجناء سطح السفينة، أخذهم الصيادون إلى السلوقية بانتظام، في حين رفع بحّارتنا القوارب بعجلة شديدة، يرمونها في أي مكان على السطح ولا يتوقفون لربطها، كنا قد بدأنا بالحركة بالفعل، رفعت الأشرعة ومُلئت بطونها بالريح، حتى أن آخر قارب رُفع من الماء ظل يتأرجح للحظات حتى وصل إلى السطح.

كنّا في حاجة إلى هذه العجلة؛ لأن مقدونيا كانت تتجه نحونا مسرعة ودخانها الأسود المتصاعد يلوح مقترباً من جهة الشمال الشرقي، أهملت قواربها المتبقية وانحرفت عن مسارها لتستبق مسارنا وتعترضه، لم تكن متجهة نحونا بل أمامنا، كانت مساراتنا تقترب كضلعي زاوية، قمة رأسها عند حافة الضباب الكثيف، كان الأمر أشبه بأن نكون أو لا نكون، أملت مقدونيا أن تمسك بنا بينما كنا نأمل أن نعبر هذه النقطة قبل أن تصل إليها مقدونيا.

كان وولف لارسن يقود الدفّة، بعينين تتلألآن وتقدحان وهو ينظر بتمعّن إلى الوضع ويخوض في أدق تفاصيل المطاردة، وقد بدأ الآن بدراسة البحر والجوّ بحثاً عن أمارات تباطؤ الريح أو شدّة سرعتها، ثم نظر إلى مقدونيا من جديد وجال ببصره على كلّ شراع ثم أصدر أوامر بأن يُرخى قماش الأشرعة بنسبة ضئيلة حتى يُفقد الشبح آخر ذرّة من السرعة لديها، يبدو أن الطاقم قد نسي كلّ العداوات والضغائن؛ لأني تفاجأت بنشاط وسرعة الرجال وهم ينفّذون أوامر الرجل الذي أذاقهم الأمرّين طيلة الرحلة، ومن الغريب القول أن جونسون خطر على بالي بينما كنا نرتفع ونندفع بقوّة عرض البحر، لإدراكي حجم خسارة عدم وجوده هنا، كان يحب الشبح ويحبّ قوة أشرعتها.

«من الأفضل أن تجلبوا بنادقكم يا رفاق». صاح وولف لارسن على الصيادين، فاصطفّ الصيادون الخمسة على الدرابزين المحجوب عن الريح وأسلحتهم في يديهم وانتظروا.

كانت مقدونيا على بعد ميل منّا، ودخانها الأسود يخرج من مدخنتها بزاويته الصحيحة وهي تسابق الريح بجنون، تبحر بسرعة سبع عشرة عقدة في الساعة، كانت كما قال وولف لارسن: «تنعق في السماء عبر المياه المالحة»، بينما لم تتجاوز سرعتنا تسع عُقد بيد أننا قريبون جداً من كتلة الضباب الكثيف.

نفث دخان من سطح سفينة مقدونيا وسمعنا صوتاً قوياً يدوي، وما هي إلا لحظات حتى اخترقت قذيفة الشراع الرئيسي مخلّفة ثقباً مدوَّرا، أطلقوا النار علينا من أحد المدافع الصغيرة التي ذكرت الشائعات أنهم يحملونها على متن مقدونيا. تجمهر رجالنا وسط السفينة ولوحوا بقبعاتهم وأطلقوا هتافات ساخرة، ضربتنا المدفعية مرّة أخرى لكنها وقعت مسافة عشرين قدماً خلفنا وغرقت في البحر، ولم يكن هناك أي إطلاق نار من البنادق؛ لأن كلّ صياديهم أما في عرض البحر أو أسرى لدينا، وعندما تواجهت السفينتان ولم يفصل بينهما سوى نصف ميل، ضربتنا ضربة

أخرى اخترقت الشراع الرئيسي مرّة أخرى، ثم دخلنا في الضباب فانتشر حولنا وحجبنا في ثناياه الرقيقة الرطبة.

كان الانتقال المفاجئ مذهلاً، قبل لحظات كنا نبحر تحت أشعة الشمس والسماء صافية فوقنا والبحر يتماوج ويتحرك على امتداد الأفق، وهناك سفينة تبحر نحونا بجنون وتطلق علينا النار والمدافع تقيء دخاناً، وفي قفزة آنية، فجأة، ندخل في مكان حيث حُجبت الشمس ولا سماء فوقنا، حتى عجزنا عن رؤية قمة صاريتنا، ولم نشاهد من محيطنا أكثر مما تراه العين المملوءة بالدموع، غشّانا الضباب الرمادي كما ينهمر المطر، فترصع كلّ خيط صوفيّ من ملابسنا وكل شعرة من شعر وجوهنا أو رؤوسنا بحبيبات كرستالية. كانت أقمشة الأشرعة مبلّلة ورطبة، تقطر ماءً من الحبال فوقنا ومن الجانب السفلي للعارضة كان الماء يقطر حتى تشكّل بخطوط طويلة متعرجة انحدرت على سطح السفينة وتفرّقت فيه.

كنتُ على بينة من هذا الشعور الحبيس المكبوت حينما كانت أصوات السفينة تبحر عبر الأمواج التي يقذفها علينا الضباب، كما يقذف أفكار الفرد ويعبث بها، نكصَ الذهن من تأمّل العالم الذي يقع ما وراء هذا الحجاب الرطب الذي لفّنا فأصبح هذا هو العالم، الكون نفسه، حدوده قريبة جداً حتى أن الفرد ليشعر أن بإمكانه الوصول إليه بكلتا ذراعيه ويدفعه إلى الخلف، كان من المستحيل أن يكون هناك عالم وراء هذه الجدران الرمادية، ما بعدها كان حلماً، وليس أكثر من ذلك.

كان الأمر غريباً، بل بالغ الغرابة، نظرتُ إلى مود بروستر فكانت دهشتها مماثلة، ثم نظرتُ إلى وولف لارسن ولم ألمح أيّ شيء شخصيّ بإدراكه، كان همّه الوحيد هو الحاضر الفوري الموضوعي، كان لا يزال يمسك بالدفة، شعرت بأنه يسجّل الوقت ويحسب مرور الدقائق لكل حركة أمامية وخلفية تقوم بها الشبح.

«اذهب إلى الأمام وإلى جانب السفينة دون أن تصدر أيّ صوت». قال لي بصوت منخفض: «اطوِ حافة الشراع الثانوي أولاً، ثم اطلب من كلّ الرجال أن يفعلوا المثل مع كلّ الأشرعة، لا أريد أية رفرفة ولا صوتاً ولا حركة، لا أريد صوتاً مفهوم؟».

وحين غدا كلّ شيءٍ جاهزاً، عبرت كلمة «إلى أقصاها([33])» إلى الأمام من رجل إلى آخر حتى وصلتني، ثم مالت السفينة قليلاً وتحركت دون أيّة ضوضاء على الإطلاق ما خلا بعض الصوت من صفعات ثنيات الأشرعة أو حزّ البكرات المتحركة هنا وهناك، كنّا نتحرك كالأشباح تحت تجويف نعش مطبق علينا.

تحركنا ببطء وصعوبة حتى خفّ الضباب فجأة وصرنا تحت أشعة الشمس من جديد، يمتد البحر الواسع أمامنا حتى حدود السماء، لكن المحيط كان عارياً تماماً، لم تكسر مقدونيا الغاضبة سطحه ولم تغمق السماء بدخانها.

وبعد أن أنجز وولف لارسن هذه المهمة، ومرّ من حافة كتلة الضباب الكثيفة، كانت خدعته واضحة، دخل الضباب مواجهاً للريح وعندما دخلت السفينة إلى الضباب مباشرة في محاولة للإمساك به، كان قد خرج مرّة أخرى من مخبئه وهو الآن يعود إلى الطريق، وبعد أن نجح في هذا، أصبح المثل القديم «إخراج الإبرة من كومة

القش»، مقارنة ضئيلة بنسبة نجاح أخيه في العثور عليه، لم يتحرك على طوله، رفعنا الشراع الرئيسي والثانوي وعدنا إلى كتلة الضباب مرّة أخرى، وعندما عدنا كدت أقسم أني رأيتُ كتلة ضخمة تتجه نحونا فنظرت إلى وولف لارسن ونحن مدفونين في الضباب لكنه أومأ برأسه وكان قد رآها هو الآخر، إنها سفينة مقدونيا، قد يكون خمّن مناورتنا لكنه فشل في اعتراضها؛ لذا وبلا شك هربنا دون أن يلمحنا أحد.

«لا يمكنه أن يواصل هذا الأمر»، قال وولف لارسن: «سيتعيّن عليه العودة من أجل بقية قواربه. أرسل رجلاً ليتولى أمر الدفّة يا سيد فان وايدن وعيّن حراسة؛ لأننا لن نفعل شيئاً آخر هذه الليلة». ثم أضاف: «أدفعُ خمسمائة دولار؛ لأكون على متن مقدونيا لخمسة دقائق فقط وأستمعُ إلى لعنات وشتائم أخي».

ثم قال لي بعد أن تخلّى عن الدفّة: «والآن يا سيد فان وايدن، يجب أن نرحب بالقادمين الجدد ونقدم لهم من مخزون الويسكي الوفير الذي لدينا، ولنقدّم لبحارتنا القليل منه أيضاً، أراهن بأن كلّ رجل منهم سيصطاد غداً بنفس الهمّة والقناعة التي كان يصطاد بها لأخي ديث لارسن».

«لكن ألا تخاف من أن يهربوا كما فعل واين رايت؟».

ضحك بمكر ثم قال: «لن يحدث هذا طالما تصدّى صيادونا القدامى لهذا الأمر، فقد أوعزت لهم بأني سأقسم بينهم دولاراً لكل جلد يصيده الصيادون الجدد. وعلى الأقل، فإنّ نصف حماسهم اليوم كان بسبب ذلك؛ لذا لن تكون هناك أيّة محاولات للهرب أبداً، والآن، حريٌّ بك أن تذهب لتقوم بواجبك في المستشفى، فهناك جناح كامل في انتظارك».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل السادس والعشرون

تولى وولف لارسن مهمة توزيع الويسكي وبدأت زجاجات الشراب تجد طريقها بوفرة بينما عملتُ على تضميد جراح المصابين الجدد في السلوقية. رأيتُ أناساً يشربون الويسكي من قبل، كشرب الويسكي الممزوج بالصودا في النوادي، لكني لم أشهد شربها على النحو الذي يفعله هؤلاء؛ فقد كانوا يعبون الشرب من أقداح معدنية كبيرة أو من فوهات الزجاجات، وهذا بحدّ ذاته فسوق ومجون، لكنهم لم يتوقفوا عند زجاجة أو اثنتين، وإنما استمروا بالشرب طالما كانت هناك قطرة إضافية لم تسقط بعد من فوهة الزجاجة.

شرب الجميع حتى المصابون منهم، وشرب كذلك أوفتي أوفتي مساعدي، وحده لويس من امتنع عن الشراب واكتفى بترطيب شفتيه قليلاً به، بالرغم من أنّه شاركهم عبثهم ومجونهم. كان كأنه عيد الإله زحل([34])، باحتفالهم الصاخب وأصواتهم العالية وهم يعيدون سرد وقائع قتال اليوم ويتشاجرون بشأن التفاصيل، أو يعقدون صداقات جديدة مع الرجال الذين قاتلوهم. وكان الأسرى وآسروهم يحوزقون([35]) أكتاف بعضهم بعضاً، ويحلفون أغلظ الأيمان عن احترامهم لبعضهم وشجاعتهم، ويبكون أسى على شقائهم فيما مضى من أيامهم التعسة، وعلى الويلات التي تنتظرهم في الأيام القادمة تحت حكم وولف لارسن الحديدي، ولعنوه جميعاً ورووا الحكايات عن وحشيته.

كان مشهداً غريباً ومخيفاً داخل السلوقية؛ تلك المساحة الصغيرة المبطنة بطابقين والأرضيات والجدران تتقافز وتترنح تحت الضوء الخافت، والظلال المتمايلة تطول وتقصر بشكل وحشي، والهواء الكثيف الخانق بسبب الدخان ورائحة الأجساد واليودوفورم، ووجوه الرجال التي تشع بسبب الشراب وخفوت الضوء ـ أم إن عليّ تسميتهم بأنصاف الرجال ـ ولاحظت أوفتي أوفتي يمسك بطرف الضمادة وينظر نحو المشهد بعينيه المخمليتين اللامعتين في الضوء كعيني غزال، ومع هذا عُلمت بأن هناك شيطان بربري يقبع في صدره ويُكذّب كلّ رقة ونعومة تكاد تكون أُنثوية في وجهه وجسمه، ولاحظت كذلك هاريسون بوجهه الصبياني الذي كان بريئاً يوماً ما لكنه الشيطان بعينه الآن وهو يروي للقادمين الجدد بحماس وعاطفة عن الويلات التي لاقاها في هذه السفينة ويمطر اللعنات والشتائم على رأس وولف لارسن.

أما وولف لارسن فبقي على حاله، مستعبد الرجال ومعذبهم، وهو ذكرُ سيرس([36]) وهؤلاء هم خنازيره، حيوانات تعاني من بطشه وتتذلل أمامه لكنها تثور فقط في حالة السكر وفي السرّ، يا ترى، هل أنا أحد خنازيره؟ فكرت في ذلك، وماذا عن مود بروستر؟ لا. صككتُ أسناني غضباً وإصراراً حتى جفل الرجل الذي كنت أضمّده من ضغطة يدي ونظر إليّ أوفتي أوفتي بفضول، فشعرت بهبة قوة مفاجئة، ماذا عن حبي الجديد؟ أصبحت عملاقاً لا أهاب شيئاً وسأعمل بما تمليه عليّ إرادتي لا ما يريده وولف لارسن ولا سنواتي الخمس والثلاثون التي قضيتها بين الكتب،

سيكون كل شيء على ما يرام، سأجعله يكون على ما يرام، وهكذا، متأثراً بإحساس القوة، أدرت ظهري للجحيم المستعر وصعدت السلالم إلى سطح المركب حيث انجرف الضباب شبحياً خلال الليل وكان الهواء حلواً نقياً وهادئاً.

ثم ذهبت إلى المُدَفّى؛ لأضمد الصيادَين الجريحين، وكان الوضع مماثل للسلوقية باستثناء أنهم لم يشتموا وولف لارسن، شعرت براحة تامة حين صعدت مرّة أخرى إلى السطح وذهبت إلى مقصورة الطعام، كان العشاء جاهزاً وولف لارسن ومود بانتظاري.

بينما كان كلّ من في السفينة يغرقون بحالة سكر بأسرع ما يمكن، ظل لارسن صاحياً ولم يرتشف من الشراب ولا قطرة، لم يجرؤ على ذلك في ظل هذه الظروف؛ لأنه لم يكن معه سواي أنا ولويس يعتمد علينا، وحتى هذه اللحظة، كان لويس يدير الدفّة، أبحرنا عبر الضباب دون أنوار ولا استطلاع، وما وزّع لارسن الشراب بسخاء بين البحّارة والصيادين ـ وهو أمر فاجئني بادئ الأمر ـ إلا لأنه عَلِم نفسيتهم وبأن أفضل طريقة لتوطيد أواصر الودّ بعد المعركة الدموية التي حصلت بين الطرفين تتم عبر السكر والعربدة.

ويبدو أن فوزه على ديث لارسن كان له تأثير ملحوظ عليه، بعد أن استسلم الليلة الماضية إلى الكآبة وتوقعت أن يقوم بإحدى ثوراته المعهودة، إلا أنّه لا شيء حصل وهو الآن في مزاج رائع. ربما كان لنجاحه في أسر الكثير من القوارب والصيادين السبب في إبطال ردة فعله المعتادة. وعلى أية حال، زالت عنه كآبته ولم تظهر شياطينه، أو هكذا اعتقدت في حينها لمعرفتي الضئيلة به حتى بعد هذه المدة، ربما كان يأمل أن تنشب حربٌ أكثر ضراوة مما رأينا.

وكما قلت، كان في مزاج رائع عندما دخلت إلى المقصورة، لم يعانِ من نوبة صداع لأسابيع وكانت عيناه صافيتي الزرقة كالسماء وبشرته البرونزية صحية رائعة، ودم الحياة يتدفق في أوردته وشرايينه، وبينما كان ينتظرني، انخرط في محادثة مع مود بروستر، كان موضوع نقاشهما عن الإغراء، وحسب ما فهمت من كلامه، استنتجت أنّه يدّعي أن الإغراء لن يكون إغراءً إلا حين يُغوى الشخص ويستسلم لهذه الفتنة والغواية.

كان يقول: «كما أقول لكِ يا آنسة بروستر، يقوم الإنسان بأشياء انطلاقاً من رغبته فيها، ولدى الإنسان رغبات كثيرة، فقد يرغب في الهروب من الألم أو التلذذ بالاستمتاع. وكل ما يفعله في الحالتين إنما يصدر عن إرادته ورغبته».

قاطعته مود: «لكن لنفترض أنّه يرغب في عمل شيئين متعارضين، لا يسمح أي منهما بعمل الآخر؟».

فقال: «هذا ما كنت أودّ الوصول إليه».

«وبين هاتين الرغبتين، تتجلى روح الإنسان»، وتابَعت مود: «فإذا كانت روحاً خيرة، فسيرغب في فعل الخير والعكس صحيح حين تكون الروح سيئة، وهكذا فإن الروح هي التي تقرر».

«هذا كلام فارغ وهراء»، صاح بعصبية: «إنها الرغبة من تحدد، لنفترض جدلاً أن رجلاً أراد أن يثمل، لكنه لا يريد أن يشرب، ماذا يفعل في هذه الحالة؟ وكيف يفعلها؟ ما الإنسان إلا دمية متحركة، مخلوق من رغباته، ومن بين الرغبتين يطيع أقواها، وهذا كلّ شيء، ولا علاقة لروحهِ بالأمر، فكيف يرفض الشراب وهناك رغبةٌ ملحة لدية بأن يثمل؟ فإن سادت رغبته بأن يكون صاحياً، هذا يعني أنها الرغبة الأقوى، ولن يلعب الإغراء أي دور إلا إذا..»، وتوقف برهة ليدرك الفكرة الجديدة التي راودته: «إلا إذا كان الإغراء أن يبقى صاحياً».

وضحك ثم قال: «ما رأيك يا سيد فان وايدن؟».

«رأيي بأن كليكما تعملان فروقات غير ضرورية وصغيرة، إن روح الإنسان هي رغباته، وإذا صحّ التعبير، إن محصلة رغباته هي روحه، وعلى هذا الأساس يكون كلاكما مخطئاً، أنت تشدّد على أهمية الرغبة بصرف النظر عن الروح، وتُصرّ الآنسة بروستر على الروح بمعزلٍ عن الرغبة، وفي الحقيقة، إن الروح والرغبة هما الشيء ذاته». ثم تابعت:

«ومع هذا، فإنّ كلام الآنسة بروستر صحيح، إن الإغراء يظلّ إغراءً سواء رضخ له الإنسان أم تغلب عليه، فالنار ينفخ عليها بريحٍ حتى تشب وتقوى، والرغبة مثل النار، تؤججها رؤية الشيء المرغوب فيه، أو بالوصف المثير له حتى يتحقق اشتهاؤه، هنا يكمن الإغراء، إنها الريح التي تحفز الرغبة حتى تقفز إلى التمكن، هذا هو الإغراء، قد لا تؤجج هذه الرغبة بما فيه الكفاية لتسيطر، لكن طالما كانت هناك إثارة، وُجد الإغراء، وكما قلتِ، بمقدورها حينذاك أن توجّه الإنسان إلى الخير أو إلى الشرّ على حد سواء».

كنت فخوراً بنفسي حين جلسنا على الطاولة؛ لأنّ كلماتي كانت حاسمة ووضعت حداً للمناقشة.

لكن وولف لارسن كان ذرباً وميَّالا للحديث كما لم أعهده من قبل، كانت لديه طاقة مكبوتة يريد أن ينفّس عنها بأية طريقة، فانخرط فجأة في نقاش عن الحب، وكعادته اتخذ الجانب المادي البحت بينما كانت مود مثالية متطرفة، ومن جهتي، بعيداً عن تصحيح بعض المفاهيم بكلمة أو اقتراح هنا وهناك، لم أشارك في حديثهم.

كان كلاهما ذكياً وبارعاً في النقاش، حتى فقدتُ لبعض الوقت موضوع المحادثة التي دارت بينهم وانشغلتُ أتمعّن وجهها الذي كان متوهِّجا وحيوياً هذه الليلة، لعب ذكاء لارسن دوره بقوّة وكانت تستمتع بهذه المناظرة الكلامية تماماً كوولف لارسن. ولسبب ما، استغرقت في تفكير عميق، لم يكن سببه الحوار بكل تأكيد، وإنما خصلة شعر بنّية شاردة من شعر مود، فاقتبس لها كلمات من قصيدة ايسولت([37]) في تنتجيل التي تقول:

طوبى لي لتفردّي بين النساء

ولأن خطيئتي فاقت خطاياهن جميعاً

ولبلوغ إثمي حد الكمال

وكما قرأ كلمات عمر الخيام التشاؤمية، أجده يبحر بقراءة الانتصار والغبطة التي كانت بين أسطر سوينبرن، كانت قراءته للشعر رائعة، وتوقّف حين لمحنا لويس يمد رأسه من السلم ويهمس:

«هل لكم أن تخفضوا أصواتكم لو سمحتم، انقشع الضباب وهناك ضوء سفينة يمر قرب مقدمة سفينتنا في هذه اللحظة».

قفز لارسن من مكانه بسرعة وهرع إلى سطح السفينة وبحلول الوقت الذي تبعناه فيه كان يُغلق مزلاج المُدَفّى على صخب السكارى وفي طريقه لإغلاق كوة السلوقية، على الرغم من أن الضباب كان لا يزال موجوداً، إلا أنّه ارتفع عالياً حيث حجب الغيوم وزاد من حلكة السماء، تمكنتُ من رؤية ضوء أبيض وضوء أحمر ساطع أمامنا مباشرة وسمعت صوت محرّكات باخرة، كانت وبلا شك مقدونيا.

عاد وولف لارسن إلى مؤخرة السفينة، فوقفنا صامتين ننظر إلى الأضواء، وهي تعبر مقدمة سفينتنا بسرعة.

«من حسن حظّي أنّه لا يحمل كشافاً». قال وولف لارسن.

«ماذا لو صرخت عليه بأعلى صوتي؟». سألته هامساً.

«سينتهي كلّ شيء، لكن هل فكّرت فيما سيحدث على الفور؟».

وقبل أن تتاح لي الفرصة لأعبر عن أيّة رغبة في معرفة ما سيحدث، كانت يده قد امتدت لرقبتي وأمسكني بقبضته القوية وبحركة خفيفة من عضلاته ـ تلميحاً بسيطاً فقط ـ أراني كيف يمكن بحركة واحدة من قبضته أن يدق عنقي، ثم تركني بعد لحظات ونظرنا إلى أضواء مقدونيا.

«ماذا لو صرختُ أنا؟». سألته مود.

«تعجبينني لدرجة لا أستطيع معها أن أؤذيكِ». قال بلطف، لا بل كان في صوته حنان ورقّة جفلت عندما سمعته.

«لكن لا تفعلي ذلك؛ لأنني سأدق عنق السيد فان وايدن إن فعلتِ ذلك».

«آذنكِ بالصراخ إذن». قلتُ بتحدٍّ.

«أفترض أنّه من غير المحتمل أن تضحّي بحياة عميد الخطابات الأمريكي الثاني». أجابها بسخرية.

توقفنا عن الكلام، بالرغم من اعتيادنا على بعضنا حتى أصبح الصمت محرجاً، وبعد أن اختفى الضوء الأحمر والأبيض، عدنا إلى مقصورة الطعام؛ لإنهاء عشاءنا.

واستأنفوا اقتباسهم لأبيات الشعراء فألقت مود قصيدة لداوسن([38])، وترجمت أحاسيسها بروعة وألق، لكن لم تلفت انتباهي هي وإنما وولف لارسن، دُهشتُ

بنظرة الافتتان التي كان ينظر بها إلى مود، لم يكن على طبيعته أبداً، لاحظته يحرك شفتيه لا إرادياً لينطق دون صوت كلّ كلمة تقولها، ثم قاطعها عندما وصلت إلى الأسطر التالية:

بريق عينيها هو النور الذي أهتدي به حين تتوارى الشمس عني،

ورنّة صوتها آخر ما تسمعه أُذني

وقال بصدق: «إن في صوتك رنّة». ثمّ ومضت عيناه ببريقهما الذهبي.

كدت أصرخ من الفرحة حين لم يبدُ على مود التأثّر، أنهت المقطع الشعري الختامي ثم حولت الحديث ببطء إلى مواضيع أقل خطورة، وطوال هذا الوقت، كاد رأسي أن ينفجر، لأن عربدة الرجال السكارى كانت تصلني من الحاجز، والرجل الذي أخافه والمرأة التي أحبّها كانا يتحدثان دون توقف، ولم يُزل أحدهم الطعام والأطباق عن المائدة؛ لأن الرجل الذي حل محل ماكريدج كان يشارك رفاقه في مجونهم في السلوقية على ما يبدو.

إذا كان وولف لارسن قد وصل إلى ذروة معيشته فإنما فعلها الآن، كنت أهجر أفكاري من وقت لأخر لأتبعه، وأراقبه بدهشة وإعجاب بعقله الرائع مأخوذاً للحظات بشغفه؛ لأنه كان يلقي كلامه بشغف ثوري، ومن المحتمل أن يكون لوسيفر([39]) ميلتون حاضراً في النقاش، وما الفطنة والذكاء الذي حلل فيه تلك الشخصية وصورها إلا نتاج عبقرية مكبوتة، ذكرتني بتاين، مع أني أعرف أن الرجل لم يسمع بهذا المفكر الفذّ والخطير، كان وولف لارسن يقول:

«كانت قضيته خاسرة، ولم يخشَ صواعق الله وغضبه، قُذف في النار غير مهزوم؛ لأنه قاد ثلث ملائكة الرب معه وقام فوراً بإقناع الرجال بأن يثوروا ضد الإله، وكسب لنفسه وللجحيم الجزء الأكبر من أجيال البشرية المتعاقبة. لماذا طُرد من الجنة؟ ألأنّه أقل شجاعة من الله؟ أقل فخراً؟ أم أقلّ طموحاً؟ لا وألف لا. كان الله أعظم منه، كما قال من زاده الرعد عظمة، بيد أن لوسيفر كان روحاً حرّة، فهو حرٌّ قبل كلّ شيء والعبادة والخدمة تخنقانه؛ لذا فقد فضّل المعاناة في الحرية على كلّ سعادة في الخدمة والعبودية المريحة، لم يهتم بعبادة الله ولا أي شيء آخر، ولم يكن رئيساً، وإنما وقف وحده فرداً».

«الفوضوي الأول». ضحكت مود ونهضت تستعد للإنسحاب إلى مقصورتها.

«من الجيد أن تكون فوضوياً إذن». صاح وكان قد نهض هو الآخر ووقف قبالتها حيث كانت تقف عند باب غرفتها وتابع:

هنا على الأقل سنكون أحراراً، فالله القدير لم يجعل هذا المكان

ليحسده من يكون فيه وهو لن يطردنا منه

هنا سنحكم بأمان. وإن الحكم يستحق الطموح، رغم أنّه في الجحيم

وإنه لخير أن تحكم في الجحيم على أن تخدم في الجنة

كانت صرخة تحدٍ لروح استثنائية، لا تزال جدران المقصورة ترنّ بصوته وهو واقف يتمايل ووجهه البرونزي يتألق رافعاً رأسه إلى الأعلى، مسيطراً على الوضع، عيناه تلمعان بالسطوة والرجولة، تارة تكونان مسيطرتين، ورقيقتين تارة أخرى، وهو ينظر إلى مود الواقفة عند الباب، فعاد الرعب والفزع إلى عينيها حتى قالت بهمس «أنت لوسيفر».

ثم أغلقت الباب خلفها واختفت، وبقي في مكانه لدقيقة ثم استدار وعاد إلى نفسه وإليّ.

«سأستلم دفّة القيادة من لويس»، قال باقتضاب: «وسأناديك لاحقاً لتحلّ محلي عند منتصف الليل، من الأفضل أن تذهب لتنال قسطاً من الراحة».

ثم ارتدى قفّازاته ووضع قبعته على رأسه وارتقى السلم صعوداً إلى سطح السفينة، تبعت نصيحته وذهبت لأخلد إلى النوم، ولسبب أجهله، غريب وغامض، لم أخلع ملابسي وإنما استلقيت بكامل ملابسي، وأصغيت لفترة قصيرة إلى الصخب القادم من السلوقية، وفكّرت في الحب الذي طرق أبوابي ـ ولحسن الحظ كان نومي على الشبح طبيعياً وصحياً ـ وبعد لحظات بدأت الأغاني والصيحات على الشبح تخفت وعيناي أغمضتا وغرقت في نوم عميق كأنه سبات.

ولا أدري ما الهاجس الذي أيقظني من منامي، لكني وجدت نفسي خارج سريري، على قدمي، مستيقظاً بالكامل. استجابت روحي للتحذير كما لو أن بوقاً قد نُفخ، فتحت الباب وكان ضوء المقصورة خافتاً ورأيت مود، مود حبيبتي أنا، تكافح للتخلص من بين أحضان وولف لارسن، كان يعتصرها بيديه بينما كانت تحاول دون جدوى أن تدفعه عنها بقوّة واهنة وتضغط بوجهها على صدره لتحاول الهرب، وهذا كلّ ما رأيته في تلك اللحظة، ركضت نحوهما.

ضربتُه بقبضتي على وجهه فرفعه، كانت ضربة ضئيلة لكنه زمجر غاضباً مني كحيوان مفترس ودفعني بيده ليزيحني عن طريقه، وبالرغم من أنها كانت دفعة بسيطة بمعصمه، إلا أن فيها من القوة ما رماني بعيداً وكأنني قُذفتُ بمنجنيق، فضربت باب حجرة كانت لماكريدج في السابق وتهشمت الخشبات بسبب ارتطامي بها، جاهدتُ للنهوض من جديد علي قدمي، وجررت نفسي بصعوبة من حطام البابِ غير مدرك لأي جرح إلا غضبي المفرط، وأقرُّ بأني صرختُ بصوت عالٍ وأنا أخرج خنجري من غمده وأركض نحوهما للمرة الثانية.

لكن شيئاً ما حصل، كانا يترنّحان مبتعدَين عن بعضهم، اقتربت منه ورفعت سكيني لكنني أحجمت عن ضربه؛ لأني كنت في حيرة من غرابة الموقف، كانت مود تسند نفسها بيد مدتها على الحائط لكنه كان يترنح ويده اليسرى تضغط على جبينه وتغطي عينيه، ويتلمس طريقه بيده اليمنى كأنه مصاب بدوار وعندما لمست الحائط ارتاح جسده وعضلاته مباشرة كما لو أنّه وجد طريقه ومكانه في الفضاء الواسع، هذا فضلاً عن شيء يستند عليه.

ثم اضطربت من جديد، وعاد إليّ كل الحيف والإهانة التي تلقيتهما منه دفعة واحدة، وكل ما عانيته أنا والآخرون على يديه، وشناعة وجود هذا الرجل، فهجمتُ عليه دون شعور، بجنون وغرزتُ خنجري بكتفه، علمت حينها أنّه جرح سطحي؛ لأني شعرت بالحاجز الحديدي للوح كتفه فرفعت السكين مرّة أخرى لأضربه في مكان آخر وأقتله، لكن مود رأت ضربتي الأولى له فصاحت:

«أرجوك لا تفعل».

أسقطت ذراعي للحظة فقط، ثم رفعت الخنجر من جديد، وكان من المؤكد أن وولف لارسن سيموت لو لم تتدخل، لفّت ذراعيها حولي ولامس شعرها وجهي، تسارع نبضي دون إرادة أو رغبة مني، فازداد غضبي معه، نظرت إلى عيني بشجاعة ورجتني:

«من أجلي، أرجوك».

«سأقتله من أجلك!». صحت وأنا أحاول تحرير ذراعي دون إيذائها.

«إششش»، ووضعت أصابعها بخفة على شفتي، كان بإمكاني تقبيلها لو تجرّأت، حتى في حالة غضبي، كان ملمس أصابعها عذب وشديد الرقة، ثم جرّدتني من سلاحي بكلماتها وهي تتوسل: «أرجوك، أرجوك». واكتشفت أن كلماتها هذه ستجرّدني من سلاحي دوماً.

تراجعتُ وانفصلت عنها ووضعت خنجري في غمده، ثم نظرت إلى وولف لارسن، كان لا يزال يضغط بيده اليسرى على صدغه ويغطّي عينيه، رأسه منحنٍ وجسمُه مرتخٍ ومتعب، وكتفاه الضخمان مقوّسان إلى الامام.

«فان وايدن»، ناداني بصوت أجش يشوبه الخوف قليلاً.

نظرت إلى مود، لم تتكلم لكنها أومأت برأسها.

«أنا هنا»، أجبته ووقفت إلى جانبه: «ما الأمر؟».

«ساعدني لأجلس»، بنفس الصوت الأجشّ والنبرة والخائفة، ثم قال وهو يترك يدي التي تسنده ويرتمي على الكرسي: «أنا رجل مريض، مريض جداً يا همپ».

ورمى برأسه إلى الأمام على الطاولة وغطّاه بيديه، ومن حين لآخر كان يهتزّ إلى الأمام والخلف من الألم، وعندما رفع رأسه مرّة، رأيتُ جبينه يتفصد عرقاً والعرق يغطي حتى جذور شعره.

«أنا رجل مريض، مريض جداً». كرّرها مرّة اخرى.

«ما الأمر؟»، سألته ووضعت يدي على كتفه: «كيف يمكن أن أساعدك؟».

لكنّه أبعد يدي عنه بحركة غاضبة، وهكذا بقيت بصمت إلى جانبه لفترة طويلة، كانت مود تنظر إليه بوجه مرعوب وخائف، لا يمكننا تخيل ما حصل له.

ثم قال أخيراً: «همپ، يجب أن اضطجع على فراشي، ساعدني لأذهب، سأكون على ما يرام بعد قليل، إنها إحدى نوبات الصداع اللعينة تلك على ما أعتقد، أنا أخشاها. لدي شعور... أوه لا. لا أعرف ما أتحدث عنه، ساعدني في الذهاب إلى فراشي».

وعندما أرقدتُه في فراشه دفن رأسه مجدَّدا بين يديه وغطى عينيه، وبينما استدرت لأذهب سمعته يتمتم «أنا رجل مريض، مريضٌ جداً».

عندما خرجت، نظرت مود إليّ مستفهمة، فهززت رأسي وقلت:

«لقد حدث شيء له، لا أعرف ما هو، أظن أنّه عاجز وخائف لأول مرّة في حياته، لا بُد وأن هناك خطب ما حصل معه قبل أن أطعنه بالخنجر؛ لأن الجرح سطحي ولا يمكن أن يؤذيه هكذا، ربما رأيتِ ما حصل».

هزّت رأسها وقالت: «لا عِلم لي، الأمر غامضٌ بالنسبة لي أنا كذلك، أطلق سراحي فجأة وترنّح مبتعداً، لكن ماذا علينا أن نفعل؟ وماذا عليّ أنا أن أفعل؟».

«انتظريني هنا لو سمحتِ حتى أعود». أجبتها.

صعدتُ إلى سطح السفينة، كان لويس عند دفّة القيادة فقلت له:

«يمكنك الذهاب». وأخذت الدفّة منه.

سرعان ما نفّذ أوامري، وجدت نفسي وحيداً على سطح السفينة، وبهدوء قدر الإمكان، رفعت الأشرعة الثانوية بحبال الكِظامة وأنزلتُ الشراع المثلث الصغير والشراع المُشَدَّد ولففتهما. وبسطت الشراع الرئيسي، ثم عدت إلى مود في الأسفل، وضعت إصبعي على فمي وأمرتها بالهدوء ودخلنا غرفة وولف لارسن، كان في نفس الوضعية التي تركته فيها وكان رأسه يهتز ـ يكاد يلتوي ـ من جانب لآخر.

«هل يمكنني أن أساعدك؟».

لم يجب في البداية، لكن بعد أن كرّرت عليه السؤال قال: «لا لا. أنا بخير، اتركني بحالي حتى الصباح».

لاحظته يستأنف حركة رأسه عندما شرعت بالذهاب, كانت مود تنتظرني بصبر، لاحظت بفرحة اتّزانها الملكيّ، وإنّ عينيها الخلّابتين هادئتان، فتأكدت بأنهما روحها.

«هل تأمنين نفسك معي في رحلة تبلغ ستمائة ميل أو نحو ذلك؟».

«أنت تعني...؟». سألتني وعلمتُ أنها خمّنت ما قصدته.

«نعم، أعني ذلك بالضبط، لم يبقَ أمامنا شيءٌ سوى قارب في البحر المفتوح».

«أنتَ تقصد لم يبقَ أمامي، فأنت وبكل تأكيد بأمان هنا كما كنت سابقاً».

«لا. لم يبق أمامنا شيء سوى قارب في البحر المفتوح»، كرّرت بشدة: «هلّا ارتديتِ ملابس دافئة قدر الإمكان، واحزمي ما تريدين أخذه معكِ».

«أسرعي في ذلك». أضفت بينما استدارت لتدخل غرفتها.

كان مخزن المؤن يقع تحت مقصورتي تماماً، فتحت الباب المخفي ونزلت للأسفل بصحبة شمعة، اخترت الأطعمة المعلبة، وعندما كنت جاهزاً، تلقت يدان ـ مستعدّتان ـ من الأعلى ما مرّرته لهما.

عملنا بصمت، ولأن نرمي أنفسنا بقارب صغير في بحر قاسٍ وعاصف ليس بالمغامرة اللطيفة؛ أخذت ما يلزمني من بطانيات وقفازات ومعاطف مشمعة وقبعات وما إلى ذلك من متجر السفينة الصغير، كان من الضروري أن نحمي أنفسنا من البرد والرطوبة.

نقلنا ما نهبناه بحماس على سطح السفينة، وأودعناه وسط السفينة بسرعة محمومة، حتى اضطرت مود إلى الجلوس على درجات في كسرة مؤخرة السفينة بعد أن خارت قواها، لكن ذلك لم يساعدها على استعادة نشاطها فتمددت على أرضية السطح القاسية ممدودة الذراعين فاسترخى جسمها بالكامل، تذكّرت حينها إحدى خُدع أختي، وعلمت أنها ستتمالك نفسها قريباً، وأدركت ضرورة حصولنا على أسلحة فذهبت إلى مهجع وولف لارسن لنهب بندقية ومسدس، تحدثت إليه لكنه لم يجب على الرغم من أن رأسه كان لا يزال يهتز من جانب إلى آخر ولم يكن نائماً.

«الوداع يا لوسيفر». همست لنفسي وأنا أغلق الباب بهدوء.

أما الشيء الآخر الذي يتعيّن علي إحضاره فهو مخزن الذخيرة، وهي مهمة سهلة بالرغم من أنّ علي الدخول إلى الممر المؤدّي لدرج السلوقية، يخزن الصيادون ذخيرتهم التي يحملونها في قواربهم هناك، وها قد حصلت على صندوقين على بُعد أقدام من هرجهم الصاخب.

وكان عليّ أن أُنزل القارب في الخطوة التالية، لكنها لم تكن مهمة يسيرة يقوم بها رجل واحد، بعد أن ربطت القارب بالجلود، رفعت مقدمته أولاً، ثم رفعت مؤخرته حتى أصبح خلف درابزين السفينة، أنزلته ببطء لعدة أقدام حتى استقر فوق الماء قرب حافة السفينة، تأكدت من احتوائه على المعدات اللازمة من مجاديف ومساند مجاديف وشراع، وأخذت الماء بعين الاعتبار؛ فسرقت كلّ دلاء الماء الصغيرة من كلّ القوارب التسعة، هذا يعني أن لدينا الكثير من الماء، وأخذت صابورة لموازنة الثقل كذلك، على الرغم من احتماليّة أن يكون هناك وزن زائد في المركب، ناهيك عن المؤونة التي أخذتها.

وبينما كانت مود تمرّر لي المؤن لأرتّبها في القارب، جاء بحّار على السطح من السلوقية ووقف في الاتّجاه المعاكس لنا ثم مشى الهوينى نحو وسط السفينة، وقف مرّة أخرى ووجهه للريح وظهره لنا، يمكنني سماع نبضات قلبي وأنا مختبئ في القارب، تمدّدت مود على سطح السفينة بلا حراك، واختفت في ظلال جانب السفينة، لكن الرجل لم يلتفت بعد أن مطّ يديه فوق رأسه وتثائب بصوت مسموع، عاد من جديد إلى السلوقية واختفى.

احتجنا إلى بضع دقائق لإنهاء التحميل، بعدها أنزلت القارب إلى الماء وساعدت مود لتعبر الدرابزين، شعرت بجسمها القريب مني، تمالكت نفسي بصعوبة من أن أصرخ: «أحبك. أنا أحبك». همفري فان وايدن وقع في الحب أخيراً، تشابكت أصابعنا عندما أنزلتها إلى القارب، أمسكت بالحافة بيد ودعمت ثقل وزنها باليد الأخرى. كنت فخوراً بما أنجزت، فهذه قوة لم أمتلكها قبل عدة أشهر، عندما ودّعت تشارلي فورسيث وبدأت برحلتي المشؤومة على متن المارتينز.

وعندما ارتفع القارب بفعل الماء ولمست قدمها القاع، أفلتت يدها وحللت الحِبال من رباطها وحررت القارب ثم قفزت بعدها إليه، لم أجدف في حياتي وعانيتُ كثيراً حتى تمكنت من إبعاد القارب عن الشبح، ثم بدأت أثبّت الشراع، رأيت مجدّفي القوارب والصيادين يثبّتون أشرعتهم من قبل لكن هذه تجربتي الأولى وما استغرق منهم دقيقتين أخذ مني عشرين دقيقة، لكني نجحت في النهاية من ربطه وتثبيته، وبمساعدة الريح والمجاديف في يدي انطلقنا في عرض البحر.

«هناك تقع اليابان، أمامنا مباشرة».

«همفري فان وايدن، أنت رجل شجاع».

«لا. أنتِ امرأة شجاعة».

استدرنا معاً متأثرَين بدافع مشترك لننظر مرّة أخيرة إلى الشبح، ارتفعت مؤخرتها وانخفضت في البحر وقماش أشرعتها يلوح بحزن في الليل ودفة قيادتها المربوطة بجَلَد تصّر أثناء الحركة، وما هي إلا لحظات حتى اختفت الشبح عن أنظارنا وأسماعنا، وبقينا وحدنا في البحر الغامض.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل السابع والعشرون

انبلج الصباح بارداً وكئيباً، أبحر القارب باتجاه الريح قريباً من النسمات المنعشة، أشارت البوصلة إلى أننا نتجه نحو اليابان، والرغم من أن قفازي كان متيناً، فقد كانت أصابعي باردة، وشعرت بألم من مسك المجاديف، وكانت قدمي تؤلمني من لدغة الصقيع، حتى أملتُ بشدة أن تشرق الشمس.

كانت مود في قاع القارب ممدّدة أمامي دافئة ـ على الأقل ـ لأني دثرتها بالبطانيات السميكة، وسحبت الجزء العلوي ليغطي وجهها ويحميها من برد الليل؛ لذا لم أرَ سوى شكل غير واضح لها، وشعرها البني تسلل غطاؤه ورصعته رطوبة الجو بجواهر.

أطلت النظر إليها، أتمعن الجزء المرئي منها كما ينظر الرجل إلى أثمن شيء في العالم، ثم خرجَت من تحت دثارها وابتسمت لي، يثقل النوم عينيها وقالت:

«صباح الخير سيد فان وايدن، هل لمحت يابسة حتى الآن؟».

«لا. لكننا نقترب منها بمعدل ستة أميال في الساعة».

التوى وجهها وخاب أملها.

«وهذا يعادل مائة وأربعة وأربعين ميلاً في أربع وعشرين ساعة». أضفتُ لأطمئنها.

سطع وجهها وقالت: «وإلى أي مدى يجب أن نذهب؟».

أشرت إلى الغرب وقلت: «تقع سيبيريا هناك، لكن اليابان تقع على بعد ستمائة ميل إلى الجنوب الغربي، إذا استمرت الريح على هذا النحو، فسنصل إلى هناك خلال خمسة أيام».

«وماذا لو حصلت عاصفة؟ لن يصمد القارب صحيح؟».

كانت لديها طريقتها بأن تنظر إلى عينيك وتطالب بالحقيقة، ولهذا نظرت إليّ وهي تسأل فماطلتُ:

«ستكون حينها عاصفة قوية».

«وماذا يحصل عندما تهبّ عاصفة قوية؟».

أومأت برأسي وقلت: «وقد تلتقطنا إحدى سفن الصيد في أية لحظة، فهي منتشرة بكثرة في هذه البقعة من المحيط».

«يا إلهي، أنت متجمّد من البرد!»، صرخت: «أنظر، أنت ترتجف ولا تتكر ذلك، إنَّك كذلك، بينما كنت أرقد دافئة كالخبز المحمّص».

«لا أرى أن جلوسكِ في البرد أنتِ أيضاً من شأنه أن يُساعد». وضحكتُ.

«سيساعد، عندما أتعلم كيف أجدف القارب وأقوده وسأفعل بكل تأكيد».

جلست وبدأت تعد مرحاضها البسيط، ثم حركت رأسها فتساقط شعرها كغمامة بنّية وغطى وجهها وكتفيها، آه يا عزيزي الشعر البني، كم وددت تقبيلها، وتمرير أصابعي بين خصلات شعرها ودفن وجهي فيه، حدّقت فيها بافتتان حتى تحرك القارب جهة الريح وبدأ الشراع يصفق محذراً إياي لتماهلي في واجباتي، لطالما كنت رومانسياً ومثالياً على الرغم من طبيعتي التحليلية، ومع ذلك، فشلتُ حتى الآن في استيعاب الخصائص الفيزيائية للحب، حبّ الرجل للمرأة، تمسكتُ دائماً بفكرة أن الحب شيء متعلق بالروح، وبأنه رباط روحي يجمع روحيهما معاً، أما روابط الجسد فتلعب دوراً بسيطاً في عالم الحب، لكنني بدأت أتعلم هذا الدرس اللطيف بنفسي، إن الروح تنقل نفسها وتعبر عنها من خلال الجسد، إن مظهر وشعور وملمس شعر العاشق كنفس وصوت وجوهر الروح، كالضوء الذي يشرق من العينين والأفكار التي تنساب من الشفاه. وبعد كلّ شيء، إن الروح النقية غير معروفة، ما هي إلا شيء نشعر به ونقدسّه ولا يمكنه التعبير عن نفسه بنفسه، لقد كان يهوه مجسماً؛ لأنه لم يستطع أن يقدم نفسه لليهود إلا من حيث فهمهم، لذلك تخيلوه كما في تصورهم، على شكل سحابة أو عمود نار، شيء مادي ملموس يمكن لعقل الإسرائيليين فهمه.

وهكذا نظرت إلى شعر مود بلونه البني الفاتح، وأحببته، تعلمت الكثير من الحب، أكثر من كلّ الشعراء والمغنين الذين علموني عبر كلّ أغانيهم وأشعارهم، أعادت شعرها بحركة بارعة مفاجئة، وظهر وجهها مبتسماً.

«لماذا لا تترك النساء شعرهن مسدولاً دائماً؟ إنّه أجمل بكثير هكذا». سألتها.

«فقط لو أنّه لا يتشابك بشكل مخيف»، وضحكت: «انظر، فقدتُ أحد دبابيس شعري الثمينة!».

أهملتُ القارب وتركت الرياح تعبث بالشراع مراراً وتكراراً، وكان من دواعي سروري أن أراقب تحرّكاتها وهي تبحث بين البطانيات عن دبّوس شعرها، تفاجأت وفرحت بأنها كانت امرأة بمعنى الكلمة، وعرض سماتها وسلوكياتها الأنثوية شغفني حباً وفرحاً؛ لأني كنتُ أضعها في ميزان أعلى بكثير من بني البشر ومني؛ كنت أعدّها مخلوقاً سماوياً لا يُلمس؛ لذا رحبت بسرور بالسمات الصغيرة التي تفعلها المرأة وحدها كإمالة الرأس إلى الوراء لتعيد سحابة الشعر عن وجهها وبحثها عن الدبوس، كانت امرأة ـ نوعي المفضل من النساء ـ ونحن من نفس الكوكب. لذا فإن العلاقة الحميمية اللطيفة بين الرجل والمرأة ممكنة معها، كذلك مشاعر الخشوع والرهبة التي علمت بأنني يجب أن أحملها تجاهها دائماً.

وجدَت الدبّوس وأطلقت صرخة فرح رائعة، ثم عاد انتباهي بالكامل إلى تجديفي وتوجيهي للمركب، بدأت بالعمل أجدف وأحرك القارب حتى سار مع الريح دون مساعدتي، كانت الريح متقلبة، فتارة تهبّ بعنف على القارب وتارة تتركه يتحرك بحرية لكنه دائماً ما كان يستعيد نسقه ويبحر بشكل مُرضٍ تماماً.

قلت لها: «والآن يجب أن نتناول الفطور، حريٌّ بكِ ارتداء ملابس تدفئك أكثر».

فأخرجتُ قميصاً ثقيلاً مصنوع من بطانية من الصندوق، علمت بأن هذه النوعية ذات النسجة السميكة والمتقاربة تقاوم المطر ولا تنقع حتى بعد ساعات من البلل، وعندما ارتدتها بدّلت قبعة الأولاد التي ارتدتها بقبعة البحارة، كبيرة بما يكفي لتغطي شعرها، وأنزلت أطرافها لتغطّي أذنيها ورقبتها، كانت النتيجة رائعة؛ لأن لديها وجهاً ليس له إلا أن يكون جميلاً في جميع الظروف، لا شيء يمكن أن يغير من شكله البيضوي الرائع، وخطوطه الكلاسيكية المتقنة، وحاجبيه شديدي الدقة، وعينيه البنّيتين الكبيرتين، ورؤيته الواضحة وهدوءه الرائع.

وفجأة ضربتنا نفخة ريح أقوى من المعتاد بينما كان القارب يصعد قمة الموجة، وقع منها فجأة وغاصت مقدمته في الماء ثم ارتفع فمُلئ القارب بدلو من الماء أو أكثر، كنت على وشك فتح علبة طعام، قفزت من مكاني إلى الشراع وفتحته بسرعة فرفرف وتحرك وانطلق القارب من جديد بعد أن احتاج لعدة دقائق لينتظم في مساره من جديد عندها عدت لإعداد الفطور.

«أرى أنها تقوم بعملٍ رائع رغم جهلي بالأمور البحرية». قالت وهي تشير برأسها موافقة لما اخترعته من طريقة لقيادة القارب.

«لكنها ستنفعنا فقط حين نبحر مع الريح»، شرحتُ لها: «وعندما نبحر بحرّية أكبر، وحينما تكون الريح خلفنا مباشرة، أو عند الربع، سيتعين علي قيادة القارب بنفسي».

«عليّ أن اعترف أني لا أفهم تقنياتك لكنني فهمت استنتاجك، ولا يعجبني هذا، لا يمكنك قيادة القارب ليل نهار وإلى الأبد، لذا، أتوقع منك أن تعطيني أول درس بعد الإفطار، ثم تنام لتنال قسطاً من الراحة، سنقوم بمناوبات كما يفعلون على متن السفن».

قلت محتجاً: «لست أدري كيف سأعلّمك؛ لأنني أتعلم الأمر الآن، لم تُفكري ملياً حين أمّنت نفسك معي، وأنا لا أملك أيّة خبرة بالقوارب الصغيرة، فهذه هي المرة الأولى التي أكون على متن أحدها».

«إذن سنتعلمه معاً يا سيدي، وبما أنك بدأت التعلم قبلي، يجب أن تعلمني ما تعرفه، والآن لنتناول فطورنا، يا إلهي هذا الجو الجميل يفتح شهيتي على تناول الطعام!».

«لا قهوة لدينا». قلت بأسف وأنا أمرر لها قطعة البسكويت المدهونة بالزبدة وقطعة من اللسان المعلب. «ولن يكون هناك شاي ولا حساء ولا أي شيء ساخن حتى نصل إلى اليابسة بطريقة ما».

وبعد أن انتهينا من فطورنا المتواضع المصحوب بكوب ماء بارد، أخذت مود أول درس لها في قيادة القارب، وأثناء تعليمي لها تعلمت الكثير أنا أيضاً، على الرغم من أني كنت أطبق المعرفة التي اكتسبتها مسبقاً من الإبحار على متن الشبح ومراقبة قادة القوارب وهم يبحرون بقواربهم الصغيرة، كانت مود تلميذة فائقة الذكاء،

سرعان ما تعلمت كيف تحافظ على مسار القارب وأن توجهه نحو الريح لتدفعه وأن تفتح الأشرعة في حالة الطوارئ.

ناولتني المجداف بعد أن سئمت من المهمة على ما يبدو، كنت قد طويت البطانيات، لكنها شرعت الآن في نشرها أسفل القارب، وعندما رُتِّبَ كلّ شيء بشكل مريح، قالت:

«والآن يا سيدي، اذهب إلى السرير، وسوف تنام حتى الغداء... حتى وقت العشاء». صحَّحت كلمتها متذكرة الترتيب على الشبح.

ماذا يمكنني أن أفعل؟ بعد أن أصرّت علي بكلماتها: «من فضلك، من فضلك». سلّمتها المجداف وزحفت إلى الفراش ـ الذي رتّبته بيديها وكان له من هدوئها وسيطرتها نصيب ـ بفرح وسعادة وانتبهت لبساطة واحتواء مظهرها، لذلك الوجه البيضوي الجميل والعينين البنيتين المؤطرتين بقبعة الصياد، ترتجّان بحركة القارب والسماء كئيبة ملبدة بالغيوم والبحر رمادي، ثم انزلقت في نوم عميق.

نظرتُ إلى ساعتي كانت تشير إلى السابعة، غير معقول! نمت سبع ساعات، هذا يعني أنها جدفت سبع ساعات! كان علي أن أمسّد أصابعها المتصلبة وأفكّها فكاً من المجداف، يبدو أنها أنهكت قوتها القليلة بالكامل، إذ لم تكن قادرة على التحرك من مكانها، تركتُ الشراع وساعدتها في الاستلقاء داخل عش البطانيات، وفركت يديها وذراعيها لأعطيهما بعض الدفء.

«أنا متعبةٌ للغاية». قالت وهي تسحب نفساً سريعاً وتتنهّد، رمت برأسها متعبة، ثم رفعته في الحال وقالت: «لا توبّخني. إيّاك أن تفعل ذلك». صاحت بتحدٍّ ساخر.

«أتمنّى أن لا يبدو على وجهي الغضب»، أجبتها بجدية: «؛لأني أؤكد لكِ أنني لستُ غاضباً».

«لا. بل يبدو كأنك تود تأنيبي».

«هذا يعني أن وجهي صريح، يعكس ما أشعر به الآن، لم تُنصفي نفسك ولم تُنصفيني كذلك، كيف لي أن أثق بكِ مرّة أخرى؟».

بدا على وجهها الندم: «سأكون مطيعة»، قالت كطفل مشاغب: «أعدك.».

«أن تطيعيني كما يطيع البحار قبطانه؟». قاطعتها.

«أجل. أعلم أنّه كان غباءً منّي».

«عليكِ أن تعديني بشيء آخر».

«عن طيب خاطر».

«أن لا تقولي: من فضلك أو أرجوك؛ لأنك تعلمين أنكِ حينها ستتجاوزين صلاحيّاتي».

ضحكت باستمتاع؛ فقد لاحظت هي الأخرى قوة تأثير تكرار كلمة «من فضلك».

«إنها كلمة طيبة».

«لكن لا ينبغي أن أُكثر من استخدامها».

وضحكت بوهن، ثم رمت برأسها مرّة اخرى على البطانيات، تركتُ المجداف مدة كافية لأدثّرها بالأغطية وأضيف طيّة خفيفة على وجهها، للأسف كانت ضعيفة، نظرتُ بقلق إلى الجنوب الغربي ومشقة الستمائة ميل التي تنتظرنا لقطعها هذا إن لم يحصل ما هو أسوأ، قد تهبّ عاصفة في هذا البحر في أية لحظة وتدمرنا، ومع هذا لم أشعر بخوف، لا أثق بالمستقبل وأشك فيه للغاية ومع ذلك لم أشعر بذلك الخوف الضمني، يجب أن يجري كلّ شيء على ما يرام، أجل يجب أن يجري كلّ شيء على ما يرام، كررت هذا مراراً وتكراراً.

هبّت ريح منعشة في فترة الظهيرة فزادت من حدة الأمواج وصعوبة الإبحار، كادت الأمواج أن تقلب القارب وتحطمه لولا أن مخزون المؤن وبراميل الماء التسعة التي جلبتها معي مكّنته من مواجهة البحر والريح وصمدت أنا قدر الإمكان، ثم أزلت عصا الشراع وأنزلت قمته، فأبحرنا بما يسميه البحارة «رجل الضأن»([40]).

وفي وقت متأخر بعد الظهيرة لمحت دخاناً في الجهة التي تهبّ منها الريح، فخمنت أنها إما طراد روسي أو على الأرجح مقدونيا وما زالت تبحث عن الشبح، لم تشرق الشمس طول النهار وكان البرد قارصاً، وعندما أرخى الليل سدوله، زادت حلكة السماء وكانت الرياح منعشة، وعندما أكلنا أنا ومود عشاءنا لم نُزل قفازاتنا. أكلتُ فتات الخبز وأنا أجدف. وبعد ساعات كانت الريح والبحر أقوى بكثير من أن يحتملها القارب، تردّدت في الإبحار وقررت أن ألقي المرساة، وقد تعلمت عن هذا الجهاز من حديث الصيادين وكان شيئاً بسيطاً لصنعه، وبعد لف الشراع وأحكام ربطه حول الصَّاري وعصا الشراع وبعد ربط المجدافين كذلك، رميت المرساة في البحر، كان هناك حبل مربوط بها وبمقدمة السفينة طاف قليلاً في الماء غير معرض للريح، فتحرك بسرعة أقل من القارب، في هذه الحالة سيمسك القارب من مقدمته ضد عنف الريح والبحر، وهو الموقف الأكثر أمناً لنتجنب الغرق حين ترتفع قمم موجات البحر.

«وماذا الآن؟». قالت مود بمرح عندما انتهيت من المهمة وارتديت قفازاتي من جديد.

أجبتها: «والآن لم نعد نسافر نحو اليابان، سيكون اتّجاهنا إلى الجنوب الشرقي أو الجنوب الشرقي الجنوبي، بمعدل ميلين على الأقل في الساعة».

«هذا يعني أنّه على بُعد أربعة وعشرين ميلاً فقط، إذا استمرت الريح مرتفعة طوال الليل».

«نعم، وفقط مائة وأربعون ميلاً إذا استمرّت لمدة ثلاثة أيام بلياليها».

«لكنها لن تستمر»، قالت بثقة: «ستهبّ ريح معتدلة عمّا قريب».

«البحر أكبر خائن».

«لكن الريح... كما سمعت إنك تصبح فصيحاً عند هبوب الريح الشمالية».

«أتمنى لو أنيّ أحضرت معي جهاز وولف لارسن الكرونوميتر(41) وآلة السُدس(42)»، قلتُ باكتئاب: «فالإبحار باتّجاه والانجراف باتّجاه آخر، ناهيكِ عن جرف التيار في اتّجاه ثالث، كلّ هذا يحول دون حساب دقيق لموقع القارب، لن يمضي وقت طويل حتى نجهل مكاننا في البحر على بعد خمسمائة ميل من اليابسة».

طلبت عفوها ووعدتها أن لا أشعر بالإحباط بعد الآن، وبعد إلحاح من طرفها، قبلت أن تأخذ مني المناوبة حتى منتصف الليل، كانت الساعة التاسعة، لكنني لحفتها بالأغطية ووضعت معطفاً مشمعاً قربها واستلقيت، نمت كما تأخذ القطط قيلولتها بنصف عين مفتوحة، كان القارب يقفز ويرتطم بقمم الأمواج وأكاد أسمع صوت جريان البحر وهو يرش الماء باستمرار داخل القارب، ومع هذا، لم تكن ليلة سيئة، لا شيء أسوأ من الليالي التي قضيتها على متن الشبح ولا حتى الليالي القادمة التي سنقضيها على متن قشرة البيض هذه، صُنع القارب من ألواح خشب بسمك ثلاثة أرباع البوصة وهذا يعني أن ما يفصلنا عن قاع البحر أقل من بوصة.

ومع ذلك، كنت أثبت القارب وأعيد تثبيته ولم أكن خائفاً ولا حتى من الموت الذي جعلني وولف لارسن وتوماس ماكريدج خائفاً منه، يبدو أن مجيء مود إلى حياتي قد غيرني، فبعد كلّ شيء، فكرت بأنه من الأفضل والأرقّ أن تحبّ شخصاً على أن تكون محبوباً، أن يجعل الحياة جديرة بالاهتمام لدرجة أن المرء لا يبغض الموت من أجل من يحبّه. نسيت حياتي الخاصة في حب حياة أخرى ومع ذلك ــ هنا تكمن المفارقة ــ لم أرغب في العيش كما أرغب به الآن عندما أضع أقل قيمة على حياتي، بعد أن أقنعني فكري بأني لا أملك أسباباً كثيرة تدفعني للعيش، وتابعت التفكير حتى غلبني النعاس، وأنا أحاول النظر عبر الظلام، حيث أعلم أنّ مود متقرفصة تحت الشراع تراقب البحر المزبّد وجاهز لأن تناديني في أية لحظة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثامن والعشرون

لا حاجة للخوض في الكثير من التفاصيل عن معاناتنا في القارب الصغير خلال الفترة التي قادنا فيها التيار وجرفنا هنا وهناك عرض البحر بلا حول ولا قوة. هبّت الرياح العاتية من الشمال الغربي لأربع وعشرين ساعة، وعندما هدأت، عادت لتهبّ ليلاً من الجنوب الغربي، فتجمد وجهانا وصرّت أسناننا، رفعتُ المرساة ونشرت الشراع وأبحرت مع الريح التي دفعتنا نحو جنوب ـ الجنوب الشرقي، وكان خياراً متعادلاً، فإما أن نسير فيه أو أن نسلك غرب ـ الشمال الغربي ـ وهو ما سمحت به الريح، لكن أجواء الجنوب الدافئة أشعلت رغبتي في الحصول على بحر أكثر دفئاً وأثّرت على قراري.

وفي غضون ثلاث ساعات حلّ منتصف الليل ـ أتذكر هذا جيداً ـ كانت السماء حالكة السواد أكثر من أيّ وقتٍ مضى، والريح لا تزال تهبّ من الجنوب الغربي بعنف، فاضطررت مرّة أخرى إلى إنزال مرساتي.

انقشع الظلام وحلّ يومٌ جديد، تفرُّجت على المحيط الأبيض الشاسع الممتد أمامي، كان قاربنا يسير إلى ما لا نهاية، كنا في خطر وشيك بأن نغرق بإحدى قمم الموجات المزبدة تلك، كما أن رشقات الماء والرذاذ ملأت القارب حتى أني تابعت تفريغ الماء منه دون توقف، كلّ شيء كان مبللاً باستثناء مود؛ لأنها كانت ترتدي المعطف المشمّع وجزمة من المطّاط، لم يتأثر فيها شيء سوى وجهها ويديها وخصلة ضالّة من شعرها، تناوبت معي في مهمة تفريغ الماء من القارب وكانت شجاعة في رمي كلّ الماء ومواجهة العاصفة، كلّ شيء نسبي بالنسبة لنا، بالرغم من أنها لم تكن عاصفة بالمعنى الحرفي، وإنما ريحٌ عاتية، إلا أنها كانت كذلك بالنسبة لنا، حاربنا للبقاء على قيد الحياة على متن قاربنا الضعيف.

جاهدنا الرياح التي تضرب وجوهنا والبحار البيض الصاخبة طوال اليوم، على الرغم من شعورنا بالبرد والكآبة. حلّ الليل، ولم ينم أيٌّ منا. انقشع الظلام وحلّ الصباح، ولا تزال الريح تجلد وجوهنا والبحر الأبيض يثور بصخب حولنا، وفي الليلة الثانية، نامت مود بسبب الإرهاق، فغطّيتها بالمعطف المشمع وبقماش مشمّع أيضاً، كانت جافة نسبياً، لكنها مخدّرة بالبرد، خفت أن تموت في الليل، لكن النهار طلع، بارداً وكئيباً، بنفس السماء الملبدة بالغيوم والرياح التي تهبّ بعنف والبحر الغاضب ذاته.

لم يغمض لي جفن منذ ثمان وأربعين ساعة، كنت مبتلاً وأشعر ببرد حدّ النخاع، حتى أحسست بأني ميت لا حيّ، تصلّب جسمي من الإجهاد والبرودة، كان الألم الذي تردّ به عضلاتي على كلّ مجهود أبذله لا يُحتمل؛ لأني استخدمتها بصورة مستمرة، وطوال هذه المدة كانت الأمواج تتقاذفنا وتقودنا إلى الشمال الشرقي، بعيداً عن اليابان، نحو بحر البيرنغ القاتم.

ومع هذا، مازلنا على قيد الحياة والقارب صامد، استمرت الريح تضربنا بلا هوادة حتى مساء اليوم الثالث، زادت سرعة الريح بمقدار ضئيل، فغطست مقدمة القارب بقمّة إحدى الموجات وامتلأ ربع القارب بالماء، كنت أفرّغ الماء كالمجنون، زادت احتمالية تكرار هذا الأمر لأن الماء الذي بداخله جرده من سهولة طوفانه وأن حدوثه مرّة أخرى يعني هلاكنا، عندما أفرغت الماء تماماً كنت مجبراً على أخذ القماش المشمع من مود وغطيت به قوس مقدمة القارب، وحسناً ما فعلت؛ لأن المشمع غطى ثلث القارب من الخلف وفي الساعات القليلة القادمة، غطست مقدمة القارب ثلاث مرات تحت البحر فصد المشمع جزءاً من الماء.

كان منظر مود مثيراً للشفقة وهي متقرفصة في قعر القارب شفتاها الزرقاوان ووجهها الشاحب يظهر ما تقاسيه من ألم، لكن عينيها كانتا شجاعتين وواثقتين مثل كلامها حين تتحدث.

يبدو أن أسوأ ما في هذه العاصفة قد مرّ أثناء الليل، بيد أني لاحظت ذلك بصعوبة؛ لأني استسلمت للنوم في مكاني تحت قماش الأشرعة المملوءة بالريح، وعندما استيقظت صباح اليوم الرابع، كانت الريح تهبّ بنسمات عذبة كهمسات رقيقة والبحر هادئ والشمس ساطعة فوقنا، آه يا أيتها الشمس المباركة!

كيف استحمّت اجسادنا بدفئها الوفير وكيف أعادت لنا الحياة كالحشرات والزواحف بعد العاصفة، فابتسمنا مرّة أخرى وقلنا أموراً مسلية مرّة أخرى وتفاءلنا بشأن وضعنا، مع أنّه كان أسوأ من أي وقت مضى، كنا بعيدين عن اليابان أكثر من الليلة التي غادرنا فيها الشبح، وبصعوبة أستطيع تخمين خطوط الطول والعرض، وعند حساب انجراف ميلين في الساعة، خلال السبعين ساعة الغريبة من العاصفة، كنا قد ابتعدنا ما لا يقل عن مائة وخمسين ميلاً إلى الشمال الشرقي، ولكن هل كان هذا الانجراف المحسوب صحيحاً؟ على حد علمي، إن كان الانجراف أربعة أميال في الساعة بدلاً من اثنين، فسنكون في هذه الحالة أبعد بمائة وخمسين ميلا آخر نحو المجهول.

موقعنا كان مبهماً بالرغم من احتمال وجودنا في منطقة مجاورة للشبح، كانت هناك عجول بحر قربنا وكنت مستعداً لرؤية سفينة صيد في أية لحظة، وبالفعل رأينا أحداها بعد الظهيرة عندما هبت نسمات ريح شمالية غربية من جديد، لكن سفينة الصيد الغريبة ضاعت في الأفق وبقينا في البحر الواسع وحدنا مرّة أخرى.

ثم جاءت أيّام الضباب فانحدرت نفسية مود واكتأبت ولم تتفوّه بكلمة مرح أبداً، وأيام الهدوء التي طفونا فيها وحيدين في البحر الواسع مضطهدين بعظمته ومعجبين بمعجزة الحياة الصغيرة، بأننا لا نزال أحياء، نكافح من أجل البقاء، وأيام من الصقيع والرياح ونتفات الثلوج حينها لا يمكن لشيء أن يدفئنا، وأيام المطر الغزير الذي ينقع اشرعتنا فتُملأ دلاء الماء من تقطيره.

وقد زاد حبي لمود أكثر، كانت متعددة الجوانب ومتقلّبة المزاج، كنت أدعوها بـ «متلونة المزاج» وبعض كلمات الحب والغزل الأخرى في أفكاري فقط. وعلى الرغم من أن رغبتي في الإفصاح عن حبي كانت ترتعش وتلوح على طرف لساني

لألف مرّة ألا أني علمت بأنه ليس الوقت المناسب لمثل هذه الأشياء، كان وقتاً غير مناسب أن تطلب من امرأة أن تبادلك الحب حين تكون مشغولاً بحمايتها ومحاولة إنقاذ حياتها الحساسة كالموقف هذا، ليس هذا فحسب وإنما أمور أخرى، شعرت بالاطمئنان؛ لأنني تمكنت من التعامل معه بدقة وشعرت بالرضا عن نفسي كذلك لأني لم ألمّح بأي شكل من الأشكال عن حبي لها، كنا مثل الرفاق الجيدين، وأصبحنا رفاقاً أفضل بمرور الأيام.

الشيء الوحيد الذي أثار دهشتي هو افتقارها للخجل والخوف، فالبحر الرهيب، والقارب الضعيف، والعواصف والمعاناة، والغرابة والعزلة وكل ذلك من شأنه أن يخيف امرأة قوية، بدا وكأنه لم يترك أي انطباع لديها بالرغم من أنها لم تعرف الحياة إلا في أشدها حماية وتكلفاً، وهي نفسها كالنار والندى والضباب، روحٌ متسامية مع كلّ ما تتّصف فيه النساء من رقة ونعومة، ومع ذلك، كانت بالفعل خجولة وخائفة لكنها كانت شجاعة، فعلى الرغم من أنها حملت إرث ذلك الجسد وشكوكه وبرغم ثقل هذا الحمل إلا أنها كانت روحاً دائماً وأبداً، جوهر الحياة الأثيرية، هادئة كعينيها الهادئتين وواثقة كدوام الكون المتغير.

مرت علينا أيام عاصفة، أيام بلياليها، توعّدنا المحيط بصخب موجاته الشاحبة، وضربت الريح قاربنا الصغير بعنف ولطمته بقسوة، وقذفتنا بسرعة بعيداً نحو الشمال الشرقي، كانت أسوأ عاصفة مرت علينا حتى أني نظرت بريبة إلى الجهة التي تهبّ منها الريح، لا من أجل البحث عن شيء وإنما لسأمي من مواجهة الصراع الأزلي ولأطلب من القوى الغاضبة أن تتوقف وتتركنا بحالنا، وأكاد لا أصدّق ما رأيته، بلا شك أن أياماً وليالي من عدم النوم والقلق والتوتر أدارت رأسي. نظرت إلى مود لأعرف نفسي وأميز في الزمان والمكان، أقنعني منظر خّدها الرطب وشعرها المتطاير وعينيها البنيتين الشجاعتين بسلامة بصري، أدرت وجهي مرّة أخرى نحو الريح ورأيتُ من جديد نتوءاً صخريًّا أسود، مرتفعاً وعارياً ينهض من بين الأمواج التي تتلاطم عند قاعه ومقدمته كنافورات تنفث، كان خط الساحل الأسود المُحرم يتجه نحو الجنوب الشرقي مهدبًّا بوشاح أبيض هائل.

ناديت مود ونظرت هي الأخرى إلى المنظر وصاحت:

«لا يمكن أن تكون ألاسكا!».

«بالتأكيد لا. هل تعرفين السباحة؟».

هزت رأسها.

«ولا أنا. هذا يعني، أن علينا الوصول إلى الساحل دون أن نسبح، نقود القارب إلى فتحة ما بين الصخور وننزل منه، لكننا يجب أن نتحرى الدقة والسرعة».

تحدُّثت بثقة كانت تعلم أنني لا أملكها؛ لأنها رمقتني بإحدى نظراتها الثابتة وقالت:

«لم أشكرك حتى الآن على كلّ ما فعلته من أجلي لكن..». وترددت وكأنها في ريب كيف تصيغ عبارات امتنانها على أكمل وجه.

«حسناً؟». قلت بوحشية؛ لأني لستَ راضياً بشكرها لي.

«قد تستطيع مساعدتي». وضحكت.

«للاعتراف بالتزاماتك قبل أن تموتي؟ لا على الإطلاق، لن نموت، سنرسو على تلك الجزيرة وسنشعر بالدفء والحماية قبل انتهاء اليوم».

تحدثتُ بشجاعة على الرغم من أني لم أصدق كلمة مما قلت ولم يحثني الخوف على الكذب؛ لأني لم أشعر به بالرغم من كوني متأكداً من حتمية الموت في هذا الجحيم المتلاطم بين الصخور التي نقترب منها بسرعة، كان من المستحيل تقريباً أن نرفع الشراع ونصل إلى ذلك الشاطئ؛ لأن الريح ستقلب القارب على الفور ويبتلعه البحر لحظة انقلابه، إلى جانب ذلك، كان الشراع المربوط إلى المجاديف الاحتياطية يسربل خلفنا في الماء، وكما قلت، أنا لا أخاف من الموت، ونحن على بعد بضع مئات من الياردات تجاه الريح، لكني كنت خائفاً من التفكير بأنّ مود ستموت هي الأخرى، صوّرتها مخيلتي اللعينة وهي ممزقة الأشلاء، مشوهة بين الصخور. وكان الأمر فظيعا للغاية، حاولت أن أجبر نفسي على الاعتقاد بأننا سنرسو بسلام، وهكذا تحدُّثت ليس لأني كنت أؤمن به، ولكن ما فضلت أن أؤمن به.

اجتمعنا لا إراديا في قاع القارب، شعرت بيدها المغطاة بالقفاز تمتد نحوي وتمسك بيدي، وانتظرنا النهاية دون كلام، لم نكن بعيدين عن الحافة الغربية التي نحتتها الريح من النتوء الصخري، شاهدت آملاً أن تتدفق تيارات البحر فتجرفنا بعيداً قبل أن نصل إلى الأمواج.

«سنعبر بسلام». قلت بثقة علمتُ أنها لم تخدع أياً منّا.

«تالله. سنعبر بسلام». صحتُ بعد خمس دقائق.

كان القسَم يخرج من شفتي بحماس، وأحسب أنّه القسم الأول في حياتي، مالم أضع الترّهات التي كنت أتفوه بها في شبابي كقسم.

«أستميحكِ عذراً».

قالت بابتسامة باهتة: «أقنعتني بصدقك، أنا أعرف الآن أننا سنعبر بسلام».

رأيت قمّة بعيدة عن الحافة القصوى من النتوء الصخري، ويمكننا أن نرى اتساع الساحل المتداخل لما كان من الواضح أنّه خليج عميق، في الوقت نفسه، صمّت آذاننا أصوات خوار عنيفة أخذت حيزاً من كمية صوت الرعد البعيد وقوته وجاءت إلينا مباشرة من الاتّجاه الذي تهبّ منه الريح، غطت على صوت الأمواج المتكسرة التي خرجت للتو من فم العاصفة، وعندما عبرنا هذه النقطة، أصبح الخليج أمام أعيننا والشواطئ الرملية البيض ـ على شكل هلال ـ تتحطّم فيها الأمواج الضخمة، مغطاة بعدد لا يُحصى من عجول البحر التي كانت مصدر هذا الخوار العظيم على ما يبدو.

صحت فرحاً: «مَغْدَفة[43]! نحن وبلا شكٍ مُنقَذون، يجب أن يكون هناك رجال وطرادات لحمايتهم من صائدي عجول البحر، ربما توجد محطة على الشاطئ».

لكنني عندما تمعنت في الأمواج التي تتكسر على الشاطئ، قلت: «لا يزال وضعنا سيَّئا، لكنه ليس سيئاً للغاية، والآن، إذا كانت الآلهة لطيفة حقاً، فسوف ننجرف عند ذلك الرأس التالي ونصل إلى شاطئ محميّ تماماً، وقد نهبط دون ترطيب أقدامنا».

وكانت الآلهة لطيفة بالفعل؛ لأننا تجاوزنا قمة النتوء الأولى والثانية وكنا مباشرة مع خط الريح الجنوب الغربي، لكن حالما وصلنا إلى الثاني ـ واقتربنا منه بشكل خطير ـ لحقنا بالثالث وكنا لا نزال مع الريح الجنوبية الغربية لكن الشاطئ الذي توغل عميقاً في اليابسة ظهر، فتدخل المد والجزر وسحبنا إلى تلك النقطة، كان البحر هادئاً في هذه النقطة ماعدا انتفاخ صخري أملس. أخذتُ مرساتي وبدأت بالتجديف، ومن هذه النقطة انحنى الشاطئ مبتعداً واتجهنا إلى الجنوب والغرب أكثر فأكثر حتى انفرج الخليج عن خليج أصغر منه بداخله وميناء صغير منسوب المياه فيه كبركة لا يعكّر صفوها إلا تموجات صغيرة من ريح تهبّ على الجدار الصخري الذي يبعد عن الشاطئ مائة قدم.

لا توجد هنا أيّة عجول بحر، بعد أن لامست مؤخرة القارب لوحاً خشبيًّا صلباً، قفزت بسرعة ومددت يدي إلى مود وقفزت إلى جانبي على الفور، وعندما أفلتت أصابعي يدها أمسكت بذراعي بسرعة وفي نفس اللحظة تمايلتُ أنا وكدت أقع على رمال الشاطئ، وكان هذا بفعل التوقف المفاجئ عن الحركة، تحركنا لفترة طويلة يهتز بنا القارب على الدوام؛ لذا كانت ثباتيّة الأرض بمثابة الصدمة لنا، تخيلنا الشاطئ يتماوج والجدران الحجرية تتحرك يميناً ويساراً كالسفينة وعندما كنّا مستعدين نفسياً لهذه الحركات المتوقعة، كان لعدم حدوثها أثرٌ كبيرٌ في اختلال توازننا.

«يجب أن أجلس». قالت مود وهي تضحك بعصبيّة وإيماءة بالدوار، وجلست فوراً على الرمال، جلستُ قربها بعد أن أمنّت القارب.

وهكذا هبطنا على جزيرة إنديفور، وصلنا إليها نشعر بالحنين إلى اليابسة لطول سفرنا في البحر.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل التاسع والعشرون

«يالغبائي!». صحتُ بصوتٍ عالٍ من الغضب.

أفرغتُ القارب وحملت محتوياته على ارتفاع عالٍ على الشاطئ، وشرعت في صنع خيمة، كان هناك القليل من الحطب العائم على الشاطئ، وقد راودتني فكرة إشعال نار حالما وقعت عيني على علبة القهوة التي أخذتها من مخزن طعام الشبح.

«أحمق تافه!». تابعت توبيخي لنفسي.

لكن مود أوقفتني باعتراض رقيق وسألتني لماذا أنعتُ نفسي بهذه الأوصاف.

«ليس لدينا أعواد ثقاب». تأوهت: «لم أجلب معي أعواد ثقاب وهذا يعني أننا لن نحصل عل قهوة حارة ولا حساء ولا شاي ولا أي شيء آخر».

«ألم يكن... كروزو من فرَك العصي معاً لإشعال النار؟». تشدَّقت بالكلام.

«لكنني قرأت قصصاً رواها ناجون من حطام السفن، ممن حاولوا إضرام نار باستخدام العصي دون جدوى، أتذكر زميلاً لي يعمل في إحدى الصحف يدعى وينترز لديه سمعة الألاسكي والسيبيري، قابلته في بابيلوت ذات مرّة وأخبرنا كيف حاول أن يشعل النار باستخدام العصي، كان الأمر ممتعاً؛ لأنه رواها بشكل رائع، لكنها كانت قصة فشل لا نجاح، لا زلت أذكر خاتمته حين قال: «أيها السادة، يمكن لرجل من جزر البحر الجنوبي أن يفعلها، ويمكن للماليّ أن يفعلها، لكن تذكروا كلماتي، لن يستطيع أي رجلٍ أبيض فعلها».

فقالت بمرح: «أوه حسناً، تمكنّا من العيش بدونها حتى الآن، ولا أرى أن هناك سبباً يمنعنا من المتابعة بدونها».

«لكن فكري في القهوة!»، صحت بحزن: «إنها قهوة جيدة وأنا متيقّن من ذلك؛ لأني أخذتها من حاجيات لارسن الخاصة، وانظري إلى هذا الخشب الجيد».

أعترفُ أني رغبت في شرب القهوة بشدة، وعلمت بعد فترة قصيرة أن التوت كان نقطة ضعف مود، فضلاً عن ذلك، كنا قد قضينا وقتاً طويلاً في اتباع نظام غذائي بارد لدرجة أننا كنا نشعر بخدر من الداخل والخارج أيضاً، وأن أي شيء دافئ سيكون ممتعاً، لكني توقفت عن التذمّر وشرعت في صنع خيمة مستخدماً الشراع من أجل مود.

فكرت بأنها مهمة سهلة، لكني غفلت أمر المجاديف والصَّاري وخشبة الشراع وغيرها، مضافاً إلى ذلك، أني كنت بلا خبرة وكل تفصيل دقيق كان بمثابة تجربة لي وكل نجاح بمثابة اختراع، مضى النهار بأكمله قبل أن يكون مأواها مُنجزاً على أرض الواقع، وعندما حلّ المساء بدأت تمطر ففاضت مود بالماء حتى اضطرت أن تعود إلى القارب.

وفي صباح اليوم التالي، حفرت خندقاً ضحلاً حول الخيمة، وبعدها بساعة هبت عاصفة جلدت الجدار الصخري خلفنا، فطارت الخيمة وتحطمت على الرمال على بعد ثلاثين ياردة.

ضحكت مود على تعبيري المكتئب وقالت: «بمجرد أن تهدأ الريح أعتزم الذهاب في القارب لاستكشاف الجزيرة، لا بد أن يكون هناك محطة في مكان ما ورجال أيضاً، من المؤكد أن السفن تزور المحطة، ومن المؤكد أن بعض الحكومات توفر حماية لكل هذه العجول كذلك، لكنني أتمنى أن ترتاح قليلاً قبل أن نبدأ».

«لأني أرغب في الذهاب معك». أنهت حديثها بهذه الجملة.

«أرى أنّه من الأفضل أن تبقي هنا، لقد عانيتِ من المشقة بما فيه الكفاية، وما نجاتك إلا معجزة، ولن يكون الوضع مريحاً في القارب عند الإبحار في طقس ممطر كهذا، ما تحتاجينه هو الراحة وأود منكِ البقاء هنا والحصول عليها».

شيء يشبه الرطوبة غطّى عينيها الجميلتين قبل أن تخفضهما وتدير رأسها قليلاً.

«ما أوده حقاً هو الذهاب معك». قالت بصوت منخفض يشوبه الرجاء.

«يمكنني أن أساعدك..»، وبُحّ صوتها: «قليلاً. فكّر بي هنا وحيدة إن حصل لك مكروه».

«أوه، أنوي أن أكون حذراً للغاية، ولن أذهب أبعد مما يمكّنني من العودة بحلول المساء. وفي جميع الأحوال، أعتقد أنّه من الأفضل لك أن تبقي هنا وتنامي وترتاحي ولا تفعلي شيئاً».

استدارت ونظرت في عيني بثبات ورقة وقالت بلطف: «أرجوك. أرجوك».

شدّدت رفضي وهززت رأسي، لكنها انتظرت وهي تنظر إليّ، حاولتُ أن أصيغ رفضي بكلمات لكني عجزت عن نطقها، رأيتُ السرور يظهر في عينيها وعلمت بأني خسرت المعركة، كان من المستحيل أن أرفض بعد ذلك.

هدأت الريح في فترة ما بعد الظهيرة وتحضرنا للبدء في اليوم الموالي، لا يمكننا اختراق الجزيرة من خليجنا؛ لأنه محاط بجدران من الصخور الشاهقة التي ترتفع من الشاطئ على جانبي الخليج بارزة من الماء العميق.

انبلج الصباح باهتاً ورمادياً لكنه هادئ، استيقظتُ مبكراً وجهزت القارب.

«أحمق، غبي، بذيء». صحت ثم فكرت أنها قد تثير حفيظة مود لكن هذه المرة كانت صيحاتي مرحة وأنا أتراقص حاسر الرأس على الشاطئ بيأس ساخر.

برز رأسها من تحت ثنية الشراع وقالت وعيناها مثقلتان بالنعاس ولكن بفضول: «ماذا هناك؟».

«قهوة»، صحت: «ما رأيكِ بكوب قهوة ساخن؟ ساخن جداً؟».

«يا إلهي! أفزعتني بصراخك، أتعلم أنّك قاسٍ، بينما أراهن نفسي على الاستغناء عنها، تثير حفيظتي باقتراحاتك العقيمة».

«راقبيني!».

جمعت بعض العِصيّ الجافة والرقائق من تحت الشقوق بين الصخور وبريتها لتكون نشارة أو قطع خفيفة، ومزقت إحدى صفحات دفتر ملاحظاتي، وأخذت من صندوق الذخيرة طلقة نارية وبعد إزالة البارود منها بسكين، أفرغت المسحوق على صخرة مسطحة، ثم خلعت الفتيل أو الغطاء من الغلاف، ووضعتها على الصخرة وسط المسحوق المبعثر، كان كلّ شيء جاهزاً، راقبتني مود من الخيمة، أمسكت بالورقة التي في يدي، وحطمت الفتيل بصخرة أمسكتها بيميني فهبّت نفخة من الدخان الأبيض وموجة من اللهب فاشتعلت الحافة الخشنة للورقة.

صفّقت مود بيديها وصاحت بمرح: «يحيا بروميثيوس([44])!».

لكنني كنت مشغولاً جداً لأعبِّر عن امتناني لسرورها. يجب أن نعتني بهذا الوهج الضعيف ليجمع القوة اللازمة للاشتعال، غذّيته بنشارة الخشب والقصاصات الصغيرة حتى بدأ يطقطق واشتعلت النار بالكامل، في حقيقة الأمر، لم تدخل في حساباتي أن أنبَذ على جزيرة لذلك، لم يكن لدينا غلاية أو أدوات طهي من أي نوع لكنني حولت دلو القصدير الذي استخدمناه في تفريغ الماء وإنقاذ القارب، وبعد ذلك، نظراً لاستهلاكنا إمداداتنا من الأغذية المعلبة؛ جمعنا مجموعة كبيرة من أوعية الطهي.

صحيح أني غليت الماء لكن مود هي من صنعت القهوة، وكانت رائعة، كانت مساهمتي في إعداد الطعام هي تحضير لحم البقر المعلب المقلي مع بسكويت البحر والماء، نجحنا في تحضير فطور شهيّ وجلسنا قرب النار لفترة أطول بكثير مما يقضيها المغامرون، نرتشف قهوتنا السوداء الساخنة ونتحدث عن وضعنا الحالي.

كنت واثقاً من أننا سنجد محطة في أحد هذه الخلجان، لأني أعرف أن مغادف بحر بيرنغ عادة ما تكون محروسة، لكن مود حدّثت هذه النظرية وحضرتني لخيبة الأمل ـ إن كنت سأواجه أحدها ـ وقالت بأننا قد نكون في مغدفة مجهولة وغير مُكتشفة، كانت بمزاج رائع وابتهجت وهي تصف محنتنا هذه باعتبارها اختباراً صعباً.

قلت لها: «إن كنتِ على حق، يجب عندها أن نتحضر لقضاء الشتاء هنا، لن يدوم طعامنا إلى الأبد لكن هناك وفرة من عجول البحر التي ستغادر في الخريف، لذا يجب أن أبدأ بتخزين اللحوم من الآن، وبعدها يجب أن نبني أكواخاً ونجمع الحطب، ويجب أن نحاول تخزين الشحوم لأغراض الإضاءة، سنكون مشغولين للغاية في حالة وجدنا الجزيرة غير مأهولة وهذا لن يحصل، أنا متأكد».

لكنها كانت على حق، أبحرنا مع ريح على طول الشاطئ، وبحثنا في الخلجان باستخدام منظارنا وهبطنا إلى اليابسة في بعض الأحيان، دون العثور على أية علامة تدل على حياة الإنسان، ومع ذلك، علمنا أننا لسنا أول من نزل على جزيرة إنديفور، في أعالي شاطئ المُرتَفع الثاني من شاطئنا، اكتشفنا حطام قارب وكان

قارب صيد عجول البحر؛ لأن مسند المجداف كان مربوطاً بجديلة، وكان هناك حامل مسدس على جانب الميمنة بالقوس، وبأحرف بيضاء كان (غزال رقم 2) مرئياً بشكل خافت، يبدو أن القارب ظل مستلقياً هناك لفترة طويلة؛ لأنه كان مليئاً بالرمال، وكان الخشب المحطم بمنظر بائس بسبب تعرضه الطويل لتقلبات الجو، وفي المؤخرة، عثرتُ على مسدس قياس عشرة وسكين غمد بحار مكسورة يكسوها الصدأ حتى أصبح من المتعذر التعرف عليها تقريباً.

«يبدو أنهم قد نفذوا بجلدهم». قلت بمرح لكن قلبي انقبض من تنبُّئي بوجود عظام عارية في مكان ما على الشاطئ.

ولم أرغب بأن تتحطم معنويات مود؛ لم أُخبرها بما اكتشفت، وإنما استدرت صوب البحر مرّة أخرى وأبحرت بقاربنا إلى أقصى نقطة في الشمال الشرقي للجزيرة، لم تكن هناك سواحل على الشاطئ الجنوبي، وبحلول الظهيرة كنا قد أبحرنا طوافاً حول النتوء الأسود العظيم، قدرت محيطه بخمسة وعشرين ميلاً، وعرضه يتراوح بين ميلين وخمسة أميال، بينما يوجد قرابة المائتي ألف عجل بحر على شواطئها، كانت الجزيرة في أعلى نقطة من أقصى الجنوب الغربي، حيث تتناقص بشكل منتظم ويكون الجزء الشمالي الشرقي على بعد أمتار قليلة من البحر، وباستثناء خليجنا الصغير، انحدرت الشواطئ الأخرى بلطف لمسافة نصف ميل أو نحو ذلك إلى ما يمكن تسميته (المروج الصخرية)، مع وجود بقع من الطحالب والمستنقعات هنا وهناك، كان هذا مكان تجمهر عجول البحر، حيث تحرس العجول الكبيرة إناثها في حين ترعى العجول اليافعة نفسها.

شمل هذا الوصف المختصر كلّ مميزات جزيرة إنديفور، رطبة ومشبعة بالماء حيث لا صخور ولا منحدرات، تسفحها العواصف القادمة من البحر ويرتعش الهواء على الدوام بخوار مائتي ألف من البرمائيات، كان نُزلاً كئيباً وتعيساً، حتى مود أعدّتني لخيبة الأمل والتي كانت مبتهجة وحاذقة طوال الوقت، انهارت فور وصولنا إلى خليجنا الصغير، حاوَلت بشجاعة أن تخفي خيبتها عني لكني أعلم أنها كانت تكتم بكاءها في البطانيات تحت الخيمة حين كنت أوقد ناراً أخرى.

وكان دوري أن أكون مُبهجاً ـ لعبت دوري قدر استطاعتي ـ فأعدت الضحكة لعينيها الغاليتين بنجاح كبير والأغاني بدأت تنساب من شفتيها، غنّت لي قبل أن تأوي إلى فراشها مبكراً، وكانت المرة الأولى التي أسمعها تغني فيها، اضطجعَت قرب النار وانتقلتُ معها إلى عالم آخر؛ لأنها فنانة في كلّ شيء تفعله، بالرغم من أن صوتها لم يكن قوياً ألا أنّه كان رقيقاً ومعبراً بشكل رائع.

ما زلت أنام في القارب، سهدت عيني في تلك الليلة ورافقتني النجوم الأولى التي أراها منذ عدّة ليالٍ وبقيت أتأمل الوضع، كانت مسؤولية كهذه جديد بالنسبة لي، وكان وولف لارسن محقاً تماماً حين قال بأني كنت أقف على ساقي أبي، فقد اعتنى المحامون والوكلاء بأموالي ولم يكن لدي أيّة مسؤوليات على الإطلاق، ثم، تعلمت أن أكون مسؤولاً عن نفسي على متن الشبح، والآن ولأول مرّة في حياتي، وجدت

نفسي مسؤولاً عن شخص آخر، وهي من أخطر المسؤوليات؛ لأنها كانت المرأة الوحيدة في العالم ـ المرأة الصغيرة ـ كما أحب التفكير بها على هذا النحو.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثلاثون

لا عجب أن نسمّيها جزيرة إنديفور([45])؛ لأننا عملنا بجد لأسبوعين في بناء الكوخ، أصرّت مود على مساعدتي وكدت أبكي حزناً على يديها المجرحة والدامية، لكني كنت فخوراً بها لذات السبب. كان هناك شيء بطوليّ حول هذه المرأة التي ترعرعت بلطف وتحملها المشاق الرهيبة التي واجهتنا برغم قلة قدرتها على أداء أعمال عامّة الناس، فهي مَن جمعت الكثير من الحجارة التي بنيتُ بها جدران الكوخ، وأدارت أذناً صمّاء لتوسلاتي عندما طلبت منها أن تكف عن ذلك إلا أنها قبلت بتسوية، بأن تبذل جهداً أقل في الطبخ وجمع الأخشاب الطافية والطحلب لإمدادات الشتاء.

ارتفعت جدران الكوخ دون صعوبة، وتمّ كلّ شيء بسلاسة حتى واجهتني مشكلة السقف، ما فائدة الجدران الأربعة بدون سقف؟ ممّ أصنع السقف؟ صحيح بأن لدي المجاديف الاحتياطية التي كنت أعتزم وضعها كدعائم للسقف لكن بمَ أغطيها؟ لن تنفعني الطحالب، والعشب غير عمليّ، ونحتاج الشراع للمركب، والقماش المشمع بدأ يسرّب الماء.

قلت لمود: «أتعلمين أن وينتر استخدم جلود حصان البحر لبناء كوخه؟».

فقالت: «ولدينا عجول البحر».

وهكذا، شرعت بالصيد في اليوم التالي، ليست لدي خبرة بإطلاق النار، لكنني بدأت أتعلم، وعندما أنفقت ثلاثين خرطوشة على ثلاثة عجول بحر، قررت أن الذخيرة ستنفد قبل أن أتعلم إذا ما استمريت على هذه الوتيرة، ناهيك عن استخدامي لثمان خراطيش لإضرام النار قبل أن أكتشف طريقة أستطيع فيها استخدام الطحالب لإشعال الجمرات، وبهذا يكون المتبقي أقل من مائة خرطوشة.

«يجب أن أضرب العجول بالهراوة»، أعلنتُ بعد أن اقتنعت برمايتي السيئة: «سمعت الصيادين يتحدثون عن صيد عجول البحر بضرب رأسها بالهراوات».

«إنها حيوانات بريئة وجميلة، ولا يمكنني أن أتخيل أبداً أن تفعل بها هكذا، إنّه فِعل وحشي مباشر كما تعلم، يختلف عن رميها بالرصاص».

«يجب أن يُبنى هذا السقف»، أجبتها بتجهّم: «سيحل الشتاء قريباً جداً، إنها مسألة حياتنا ضد حياتها، من المؤسف أننا لا نملك ذخيرة كافية، ومع ذلك، أظنها تعاني أقل عند التعرض للضرب بالهراوات بدلاً من التعرض للإصابة بالرصاص على أية حال، وفضلاً عن ذلك، أنا من سيقوم بهذه المهمة».

«هذا كلّ شيء». ابتدرَت بحماس، ثم توقَّفت فجأة بارتباك.

«بالطبع، إلا إذا رغبتِ..». وبدأتُ بالحديث.

«لكن ماذا عساي أفعل؟». قاطعتني بتلك الرقّة التي أعرف أنها وجه آخر للإلحاح.

«جمع الحطب وتحضير الطعام». أجبتها بخفة.

هزت رأسها وقالت: «إنه أمرٌ خطير لتحاول القيام به وحدك».

«أعرف.. أعرف»، قاطعَت اعتراضي: «ما أنا إلا امرأة ضعيفة، لكن قد تمكّنك مساعدتي البسيطة من تجنب كارثة».

«لكنّ أليست عملية وحشية؟». سألتها.

«بالطبع أنتَ من ستقوم بذلك، وقد أصرخ حينها وأدير وجهي عندما..».

«الخطر جديّ».

«سأستخدم تقديري وأحدّد متى سأنظر ومتى أشيح ببصري». أجابت بصوت عالٍ.

وكانت نتيجة النقاش هذا أنها رافقتني في صباح اليوم التالي، جدّفت بقاربي إلى الخليج المجاور حتى حافة الشاطئ، كان هناك الكثير من عجول البحر، واجبرتنا آلاف العجول التي تخور على الصراخ لكي يسمع أحدنا الآخر.

«أعرف أن الرجال يقتلونها هكذا». قلت في محاولة لطمأنة نفسي وأنا أنظر إلى ذكر عجل بحر كبير (ثور) يبعد أقل من ثلاثين قدماً عنّا، ارتدَّ على قائمتيه الأماميتين وهو يراقبنا. «لكن سؤالي هو: كيف يقومون بذلك؟».

«دعنا نجمع عشب السهل ونصنع منه سقفاً». قالت مود.

كانت خائفة مثلي من احتمالية حدوث هذا الشيء، ولنا الحق في ذلك ونحن نحدّق عن قرب بالأسنان الضخمة اللامعة والأفواه الشبيهة بأفواه الكلاب.

«لطالما اعتقدت بأنها تهاب الرجال»، قلت ثم تساءلت بعد لحظات، بعد عدة ضربات بمجدافي على طول الشاطئ: «وكيف لي أن أعرف أنها ليست خائفة الآن؟ ربما إن وطأت الشاطئ بجرأة، ستهابني حينها، لكني لن أتمكن من اللحاق بأحدها». ومع هذا تردّدت.

قالت مود: «سمعت عن رجل غزا ذات مرّة أراضي التعشيش للإوزّ البري. فقتله».

«الإوزّ؟»

«نعم، الإوز، أخبرني أخي عن ذلك عندما كنت طفلة صغيرة».

«لكني أعرف رجالاً قتلوها». قلت بإصرار.

«أظن أن عشب السهل سيكون سقفاً منيعاً».

دون أن تقصد، أثارت كلماتها غضبي وجنوني، لا يمكن أن أبدو جباناً أمامها، فقلت: «هناك»، وجدفت بيدٍ وعدّلت القارب بيدٍ أخرى إلى الشاطئ.

نزلت من القارب وتقدّمت ببسالة نحو ذكر ضخم الجثة كان وسط حريمه(46). كنت مُسلّحا بهراوة اعتيادية يستخدمها الصيادون لضرب العجول المُصابة ويرفعونها إلى القارب، لا تبلغ من الطول سوى قدم ونصف، ولجهلي المطبق لم أتخيل قطّ أن

الهراوة ممكن أن تستخدم لشن هجوم على الطيور الكبيرة التي تصل إلى خمسة أقدام، ابتعدت الحريم عن طريقي وبدأت المسافة بيني وبين الثور الضخم تقل، رفع نفسه على زعانفه بحركة غاضبة، وعندما فصلتنا دزينة أقدام فقط عن بعضنا تابعت التقدم وكنت أنتظر أن يستدير على عقبيه ويهرب.

وعندما اقتربت منه ستة أقدام، خطرت ببالي فكرة مخيفة، ماذا لو لم يهرب؟ حسناً سأقتله حينها، في خضم خوفي نسيت أنّي هنا لأقتل هذا الثور الضخم لا أن أجعله يهرب، وفي هذه اللحظة شخر وكشر عن أنيابه واندفع نحوي، كانت عيناه تلمعان وفمه مفتوحاً على مصراعيه يُظهر أسنانه البيضاء المخيفة، وأعترف أني أنا من هرب فركض خلفي، صحيح أنّه كان يركض على نحو أخرق لكنه كان سريعاً وكان قاب قوسين من أن ينقض علي لولا أني قفزت إلى القارب، وقبل أن أتحرّك أمسك المجداف بأسنانه وهشم الخشب كأنه قشرة بيضة، صعقت أنا ومود من هول المشهد وبعد لحظات، غطس تحت القارب وأمسك عارضة القارب بفمه وبدأ يهزنا بعنف.

«يا إلهي، لنعُد أدراجنا». قالت مود.

هززت رأسي: «يمكنني فعلها كباقي الرجال، أعلم أن باقي الرجال قتلوا العجول بالهراوات لكن أعتقد أني سأترك الثيران بحالها في المرة القادمة».

«أتمنى ألّا تفعل».

«إياكِ وقول أرجوك أرجوك». صحت عليها بغضب.

لم تُجب وأعرف أن نبرة صوتي قد جرحتها.

«أستميحُكِ عذراً». قلت ـ أو صرخت ـ لتسمعني من شدّة دوّي المغدفة: «لأنّك أن قلتِ ذلك فستجبرينني على العودة لاحقاً، لكن لكي أكون صريحاً أُفَضّل البقاء».

«والآن لا تقل إن هذا ما تحصل عليه عندما تجلب امرأة معك». قالت وابتسمت بمكر ومجد، وعَلمتُ حينها أن لا حاجة للغفران.

جدّفت مائتي قدم على طول الشاطئ؛ لأتمالك أعصابي، ثم عدت إلى هناك من جديد.

«توخَّ الحذر». صاحت خلفي.

أومأتُ برأسي واتجهت للهجوم على أقرب تجمّع حريم، كلّ شيء سار على ما يُرام حتى صوّبت ضربة على قمة رأس أحداهن فلم تُصبها، شخرَت وحاولت الهرب فضربتها مرّة أخرى لكنها أصابت كتفها بدل رأسها.

«احذر!» سمعت مود تصرخ.

لم ألاحظ ما يجري من حولي لفرط حماستي، نظرتُ لأرى سيد الحريم يتجه نحوي ومرة أخرى، هربت إلى القارب، كانت مطاردة ساخنة لكن مود لم تقترح أن نعود أدراجنا هذه المرة.

«أتصور أنّه من الأفضل أن تترك الإناث وشأنهن وتكرس انتباهك على العجول الوحيدة وغير الهجومية، أظن أني قد قرأت شيئاً ما عنهم في كتاب الدكتور جوردن، وحسب ما أذكر قال إنها عجول صغيرة لم تبلغ من العمر ما يكفي لتكون لها زوجات، وقد أطلق عليها اسم (هوليوشيكي) أو شيئاً من هذا القبيل، يبدو لي إذا تمكنا من العثور على مكان تجمّعها...».

قلت وأنا أضحك: «يبدو لي أن غريزة القتال لديكِ قد أُثيرت».

فاحمرّت خجلاً وازدادت جمالاً: «أعترف بأني لا أحب الهزيمة مثلما تبغضها أنت، أو أكثر مما أحب فكرة قتل مثل هذه المخلوقات الجميلة غير الهجومية».

«جميلة!»، وشخرتُ ساخراً: «لا يمكنني تحديد أي شيء جميل فيما يخص هؤلاء الوحوش بأفواهها الرغوية وهي تطاردنني».

«وجهة نظرك»، وضحكَت: «أنت تفتقر إلى المنظور الصحيح، والآن، ليس عليك الاقتراب من هذه العجول..».

«الشيء ذاته»، صحتُ: «ما أحتاجه هو هراوة أطول، وهذا المجداف المتحطم هو ما أنشده».

قالت: «تذكّرت الآن أن القبطان لارسن أخبرني كيف يداهم الرجال المآوي، يقودون العجول بقطعان صغيرة لمسافة قصيرة على اليابسة قبل أن يقتلوها».

«لا أهتم برعي أحد قطعان الحريم هذه». اعترضت.

«لكن هناك الهوليوشيكي، وهذه العجول الصغيرة الوحيدة تتحرك بمفردها، وكما قال الدكتور جوردن، هناك مسارات يتم تحديدها بين الحريم، وطالما التزم الهوليوشيكي بطريقه فلن تعترض طريقه العجول الكبيرة التي تقود قطيع الإناث».

«هذا واحد منهم». وأشرتُ إلى عجل صغير في الماء، «لنراقبه ونلحق به حتى نعرف مكان تجمّعها».

سبح مباشرة إلى الشاطئ وتسلق إلى فتحة صغيرة بين أنثيين فأصدر ذكراهما أصوات تحذير لكنهما لم يهاجماه، راقبناه يتجه ببطء إلى الداخل ويشق طريقه بحذر بين الحريم في مسار على ما يبدو.

نزلتُ من القارب واعترف أن قلبي كان ينبض في حنجرتي كما لو أني على وشك الدخول وسط قطيع من الوحوش.

«من الأفضل ربط القارب بإحكام». قالت مود، ونزلت لتقف إلى جانبي، نظرتُ إليها بإعجاب.

أومأت لي بإصرار: «أجل. أنا آتية معك، حريّ بك أن تحكم ربط القارب وتسلّحني بهراوة».

فقلت لها: «لنعُد أدراجنا. أفترضُ أن أعشاب السهول ستفي بالغرض».

«تعلم أنها لن تصمد، هل أقود الطريق؟».

حركت كتفيّ لا مبالياً وبنفس الوقت، أعجبت بها كثيراً، كنت فخوراً بتلك المرأة، سَلّحتها بالمجداف المكسور وأخذت الآخر، بدأنا أول خطوات مهمتنا بارتياب وخوف، صرخت مود مرّة بذعر؛ لأن إحدى الإناث قرّبت أنفها من قدميها بفضول، وحثثتُ الخطى عدة مرات للسبب ذاته، لكن، لم تكن هنا أيّة إشارات عدائية عدا السعلات التحذيريّة من كلا الطرفين، كانت مغدفة بكر، لم يغزُها الصيادون قط، وبالنتيجة، فقد كانت عجول البحر حليمة وغير خائفة.

وفي قلب القطيع، كانت الجلبة فظيعة، تشوّش التفكير بتأثيرها، توقّفت وابتسمت باطمئنان لمود؛ لأني استعدت رباطة جأشي أسرع منها ويمكنني أن أرى أنها مرعوبة، اقتربَت أكثر منّي وصاحت:

«أنا خائفة جداً».

ولم أكن خائفاً بالرغم من أن غرابة الوضع الجديد لم تزُل حتى الآن، إلا أن التصرف المسالم لعجول البحر هدّأني، كانت مود ترتجف.

«أنا خائفة وفي نفس الوقت لستُ خائفة»، تحدّثت وفكها يرتجف: «إنه جسدي التعيس ولستُ أنا».

«لا بأس، كلّ شيء سيكون على ما يرام». طمأنتُها وأدرت ذراعي حولها لا إرادياً لحمايتها.

لن أنسى تلك اللحظة، كيف وعيت في الحال على رجولتي وصحَت في أعماقي طبيعتي البدائية، شعرت بقوتي، أنا حامي الضعيف، الذكر المُحارب، وأفضل من هذا كله، فكّرت بنفسي أني حامي حبيبتي، اتكأَت عليَّ رقيقة وهشّة ترتعش، أدركتُ حينها قوتي الجبارة، وشعرت بأني ندٌ لأكثر ثيران البحر وحشية في القطيع، وأعلم لو أن هذا الوحش هجم عليَّ فسأقابله بلا رحمة وبقسوة وسأقتله.

«أنا بخير الآن، لنمضِ قُدماً». ونظرَت لي بامتنان.

كان لقوّتي الداخلية الفضل في تهدئتها وإعطائها الثقة للمتابعة، وهذا ما ملأني غبطة وسروراً، وإن عرقي الشاب بدأ يزدهر وينمو، أنا الشخص المفرط في تمدّنه، عشت أيام الصيد وليالي الغابة لأسلافي القدامى، لديّ الكثير لأشكر وولف لارسن عليه، كانت هذه هي أفكاري ونحن نجتاح الحريم الصاخبات.

وعلى بُعد ربع ميل إلى الداخل، وجدنا جماعة من العجول اليافعة، أنيقة المظهر بأجساد مُلس تعيش وحدة العزوبية وتجمع قوت يومها حتى يحين اليوم الذي تدخل فيه عش الزوجية.

تمّ كلّ شيء بسلاسة، يبدو أني علمت ما عليّ فعله وكيف سأفعله، سرعان ما فصلت مجموعة من العجول عن رفاقها عن طريق الصراخ وإيماءات التهديد بعصاي وحتى ضرب الكسالى منها أحياناً، وكلما حاول أحد منها التملص والذهاب إلى الماء ردعتُه، وقد لعبت مود هي الأخرى دوراً مهمًّا بصرخاتها وتهديداتها بمجدافها

المكسور، لاحظت كذلك أنها تترك العجول التي تبدو متعبة ومتباطئة تفلت، لكني لاحظت كذلك أنها حين ترى أحدها يُظهر نزعة عدوانية ويحاول الهرب وعيناه تلمعان، تضربه بهراوتها لتعيده إلى الطريق.

«يا إلهي، إنّه أمرٌ ممتع، سأجلس قليلاً». صاحت بحماس وتوقفت بسبب ضعف بُنيتها.

قُدت القطيع المكون من اثني عشر عجلاً قوياً ـ دون أخذ التي سمحَت لها بالفرار ـ على بعد مائة ياردة، وبحلول الوقت الذي التحَقت بي، كنت قد انتهيت من الذبح وبدأت في السلخ، وبعد ساعة عدنا بفخر على طول الطريق بين الحريم، وكررنا الأمر مرّة أخرى وعدنا مثقلين بالجلود، إلى أن جمعنا ما يكفي لسقف الكوخ، وبدأنا بالإبحار، وجهت السفينة خارج هذا الخليج واتجهنا نحو خليجنا الداخلي.

قالت مود وأنا أسحب القارب إلى الشاطئ: «إنها مثل العودة إلى المنزل».

سمعتُ كلماتها بإثارة متجاوبة، كان كلّ ذلك حميمياً للغاية وطبيعياً، وقلت:

«يبدو كما لو أني عشت هذه الحياة دائماً، وأن عالم الكتب ورفاقي في القراءة شيء ضبابي للغاية، يشبه إلى حد كبير ذكرى حلم أكثر مما هو حقيقة واقعة، كنت بالتأكيد أطارد وأُطرد وأقاتل طوال أيام حياتي، وأنتِ كذلك، يبدو أنّك جزء منه. أنتِ..»، وكنت على وشك القول: «امرأتي، حبيبتي»، لكني غيرتها ببراعة إلى: «تقفين بوجه المصاعب بشجاعة».

لكن أذنها التقطت ما كنت أودّ قوله ولاحظَت تغيير نبرة صوتي فقالت:

«لا ليس هذا. كنت تود أن تقول...؟».

«إن السيدة مينيل الأمريكية كانت تعيش حياة بربرية ونجحت بذلك».

«أوه». أجابت، وأكاد أقسم أني لمحت خيبة أمل في نبرة صوتها.

لكن كلمتي: «امرأتي وحبيبتي»، لم تفارقا بالي لعدة أيام، بيد أنها لم تكن مسموعة كما في تلك الليلة، كنت أنظر إليها وهي تُبعد الطحالب المحترقة عن الفحم، وعندما تُشعل النار وتطبخ وجبة العشاء، وقد تكون الوحشية الكامنة قد أثيرت فيَّ؛ لأن الكلمات القديمة، المتجذرة بالعِرق تمسك بي وتثيرني، وبقيت على هذا الحال حتى غفوتُ وأنا أهمس هذه الكلمات مراراً وتكراراً.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الحادي والثلاثون

«ستنبعث منها رائحة كريهة، لكنها ستقينا برد الشتاء والمطر والثلوج»، قلتُ بينما كنّا نعاين السطح المكتمل المصنوع من جلود عجول البحر، ثم تابعت وأنا توّاق لمديحها:

«صحيح أنّه غير متقن الصنع، لكنه سيفي بالغرض، وهذا هو السبب الأساسي لصنعه».

صفقت يديها وأعلنت أنها راضية للغاية ثم قالت بعد لحظات:

«لكن الظلام حالك هنا». وتقلص كتفيها بارتعاشة لا إرادية.

«كان بإمكانكِ اقتراح نافذة عندما كانت الجدران ترتفع، هذا مكانك، كان عليكِ رؤية حاجتكِ إلى نافذة».

«لكنني لا أرى ما هو واضح كما تعلم»، وضحكت: «فضلاً عن ذلك، يمكنك حفر حفرة في الحائط في أي وقت».

«صحيح تماماً، لم أكن أفكر في ذلك»، أجبت وأنا أهز رأسي بهدوء: «لكن هل فكرتِ في طلب زجاج النافذة؟ ما عليك سوى الاتصال بالشركة، أظن أن رقمهم ـ أحمر 4451 ـ وإخبارهم بحجم ونوع الزجاج الذي ترغبين فيه».

«هذا يعني..».

«لا نوافذ».

كان الكوخ مظلماً ومخيفاً لا يصلح لعيش أيّ شيء البتة عدا الخنازير في البلاد المتحضرة، لكننا خبرنا النوم في القارب المفتوح؛ لذا كان هذا الكوخ بمثابة منزل صغير لنا، وبعد أن قمنا بتدفئة الكوخ وصقله باستخدام زيوت عجول البحر وفتيلة مصنوعة من القطن، بدأت عملية البحث عن لحوم لخزنها لفصل الشتاء وبناء الكوخ الثاني، أصبح الأمر بسيطاً الآن، الخروج في الصباح والعودة ظهراً مع حمولة قارب من عجول البحر، وبعد ذلك، وبينما كنت أعمل في بناء الكوخ، جربَت مود زيت العجول لتوقد النار فأضرمتها خافته تحت شرائح اللحم، سمعت عن تقديد اللحم على ألواح مسطحة وها هي لحومنا المقطعة إلى شرائح رفيعة ومعلقة في الدخان، تتقدد بصورة ممتازة.

كان بناء الكوخ الثاني أسهل؛ لأني بنيته ملاصقاً للكوخ الأول، احتجت إلى ثلاثة جدران فقط. لكنه عمل شاق على أية حال، كنا أنا ومود نعمل منذ بزوغ الفجر حتى حلول المساء وعندما يحين موعد النوم نزحف إلى أماكننا مرهقَين ونَسبُت كالحيوانات حتى اليوم التالي، ومع هذا فقد صرّحت مود بأنها لم تشعر بحال أفضل ولا أقوى من الآن في حياتها، وكنت أعلم أن هذا صحيح بالنسبة لي لكنها برقّة الزنبقة، خفت عليها من أن تنهار، وفي كثير من المرات، حين تخور قواها، أراها

تتمدد على ظهرها على الرمال لتستريح وتتعافى، ثم تقوم لتكدح وتعمل بجد من جديد، لطالما تساءلت عن مصدر هذه القوة ومن أين حصلَت عليها؟

«أفكر في استراحة طويلة هذا الشتاء»، كان هذا ردّها على احتجاجاتي القاسية: «حسناً، سنفكر بصخب للقيام بشيء ما».

وفي اليوم الذي انتهينا فيه من سقف الكوخ الثاني قمنا بتدفئته وصقله، كانت نهاية اليوم الثالث لعاصفة قوية ضربت البحر وغيرت اتّجاه البوصلة من الجنوب الشرقي إلى الشمال الغربي. كانت تعصف مباشرة علينا، وشواطئ الخليج الخارجي كانت ترعد وتتقاذف أمواجها وحتى خليجنا المحاط بالأرض من كلّ الجوانب تموّجت مياهه بشدّة، ولم ينقذنا العمود الصخري للجزيرة من الريح التي كانت تصفر وتعوي فوق كوخنا طوال الوقت حتى أني خفت على متانة الجدران. أما السقف المصنوع من الجلود والمشدود بإحكام كأنه طبلة ــ أو هكذا ظننت ــ فقد كان يرتخي وتمتلئ بطنه مع كلّ هبّة ريح، وكشَفَت فتحات لا حصر لها في الجدران، ليست محشوة بإحكام بالطحالب كما افترضت مود، أفصحت عن نفسها في هذه الليلة العاصفة ومع ذلك، شعرنا بالدفء والراحة بسبب زيت العجول الذي احترق بسطوع.

كانت أمسية ممتعة بحق، صوّتنا بصفتنا نؤدي دوراً اجتماعياً في جزيرة إنديفور بأن الوضع لن يسوء بعد، كانت عقولنا مرتاحة، لم نتقاعد للراحة في فصل الشتاء فحسب وإنما جهزنا أنفسنا له. يمكن لعجول البحر أن تمضي برحلتها المجهولة نحو الجنوب في أي وقت، لا يهمّنا أمرها، ولا تشكل العواصف مصدر رعب لنا، ليس لأننا متأكدون من مأوانا الذي يحمينا من الريح والمطر ويُبقينا دافئين فحسب، بل لأن لدينا أفضل مرتبة يمكن أن تُصنع من الطحالب، وكانت هذه فكرة مود، جمعت الطحالب بيديها، وهذه أول ليلة أقضيها على هذا الفراش وأشعر بسعادة بالغة؛ لأنها هي من صنعته من أجلي.

وعندما نهضَت لمغادرة المكان، التفتت نحوي بطريقتها الغريبة وقالت:

«سيحدث شيء ما، أشعر بأنه يحدث الآن، هناك شيء قادم إلى هنا، إلينا، إنّه قادم الآن، لا أعرف ما هو، لكنه قادم».

«جيد أو سيّئ؟» سألتها.

هزت رأسها: «لا أعرف، لكنه موجود في مكان ما». وأشارت باتّجاه البحر والريح.

«إنه شاطئ محجوب عن الريح»، وضحكتُ: «وأنا متأكد أنّي أفضّل أن أكون هنا على أن أصل في ليلة كهذه».

«ألستِ خائفة؟»، سألتها وأنا أفتح الباب لها، فنظرَت إلى عيني بشجاعة فقلت.

«هل أنتِ على ما يرام؟».

«لم أكن بحالٍ أفضل».

تكلمنا بعدها قليلاً قبل أن تذهب.

«تصبحين على خير يا مود».

«تصبح على خير يا همفري».

كان استخدامنا لأسمائنا الأولى دون ألقاب بلا تفكير وبصورة طبيعية، وفي هذه اللحظة كان بإمكاني ضمها بين ذراعي، وكنت سأفعل هذا قطعاً في العالم الذي كنا ننتمي إليه، لكن واقع الحال، والوضع الذي نحن فيه يحتّم عليّ أن أتوقف وأترك الأمور تجري بالطريقة الوحيدة التي يمكن أن تسير بها. بقيت وحدي في كوخي الصغير المضاء بدفء النار وقلبي يضج بشوق وارتياح. أعلم أن هناك شعوراً مضمر أو رابطة من نوع ما نشأت بيني وبينها لم تكن موجودة من قبل.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثاني والثلاثون

استيقظتُ في صباح اليوم التالي، كان هناك إحساس غريب جاثم على صدري، كما لو أن شيئاً ما ناقصٌ فيما حولي، لكن هذا الغموض انقشع بعد لحظات من استيقاظي حين حددتُ ما هو المفقود وكانت الريح، نمت في الليلة السابقة متوتر الأعصاب بسبب الأصوات المستمرة والاهتزاز وعندما افقت بنفس التوتر، مستعداً لتلقي ضغط الظروف السابقة نفسها، وجدتها قد اختفت.

كانت الليلة الأولى التي أنام فيها تحت سقف منذ عدة أشهر، تمدّدت بتلذّذ لدقائق تحت أغطيتي (التي لم تكن مبللة بفعل الضباب أو رذاذ الماء) أحلل أولاً التأثير الناتج عليّ من توقف الريح، ثم فرحتي العارمة؛ لأني كنت مستلقياً على فراش صنعَته مود، ارتديتُ ملابسي وفتحت الباب، سمعتُ صوت الأمواج تتقاذف على الشاطئ بصخبٍ لتشهد على عنف وغضب الليلة السابقة، كانت السماء صافية والشمس مشرقةً. وأنا تأخرت في النوم، خرجت إلى الفضاء بطاقة مفاجئة لتعويض ما فات كشخص مقيم على جزيرة إنديفور.

وحالما خرجت، توقُّفت للحظات، صدّقت ما رأت عيناي لكني صُعقت لهول ما رأيت يقترب مني، هناك على الشاطئ، على مسافة أقل من خمسين قدماً، سفينة سوداء مقدمتها ظاهرة وبلا صارٍ، كانت أعمدتها وصواريها متشابكة مع الأغطية وباقي أقمشة أشرعتها ممزّقة تحتكّ بجانبها، فركت عيني وأنا أراها، ها هو المطبخ الذي شيدناه وتلك كسرة المؤخرة المألوفة، والمقصورة المنخفضة الشبيهة باليخت، إنها الشبح!

أيّ حظ تعس جلبها إلى هنا! في هذا المكان دونَ غيره؟ أيّة احتمالات هذه!

نظرت إلى الجدار الأجرد المتعذر الوصول إليه القابع خلفي وعرفت عمق اليأس الذي أنا به، كان الهروب مستحيلاً، لا بل ميؤوساً منه، فكّرت في مود النائمة في الكوخ الذي صنعناه معاً، وفيها عندما قالت: «تصبح على خير»، وفي كلماتي: «امرأتي، حبيبتي». كانت هذه الكلمات تقرع كناقوس جنائز الآن، ثم اسوّد كلّ شيء في عيني لأجزاء من الثانية، ربما لأني جهلت المدة التي لزمتني لأستعيد زمام نفسي من جديد، ها هي الشبح، مقدمتها على الشاطئ ودقلها المائل مهشّم فوق الرمل، عارضتها المتدلية تحتك بجانبها مع حركة الأمواج، يجب أن أفعل شيئاً.

ثم انتبهت لشيء غريب فجأة، لم يتحرك أي شيء على سطحها، فكرت بأن الطاقم لا يزال نائماً؛ لأنه منهك بسبب صراعهم الليلة السابقة مع العاصفة، ثم فكرت بإمكانية هربي أنا ومود، أن نركب القارب ونهرب قبل أن يستفيق الآخرون، يمكن أن أناديها ونذهب، رفعت يدي لأقرع على بابها عندما تذكرت صغر الجزيرة، لن نتمكن من الاختباء فيها، وليس أمامنا حل آخر سوى المحيط الواسع، فكرت في أكواخنا الصغيرة الدافئة، وإمداداتنا من اللحوم والزيت والطحلب والحطب،

وعرفت أنّه لا يمكننا البقاء على قيد الحياة في البحر الشتوي والعواصف العظيمة التي ستأتي.

وهكذا وقفتُ متردداً عند بابها، كانت فكرة مستحيلة أعلم ذلك، ثم خطرت على بالي فكرة مجنونة بأن أدخل عنوة وأقتلها في نومها، ثم وبلمحة بصر، جاء حلٌ أفضل، أن أستغلّ نوم الطاقم وأتسلل خفية إلى حيث ينام لارسن وأقتله في نومه، وماذا سيحصل بعد ذلك؟ حسناً سنعرف فيما بعد، لكن الأمر سيكون أسهل بموته وسيكون لديّ الوقت الكافي لتدبير أمور أخرى، فضلا عن ذلك، مهما يكن الوضع الجديد فلن يكون أسوأ مما هو عليه الآن.

كان خنجري مربوطاً على خصري حين ذهبت إلى كوخي لإحضار مسدس ـ حرصت على تلقيمه ـ وذهبت إلى الشبح، صعدت على متنها بصعوبة وبعد أن ابتلت ملابسي حتى الخصر. كان باب السلوقية مفتوحاً، توقفت للاستماع لتنفس الرجال، لكن لم يكن هناك تنفس، كدت أشهق حين خطر على بالي: ماذا لو كانت الشبح مهجورة؟ عدت وأرهفت السمع لكن لم يكن هناك أيّ صوت. نزلت السلم بحذر، ضج المكان برائحة العفونة المعتادة والفراغ لمسكنٍ لم يعد مأهولاً. كانت الملابس المهملة والمعدات، والأحذية البحرية القديمة، ومعاطف مشمعة تُسرِّب ملقاة في كلّ مكان، وكل حاجيات السلوقية تافهة القيمة لرحلة طويلة.

«تركوها على عجل!»، كان هذا استنتاجي وأنا أصعد إلى السطح بأمل يتجدد في صدري، نظرت إلى ما حولي بهدوء ولاحظت أن القوارب كلها مفقودة، كان وضع المُدَفّى مشابه للسلوقية، فقد حزم الصيادون أمتعتهم بالسرعة نفسها التي فعلها بها البحارة. إذن فالشبح مهجورة بالفعل، وقد أصبحت ملكاً لي ولمود، فكّرت في كلّ الحاجيات التي فيها، وفي مخزن الأطعمة، وخطر لي أن أفاجئ مود بإفطار شهي.

لم تعد ردّة فعلي من الخوف ومعرفتي بالفعل الشنيع الذي قدمت إلى هنا لفعله ضرورياً، بل شعرت بالصبيانيّة والحماس، صعدت درج المُدَفّى بسرعة درجتين في وقت واحد دون أن أضع أي شيء في بالي سوى الفرحة والأمل بأن تبقى مود نائمة حتى أحضّر لها فطوراً شهيًّا، وبينما استدرت إلى المطبخ راودني شعور رضا جديد حين رأيت كلّ أواني الطبخ والمعدات أمامي. قفزت إلى كسرة مؤخرة السفينة ورأيت.... وولف لارسن!

بغض النظر عن الزخم والمفاجأة المذهلة، ارتقيت ثلاث أو أربع خطوات إلى سطح السفينة قبل أن أوقف نفسي، كان يقف أسفل درج السفينة الداخلي، لم يظهر منه سوى رأسه وكتفيه، يحدّق في وجهي مباشرة، ذراعاه تستريحان على باب نصف مفتوح، لم يقم بأيّة حركة، بل وقف هناك فقط، يحدّق في وجهي.

بدأت أرتجف وعاد إليّ مرض معدتي من جديد، وضعت يدي على حافة السفينة لأسند نفسي ورطبت شفتي التي تخشبت دون رغبة مني في الكلام، ولم تفارقه عيناي قطّ، لم نتحدث، كان هناك شيء ينذر بالشؤم في سكوته، عاد إليّ خوفي القديم وتجدّد معه خوف يفوقه مائة مرّة. وهكذا بقيناً يحدّق أحدنا بالآخر.

كنت على دراية بوجوب اتخاذ قرار، لكن عجزي القديم انكبَّ علي، انتظرته يتخذ زمام المبادرة وبعد مرور الوقت، تبادر إلى ذهني أن الوضع مشابهٌ لموقفي مع فحل عجل البحر الضخم، إذ غطّى خوفي على رغبتي بقتله حتى أصبحت أتمنى هروبه؛ لذا، كان علي ألّا انتظر وولف لارسن يتخذ زمام المبادرة بل أتولى أنا الأمر.

صوبت فوهة المسدس نحوه، ولو أنّه تحرك وحاول نزول الدرج لكنت أطلقت عليه الرصاص وبلا شك، لكنه وقف بلا حركة كما كان، وبينما واجهته ومسدسي يرتجف بيدي مصوب نحوه، كان لديّ الوقت الكافي لألاحظ الإجهاد والشحوب البادِيين على وجهه، كما لو أن إجهاداً كبير استولى عليه وبدّد قوته، كان غارق الخدّين متغضّن الحاجبين، حتى بدت عيناه غريبتين ليس بتعبيرهما فقط وإنما مظهرهما كما لو أن الأعصاب البصرية والعضلات الداعمة عانت من الإجهاد وقلبت مقل العيون قليلاً.

هذا كلّ ما رأيته، كان عقلي يعمل بسرعة وخطرت ألف فكرة على بالي، ومع هذا لم أتمكّن من سحب الزناد، أخفضت المسدس وتوجّهت نحو زاوية المقصورة لأخفّف التوتّر على نفسي ولأبدأ بداية جديدة فأصبحتُ أقرب منه، رفعت المسدس مرّة أخرى وكان على مسافة ذراع مني، لا أمل من نجاته؛ لأني مصمّم على قتله، وليس هناك احتمال أن أخطئه مهما كانت مهارتي في الرماية يرثى لها، ومع ذلك، صارعت نفسي ولم أتمكّن من سحب الزناد.

«حسناً؟». قال بنفاد صبر.

سعيت دون جدوى لأضغط على الزناد وعبثاً حاولت أن أقول شيئاً ما.

«لماذا لا تطلق النار عليّ؟».

تنحنحتُ لأزيل البحة التي منعتني من الكلام فقال ببطء:

«همپ، لا يمكنك أن تفعل ذلك، بالرغم من أنك لست خائفاً تماماً، ألا أنّك عاجز، أخلاقك التقليدية أقوى منك، أنت عبدٌ للآراء التي لها مصداقية بين الأشخاص الذين عرفتهم وقرأت عنهم، قرعت قوانينهم في رأسك منذ أن تعلمت الكلام، وعلى الرغم من فلسفتك، وما علمتك إيّاه أنا، فلن تسمح لك تلك الآراء والقوانين بقتل رجل أعزل دون مقاومة».

«أعلم ذلك». قلت بصوت أجش.

«وأنت تعرف أني قد أقتل رجلاً أعزل بالسهولة التي أدخّن فيها سيجاراً، أنت تعرفني على ما أنا عليه، وقيّمتني في العالم وفقاً لمعاييرك، كنت تدعوني بشتى الأسماء: الأفعى، والنمر، والقرش، والوحش، وكاليبان. ومع ذلك، أنت دمية صغيرة، أنت آلية صدى صغيرة، غير قادر على قتلي كما لو كنتُ ثعباناً أو سمكة قرش؛ لأن لديّ يدين وقدمين وجسماً يشبه إلى حد ما جسمك. أوه. كنت آمل بأشياء أفضل منك يا همپ».

ثم خرج من قاع الدرج وصعد نحوي.

«هلا أنزلت المسدس، أريد أن أطرح عليك بعض الأسئلة، لم تسنح لي الفرصة لأتفقد المكان بعد. ما هذا المكان؟ وكيف هي الشبح؟ وكيف أبلت؟ وأين هي مود، أوه اعتذر، الآنسة بروستر أم يجب أن أقول الآن السيدة فان وايدن؟».

تراجعتُ عنه قليلاً أكاد أبكي على عجزي عن إطلاق النار عليه، لكنني لم أكن غبياً لأخفض سلاحي، تمنيت بشدة أن يقوم بتصرف عدائي كأن يحاول خنقي أو يهاجمني؛ لأنها الطريقة الوحيدة التي ستجعلني أرديه قتيلاً.

«هذه جزيرة إنديفور».

«لم أسمع بها قط».

«على الأقل هذا ما نطلقه عليها من تسمية».

«تكلمت بصيغة الجمع، من أنتم؟».

«أنا والآنسة بروستر، أما بالنسبة للشبح فكما ترى ترقد ومقدمتها على الشاطئ».

«هناك عجول بحر هنا، أيقظني نباحها وإلا لكنت نائماً حتى الآن، سمعتها البارحة عندما أتيت إلى هنا وكانت هي التحذير الأول بأني في شاطئ محجوب عن الريح، إنها مغدفة، يا إلهي إنها ما كنت أبحث عنه لسنوات، وبفضل أخي ديث لارسن، فقد وقعتُ على ثروة، إنها ثروة كبيرة، ما هي الاتّجاهات؟».

«ليست لدي أدنى فكرة»، قلت: «لكن لا بد وأنك تعرف، ما هي آخر ملاحظاتك عن الاتّجاهات».

ابتسم بغموض ولم يُجب.

«حسناً، أين الطاقم، كيف حدث وأن بقيت وحدك؟».

وكنت مستعداً لأن يتجاهل سؤالي ويغير الموضوع لكن استعداده للإجابة فاجأني.

«أدخلني أخي في الضباب لثمانٍ وأربعين ساعة، ودون خطأ مني دنا من السفينة ليهاجمها ولم يكن على متنها سواي أنا وحارس مناوبة، وعندما عاد الصيادون، أعطاهم حصّة أكبر، سمعته يفاوضهم أمام عيني، وبطبيعة الحال تركني الطاقم كما هو متوقّع ورحلوا وها أنا وحيد على سفينتي وقد تقطعت بي السبل، كان دور ديث بالانتصار هذه المرة، وكلّه شأن عائلي على أية حال».

«أخبرني كيف فقدت الصواري؟».

«اذهب إلى هناك وتفقد هذه الحبال الصغيرة». وأشار إلى حيث من المفترض أن تكون حبال الشراع المِزِّيني.

«قُطعَت بسكين!». صرخت.

«ليس تماماً، كان عملاً أدقّ، انظر مرّة أخرى».

نظرت إليها، كانت الحبال مقطوعة تقريباً، تَرك منها ما يكفي لمسك الأغطية حتى تتعرض إلى ضغط قوي وتنهار.

«كوكي فعل هذا»، وضحك مرّة أخرى: «علمت بذلك بالرغم من أني لم أره يفعلها، أخذ بثأره نوعاً ما».

«حسناً فعل ماكريدج!».

«أجل هذا ما فكرت فيه عندما انتهى كلّ شيء، إلا أني كنت أقصد العكس».

«لكن ماذا كنت تفعل حين حصل كلّ هذا؟».

«أفعل ما بوسعي، كما تعلم، ولم يكن بالشيء الذي يذكر في ظل هذه الظروف».

عدت لأتمعن في ما فعله توماس ماكريدج.

«سأجلس وأستمتع بالشمس». سمعت وولف لارسن يقول.

كان في صوته تلميح لا أكثر عن ضعف جسده في صوته، وكان أمراً غريباً حتى إني نظرت بسرعة نحوه، كانت يده تتحرك بسرعة وعصبية على وجهه كما لو أنّه يزيل خيوط العنكبوت عنه، وقفتُ محتاراً؛ لأنه لا يشبه وولف لارسن الذي أعرفه البتة.

«كيف هي نوبات الصداع معك؟».

«لا تزال تزعجني، أظن أني سأصاب بإحداها الآن». ثم انزلق من وضعية جلوسه حتى استلقى على سطح السفينة، ثم تدحرج على جانبه، واستقر رأسه على العضلة ذات الرأسين تحت إبطه، وغطى عينيه عن الشمس بساعده، وقفت أتأمله بدهشة.

«إنها فرصتك يا همب».

«لم أفهم ما تعني». وكذبت لأني عرفت ما يروم إليه.

«أوه لا شيء»، قال بلطف كما لو أنّه على وشك أن يغطّ في نوم عميق: «فقط إنك نلت مآربك مني وأصبحتُ حيث تريدني أن أكون».

«لا. غير صحيح؛ لأني كنت أريدك أن تكون على بعد آلاف الأميال بعيداً عن هنا».

ضحك، ثم توقف عن الكلام تماماً، ولم يتحرك حتى عندما مررت بالقرب منه وذهبت إلى المقصورة، رفعت الباب المخفي ونظرت إلى الظلام الدامس في مستودع الأغذية، تردّدت في النزول، ماذا لو كان استلقاؤه هناك مجرد حيلة وأنه ينوي احتجازي هنا كفأر؟ صعدت الدرج بهدوء واسترقت نظرة نحوه كان لا يزال مستلقياً كما تركته تماماً، عدت مرّة أخرى لكن قبل أن أنزل أزلت الباب الخفي كي لا يكون هناك باب يوصد فوقي، لكن احتياطاتي كانت غير ضرورية؛ لأني عدت إلى المقصورة أحمل علب المربى وبسكويت البحر واللحم المعلب وأشياء أخرى أستطيع حملها ثم أعدت غطاء الباب السري إلى مكانه.

نظرة سريعة ألقيتها على وولف لارسن أكدت لي أنّه لم يتحرك، فخطرت فكرة ذكية على بالي، تسللت إلى غرفته الخاصة واستوليت على مسدساته، لم أجد أسلحة أخرى على الرغم من أني فتشت في باقي الغرف، وليطمئن قلبي، عدت إلى السلوقية والمُدَفّى وجمعت كلّ سكاكين المطبخ الحادة، بعدها تذكرت سكينهُ التي يحملها معه دائماً، أتيتُ إليه وتحدثت معه بهدوء، ثم بصوت عالٍ، لم يتحرك، فانحنيت وأخذتها من جيبه، حينها تنفست بحرية أكبر، لم يعد لديه سلاح يهاجمني به من بعيد بينما كنت مسلحاً، أصبح بإمكاني أن أسبقه بالفِعل إذا حاول أن يصارعني بذراعيه الشبيهتين بذراعي الغوريلا.

ملأتُ قدر القهوة والمقلاة بجزء من غنائمي وأخذت بعض الأواني الخزفية من حجرة المؤن وتركت وولف لارسن مستلقياً تحت الشمس وذهبت إلى الشاطئ.

كانت مود لا تزال نائمة حين أشعلت الجمرات (لم نرتب مطبخاً شتوياً بعد) وطبخت الفطور بسرعة محمومة، وقبل أن أنتهي بقليل سمعتها تتحرك في كوخها لتقضي حاجتها، وعندما جهز كلّ شيء وصُبّت القهوة، فتحت مود الباب واتجهت نحوي.

«هذا ليس عدلاً منك»، هذه تحيّتها: «أنت تغتصب إحدى صلاحياتي، أنت تعرف أنك وافقت على أن يكون الطبخ لي، و..».

«هذه المرة فقط».

«فقط إن وعدتني أنها آخر مرّة، ما لم تكن بالطبع قد سأمت من جهودي المتواضعة في الطبخ». قالت وهي تبتسم.

ولحسن الحظ، لم تنظر إلى الشاطئ أبداً، واستمرّيت أنا بالمزاح معها حتى أنها ارتشفت قهوتها من كوب خزفي دون أن تعي ذلك، وأكلت البطاطا المقلية ونشرت مربى البرتقال على بسكويتها. لكن الأمر لم يستمر؛ لأني رأيت نظرة التعجب في وجهها، لاحظت أخيراً طبق الخزف الذي كانت تأكل منه والطعام الذي أكلته، ثم دققت في كلّ التفاصيل تباعاً ونظرت اليّ أخيراً وأشاحت بوجهها ببطء نحو الشاطئ وقالت:

«همفري!». عاد إليها الرعب القديم وتصاعد في عينيها: «هل هو؟»، سألتني وهي ترتجف.

أومأت لها برأسي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثالث والثلاثون

انتظرنا أن يأتي وولف لارسن إلى الشاطئ اليوم بطوله، ومرّت علينا لحظات قلق لا تُطاق، وبين الحين والآخر كان أحدنا يسترق نظرة خاطفة نحو الشبح، لكنه لم يأتِ، ولم يظهر على سطح السفينة حتى.

«قد تكون إحدى نوبات صداعه، تركته مستلقياً في مؤخرة السفينة وقد يرقد هناك طوال الليل، سأذهب لأتفقدّه».

نظرت إليّ مود تتوسل أن لا أذهب.

«لا بأس». طمأنتها: «سآخذ مسدساتي معي وكما أخبرتكِ، جردت السفينة من السلاح».

«لكن لا تنس ذراعيه ويديه... يديه المرعبتين». اعترضت على كلامي، ثم صاحت: «أوه همفري. أنا خائفة منه لا تذهب، أرجوك لا تذهب».

وضعت يديها في يديّ استعطافاً فزاد نبض قلبي وكان قلبي بلا شك في عيني للحظات، إنها المرأة العزيزة والمحبوبة، امرأة بمعنى الكلمة تدنو مني وتستعطفني، كالشمس وقطرات الندى نزلت على رجولتي تُأصّلها أعمق وتمدّني بقوّة جديدة، كنت على وشك أن أمد يدي وأحضنها كما فعلت وسط قطيع العجول لكني فكرت في الأمر وعدلت عن ذلك.

«لن أقوم بأية مخاطرة، سأنظر بسرعة من قوس السفينة».

ضغطَت على يدي وتركتني أذهب، وعندما وصلت لم أجده حيث تركته، لا بدّ وأنه نزل إلى مقصورته، سهرنا ليلتها أنا ومود بنوبات حراسة ينام أحدنا ويحرسه الآخر، لا يمكن التكهن بما قد يفعل وولف لارسن، فهو قادر على أي شيء بكل تأكيد.

انتظرنا حتى اليوم التالي واليوم الذي بعده ولم يظهر.

قالت مود في ظهيرة اليوم الرابع: «ربما راودته إحدى نوبات صداعه العنيفة تلك، ربما هو مريض جداً، وقد يكون ميتاً».

«أو إنّه يحتضر». قالت بعدما انتهت من الكلام.

«أفضل».

«لكن يا همفري فكر فيه إنساناً مثلنا يقضي ساعاته الأخيرة وحيداً».

«ربما».

«نعم ربما، لكننا لا نعرف، سيكون الأمر فظيعاً لو كان كذلك، ولن أسامح نفسي أبداً، يجب أن نفعل شيئاً».

«ربما». قلت مرّة أخرى.

انتظرت ردّها وأنا أضحك في سري على هذه المرأة المُكرَهة على الاعتناء بوولف لارسن دونَ كلّ المخلوقات، أين كان خوفها وقلقها على سلامتي حين خشيت أن ألقي نظرة خاطفة على سطح السفينة؟

كانت حادّة الذهن ولم يفُتها مغزى صمتي، كانت مُباشِرة حين قالت:

«يجب أن تذهب إلى سطح السفينة يا همفري وترى ما الذي يجري، وإن أردت أن تسخر مني فلك كلّ العفو والغفران».

نهضتُ بطاعة واتجهتُ نحو الشاطئ.

«كُن حذراً». صاحت من خلفي.

لوحت لها بيدي عندما صعدتُ على رأس السلوقية، ثم نزلت إلى السطح، ومشيت نحو الممر المؤدي إلى المقصورة وناديت عليه في الأسفل، أجابني وولف لارسن وصعد الدرجات فرفعت مسدسي في وجهه، كان مصوباً نحوه طيلة المحادثة لكنه لم يعره اهتماماً، بدت حالته الجسدية كما هي عندما رأيته لكنه كان مكتئباً وصامتاً، في الواقع، لا يمكن أن نعدّ الكلمات القليلة التي تبادلناها محادثة، لم أسأله لماذا لم ينزل على الشاطئ، ولم يسألني لماذا لم أصعد إلى السفينة. كان رأسه على ما يرام من جديد وهكذا دون كلمة إضافية، تركته.

تلقت مود تقريري بارتياح واضح، وفرحت حين رأت الدخان الذي ظهر لاحقاً في المطبخ، وفي اليوم التالي، واليوم الذي بعده، رأينا دخان المطبخ يتصاعد، وكنا نلمحه في مؤخرة السفينة في بعض الأحيان ولكن هذا كان كلّ شيء، لم يبذل أيّة محاولة للقدوم إلى الشاطئ، نحن متأكدان من ذلك؛ لأننا ما زلنا نحافظ على ساعاتنا في الحراسة الليلية، كنا ننتظر منه أن يفعل شيئاً ما، وقد سبَّب تقاعسهُ حيرة وقلقاً لنا.

مر أسبوع على هذا الحال، كان وولف لارسن شغلنا الشاغل، وقد شكّل ظهوره عبئاً علينا بسبب المخاوف التي منعتنا من القيام بالأشياء الصغيرة التي خططنا لها.

ولكن بنهاية الأسبوع، توقف دخان الطبخ عن التصاعد من المطبخ، ولم يظهر على سطح السفينة مرّة أخرى، يمكنني ملاحظة اهتمام مود وقلقها المتزايد بالرغم من أن خجلها وكبريائها يمنعانها من تكرار طلبها مرّة أخرى، بعد كلّ شيء، كيف لي أن ألومها وهي امرأة بإيثار إلهي. فضلاً عن ذلك، كنت مدركاً لما يعنيه أن يحتضر الرجل الذي حاولتُ قتله وحيداً قرب جماعة من البشر، كان لارسن على حق، نواميس جماعتي أقوى مني، وحقيقة كونه يملك يدين وقدمين وجسماً مماثلاً لي تُحتم عليّ ألا أتجاهل الأمر.

لذا، لم أنتظر أن تُرسلني مود مرّة أخرى، اكتشفت حاجتنا لمربى البرتقال والحليب المكثف، فقلت لها إني ذاهب إلى السفينة لإحضارها، لاحظت تردّدها حتى أنها تمتمت إن هذه الأشياء ليست ضرورية ولا تستحق عناء المخاطرة والذهاب

لإحضارها، ومثلما فهمَت صمتي فقد فهمت كلامي، لم أذهب لأجل المربّى والحليب، وإنما ذهبتُ بسبب قلقها الذي فشلَت في إخفائه.

خلعت حذائي عندما وصلت إلى قمة السلوقية وذهبت بهدوء إلى الخلف أرتدي جوربيّ فقط، لم أنادِ عليه هذه المرة من أعلى الدرج، ثم نزلت بحذر ووجدت الكابينة فارغة وباب غرفته موصداً، فكرت أولاً بطرق الباب ثم تذكرت مهمتي الظاهرية وعزمت على تنفيذها، رفعت الباب المخفي بهدوء دون إصدار صوت ووضعته جانباً، كان متجر السفينة الصغير موجوداً داخل مستودع المؤن، فاغتنمت الفرصة وأخذت ملابس داخلية، وحين خرجت من المستودع سمعت صوتاً في غرفة وولف لارسن، قرفصتُ وأرهفتُ السمع، هز مقبض الباب بعنف، فتراجعت لا إرادياً خلف المنضدة وسحبت مسدسي، فتح الباب وتقدم منه، لم يسبق لي أن رأيت يأساً عميقاً كما رأيته على وجهه، وجه وولف لارسن المقاتل، الرجل القوي الذي لا يُقهر، كأنه امرأة تفرك بيديها، رفع قبضته المشدودة وتأوه من الألم، كانت إحدى قبضتيه مفتوحة يمرر راحة يده على عينيه كما لو أنّه يزيل خيوط العنكبوت.

«يا إلهي! يا إلهي». تأوه من جديد وارتفعت قبضته مرّة أخرى بيأس لانهائيّ اهتزت معه حنجرته.

كان الأمر مريعاً، كنت أرتجف من رأسي حتى أخمص قدمي، وأكاد أشعر بالرعشة تسري في جسدي وتقف عند جبهتي، لا شيء أسوأ من منظر رجل قويّ وهو في أشد حالاته ضعفاً وانكساراً.

لكن وولف لارسن استعاد سيطرته على نفسه ببذل إرادته الاستثنائية، كان جهداً بلا شكّ لأن جسده بالكامل كان يرتعش وهو يناضل، بدا لي كأنه على وشك أن يُصاب بنوبة، وجهه يتلوى في محاولة ليمسك نفسه لكنه ينهار مرّة أخرى ويرفع قبضته إلى الأعلى ويتأوّه، ثم التقط أنفاسه للحظات وبدأ ينتحب حتى نجح في مهمته، يكاد يكون وولف لارسن القديم لكن شيئاً ما في حركته يدلّ على ضعفٍ وتردّد، صعد درجات السلم واتّجه إلى الأمام كما اعتدت أن أراه، لكن في مشيته نفسها لمحت تردّده وضعفه.

خفت على نفسي؛ لأن الباب المخفي المفتوح كان في طريقه مباشرة وعندما يكتشفه سيعلم بوجودي، كنت حانقاً على نفسي؛ لأني وضعتها في موقف جبان كهذا، رابضاً على الأرض، لكن لا يزال لدي الوقت للهرب، نهضتُ بسرعة على قدمي وأعلم أنّه موقف جريء قمت به دون وعي مني أو دراية، لكن لحسن الحظ لم يلاحظني ولم ينتبه للباب المفتوح، وقبل أن أتمكّن من القيام بأي شيء، وقع مباشرة في الفخ وسقطت إحدى قدميه في فتحة الباب بينما كانت الأخرى على وشك أن ترتفع، وعندما خطت القدم في الفراغ عاد وولف لارسن القديم وتحركت عضلات النمر حتى سقط بقفزة ووقع على صدره ومعدته واستدار واقفاً على الفور، لكنه خطى على الملابس الداخلية ومربى البرتقال التي جمعتها والباب المخلوع.

كان وجهه يدل على أنّه أدرك الوضع تماماً، وقبل أن أتمكن من تخمين ما أدركَ، أعاد الباب المخفي إلى مكانه وأغلق المستودع، عندها فهمت، ظنّ أنّه حبسني في

الداخل، ولاحظت أنّه أعمى كخفاش، راقبته يتنفس ببطء ليتمكن من سماعي ثم ذهب بسرعة إلى غرفته وحاول إمساك مقبض الباب، لكنه أخطأه ببوصة، بحث عنه بسرعة ثم وجده، كانت هذه فرصتي، مشيتُ على أطراف أصابعي في المقصورة إلى أعلى الدرج، عاد من جديد يحمل صندوقاً ثقيلاً وضعه فوق الباب المخفي وعاد مرّة أخرى ووضع صندوقاً آخر فوق الأول، ثم جمع مربى البرتقال والملابس الداخلية ووضعها على الطاولة وعندما صعد الدرج الداخلي تراجعت وتدحرجت فوق المقصورة بحذر.

دفع مزلاج الباب قليلاً وأطل برأسه منه واستقرت يده عليه بينما كان جسده بالكامل في الدرج الداخلي.

كان منظره كمن ينظر إلى السفينة على طولها أو كمن يحدّق بعيداً؛ لأن عينيه كانتا ثابتتين ولا ترمشان، كنت على بعد خمسة أقدام فقط من مجال رؤيته، شعرت بنفسي كأنني شبح، خارقٌ للطبيعة، خفيّ، لوّحت له بيدي لكنه لم يتأثر، ولكن، عندما تحرك الظل على وجهه استجاب، تشنج وجهه وأصبح أكثر ترقباً وحاول أن يحلل ويحدد الانطباع الذي تولد لديه، علِم أنّه استجاب لشيء خارجي وبأن حساسيته تأثّرت بتغيّر شيءٍ ما في بيئته، لكنه لم يكتشف ما هو، حرّك رأسه جيئة وذهاباً تحته واستدار يميناً وشمالاً وهو الآن تحت أشعة الشمس، ثم في الظلال، يختبره كما هو، عن طريق الإحساس.

انشغلت أنا أيضاً بمحاولة فهم كيف كان يدرك وجود شيء غير ملموس كالظل، لو كانت مقلتا عينيه هما الوحيدتان اللتان تأثّرتا، ولم يتلف العصب البصري بالكامل، فإن التفسير بسيط، أما لو كان الأمر خلاف ذلك، فالاستنتاج الوحيد الذي استطعت الوصول إليه هو أن الجلد الحساس أدرك الفرق في درجة الحرارة بين الظل وأشعة الشمس. أو ربما... من يعلم، قد تكون الحاسة السادسة الخيالية هي من أوحت له بأن جسماً ما قريب منه.

وبعد أن يئس من محاولاته لتحديد مصدر الظل، صعد إلى سطح السفينة وبدأ يمشي بثقة وسرعة فاجأتني أنّه أبدى قليلاً من ضعف مشية الأعمى، وهو أمرٌ أدركته الآن، ولدهشتي، وجد حذائي على رأس السلوقية وجلبه معه إلى المطبخ، ثم بدأ بإعداد الطعام لنفسه، تسللت إلى المقصورة؛ لآخذ مربى البرتقال والملابس الداخلية، ثم عبرت المطبخ، ونزلت إلى الشاطئ حافي القدمين؛ لأبلغ مود بما رأيت.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الرابع والثلاثون

«من المؤسف أن الشبح فقدت صواريها، لكنّا أبحرنا بها، ألا تعتقد أنّه بإمكاننا فعل هذا يا همفري؟».

وقفت من الحماس على قدمّي وقلت وأنا أجوب المكان ذهاباً وإياباً: «أتساءل... أتساءل..».

أشرقت عينا مود وهي تتبعني بحماس وترقّب، كانت تؤمن بي وهذه قوة إضافية لي، تذكّرت كلمات ميشليت([47]): «المرأة بالنسبة للرجل كالأرض لابنها الأسطوري، لا يملك إلا أن يسقط ويُقبّل صدرها ليعود قوياً كما كان». ولأول مرّة أعرف جمال حقيقة كلماته لأني عشتها، مود هي كلّ هذا بالنسبة لي، معين لا ينضب من القوة والشجاعة، مجرد النظر إليها أو التفكير فيها يجعلني أقوى وأشجع.

«يمكننا فعلها»، كنتُ أفكّر بصوتٍ عالٍ: «أستطيع أن أفعل ما فعله الرجال، وإن كانوا لم يفعلوه من قبل فسأفعله».

«ماذا؟ حباً بالله على رسلك، ما الذي يمكنك فعله؟».

«يمكننا فعله»، صحّحت كلامي: «لا يلزمنا سوى إعادة الصواري إلى مكانها لتبحر الشبح من جديد».

«أوه همفري!». قالت بابتهاج.

شعرت بالفخر لتصوّري الفكرة كما لو أنها حقيقة منجزة على أرض الواقع.

«لكن كيف يمكننا القيام بذلك؟».

«لا أعلم، كلّ ما أعلمه هو قدرتي على فعل أيّ شيء هذه الأيام».

ابتسمت بفخر، وتفاخر أمامها فأخفضَت عينيها وصمتت للحظات، ثم قالت معترضة:

«وماذا عن وولف لارسن؟».

«أعمى وعاجز». أجبتها باقتضاب وأبعدته عن المشهد وكأنه قشّة.

«لكن، ماذا عن يديه المرعبتين؟ أنسيت أنّه وثب عليهما عندما سقط داخل المستودع؟».

«وكما تعلمين، تسلّلت خلفه وتفاديته». أجبتها بمرح.

«وفقدت حذاءك».

«أنت لا تتوقعين أن بإمكان حذائي الهروب من وولف لارسن من غير أن أرتديه؟ أليس كذلك؟».

وضحك كلانا، ثم بدأنا التخطيط بجدية لوضع صواري الشبح في مكانها والعودة إلى العالم الحقيقي، أتذكر المعلومات الفيزيائية التي تلقيتها في المدرسة بصورة ضبابية لكن الأشهر المنصرمة أعطتني الخبرة العملية للمعدات الميكانيكية، ومن الجدير بالذكر، أننا عندما ذهبنا لتفقد الشبح عن كثب لتحديد المهمة التي نحن بصددها، كاد منظر الصواري العظيمة الممدّدة في الماء أن يثبط عزيمتي، من أين نبدأ؟ فلو كان هناك واحد منها واقفاً على الأقل، أو أي شيء عالٍ يمكن أن نربط عليه البكرات والقطع الباقية، لكن لا شيء هناك، ذكرتني هذه بمسألة الشخص الذي كان عليه أن يرفع نفسه برباط حذاءه، أنا أفهم ميكانيكية العتلات لكن كيف سأحصل على نقطة ارتكاز؟

قطر الصَّاري الرئيسي خمس عشرة بوصة، وما بقي منه بطول خمسة وستين قدماً ويزن على الأقل ثلاثة آلاف رطل، أما الصَّاري الثانوي، فقطره أكبر من الرئيسي ويزن قرابة الثلاثة آلاف وخمسمائة رطل، من أين أبدأ؟ وقفت مود إلى جانبي بصمت بينما طورت في ذهني ما يعرف بين الصيادين باسم «المجزّات» لكن، بالرغم من أنها معروفة بينهم إلا أني اخترعتها هنا على جزيرة إنديفور بواسطة تقاطع عضدين طوليين مربوطين بجلود، ثم أرفعهما في الهواء ليشكلا حرف «V» ويمكنني أن أجد نقطة على سطح السفينة لربط بكرات رفع ويمكنني ربط بكرة أخرى لهذه إذا اقتضت الضرورة وبالنهاية سأحصل على مِرفاع.

لاحظت مود أني وجدت الحل، فتوهجت عيناها تعاطفاً معي، وسألتني: «ماذا ستفعل؟».

«أزيل سقط المتاع هذا». وأشرت إلى كومة الحطام المتشابكة.

كم هو جميل وقع الحزم في نطقي للكلمات بحد ذاتها على أذني: «أُزيل سقط المتاع!»، أتخيل كم هي مزعجة هذه الجملة لهمفري فان وايدن قبل عدة أشهر. لا بد وأن صوتي أو وقفتي كان فيها ميلودرامية جعلت مود تبتسم، تقديرها للتوافه كان حاداً، وهي تراها وتشعر بها بكل وضوح كتزييف الحقائق أو التظليل أو الدلالات الأخرى، وكان هذا ما أعطى وقاراً وتغلغلاً لأعمالها وجعلها تساوي العالم أجمع، لا بد وأن يستحوذ الناقد الجاد الذي يتحلى بحس الفكاهة وقوة التعبير على أذن العالم أجمع، وهكذا فعلت هي، إن إحساسها وروح دعابتها ما هي إلا غريزة الفنان في جعل الأشياء متناسقة.

«أنا متأكدة أنّي قرأتها في كتاب ما من قبل». تمتمت بمرح.

ولديّ أنا أيضاً غريزة التناسق تلك وقد انتكست الآن، انحدرتُ من الوضع المسيطر لسيد الموقف إلى ارتباك متواضع بائس وتعيس على أقل تقدير.

مدّت يدها سريعاً وأمسكت بيدي وهي تعتذر: «أنا آسفة جداً».

«لا داعي لذلك، هذا أمر جيِّد بالنسبة لي، لا يزال فتى المدرسة موجوداً فيّ وهو أمر لا هنا ولا هناك، ما نحتاج القيام به فعلاً هو التخلص من هذه القمامة حرفياً، وإن أتيتِ معي في القارب، سنعمل معاً لإعادة الأمور إلى نصابها».

قالت كلاماً مقتبساً: «عندما يُزيل الرجال سقط المتاع وهم يضعون سكاكينهم الحادة بين أسنانهم».

وأمضينا بقية النهار نعمل بمرح وجد.

كانت مهمتها إبقاء القارب في مكانه بينما أعمل على حلّ التشابك ـ وأي تشابك كان! ـ حبال الرايات والقماش والشدّادات والساحبات السفلية والمشد والأغطية وغيرها، كلها متشابكة ومتداخلة في بعضها وزاد البحر من هذا التشابك، لم أقطع إلا ما كان ضرورياً، وتابعت تمرير الحبال الطويلة تحت وحول البكرات والصَّاري وفتح حبال الكرّ والأغطية من أن تلتف في القارب وتفتح من جديد لتمرير عقدة أخرى حتى وصل البلل إلى عظامي.

أما الأشرعة فقد احتجت إلى قطعها في بعض المواضع، وخارت قواي حتى تمكنت من رفع قماش الشراع المثقل بالمياه ونشره على الشاطئ ليجف قبل حلول المساء بقليل، كنّا متعبين للغاية حتى وقت العشاء لكننا قمنا بعمل جيد على الرغم من أنّه يبدو غير ذي أهمية.

وفي صباح اليوم التالي، أخذتُ مود لمساعدتي وذهبنا إلى السفينة لننظف الدرجات وأعقاب الصواري، وما أن بدأنا في الضرب والطرق حتى جاء وولف لارسن وصاح علينا من فوق فتحة الخزان:

«مرحباً يا من في الأسفل».

أخاف صوته مود فأتت إلى جانبي لحمايتها وكانت تمسك بذراعي ونحن نتفاوض مع العدو.

«مرحباً يا من على السطح، صباح الخير».

«ماذا تفعلان هناك في الأسفل؟ أتحاولان خرق سفينتي لتغرق؟».

«على العكس من ذلك، أحاول إصلاحها».

«أتصلحها بهذا الطرق الرهيب؟» كانت الحيرة واضحة في صوته.

«أنا أقوم بإعداد كلّ شيء لنعيد الصواري إلى مكانها». أجبته ببساطة كما لو أنها أسهل مهمة يمكن تخيلها.

«يبدو أنك تقف على قدميك أخيراً يا همپ»، ثم تابع بعد توقف للحظات:

«لكني أقول لك يا همپ أنك لا تستطيع فعلها».

«بلى أستطيع، وأنا أقوم بذلك الآن».

«لكنها سفينتي، ممتلكاتي الخاصة، ماذا إن منعتُك؟»

«نسيتَ أنّك لم تعد الهياج الأكبر بعد أن كُنتَ كذلك فيما مضى، وكنت قادراً على أكلي، كما يحلو لك صياغة الأمر على هذا النحو، لكن الأحوال تغيرت وهياجك تناقص وبإمكاني أكلك الآن بعد أن تعفنت خميرتك وزالت نضارتها».

أطلق ضحكة كريهة قصيرة وقال: «أرى أنك تعيد فلسفتي عليّ مرّة أخرى؛ لأنها ما تستحقه، لكنّي أحذرك ألّا تخطئ في تقدير بطشي وتستهين بي، لمصلحتك الشخصية».

«منذ متى أصبحتَ فاعل خير، تعترف الآن حين تحذرني لمصلحتي الشخصية بأنك ثابت على مبدأ».

تجاهَل سخريتي وقال: «لنفترض أني أغلقت باب الكوة الآن، ماذا ستفعل؟ لا يمكنك خداعي كما فعلت في مستودع المؤن».

«وولف لارسن»، تحدّثت معه بصرامة، ولأوّل مرّة أخاطبه بهذا الاسم المألوف: «أنا غير قادر على إطلاق النار على رجل عاجز لا يقاوم، لقد أثبتت ذلك لقناعتك وقناعتي أنا أيضاً، لكني أحذّرك الآن، لا من أجل مصلحتك الشخصية بل من أجلي أنا، إني مستعد لإطلاق النار عليك في اللحظة التي تحاول فيها القيام بأي عمل عدائي، يمكنني إطلاق النار عليك الآن، وأنا أقف هنا. وإذا كنت عازماً على فعل ذلك، فما عليك سوى المضي قدماً ومحاولة غلق باب الكوة».

«ومع ذلك، فأنا أمنعك، ها قد حرّمت عليك بوضوح العبث بسفينتي».

«ولكن يا رجل! أنت تُقدّم حقيقة أنها سفينتك كما لو كانت حقاً معنوياً وأخلاقياً، في حين أنك لم تفكر أبداً في الحقوق الأخلاقية في تعاملك مع الآخرين؛ لذا لا تحلم بأنني سأتعامل معك بها».

تقدّمت تحت فتحة الكوة لأنظر إليه، كان وجهه الخالي من أيّة تعابير يختلف كثيراً عما كنت أتخيله في العتمة، وقد عزّزت الأمر عيناه اللتان تحدقّان باستمرار دون أن ترمشا، كان وجهاً غير محبّب لتنظر إليه.

«لا أحد متواضعٌ في هذه الدنيا ولا حتى همپ لتحترمه». وكانت السخرية واضحة بصوته ووجهه يخلو من أي تعبير، ثم قال فجأة بعد توقف: «كيف حالكِ يا آنسة بروستر؟».

تفاجأتُ من سؤاله؛ لأنها لم تتحرك ولم تصدر أيّ صوت، أيعقل أن يكون في عينيه بصيص من النور أم أن بصره يعود إليه من جديد؟

«كيف حالك قبطان لارسن؟ أرجوك أخبرني كيف علمت بوجودي هنا؟».

«سمعت تنفسك، أنا أقول أن همفري يتحسن، ألا تظنين ذلك؟».

«لا أعلم»، قالت وهي تبتسم لي: «لم أره عكس ذلك».

«كان عليكِ رؤيته في السابق».

«وولف لارسن بجرعات كبيرة»، تمتمتُ: «قبل وبعد أخذ الدواء».

ثم قال بنبرة تهديد: «ها أنا أخبرك مرّة أخرى يا همپ، من الأفضل لك أن تترك الأمور على حالها».

«لكن ألا تفكر في الهرب كما نفعل نحن؟». سألتَهَ غير مصدّق لما يقول.

«لا. أنوي أن أموت هنا».

«حسناً. أما نحن فلا». قلت بحزم وعدت إلى الطرق من جديد.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الخامس والثلاثون

في صباح اليوم التالي، كانت درجات الصَّاري نظيفة وكلّ شيء جاهزاً، جلبنا الدَّقَلين([48]) المتوسطين إلى سطح السفينة، يبلغ طول الصاري الأعلى([49]) أكثر من ثلاثين قدماً وطول الصاري الأمامي الأعلى بحدود الثلاثين، اعتزمتُ صنع المجزّات من هذه الصواري، كان عملاً محيِّرا بالفعل، وبعد أن ربطت أحد طرفي البكّارة([50]) الثقيلة بالمِرفاع وربطت الطرف الآخر بقاعدة الصَّاري الأمامي الأعلى، بدأت أرفع، وكان دور مود هو تشغيل المِرفاع وربط الحبل المرتخي.

فوجئنا من السهولة التي رُفع بها الصَّاري، كلّ هذا بسبب مِرفاع الكرنك المحسن الذي أعطى ثبوتية هائلة على السطح الزلق، وما أعطانا من قوة عوَّضنا عنه بالمسافة، وكلما تضاعفت القوة تضاعف طول الحبل الذي عليّ سحبه، أحتكّت البكّارة عبر الدرابزين بقوّة وزادت سرعة الاحتكاك كلما ارتفع الصَّاري من الماء أكثر مما أدى إلى زيادة الإجهاد على المِرفاع بدرجة كبيرة.

ثم توقّف كلّ شيء عن الحركة عندما وصلت قاعدة الدَّقَل المتوسط بمستوى حافة السفينة.

«كان يجب أن أُخمن ذلك». قلت بنفاد صبر: «والآن يجب أن نعيد الكرة من جديد».

«لماذا لا نُحكم ربط البكّارة جزئياً أسفل الصَّاري؟». اقترحت عليّ مود

«هذا ما كان عليّ فعله من البداية». أجبت وأنا حانق على نفسي.

أنزلتُ الصَّاري إلى الماء مرّة أخرى وربطت البكّارة ثلث المسافة إلى قاعدته، وبعد مرور ساعة ـ من ضمنها فترات استراحة أقضيها بين سحبي للحبل والتوقف ـ وصلتُ إلى مرحلة عجزت فيها عن السحب، كانت قاعدته على ارتفاع ثمانية أقدام من الدرابزين وأبعد ما يكون من أن يصل الصَّاري على سطح السفينة، ولم يمضِ وقت طويل على جلوسي أفكر في المشكلة حتى قفزت على قدمي فَرِحاً.

«وجدت الحل! يجب أن أجعل حركة البكّارة سريعة عند نقطة الاتّزان، وما نتعلمه من هذا سيخدمنا بكل شيء آخر نرفعه على سطح السفينة».

وفككت كلّ عملي مرّة أخرى وأنزلت الصَّاري إلى الماء، لكني أخطأت حساب نقطة الاتّزان هذه المرة، وعندما سحبت ظهَرت قمة الصَّاري إلى الأعلى عوضاً عن قاعدته، نظرت مود بيأس لكني ضحكت وقلت أنّه سيفي بالغرض.

بعد أن وجّهتها كيف تمسك الدوران وتكون مستعدة لترخي الحبل عندما آمرها بذلك، أمسكتُ بالصَّاري بيدي العاريتين وحاولت موازنته داخل السفينة عبر الدرابزين، وعندما فكرت بأني أسيطر على الوضع أمرتها بأن ترخي الحبل، ماهي الا لحظات حتى عدل الصَّاري وضعيته رغم كلّ جهودي وسقط في الماء مرّة

أخرى، ورفعته مرّة أخرى لوضعه القديم وكانت لدي فكرة جديدة، تذكرت بكارة الحراس (عدّة صغيرة مزدوجة ومفردة) وذهبت لإحضارها.

وبينما كنت أربط الحبال بين مقدمة الصَّاري والسياج المعاكس، جاء وولف لارسن ولم نتكلم بشيء سوى تبادل تحية الصباح، وبالرغم من أنّه لا يرى، إلا أنّه جلس على السياج بعيداً عن الطريق وتتبّع سير عملي بالصوت.

ومرة أخرى، أمرتُ مود بأن تلزم مكانها وترخي المِرفاع عندما أعلمها بذلك، وتابعت الرفع باستخدام عدّة الحراس فتأرجح الصَّاري ببطء حتى اتّزن بالزوايا الصحيحة عبر السياج، ثم اكتشفت أن لا حاجة لأن ترخي مود الحبال بل في الواقع كنّا نحتاج العكس، أي أن نحرك البكّارة بسرعة، تابعت الرفع مستخدماً المرفاع ورفعت الصَّاري ببطء حتى أصبح بالكامل على سطح السفينة.

نظرت إلى ساعتي وكانت تشير إلى الثانية عشر، شعرتُ بإرهاق وتعب شديد وبالجوع كذلك، ولم يكن هناك سوى خشبة بناء واحدة لتدل على عملنا بأكمله، وللمرة الأولى أُدرك حجم المهمة التي نحن بصدد تنفيذها، لكني أتعلم، أحرزنا المزيد من الإنجازات خلال فترة الظهيرة بعدما عدنا في تمام الواحدة مرتاحين واستعدنا قوتنا بوجبة طعام دسمة.

رفعت الصَّاري الأعلى على سطح السفينة في أقل من ساعة، وبدأت ببناء المجزّات وربطنا الدقلين المتوسطين معاً من جديد وسوّينا فرق الطول بينهما، وعند نقطة التقاطع هذه ربطت القطعة المزدوجة من مَخنق الكرّ الرئيسي، واستخدمت القطعة المنفردة منه لصنع بكّارة رفع، وثبَّتُّ الأوتاد السميكة بمسامير؛ لمنع أعجاز الصواري من الانزلاق على السطح، وأصبح كلّ شيء جاهزاً، ثم ربطتُ سلكاً بقمة المجزّات وأوصلته مباشرة إلى المرفاع، أصبحت أثق بهذه الآلة التي مدّتني بقوّة تفوق توقعاتي، وكالعادة كانت مود تتحكم بالاستدارة وأنا أرفع، وأخيراً ارتفعت المجزّات في الهواء.

ثم اكتشفت أنيّ نسيت حبال التثبيت فاستوجب الأمر أن أتسلّق المجزّات، وفعلتها مرتين حتى انتهيت من تثبيت الحبال الأمامية والخلفية لكلا الجانبين، كان الشفق قد ظهر حينما أتممتُ هذه المهمة، أما وولف لارسن الذي جلس واستمع طيلة فترة الظهيرة، ولم ينبس بكلمة فقد نهض الآن من مكانه وذهب ليعد لنفسه العشاء، شعرت بظهري يتصلب وتمكنت من أن أستقيم بوقفتي بصعوبة، لكنّي شعرت بفخر وأنا أنظر إلى ما صنعته يداي، اجتاحتني رغبة شديدة بأن أرفع شيئاً بمجزّاتي كطفل يجرب بلعبة جديدة.

«أتمنى لو أن الوقت كان أبكر، وددت أن أرى كيف تُبلي».

«لا تكن شرِهاً يا همفري»، قالت وهي تضحك: «تذكر أن يوم غدٍ آتٍ لا محالة، وأنت متعبٌ للغاية الآن، إذ لا يمكنك الوقوف».

«وأنتِ أيضاً؟»، قلت باهتمام مفاجئ: «لا بد وإنكِ متعبة للغاية، عملتِ بجدٍ ونبل، أنا فخور بكِ يا مود».

«لن يبلغ فخرك نصف ما أكنّه لك من فخر واعتزاز ولا حتى نصف أسبابه». أجابت وهي تنظر إلى عينيّ مباشرة للحظات، وكانت عيناها تشعّان خجلاً لم ألحظه فيهما من قبل، لكنّه مدني بجرعة فرح أجهل أسبابه، ثم أخفضت عينيها وقالت وهي تنظر لي مرّة اخرى:

«انظر إلى حالنا الآن، لو أن أصدقاؤنا يروننا في هذه الحالة، هل توقفت للحظة لتنتبه كيف نبدو؟».

«نعم، لطالما تمعنت مظهرك». أجبتها وأنا مشوّش البال لما رأيته في عينيها وأكثر؛ لأنّها غيرت الموضوع.

«يا للسماوات! بالله عليك قل لي كيف أبدو؟».

«أخشى أن عليَّ القول أنكِ تبدين كفزّاعة، نظرة واحدة لتتّورتك القذرة ـ على سبيل المثال ـ كفيلة بذلك، ورؤية هذه الدموع الثلاث في الزاوية وهذا الخصر! لن نحتاج إلى شارلوك هولمز ليخبرنا بأنكِ كنتِ تطبخين طعامك على الحطب ناهيك عن زيوت عجول البحر ورائحتها، وفوق كلّ هذا، هذه القبعة وكل ما ذكرته، يشكّل المرأة التي كتبت (قُبلة مُحتملة)».

فأغدقت عليّ بالمجاملات والرسميات حين قالت: «أما بالنسبة لك يا سيدي..».

ومع ذلك، فقد تخلل الخمس دقائق التي انقضت بالمزاح شيء جدّي كان مضمراً بين طيّات المرح نَسبتهُ إلى التعبير الغريب والعابر الذي لمحته في عينيها، ماذا كان؟ أيعقل أن تتحدث عيوننا رغماً عن إرادتنا؟ أعلم أن عينيّ فضحتاني حتى اكتشفتُ ذلك وأخرستهما، وقد خانتني عيناي عدة مرات، لكن هل رأت ضجة حبي فيهما وفهمَت؟ وهل تحدّثت معي عيناها؟ ماذا يمكن أن يعني هذا التعبير؟ هذا الضوء الخجول الذي تراقص في عينيها وشيء آخر تعجز الكلمات عن وصفه، ومع هذا لا يمكن أن يكون هذا حباً، من المستحيل عدّه هكذا؛ لأني لا أفقه كلام العيون ولأني أنا همفري فان وايدن صديقها المحبّ للكتب الذي يكتفي بأن يحبّها وينتظر أن يستحق حبها بجدارة، وهذا بحدّ ذاته كافٍ بالنسبة له، وهكذا، كانت هذه الأفكار تجول ببالي حتى عندما كنّا نمزح بشأن مظهرنا، وبعد أن وصلنا إلى الشاطئ كانت هناك أمورٌ أخرى للتفكير فيها.

«إنه لأمر محزن أن لا نستطيع الحصول على ليلة هانئة ونوم دون انقطاع بعد ما عملنا بجد طيلة النهار». تذمرت بعد أن أنهينا عشاءنا.

«لكنّه رجلٌ أعمى، ولا يمكن أن يشكّل خطراً بالنسبة لنا، أليس كذلك؟».

«لن أثق به أبداً، والآن أكثر بعد أن أصبح أعمى؛ لأن عجزه قد يحيله أكثر خبثاً من أيّ وقت مضى، أعرف ما سأقوم به يوم غد، مع أول خيط للصباح سأرمي مرساة الشبح في البحر وأبعدها عن الشاطئ، وفي كل ليلة نعود إلى الشاطئ باستخدام القارب وسيبقى السيد لارسن حبيساً في سفينته، ستكون هذه آخر ليلة نتناوب فيها للحراسة وستغدو الأمور أسهل».

استيقظنا مبكرَين وأنهينا فطورنا قبل أن يبزغ الصباح.

سمعت مود تصرخ بفزع وتوقفت فجأة: «أوه همفري!».

نظرت إليها وهي تنظر صوب الشبح، لم ألمح شيئاً عندما تبعت نظراتها فنظرت لي وقالت وصوتها يرتعش:

«المجزّات».

كنت قد نسيت وجودها وعندما نظرت مرّة أخرى لم تكن هناك.

«إن كان..». قلت بوحشية.

وضعت يدها على يدي وقالت بتعاطف: «سيتعين عليك أن تبدأ من جديد».

«أوه صدقيني، غضبي لا يعني شيئاً؛ لأني لا أستطيع أن أؤذي ذبابة»، وابتسمت بمرارة: «وأسوأ من ذلك، إنه يعرف ذلك، أنتِ على حق، إذا كان قد دمر المجزّات، فلن أفعل شيئاً سوى البدء من جديد».

«لكنني سأقضي وقت حراستي على متنها فيما بعد»، قلت دون تفكير بعد لحظات: «وإذا تجرّأ على التدخل..».

قالت مود عندما عدت لنفسي: «لكنني لا أجرؤ على البقاء على الشاطئ طوال الليل وحدي، سيكون ألطف بكثير إذا كان ودوداً معنا وساعدنا، يمكننا أن نعيش جميعاً بشكل مريح على متن السفينة».

«سنفعل»، أكّدت لها بعصبيّة؛ لأن تدميره للمجزّات آلمني بشدة: «وانتهى الأمر، سنعيش أنا وأنتِ مع وولف لارسن سواء كان ودياً أم لا».

ثم ضحكتُ لاحقاً وقلت: «إنه تصرف صبياني، أن يقوم بهكذا فعل وأن أستشيط غضباً عليه».

لكن قلبي آلمني بشدة حين صعدنا إلى سطح السفينة ورأينا الخراب الذي قام به، اختفت المجزّات كلياً وقُطعت حبال التثبيت يميناً ويساراً، ومخنق الكرّ الذي صنعته كان مقطوعاً من كلّ الاتّجاهات، وقد علِم أني لا أعرف كيف أجدل الحبال، فخطرت على بالي فكرة وركضت إلى المِرفاع ووجدته لا يعمل لأنه أتلفه، نظرنا إلى بعضنا بعضاً، ثم ركضت إلى الجانب حيث الصواري والأعمدة والقاريات التي جمعتها من الركام اختفت كذلك، يبدو أنّه وجد الحبال التي تُمسكها ورماها ليجرفها البحر.

امتلأت عينا مود بالدموع، وأعتقد إنها ذرفتها من أجلي؛ لأني كدت أبكي، أين مشروعنا لإعادة الشبح إلى العمل من جديد؟ لقد أنجز عمله بإتقان، جلستُ على فتحة الكوّة ووضعت ذقني على راحتيّ يدي واستسلمت لليأس وصرخت:

«يستحق الموت، وليسامحني الله لستُ رجلاً بما فيه الكفاية لأقتصّ منه».

لكن مود كانت إلى جانبي وبدأت تمرّر يدها بهدوء في شعري كما لو كنتَ طفلاً وهي تقول: «اهدأ. كلّ شيءٍ سيكون على ما يرام، نحن على صواب، ولا بد أن يكون كلّ شيء على ما يرام».

تذكرت كلام ميشليت وملتُ برأسي عليها، وأصبحتُ أقوى من جديد، إن هذه المرأة المباركة معينٌ لا ينضب من القوة لي، ماذا يهم؟ ما حصل كان نكسة وتأخيراً لا أكثر، ولا يمكن أن يكون المدّ قد جرف الصواري بعيداً لأن الريح كانت ساكنة، هذا يعني أن أمامنا المزيد من التعب والعمل لإيجادها وإعادتها إلى مكانها من جديد، فضلاً عن ذلك، كان هذا درساً لأعلم ماذا أتوقع منه، كان من الممكن أن ينتظر حتى ننجز المزيد من العمل ويدمره لاحقاً.

همست مود: «ها قد أتى».

نظرت إلى الأعلى ورأيته يمشي على مهل في مؤخرة السفينة، ثم همست لها:

«لا تعيريه اهتماماً، جاء ليرى كيف نتعامل مع الأمر، لا تجعليه يعلم أننا عرفنا بفعلته، نريد حرمانه من لذّة انتصاره، اخلعي حذاءكِ ـ أجل هكذا ـ واحمليه بيدك».

ثم لعبنا الغميضة مع الرجل الأعمى، بينما جاء إلى ميسرة مؤخرة السفينة تسللنا إلى الميمنة وراقبناه وهو يستدير ويتبع خطانا.

لا بد وأنه علم أننا على سطح السفينة بطريقة ما؛ لأنه قال وبثقة عالية: «صباح الخير». وانتظر أن نرد عليه التحية، ثم تمشّى إلى الخلف فتقدمنا إلى الأمام.

«أوه. أعلم أنّكما على متن السفينة». صاح علينا، ويمكنني أن أراه وهو يرهف السمع بعد ما تحدث.

ذكّرني بالبومة التي تصغي بعد أن تطلق صوتها المدوي لتثير فريستها الخائفة، لكنه لم يُثِرنا، تحركنا عندما يتحرك فقط، وهكذا راوغناه على سطح السفينة كما قد يفعل طفلان مع غولٍ شرّير، حتى سأم وولف لارسن وذهب إلى مقصورته مشمئزًّا منا، كانت الفرحة في عيوننا والضحكات المكبوتة في فمينا ونحن نرتدي أحذيتنا ونتسلق السياج لنعود إلى القارب، وعندما نظرت إلى عيني مود البُنّيتين، نسيت ما فعله هذا الشرير، وكل ما أعرفه هو أني أحبها وبسببها كانت لدي القوة؛ لأجد سبيلاً نعود به إلى العالم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل السادس والثلاثون

جبنا البحر أنا ومود واستكشفنا الشواطئ ليومين بحثاً عن الصواري المفقودة، ولم نعثر عليها إلا في اليوم الثالث، ولحسن الحظ وجدناها جميعها حتى المجزّات في أكثر الأماكن خطورة، في الأمواج المتلاطمة للجانب الجنوبي الغربي من النتوء الصخري، أما كيف عملنا، عدنا في مساء اليوم الأول منهكين للغاية إلى شاطئنا الصغير نجر خلفنا الصَّاري الرئيسي وكان علينا التجديف بهدوء تام وببطء شديد.

مرَّ يوم آخر من الكدح الخطر والمضني لكن نتيجته كانت جيدة؛ لأننا حصلنا على الدَّقَلين المتوسطين، أما اليوم الذي تلاه فقد كنت يائساً، بعد أن جمعت الصَّاري الأمامي وذراعي المرفاع الأمامية والرئيسية والقاريتين الرئيسية والأمامية، كانت الريح مواتية ففكرت بجرهم خلفي وأنا أبحر مستخدماً شراع القارب، إلا أن الريح خفتت وتوقفت بالكامل فأصبحت سرعتنا باستخدام المجاديف كحركة الحلزون، ولأن يضع المرء كلّ قوته ووزنه ليجدف ثم يشعر بأن القارب مقيد الحركة بسبب الوزن الثقيل الذي يسحبه؛ لهو أمرٌ مثبط للهمة والعزيمة بحقّ وليس شيئاً ممتعاً على الإطلاق.

بدأ الليل يرخي سدوله، وما زاد الطين بلة أن الرياح هبت إلى الأمام، لم توقف حركتنا إلى الأمام فحسب، وإنما بدأنا في التراجع إلى البحر، ناضلتُ في تحريك المجاذيف حتى أنهكت وخارت قواي، أما مود المسكينة التي لم أستطع منعها من العمل إلى الحد الأقصى من قوتها، فقد تراجعت بوهن إلى مؤخرة القارب.

عجزتُ عن التجديف؛ لأني لم أعد قادراً على إحكام قبضة يدي المرضوضة والمنتفخة على مقبض المجداف، عانيت من ألم لا يطاق في معصمي وذراعي، وعلى الرغم من أني أكلت حد الشبع في وجبة طعام الساعة الثانية عشرة، إلا أني عملت كثيراً لدرجة يكاد يُغمى معها علي من الجوع.

سحبتُ المجاديف وانحنيت إلى الأمام حيث ربطت الحبل، لكن مود قفزت واحكمت قبضتها على يدي.

«ماذا ستفعل؟» سألتني بتوتر.

«أتخلص منها». وبدأتُ بفكّ عروة الحبل.

إلا أن أصابعها ضغطت على أصابعي وقالت: «لا تفعل أرجوك».

«لا فائدة منها، ها قد حل الظلام والريح تدفعنا بعيداً عن اليابسة».

«لكن أرجوك يا همفري فكّر، إن لم نتمكن من الأبحار على متن الشبح، فقد نقضي عدة سنوات هنا على هذه الجزيرة ـ إن لم تكن الحياة بأكملها ـ وبما أنها لم تُكتشف طيلة هذه السنوات فمن المرجح أنّه لا أحد سيكتشفها على الإطلاق».

«نسيتِ القارب الذي وجدناه على الشاطئ».

«كان قارباً لصيد عجول البحر، وأنت تعلم جيداً لو أن الرجال نجحوا في الهروب من هنا، لكانوا قد عادوا لصنع ثروة من هذه المغدفة، أنت تعلم أنهم لم يغادروها من الأساس».

بقيتُ صامتاً ولم أقرّر بعد.

ثم أضافت بإصرار: «فضلاً عن ذلك، إنها فكرتك وأودُّ أن أراها تنجح».

والآن يمكنني أن أقوّي قلبي، ما أن وضعتها بإطار مديح شخصي، حتى أجبرني كرمي على رفضها.

«أفضّل العيش لسنوات على هذه الجزيرة من الموت هذه الليلة أو غداً أو بعد غد، لسنا مستعدين لهذا البحر في قاربنا المفتوح هذا، وليس لدينا طعام ولا ماء ولا أغطية، لا شيء، ولن تتمكّني من النجاة ليلاً دون أغطية، وأنا أرى الآن مدى ضعفكِ ووهنكِ، أنتِ ترتجفين الآن».

«أرتجفُ بسبب التوتر، أخاف أن تتخلص من الصواري رغماً عني»، ثم انفجرت بعد لحظات: «أوه أرجوك، أرجوك يا همفري لا تفعلها».

وهكذا، حُسم الأمر عندما قالت جملتها التي تعلم بقوّة تأثيرها عليّ، قضينا الليل نرتجف وكنت أنام بين الحين والآخر حتى يوقظني ألم البرد، ولا أعلم كيف احتملته مود، كنت متعباً ولم أحرّك يدي على ذراعي لأدفئ نفسي، لكني وجدت القوة بين الفينة والأخرى؛ لأفرك يديها وقدميها وأعيد حركة الدم فيهما، ومع ذلك، استمرت تتوسلني أن لا أتخلّص من الصواري، وبحلول الساعة الثالثة أُصيبت بتشنّج بسبب البرد، ففركتُ يديها وقدميها لأدفئها حتى تخدُّرت، كنت خائفاً عليها فأخرجت المجاديف وطلبت منها أن تجدّف، كانت ضعيفة جداً وخفت أن يُغمى عليها مع كلّ ضربة مجداف.

وفي صباح اليوم التالي، بدأنا نبحث في الأفق على جزيرتنا، فلاحت أمامنا بقعة سوداء صغيرة على بعد خمسة عشر ميلاً بالكامل، أمسكت منظاري ونظرت إلى البحر فلمحت خطاً أسود بعيداً في الجنوب الغربي، كان يستوي بينما أنظر إليه.

«ريح معتدلة». صحت بصوت أجش، ميّزته صوتي بصعوبة.

حاولت مود أن ترد عليّ لكنها لم تتمكن من الكلام، كانت شفتاها زرقاوين بسبب البرد وعيناها جوفاوين، لكن يا الله! ما أشجع هاتين العينين وهي تنظر نحوي.

نزلتُ مرّة أخرى؛ لأفرك يديها وأحرّك ذراعيها إلى الأعلى والأسفل حتى تمكنَت من تحريكهما بنفسها، ثم أجبرتُها على النهوض ـ وكانت ستسقط لو لم أسندها ـ والحركة عدّة خطوات بين مقدمة القارب ومؤخرته، ثم طلبتُ منها القفز في مكانها.

«أيتها المرأة الشجاعة، أتعلمين بأنّك شجاعة؟». قلت لها عندما رأيتُ الحياة تعود إلى وجهها من جديد.

«لم أكن شجاعة، ولم أعرف الشجاعة حتى التقيتك، أنتَ من جعلني شجاعة».

«ولا أنا حتى التقيتكِ».

ونظرت إليّ سريعاً فرأيتُ شيئاً يتراقص في عينيها، لكنه دام لحظة ثم اختفى وابتسمت ثم قالت:

«لا بد وأنها الظروف».

كنت أعلم أنها مخطئة، وتساءلتُ إن كانت تعرف ذلك هي الأخرى، عندما هبّت الريح كانت معتدلة ومنعشة، اتجه القارب يشقّ الأمواج نحو الجزيرة، وعبرنا الجزء الجنوبي الغربي من النتوء بحلول الساعة الثالثة والنصف مساءً ولم نعانِ من الجوع فحسب، وإنما من العطش كذلك، شفاهنا جافة ومتشققة، وعندما حلّ المساء توقّفت الريح وعانيتُ مع المجاديف من جديد، كنت أجدّف ببطء ووهن شديدين، وبحلول الساعة الثانية صباحاً لامس قوس قاربنا الشاطئ ونزلت من القارب أترنح ثم أوثقت ربط الحبل، لا تستطيع مود الوقوف ولا أملك القوة الكافية لحملها، سقطنا معاً على الرمال وعندما استعدت بعض قوتي وضعت ذراعي تحت إبطيها وسحبتُها إلى الكوخ.

ولم نقُم بأي عمل في اليوم التالي، بل نمنا حتى الثالثة مساءً أو على الأقل نمتُ أنا. وجدت مود تطبخ الطعام عندما استيقظتُ وكانت قد استعادت قوتها، هناك شيء من الصلابة والعناد في جسمها الشبيه بزنابق البحر، الذي يتمسك بالوجود ولا يمكن التوفيق بين صلابته وظاهره الضعيف.

«أتعلم أني كنت مسافرة إلى اليابان من أجل صحتي؟». قالت بينما تسكعنا دون حركة قرب النار بعد العشاء فرحين بركودنا: «لستُ قوية، ولم أكن كذلك إطلاقاً، وقد أوصى الأطباء برحلة بحرية فاخترت الأطول».

«لم تعرفي سوى القليل عمّا ستختارين». وضحكت.

«لكنّي سأكون امرأة مختلفة بسبب التجربة التي عشتها، امرأة أقوى، وآمل أن أصبح امرأة أفضل، على الأقل سأفهم الحياة بشكل أفضل».

وهكذا، ومع انتهاء يومنا القصير هذا، جلسنا نناقش مسألة عمى وولف لارسن، كان أمراً يصعب تفسيره، وهو أمر خطير كذلك، قلت لمود أنّه يعتزم البقاء في جزيرة إنديفور حتى مماته، وهو أمرٌ غريب، كيف لشخص قوي ومحبّ للحياة مثل وولف لارسن أن يتقبل موته بهذه الطريقة! كان واضحاً أنّه يعاني من شيء أكثر بكثير من العمى، اتفقنا على أن نوبات صداعه المروعة ما هي إلا نوع من أنواع انهيار دماغه وأن هذه النوبات تؤلمه بدرجة لا يمكننا تصورها.

لاحظتُ ازدياد تعاطف مود معه كلما تحدثنا عن حالته أكثر، ومع ذلك، لا أستطيع إلا أن أحبها أكثر، حنانها النابع من أنوثتها وشعورها الصادق، وافقَت على أننا قد نتّخذ أشد المعاملات صرامة إن اقتضت الضرورة لكنها نكصَت حين قلتُ إني قد أضطر إلى قتله لإنقاذ حياتي ـ أو حياتينا ـ كما قالت.

وفي صباح اليوم التالي، بدأنا في العمل بعد أن تناولنا فطورنا، وجدت مرساة صغيرة في الدعامة الأمامية حيث تحفظ هكذا أشياء وجلبتها إلى سطح السفينة بصعوبة ووضعتها في القارب، ثم ربطت حبلاً طويلاً ملفوفاً على الجذع وجدفت مبتعداً عن خليجنا الصغير ورميت المرساة الصغيرة في الماء، لم تكن هناك أيّة ريح، لكن المدّ كان عالياً فطافت السفينة بخفة مبتعدة عن خط الساحل. أسقطتُ المرساة باستخدام القوة الرئيسية (بعدما كُسر المرفاع) فتحركت السفينة صعوداً ونزولاً، يبدو أنّها أصغر من أن تثبتها في حال هبَّ أي نسيم؛ لذلك، أنزلت مرساة الميمنة الثقيلة وأعطيتها مزيداً من الثبات، وبحلول الظهيرة كنت قد بدأت العمل على المِرفاع.

عملت على آلة الرفع لثلاثة أيام؛ لانعدام خبرتي في الأمور الميكانيكية، وما أتممته في ثلاثة أيام، ينجزه الميكانيكي العادي بساعات معدودة. كان علي أن أتعلم عن أدواتي في البداية، ثم أفهم كلّ المبادئ الميكانيكية التي يكون الرجال خبراء فيها عادة، وأخيراً بعد مضي ثلاثة أيام، بدأ المِرفاع يعمل بثقل، ولم أقتنع به كالمِرفاع القديم لكنه كان يعمل وجعل عملي ممكناً.

تمكّنت من رفع الدَّقَلين المتوسطين إلى سطح السفينة وصنعت المجزّات وثبّتتها كما في السابق في نصف يوم فقط، نمت ليلتها على سطح السفينة قرب مجزّاتي العزيزة، أما مود ــ التي رفضت أن تبقى على الشاطئ وحيدة ــ فقد نامت في السلوقية. جلس وولف لارسن قريباً منّا يستمع إليّ وأنا أُصلح المِرفاع وأتحدث مع مود في مواضيع مختلفة، لم يذكر أحدنا شيئاً عن تدميره للمجزّات ولا طلب منا أن نترك سفينته وشأنها، لكني ما زلت أخشاه، أعمى وعاجز ويستمع دائماً، كنت بعيداً عن متناول يديه القويتين طوال فترة عملي.

أيقظتني خطوات قدميه على سطح السفينة عندما كنت نائماً ليلتها تحت مجزّاتي العزيزة، كانت السماء متوشّحة بالنجوم ومكّنتني من رؤيته وهو يتحرّك، فقمت من فراشي وتسلّلت بهدوء حافي القدمين خلفه، سلّح نفسه بسكّين أخذها من عدة الأدوات وتحضّر لقطع مخنق الكرّ الذي ربطته إلى المجزّات مرّة أخرى، تحسّس الكرّ بيده واكتشف أني لم أثبتها بإحكام وهذا لن ينفع إن كان ينوي استخدام السكين، فأمسكَ الجزء المتحرك وأحكم ربطه ثم جهّز سكينه ليحزّ الحبل.

قلت له بهدوء: «لو كنت مكانك لما فعلتها».

سمع صوت طقطقة مسدسي وضحك، ثم قال: «مرحباً يا همپ، كنت أعلم أنك هنا طوال الوقت. لا يمكنك أن تخدع أذنيّ».

قلت له بنفس هدوئي السابق: «أنت تكذب يا وولف لارسن، ومع ذلك فأنا أتوق إلى فرصة لقتلك، لذا تفضل واقطع الحبل».

«لديك الفرصة دائماً». قال ساخراً.

«هيا اقطع الحبل». هدُّدته بتشاؤم

«أُفضّل أن أخيب ظنك». ضحك واستدار على عقبيه وذهب إلى مؤخرة السفينة.

وعندما أخبرت مود في صباح اليوم التالي بما حدث الليلة الماضية قالت: «علينا أن نفعل شيئاً يا همفري، بإمكانه فعل أي شيء إن كان له الحرية والخيار، قد يُغرق السفينة أو يحرقها، لا يمكننا التنبؤ بما سيفعل، يجب أن نسجنه».

«ولكن كيف؟ لا أجرؤ على الاقتراب من يديه وهو يعلم إني لن أُطلق النار عليه طالما لا يقاومني».

«يجب أن تكون هناك طريقة ما، دعني أفكر».

«هناك طريقة واحدة». قلت بتجهّم.

وانتظرتني

أمسكتُ بالهراوة التي نستخدمها لضرب عجول البحر وقلت:

«لن تقتله هذه، لكنها ستعطيني الفرصة؛ لأن أُحكم وثاقة وأقيده قبل أن يستعيد وعيه».

هزّت رأسها وهي ترتجف: «لا ليس بهذه الطريقة، لا بدّ وأن هناك طريقة أقل وحشية، لنتريث قليلاً».

لكننا لم ننتظر طويلاً وقد حلت المشكلة نفسها بنفسها، وجدتُ نقطة الاتّزان في الصَّاري الأمامي بعد عدة محاولات في صباح اليوم التالي وربطت بكّارة الرفع فوقها بعدة أقدام، أمسكت مود تدوير المِرفاع وبدأت تلف وأنا أرفع، ولو كان المِرفاع نظامياً لما صادفتنا مشاكل، وبما أن الوضع على ما هو عليه؛ تعيّن علي تسليط كلّ وزني وقوتي في كلّ بوصة أثناء الرفع، اضطررت لأخذ قسط من الراحة في فترات قصيرة، وفي الحقيقة كانت أوقات الراحة أطول من تلك التي عملت بها، حتى أن مود كانت تمسك الدوران بيد وتساعدني برمي ثقل جسدها النحيل حين تعجز جهودي عن زحزحة المرفاع.

اجتمعت البكرة المزدوجة والمفردة معاً عند قمة المجزّات بعد ساعة، ولم أتمكن من الرفع أكثر، ومع هذا، لم يتأرجح الصَّاري بكامله على سطح السفينة، استقرت قاعدته على السياج الخارجي الأيسر في حين أن الجزء العلوي منه فوق الماء خارج السياج الأيمن، ذهب كلّ عملي أدراج الرياح؛ لأن مجزّاتي قصيرة جداً، وبالرغم من هذا، لم أجزع كما في السابق وإنما اكتسبت مزيداً من الثقة بنفسي وبإمكانيات المِرفاع والمجزّات وأدوات الرفع، هناك طريقة ما يمكن أن يُنجز بها العمل والأمر منوّط بي لأكتشف هذه الطريقة.

وبينما كنت أفكّر في حلّ المشكلة جاء وولف لارسن إلى سطح السفينة، لاحظنا شيئاً مريباً بشأنه، كان تردد وضعف تحركاته أكثر وضوحاً من ذي قبل، وكان يتمايل في مشيته حتى وصل إلى كسرة مؤخرة السفينة فرفع يده إلى عينيه بحركته المألوفة وتهاوى من الدرجات إلى سطح السفينة، ثم قام على قدميه يترنح، يسقط تارة ويقوم تارة أخرى تسنده يديه، ثم استعاد توازنه قرب درج المُدَفّى ووقف لبرهة، ثم انهار في مكانه وسقط على السطح.

همست لمود: «إنها إحدى نوباته». أومأت برأسها ورأيتَ تعاطفاً في عينيها.

صعدنا إليه ووجدناه فاقداً للوعي، يتنفّس بصعوبة، تولّت مود مسؤوليته، ورفعت وجهه لتجعل تدفّق الدم طبيعيًّا وأرسلتني إلى مقصورته لجلب وسادة فجلبت بطانيات كذلك، دثرناه بالأغطية وأمسكت معصمه لأتفقد نبضه، كان طبيعياً وقوياً مما سبّب لي الحيرة حتى ارتبت في أمره وسألت مود وأنا لا أزال ممسكاً بمعصمه: «ماذا لو كان يخدعنا؟».

هزّت مود رأسها معترضة على كلامي، وبعد لحظات، أفلتَ معصمهُ من يدي وأمسكَت اليد بقبضتها الحديدية معصمي كفخّ صيد فولاذي، فصرختُ بصوت عالٍ خوفاً منه، عاجزاً عن الإفصاح عمّا يجري، رمقته بنظرة خاطفة ووجدته منتشياً بالنصر بخبث، ثم أمسكَت يده الأخرى جسدي وجرتني إليه بقبضة فظيعة.

حرر معصمي وأمسك بيده التي لا تزال ملفوفة حول ظهري كلتا ذراعيّ حتى عجزت عن الحركة، وأحكم قبضة يده الأخرى على عنقي، تذوّقت في هذه اللحظة مرارة الموت بسبب غبائي، كيف وثقت به واقتربت من يديه الفظيعتين؟ شعرت بيدٍ أخرى على رقبتي ـ كانت يدُ مود ـ تحاول دون جدوى فكّ قبضته لكنها عجزت عن ذلك وصرخَت صرخة مزّقت روحي؛ لأنها صرخة امرأة مرعوبة ويائسة، سمعت هذه الصرخة من قبل حين غرقت المارتينيز.

كان وجهي قبالة صدره ولم أتمكّن من رؤية شيء إلا أني سمعت مود تركض بسرعة على سطح السفينة. حدث كلّ شيء بسرعة ولم أغِب عن الوعي بعد، لكني شعرتُ بأن دهراً قد انقضى قبل أن أسمع وقع قدميها وهي تعود من جديد، ثم شعرتُ فجأة بأن الرجل ينهار تحتي وبأن نفسه يغادر رئتيه وصدره يرزح تحت وطأة ثقلي، لا أعلم إن كان نفساً نفثه للخارج أم أنّه إدراكُه بعجزه المتنامي، لكن حنجرته اهتزت بألم عميق، فارتخت قبضته وتنفستُ، لكنها سرعان ما اهتاجت وشدّت من جديد، بيد أن إرادته الهائلة لم تتمكّن من التغلّب على ذوي قوته فانهارت وفقد وعيه.

انزلقتُ بعد أن حررتني قبضته من فوقه واستلقيت على ظهري ألهثُ وأرمشُ في ضوء الشمس، كان وقع أقدام مود قريب جداً وحالما فتحت عينيّ نظرت إلى وجهها الشاحب، كانت تنظر إليّ بمزيج من الرعب والارتياح، لفتت نظري هراوة ثقيلة تحملها بيدها، وسرعان ما تبعت عيناها نظراتي فألقت بها كما لو أنها لسعتها فجأة، ضجّ قلبي بفرح عارم، كانت امرأتي بحق وشريكتي، تحارب معي ومن أجلي كما فعلت نساء الكهوف في الأزمان الغابرة، أثيرت بدائيتها ونسيت التحضّر ولطافة تمدن الحياة الوحيدة التي عرفتها.

صحت وأنا أسارع في الوقوف على قدمّي: «سيدتي العزيزة!»

وفي اللحظة التالية، وجدتها بين ذراعيّ تبكي بحرقة وأنا أحضنها بقوّة، نظرت إلى شعرها البني الرائع يتلألأ في الشمس كجواهر ـ أغلى عندي من أثمن كنوز الملوك ـ فانحنيت وقبّلت شعرها برقّة لدرجة أنها لم تشعر بها.

ثم عاد إليّ التفكير الرصين، فبعد كل شيء، هي امرأة تبكي لزوال الخطر عنها بين ذراعي حاميها أو الشخص الذي تعرّض للخطر، لن يختلف الوضع لو كنت والدها أو أخاها، فضلاً عن ذلك، فلا الزمان ولا المكان بموآتيين لإعلان حبي لها، قبّلت شعرها برقّة مرّة أخيرة قبل أن تبتعد عن أحضاني.

«إنها نوبة حقيقية هذه المرة، كالتي جعلته أعمى، كان يتظاهر في البداية لكنه جلبها لنفسه بفعلته هذه».

بدأت مود بترتيب الوسائد من أجله فقلت لها:

«لا. ليس الآن، بعد أن أصبح عاجزاً، يجب أن يبقى هكذا. من الآن فصاعداً سنعيش في المقصورة وسيعيش وولف لارسن في المُدَفّى».

أمسكته من تحت كتفيه وسحبته إلى الدرج الداخلي وجلبت مود حبلاً وضعته تحت كتفيه، وازنتُه عبر العتبة وأنزلتُه من الدرجات إلى الأرض، ولم أتمكن من رفعه إلى السرير مباشرة، وتمكّنت وبمساعدة مود من رفع جزء جسمه العلوي أول الأمر على حافة السرير السفلي ثم دفعته إليه.

وهذا لم يكن كلّ شيء؛ لأني ذهبتُ إلى غرفة المعيشة وجلبتُ الأصفاد ــ التي كان يفضّل استخدامها عوضاً عن حديد السفينة القديم ــ وصفّدت يديه وقدميه، ولأول مرّة أتنفس بحرية منذ عدّة أيام، شعرت براحة غريبة وأنا أخطو على سطح السفينة كما لو أن حملاً ثقيلاً أُزيح عن كاهلي، وشعرت كذلك بأني ومود اقتربنا إلى بعضنا أكثر، وتساءلت إن كانت هي كذلك قد أحسّت بذلك بينما كنا نمشي جنباً إلى جنب نحو الصَّاري المعلق بالمجزّات.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل السابع والثلاثون

انتقلنا في الحال على متن الشبح وشغلنا غرفنا القديمة وبدأنا نعدّ طعامنا في مطبخ السفينة، جاء حبس وولف لارسن في الوقت المناسب؛ لأن طقس الصيف الهندي([51]) الذي كان في هذا المرتفع الشاهق قد انتهى وحلّ محلّه الجو العاصف الممطر، كنّا مرتاحين للغاية وكان وجود الصَّاري الأمامي معلَّقا على المجزّات غير الملائمة قد أعطى جواً عملياً للسفينة ووعداً بالمغادرة.

والآن بعد أن أصبح وولف لارسن مُصفَّدا قلّت حاجتنا إليه، وكما حصل في نوبته الأولى، صاحب هذه النوبة إعاقة خطيرة اكتشفَتها مود في المساء عندما ذهبَت لتقدم له الطعام، تحدثت إليه بعدما علمت أنّه استعاد وعيه لكنه لم يجبها، كان يرقد على جانبه الأيسر وعلامات الألم الشديد بادية عليه، وعندما حرّك رأسه بانزعاج، ارتفعت أذنه اليسرى عن الوسادة التي كانت تضغط عليها فسمعها في الحال، جاءتني مود فوراً لتخبرني بما حصل.

سألتهُ أن كان يسمعني بعد أن ضغطت بالوسادة على أذنه اليسرى فلم يُجب، كررتُ السؤال مرّة أخرى بعد إزالة الوسادة فأجاب.

سألته: «أتعلم أنك لا تسمع بأُذنك اليمنى؟».

«نعم»، أجاب بصوت منخفض وقوي: «والأسوأ من ذلك، يبدو أن جانبي الأيمن كله متأثر كما لو أنّه نائم، لا أستطيع تحريك قدم أو ذراع».

«أتحاول خداعي مرّة أخرى؟». سألته بعصبية.

هزّ رأسه وتشكلت على وجههِ أغرب ابتسامة ملتوية، كانت وبلا شك ابتسامة ملتوية؛ لأنها ارتسمت على الجانب الأيسر فقط؛ أما عضلات وجهه في الجزء الأيمن فلم تتحرك أبداً.

«كانت تلك آخر أفعال الذئب، أنا مشلول ولن أستطيع المشي بعد الآن، أوه فقط على الجانب الآخر». أضاف كما لو أنّه فسّر نظرة الارتياب التي نظرتُ بها إلى قدمه اليسرى، سحب ركبته ورفع الأغطية ثم تابع:

«إنه أمرٌ مؤسف، وددت لو أنهيتُ حياتك أولاً يا همپ، اعتقدتُ بأنّ لديّ من القوة ما يكفي لفعلها».

سألته بفضول ورعب: «لماذا؟!».

ابتسم ابتسامته الملتوية مرّة أخرى وقال: «أوه فقط لأكون حيًّا، أن أحيا وأقوم بالفعل، وأن أكون الجزء الأكبر من خميرة الحياة حتى النهاية، ولآكلك، لا أن أموت بهذه الطريقة».

وهزّ كتفيه ـ أو حاول فعل ذلك ـ لأن كتفه الأيسر فقط تحرك، كانت حركته ملتوية كابتسامته.

«لكن كيف يمكنك تفسير ذلك؟ أين هو موضع مرضك بالتحديد؟».

«الدماغ»، قال على الفور: «إنها نوبات الصداع اللعينة تلك من جلبته لي».

«الأعراض».

هز رأسه إيجاباً وقال: «لا يمكنني تفسير ذلك، لم أمرض طوال حياتي، لكن شيٌ ما أصاب دماغي، سرطان أو ورم أو شيء من هذا القبيل، شيء يلتهم ويدمّر، ويهاجم مراكز الأعصاب في دماغي ويأكلها رويداً رويداً، وخليّة تلو الأخرى بفعل الألم».

«ومراكز الحركة كذلك».

«هكذا يبدو الأمر، ولعنة هذا المرض تحتم عليَّ الرقود هنا واعياً وعقلي سليم، وأنا أعلم أن أعصابي تتلف تِباعاً وتُفقدني التواصل مع العالم الخارجي بالتدريج، لا أستطيع أن أُبصر وبدأت حاسة السمع والشعور بالأشياء تتلاشى، وعلى هذا المعدل سأفقد قدرتي على الكلام قريباً، ومع هذا، سأكون هنا طوال الوقت على قيد الحياة، نشطاً وعاجزاً».

فقلت له: «عندما تقول (أنت) هنا، أفترضُ احتمالية أنك تقصد الروح».

«هراء، هذا يعني ببساطة أن المراكز العقلية العليا لم يتمّ المساس بها عندما أُصيب دماغي، أنا أتذكّر وقادر على التفكير والإدراك، وعندما يذهب كلّ هذا، أذهب أنا، فأنا لستُ الروح».

وضحك بسخرية ثم استدار على جانبه الأيسر إشارة منه أن الحديث انتهى، وأنه لا يود سماع المزيد.

عدنا أنا ومود إلى عملنا، يربض على صدرينا إحساسٌ غريب بسبب المصير المخيف الذي حلّ به ـ ولم نعلم كم هو مخيفٌ حتى الآن ـ كأنما كان ضرباً من العقاب البشع على أفعاله، كانت أفكارنا عميقة وجليلة، وبصعوبة علت أصواتنا فوق الهمسات.

«يمكنك إزالة الأصفاد الآن». قال ذات ليلة بينما كنا نتشاور بشأنه: «أنتم بأمان تام، أنا مشلول الآن، وستبدؤون بالقلق بشأن قروح الفراش قريباً».

وابتسم ابتسامته الملتوية تلك فاتسعت عينا مود رعباً وأشاحت ببصرها بعيداً.

«هل تعلم أن ابتسامتك ملتوية؟». سألتُه لأني علمت أنها مضطرة للاعتناء به، ورغبت أن أخفّف عنها قدر الإمكان.

«حسناً، لن ابتسم بعد الآن، علمتُ بأن شيئاً ما ليس على ما يرام؛ لأن خدي الأيمن كان خَدِراً طوال اليوم، نعم، لقد جاءتني التحذيرات في الأيام الثلاثة المنصرمة؛

لأن جانبي الأيمن كان كمَن يدخل في سبات بالتناوب، فتارة ذراعي أو يدي وتارة أخرى قدمي أو ساقي».

«أحقًّا ابتسامتي ملتوية؟». تساءل بعد فترة قصيرة: «حسناً، من الآن فصاعداً يمكنك أن تعتبر ابتسامتي داخلية ـ من روحي كما تفضلت ـ نعم روحي، واعتبرني ابتسم لك الآن».

كان وولف لارسن القديم هو ذاته، الفظيع الذي لا يُقهر، محبوساً في مكان ما خلف أسوار هذا الجسد الذي كان يوماً ما رائعاً وجبَّارا، أما الآن فهو يقيّده بأغلال غير محسوسة، تحيط روحه بظلام وصمت وتحجب عنها العالم الخارجي الذي كان بالنسبة له مفرط الحركة والعمل، لا مزيد من اقتران (الفِعل) بكل مزاج وتوتّر. و(أن يكون) هو كلّ ما بقي له. أن يكون كما عرّف الموت بلا حركة وأن تكون له إرادة دون أن ينفّذ وأن يفكر ويدرك وأن يبقى على قيد الحياة كالسابق، لكن في جسد ميت تماماً.

ومع ذلك، وبرغم أني أزلت الأصفاد، إلا أننا لم نستطع أن نكيّف أنفسنا مع حالته، كانت عقولنا تثور وتضطرب؛ لأننا كنا نتوقع أي شيء منه، فهو ـ بالنسبة لنا ـ مليء بالإمكانيات والمخاوف التي قد تتحرّر من الجسد الميت هذا، وقد أوصلتنا تجربتنا معه لحالتنا الذهنية هذه، وبذلك كنا نزاول أعمالنا بقلق دائم.

وكنت قد وجدتُ حلاً لمشكلة قُصر المجزّات، فبواسطة بكّارة الحراس (كنت قد صنعت واحدة جديدة) رفعت عقب الصَّاري الأمامي عبر الدرابزين ثم أنزلته على السطح، ثم بمساعدة المجزّات رفعت الذراع الرئيسي على سطح السفينة، سيزودنا طولها ذو الأربعين قدماً بالارتفاع اللازم ليؤرجح الصَّاري، وبواسطة عدة بكرات ثانوية ربطتها على المجزّات قمت بأرجحة الذراع إلى وضع عمودي تقريباً، ثم أنزلت عقب الصَّاري على سطح السفينة، ولأمنعه من الانزلاق، وضعت أوتاداً حوله، ولأني ربطت القطعة المنفردة من البكّارة بنهاية الذراع، وبحمل هذه القطعة إلى المرفاع، تمكنت من رفع وخفض نهاية الذراع بإرادتي بينما بقى العقب ثابتاً، وتمكنت من أرجحة الذراع من جانب لآخر بفعل التثبيت وربطت بكرة رفع عند طرف الذراع كذلك، ذُهلت من مدى القوة وسهولة الحركة التي أعطتني إياها الآلات عندما انتهيت من تثبيت كلّ شيء.

تطلّب إنجاز هذا الجزء من مهمتي يومين من العمل بطبيعة الحال، ولم أتمكن من أرجحة الصَّاري الأمامي من فوق السطح إلا في صباح اليوم الثالث، وبدأت بتسوية قاعدتها لتلائم مكانها، وهنا تصرّفت بشكل أخرق، نشرتُ وقطعتُ ونحتُّ الخشب المتعرّض للتجوية حتى أصبح كما لو أن فأراً عظيماً نخره، لكنه لائم مكانه.

صحت: «ستعمل، أعرف أنها ستنجح».

سألتني مود: «هل تعلم اختبار الدكتور جونسون الأخير للحقيقة؟».

هززت رأسي بالنفي وتوقُّفت عن إزالة النجارة التي سقطت على رقبتي.

«هل يمكننا أن نجعلها تعمل؟ هل نستطيع أن نأمن على حياتنا فيها؟ هذا هو الاختبار الحقيقي».

«إنهُ أحد كُتّابك المفضّلين».

«عندما أزلت بانثيوني القديم وطردت نابليون والقيصر وأتباعهم، شيدت بانثيوناً جديداً على الفور، وأول من نصبّت كان الدكتور جوردان». أجابت بجدية.

«بطلٌ معاصر».

«وأكثر من ذلك، كيف يمكن أن يُقارن الأبطال القدامى بأبطالنا؟».

هززت رأسي إيجاباً، كنا متشابهين في كثير من الأمور عندما نتحاور، فوجهات نظرنا وتوقعاتنا للحياة على أقل تقدير كانت متشابهة جداً.

«بالنسبة لزوج من النُقّاد، نحن نتفق بشدة». وضحِكت.

«وكصانع سفن ومساعده الكفء كذلك». وضحكت هي الأخرى.

لكن أوقات الضحك كانت شحيحة في تلك الأيام بسبب عملنا المُضني وفظاعة ما حلّ بوولف لارسن؛ لأنه أُصيب بنوبة أخرى أفقدته صوته أو أنّه على وشك فقدانه، كان يستخدمه بصورة متقطعة وكما صاغ كلامه ـ إن هذه الأسلاك تشبه سوق البورصة تارة تصعد وتهبط تارة أخرى ـ فعندما تكون هذه الأسلاك عالية، يتحدث كعادته لكن ببطء وثقل، ثم يعجز عن الكلام في منتصف الكلمة أو الجملة أحياناً لساعات فننتظر أن يُعاد الاتصال من جديد، كان يعاني من ألم حادّ في رأسه وقد أنشأ نوعاً جديداً من التواصل في الفترة التي لا يستطيع الكلام بها ـ ضغطة واحدة من يده تعني نعم واثنتان تعنيان لا ـ ومن حسن الحظ أننا أنشأنا هذا الاتفاق؛ لأن صوته هجره بحلول المساء نهائياً، فبضغطة اليد كان يجيب عن أسئلتنا، وحين يرغب بالكلام، يدوّن أفكاره على ورقة مستخدماً يده اليسرى وبخط واضح.

حلّ شتاء عنيف تتابعت فيه العواصف مصحوبة بالأمطار والثلوج، بدأت عجول البحر بهجرتها العظيمة وأصبحت المغدفة مهجورة تقريباً، أما أنا فعملتُ بشكل محموم بالرغم من سوء أحوال الطقس والريح التي أعاقت عملي على وجه الخصوص، كنت أعمل على سطح السفينة منذ بزوغ الفجر حتى المساء وأحرزتُ تقدماً كبيراً.

استفدت كثيراً من الدرس الذي تعلمته عبر رفع المجزّات ثم تسلقها لأرفق المثبتات، ربطت حبال القمة والمشدات والخانق والتجهيزات على قمة الصَّاري الأمامي الذي رفعتُه للتوّ من على سطح السفينة. وكالمعتاد، قلّلت من حجم العمل الذي ينطوي عليه هذا الجزء من المهمة، الذي من الضروري أن يستغرق يومين طويلين لاستكماله، وهناك الكثير الذي يتعيّن عليّ القيام به، كالأشرعة ـ على سبيل المثال ـ التي ينبغي أن يُعاد صنعها من جديد.

وبينما كنت أكدحُ بتركيب تجهيزات الصَّاري الأمامي، كانت مود تخيط قماش الأشرعة وهي مستعدة على الدوام لترك ما بيدها ومساعدتي حين يتطلّب الأمر

استخدام أكثر من يدين اثنتين، كان قماش الأشرعة ثقيلاً وقاسياً، وكانت تخيط بكفّ بحار عادي وإبرة ثلاثية الزوايا؛ فسبب ذلك تقرّحت يداها، لكنها كافحت بشجاعة وقامت فضلاً عن ذلك بطبخ الطعام والاعتناء بالرجل المريض.

قلت صباح يوم الجمعة: «سحقاً للخرافات، هذا الصَّاري سيتمّ اليوم».

كلّ شيء كان جاهزاً للمحاولة، رفعت الصَّاري تقريباً فوق سطح السفينة بحمل بكرة الذراع إلى المرفاع وبعد أن أحكمت ربط البكرة، أخذت بكّارة المجزّات إلى المِرفاع (تلك التي ربطتها بنهاية الذراع) وبحركة قليلة استقام الصَّاري عمودياً بعيداً عن سطح السفينة.

صفقت مود بيديها في اللحظة التي تركتُ فيها عتلة الدوران وصاحت:

«إنه يعمل! نجحنا! سنأمن على حياتنا معها!»، ثم نظرت بتشاؤم وقالت: «ليس فوق الحفرة، هل يجب أن تبدأ من جديد؟».

ابتسمت بتفوّق وأرخيت أحد حبال تثبيت الذراع وشددت على الآخر، فتأرجح الذراع بإتقان في وسط سطح السفينة، لكنه لم يكن فوق الحفرة، عاد التشاؤم إلى وجهها، ابتسمتُ مرّة أخرى بتفوّق وأرخيت بكّارة الذراع ورفعت كمية مكافئة على بكّارة المجزّات حتى أصبحت قاعدة الصَّاري فوق الحفرة مباشرة، ثم أعطيت مود إرشادات حذرة لتُنزل الصَّاري ويصبح في مكانه على السفينة.

تحرك الصَّاري بسهولة ودقة، واتّجه مباشرة نحو الحفرة المربعة، وبينما نزلت قاعدته المربعة، انحرف عن مساره قليلاً ولم يدخل في الثقب المربع، كان لدي أقل من دقيقة لأقرّر، طلبت من مود التوقف عن إنزال الصَّاري واتجهت إلى سطح السفينة وربطت بكّارة الحراس إلى الصَّاري باستخدام عقدة دوارة، وتركت مود عندها تسحبها وذهبت للأسفل، تمكنت من رؤية قاعدة الصَّاري على ضوء الفانوس، كانت حافاته ملتوية قليلاً وتطابق جوانب الدرجة، ربطت مود العقدة وعادت إلى المرفاع وبدأت تُنزل الصَّاري عدة بوصات، التوت قليلاً مرّة أخرى فقامت مود بضبطه بواسطة بكّارة الحراس، وبدأت تُنزل مرّة أخرى حتى نزل الصَّاري في مكانه بالضبط.

صحت عالياً فجاءت مود مسرعة إلى الأسفل لترى، وعلى ضوء الفانوس ألقينا نظرة على ما أنجزناه ثم تلاقت أعيننا وتشابكت أيدينا وبكينا فرحاً.

«أُنجرتُ المهمة بسهولة، يبدو أن كلّ الجهود والعمل كان في التحضير». علّقت قائلاً.

أضافت مود: «والمعجزة كانت في النهاية، أكاد أصدق نفسي بصعوبة، عندما أرى هذا الصَّاري العظيم واقفاً هنا وفي مكانه، وأنك أخرجته من الماء وأرجحته في الهواء وأنزلته إلى حيث ينتمي، إنها مهمة جبارة».

«وخلال هذه الفترة، اخترعنا الكثير من الأشياء» بدأت الكلام بمرح ثم توقفت لأستنشق الهواء.

نظرتَ بسرعة إلى الفانوس ولم يكن يصدر دخاناً، تنفست مرّة أخرى.

قالت مود فجأة: «شيء ما يحترق».

أسرعنا إلى السلم لكني سبقتها إلى سطح السفينة حيث الدخان الكثيف يتصاعد من الدرج السفلي المؤدي إلى المُدَفّى.

«لم يمت الذئب بعد!» تمتمت بغضب، ونزلت إلى الأسفل عبر سحب الدخان.

كان الدخان كثيفاً في المنطقة الصغيرة المحصورة لدرجة أني اضطررت لأن أتحسس طريقي، كانت سطوة وولف لارسن قوية على مخيلتي حتى أني كنت مستعداً لأن يمسكني هذا العملاق العاجز بقبضته ويخنقني، فترددت للحظات وكادت رغبة الهرب من المكان والصعود إلى الأعلى أن تغلبني لولا أني تذكرت وجه مود ودموع الفرح التي شهدتها على ضوء الفانوس في الأسفل، حينها علمت أني لا أستطيع العودة.

وحين وصلتُ إلى سرير وولف لارسن كنت أختنق، اخذت يده وتحسست نبضه كان يرقد بلا حراك لكنه تحرك قليلاً حين شعر بيدي، بحثت تحت أغطيته لم يكن هناك دفء ولا أثر للنار. لكن الدخان الذي أعماني وسبب لي السعال والاختناق لا بد وأن يكون له مصدر هنا، فقدت تركيزي وأخذت أجوب المُدَفّى بسرعة محمومة حتى اصطدمت بطاولة أعادتني إلى نفسي من جديد، وفكرت بأن الرجل العاجز هذا لن يستطيع إشعال نار إلا قرب سريره.

حينئذ عدت إلى سريره وجدت مود هناك ولست أعلم منذ متى وهي هنا في هذا الجو الخانق، فأمرتها بالصعود إلى الأعلى.

«لكن يا همفري». بدأت بالاحتجاج بصوت غريب وأجش.

«أرجوكِ نفّذي ما أقول». صحت عليها بشدة.

انسحبت بهدوء، ثم فكّرت بأنها قد لا تجد الدرجات لتصعد فسعيت خلفها ووقفتُ عند عتبة الباب وتساءلت إن كانت قد رحلت بالفعل حتى سمعتها تتحدث بصوت رقيق:

«أوه همفري، أضعت الطريق».

وجدتها تتحسس الجدار الفاصل ثم حملتها إلى الدرج السفلي حيث الهواء النقي كان كرحيق الآلهة، لم تُصب مود بأذى سوى دوار فتركتها مستلقية على سطح السفينة ونزلت إلى الأسفل من جديد.

كان بالي مشغولاً بفكرة واحدة وهي أن مصدر الدخان لا بد وأن يكون قريباً من وولف لارسن؛ لذا اتّجهت مباشرة نحوه وبينما تحسست أغطيته وقع شيء حار على ظاهر يدي وحرقها فسحبت يدي بعيداً، ثم فهمت الوضع، أضرم النار بمرتبة السرير العلوي من بين الشقوق، لا يزال بإمكانه استخدام يده اليسرى حين أشعل

النار بقش المرتبة الرطب ومنع عنه الهواء وكان يحترق ببطء ويصدر دخاناً دون لهب كلّ هذه الفترة.

وعندما سحبتُ المرتبة خارج السرير بدأَت تتفكك وحالما وصلها الهواء اشتعلت ألسنة النار فيها، أخمدت البقايا المحترقة في السرير وأسرعت إلى سطح السفينة لأتنفس الهواء النقي.

تطلب إخماد الحريق في الفُرُشِ المكوّمة وسط المُدَفّى عدة دلاء من الماء، بعد عشر دقائق انقشع الدخان وسمحت لمود بالنزول، كان وولف لارسن لا يزال فاقداً لوعيه، لكن عدة دقائق من الهواء النقي كانت كافية لإيقاظه، كنا نعمل قربه حين أشار إلينا يطلب ورقة وقلماً.

وكتب لنا: «أرجوكم لا تقاطعوني أنا ابتسم الآن».

ثم كتب بعد لحظات: «لا زلت جزءاً من هياج خميرة الحياة كما ترى».

فقلت له: «أنا سعيد أنك قطعة صغيرة الآن».

«شكراً لك، لكن فكّر كم سأصغر قبل أن أموت».

ثم كتب كلماته الأخيرة: «ومع هذا ما زلتُ هنا يا همپ، يمكنني التفكير بوضوح أكثر من أي وقت مضى في حياتي الغابرة، لا شيء يزعجني، التركيز رائع، أنا هنا بكُلّي وأكثر من ذلك».

كانت كلماته كرسالة من رجل ميت، فجسد هذا الرجل أصبح ضريحه، وهنا رفرفت روحه وعاشت في هذا القبر الغريب، وستستمرّ بالرفرفة والعيش حتى ينقطع آخر خط اتّصال بينه وبين العالم الخارجي، وبعدها لا أحد يعلم كم من الوقت ستستمر هذه الروح بالعيش.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثامن والثلاثون

كتب وولف لارسن في صبيحة اليوم التالي من محاولته حرق السفينة:

«أظن أني سأفقد جانبي الأيسر أيضاً. الخدر في تزايد مستمر وأجد صعوبة في تحريك يدي، يجب أن تتحدّث بصوت أعلى؛ لأني لا أسمع جيداً».

«هل تشعر بألم؟». وأعدت السؤال مرّتين حتى تمكّن من سماعي.

«ليس كلّ الوقت».

ترددت يده ببطء وألم عبر الورقة وتمكنّا بصعوبة من فك شيفرة خربشاته، كانت كأنها (رسالة روحية) كالتي يسلمها لك مُناجي الأرواح في جلسة استحضار الأرواح مقابل دولار.

«لكني لا زلتُ هنا، بكُلي». تلعثمت اليد وكتبت ببطء وألم حتى وقع القلم وأعدناه إلى يده.

«عندما لا يكون هناك ألم، أشعر بسلام وهدوء تامين، لم أفكر بمثل هذا الصفاء من قبل، يمكنني التفكير في الحياة والموت كحكيم هندوسيّ».

«والخلود؟». سألَته مود بصوت عالٍ قرب إذنه.

حاول لثلاث مرّات أن يكتب، لكن يده تخبطت بيأس ووقع القلم منها، وحين أعدناه بين أصابعه لم تطبق عليه، ثم أمسكت مود أصابعه وضغطتها على القلم حتى تمكن أخيراً من الكتابة ـ وبأحرف كبيرة ـ ببطء شديد الكلمة التالية:

«ه ـ ر ـ ا ـ ء»

كانت كلمة وولف لارسن الأخيرة «هراء». إنّه شخصٌ متشكّك، لا يُقهر حتى النهاية، ارتخت اليد وتحرّك الجسد قليلاً، ثم توقّف عن الحركة، وعندما تركَت مود يده ارتخت أصابعه وعادت إلى وضعها الطبيعي وتدحرج القلم بعيداً.

«هل تسمعني؟». سألته بصوت عالٍ، وأمسكتُ أصابعه وانتظرت أن يضغط عليها ضغطة مفردة لتعني (أجل) لكنه لم يفعل، كانت يده ميتة.

قالت مود: «لاحظت حركة خفيفة على شفتيه».

كررت سؤالي فتحركت شفتيه قليلاً ووضعت مود طرف إصبعها عليها وعندما كررت سؤالي قالت (نعم) فنظرنا إلى بعضنا بعضاً.

«وما فائدة هذا؟ ماذا يمكننا أن نقول الآن؟».

«أوه اسأليه..».

تردَّدت فاقترحتُ عليها: «اسأليه سؤالاً يجيب عنه بـ (كلا)، حينها سنتأكد».

صاحت عليه: «هل أنت جائع؟».

تحركت شفتاه تحت إصبعها وقالت (نعم).

«هل ترغب بتناول اللحم؟». سألته مرّة أخرى.

«كلا». أعلنَت بعد قليل.

«حساء لحم؟».

«أجل يريد حساء لحم». قالت بهدوء ونظرت نحوي: «حتى يفقد سمعه بالكامل ستكون هذه الطريقة الوحيدة التي نتواصل بها معه، وبعد هذا...؟».

نظرت إلي بشكل غريب، ثم ارتعشت شفتاها واغرورقت عيناها وترنّحت، فأخذتها بين أحضاني وقالت وهي تبكي:

«أوه همفري، متى سينتهي كلّ هذا؟ أنا متعبة للغاية، متعبة جداً».

دفنَت رأسها على كتفي وأهتزّ جسدها النحيل السماويّ بنوبة بكاء، كانت كالريشة بين ذراعيّ ها قد انهارت أخيراً، ولا أعلم ماذا كنت سأفعل بدونها، لكني هدّأتها وواسيتها حتى استعادت رباطة جأشها وتعافت عقلياً بسرعة كما تتعافى جسدياً.

«يجب أن أخجل من نفسي». قالت ثم أضافت بابتسامتها الماكرة التي أعشقها: «لكني امرأة واحدة، امرأة صغيرة».

صدمَتني هذه العبارة: «امرأة صغيرة»، كأنها صعقة كهربائية، كانت عبارتي أنا، وغزلي السريّ وعبارة حبي لها.

«من أين أتيتِ بهذه العبارة؟». قلت فجأة فجفلت وقالت:

«أيّة عبارة؟».

«امرأة صغيرة».

«هل هي لك؟».

«نعم، إنها لي، أنا من أخترعها».

«إذن ربما تكلمت بها أثناء نومك». وابتسمَت.

علمت حينها بأن الأضواء التي تتراقص في عينيها كانت لي، وتتحدث رغماً عن سكوتي، ملت نحوها دون تعدٍّ لحدودها كما تميل الشجرة بفعل الريح، وأصبحنا قريبين من بعضنا للحظة لكنها هزت رأسها كمن يحاول أن يصحو من حلم وقالت:

«عرفت هذه العبارة طوال حياتي، كان والدي يقولها لوالدتي».

قلت بعناد: «لكنها عبارتي أنا أيضاً».

«تقولها لوالدتك؟».

«لا». ولم تسألني أكثر بالرغم من أني أكاد أقسم أن في عينيها تحدّيا وسخرية دامت لبعض الوقت.

سهّل وجود الصَّاري الأمامي من العمل الذي جرى على قدم وساق، تمكنّا من تثبيت الصَّاري الرئيسي في مكانه بسرعة ودون عقبات تذكر؛ لأننا ركّبنا ذراع المرفاع على الدَّقَل المتوسط وأنجزنا هذا وأكثر، وبعد عدّة أيّام كان كلّ شيء في مكانه جاهزاً من مشدّات وأغطية، وكان تركيب الأشرعة الأمامية مهمّة مزعجة وخطرة حين يقوم بها شخصان فقط؛ لذلك أنزلت الصَّاري الأمامي على سطح السفينة وركبتها عليه وثبتها.

قضيت أياماً أُخرى في إنهاء الأشرعة وتركيبها، كانت ثلاثة فقط: الشراع المثلث الصغير، والشراع الأمامي، والشراع الرئيسي، وكانت مرقّعة وقصيرة ومشوهة ومن العار أن تكون هكذا أشرعة لسفينة متقنة الصنع كالشبح.

«لكنها ستعمل، سنجعلها تعمل وسنجازف بحياتنا معها». صاحت مود بفرح.

وبالتأكيد، من بين مهني الجديدة الكثيرة، كنت أقل خبرة في صناعة الأشرعة، أُبحر بها أفضل من صُنعها، ولم يكن لديّ أدنى شكّ في قدرتي على أن أصل بالشبح إلى موانئ اليابان الشمالية، في الواقع، تعلّمت الملاحة من الكتب الموجودة في السفينة فضلاً عن ذلك، لدي الآن مقياس نجوم وولف لارسن، وهو جهاز بسيط يمكن لأي شخص أن يفهمه.

أما بالنسبة لمُخترع هذا الجهاز، فلم تتغير حالته كثيراً خلال هذا الأسبوع ماعدا زيادة الصمم وخفوت حركة شفتيه، توقفت شفتاه عن الحركة وسمعتُ آخر كلمات في اليوم الذي انتهينا فيه من طي أشرعة السفينة حين سألته: «هل لا تزال بكُلك هنا؟» وأشارت شفتاه إلى: «أجل».

انقطع آخر حبل تواصل له مع العالم، وأصبح هذا الجسد قبراً تسكن فيه روح الرجل، محاطة بجدران طين حية، هذا الذكاء الحادّ الذي عرفناه متَّقدا، يتّقد الآن بصمت وظلام، تحرر هذا الذكاء من الجسد، وليس لديه معرفة موضوعية به، لم يعرف أحداً في هذا العالم إلا نفسه وهذا الاتساع والعمق للهدوء والظلام.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل التاسع والثلاثون

جاء يوم رحيلنا ولم يعد هناك ما يعيق مغادرتنا جزيرة إنديفور، كانت صواري الشبح القصيرة والبدينة في مكانها وأشرعتها المجنونة مطوية، صحيحٌ أن كلّ ما عملته بيدي لم يكن جميلاً، ألا أنّه كان قوياً، وكنت أعلم بأنه سيعمل، رأيتُ نفسي رجلاً قوياً عندما نظرت إليها.

«لقد فعلتها! نجحت! صنعت كلّ هذا بيدي الاثنتين». أردت أن أصرخ عالياً.

لكن مود كانت تقرأ أفكاري وقالت بينما كنا نستعد لرفع الشراع الرئيسي:

«من كان ليظن يا همفري أنكَ فعلت كلّ هذا بيديك الاثنتين».

«لكن كانت هناك يدان صغيرتان تساعداننني، ولا تقولي لي إن هذه العبارة لوالدكِ أيضاً».

ضحكت وهزّت رأسها ورفعت يديها تتفحّصهما ثم قالت:

«لن أتمكن أبداً من تنظيفهما وإعادتهما إلى سابق عهدهما».

«حينها ستكون هذه الأوساخ والخدوش ميدالية شرف لكِ». قلت هذا وأمسكت يديها وعلى الرغم من تحفظي وددت تقبيل يديها لو لم تسحبُهما بسرعة.

أصبحَت صداقتنا هشة الآن، وبالرغم من أني سيطرت على حبي كلّ هذه الفترة؛ إلا أنّه استحوذ علي تعمّد العصيان، وأمر عينيّ بالكلام، وها هو يسيطر على لساني وشفتي التي رغبت بشدة تقبيل هاتين اليدين اللتين تعبتا بإخلاص وجد. وكنت مجنوناً أنا أيضاً كما لو أن هناك أبواقاً تناديني لأذهب إليها، وريحاً تدفعني نحوها، عجزت عن مقاومتها حتى مِلت نحوها لا إراديّا، وقد علمَت ذلك بكل تأكيد وهي تسحب يديها بسرعة وترمقني بنظرة سريعة قبل أن تستدير.

حملتُ حبال الرايات إلى الأمام نحو المرفاع وثبتّ الشراع الرئيسيّ وقمّته والخانق في الوقت نفسه، صحيح أنها طريقة خرقاء لفعل ذلك لكنها سريعة، وسرعان ما ارتفع الشراع الأمامي وبدأ يرفرف.

«لن نتمكن أبداً من رفع المرساة في هذا المكان الضيق حالما ترتفع عن القاع، يجب أن تصل إلى الصخور أولاً».

سألتني: «ماذا يمكنك أن تفعل؟».

«أزوغ عنها، وعندما أفعل ذلك، يجب أن تؤدّي أول عمل لكِ على المِرفاع، سأركض على الفور إلى دفّة القيادة وفي الوقت نفسه يجب أن ترفعي ذراع المرفاع».

درست هذه المناورة وتدرّبت عليها كثيراً، وبعد أن ربطتَ حبال الكرّ للشراع المثلث إلى المرفاع، علمت أنّه بإمكان مود أن ترفع أهم شراع لدينا، هبت ريح سريعة على الخليج، وبالرغم من أن المياه كانت ساكنة إلّا أنّ سرعة الحركة والتنفيذ كانت لازمة لنخرج منه بأمان.

وعندما ضربت التراس وأرخيته، جعجعت السلسلة إلى الخارج عبر فتحة القِلس ومنها إلى البحر، ركضتُ إلى الخلف وحرّكت الدفّة فعادت الحياة إلى الشبح من جديد بعد أن مُلئت أشرعتها بالهواء، وعندما ارتفع الشراع المثلث وامتلأ بالهواء تأرجحت الشبح وكان علي أن أحرك الدفّة بالعكس؛ لأعيد السفينة إلى مسارها وأثبتها.

كنت قد ابتكرت صفيحة ميكانيكية؛ لتحرك الشراع المثلث حتى لا تُضطرّ مود إلى الاهتمام بهذا الأمر؛ لكنها مع ذلك استمرت برفعه عندما أنزلتُ الدفّة بقوّة، كانت لحظة توتر وقلق؛ لأن الشبح كانت متجهة بسرعة نحو الشاطئ مباشرة باتّجاه الصخور، لكنها تأرجحت تحت إمرتي وعادت أدراجها باتّجاه الريح، استمتعت بصوت رفرفة قماش الأشرعة وأصوات ثنياتها.

عادت مود إلى الخلف بعد ما أنجزت مهمّتها ووقفت بجانبي، وضعَت قبّعة صغيرة على شعرها المتناثر بفعل الريح، بخدّين محمرّين من الإجهاد وعينين تشعان حماساً وإثارة، ومنخرين يرتجفان بفعل هواء البحر المالح القوي؛ كان في عينيها البُنّيتين الواسعتين ـ كغزالة خائفة ـ نظرة غريبة لم أفهمها وكانت شفتاها منفرجتين ونَفَسُها محبوساً مع الشبح وهي تتّجه نحو جدار الصخور عند مدخل الشاطئ تدفعها الريح نحو المياه الآمنة.

خرجنا من الشاطئ الداخلي بسهولة، واتّجهنا نحو الخليج الخارجي بمساعدة الطريقة الصحيحة التي رست بها الشبح على هذه الجزيرة، ثم خرجت الشبح إلى المحيط الرحب وأبحرت بسلاسة وهي ترتفع وتنخفض بتناغم مع الأمواج، كان يوماً كئيباً ملبداً بالغيوم لكن الشمس سطعت من بين الغيوم وأنارت جزيرة إنديفور بأكملها والساحل ـ حيث تجرأتُ على مواجهة فحل عجول البحر وذبحت عجول البحر الفتيّة ـ وحتى الجزء الجنوب غربي القاتم بدا أقل عتمة، ومن حين لآخر كان رذاذ البحر يبلل سطح السفينة.

«سأتذكّرها دائماً بفخر». قلت لمود.

أعادت رأسها إلى الوراء بطريقة مَلَكيّة وقالت: «جزيرة إنديفور العزيزة، سأحبها دائماً».

«وأنا». قلت بسرعة.

بدا وكأن أعيننا تودّ أن تلتقي، لكنها ناضلت رغماً عنها ولم ننظر إلى بعضنا، وعمَّ صمت بيننا كسرتُه بقولي:

«انظري إلى تلك الغيوم السود في مهب الريح، أتذكرين عندما قلت لكِ يوم أمس إن مقياس الباروميتر قد انخفض».

«والشمس زالت كذلك». قالت وعيناها لا تزالان مسمّرتين على جزيرتنا التي أثبتنا فيها تغلّبنا على مادّيتنا، وصنعنا أجمل صداقة ممكن أن تقوم بين رجل وامرأة.

«وها نحن نتجه نحو اليابان، ريحٌ طيبة تساعدنا كيفما ذهبنا».

بعد أن ربطتُ عجلة القيادة، أسرعت إلى المقدمة وخفّفت شدّ أقمشة الشراع الأمامي والرئيسي وقلّلت من بكرات الذراع وأزلت كلّ شيء تقريباً لتجري السفينة بحُريّة مع الريح المواتية، كان النسيم عليلاً وجميلاً لكني عقدت العزم على أن أستمر بالإبحار طالما أمكنني ذلك، ولسوء الحظ، فإن الإبحار الحرّ لا يتيح لك إمكانية تثبيت الدفّة وربطها؛ لذا كان عليّ أن أسهر الليل بطوله. عرضت عليّ مود أن تنوب عني لأستريح، لكنها لم تتمكّن من إدارة الدفّة في لجّة البحر المتلاطم على الرغم من إحاطتها بالمعلومات الكافية في هذه الفترة القصيرة، شعرَت بحزن كبيرة لمعرفتها بذلك لكنها تجاوزته بعد فترة قصيرة بقيامها بالكثير من المهمات كلَفِّ حبال الرايات والبكرات وأيّة حبال أخرى وطبخ الطعام والاعتناء بوولف لارسن وترتيب الأسرّة، وختمت يومها بتنظيف شامل للمقصورة والمُدَفّى.

أدرتُ دفّة السفينة طوال الليل دون أخذ استراحة، زادت سرعة الريح وارتفع البحر ببطء وانتظام، جلبت لي مود القهوة الساخنة وبسكويتاً خبزَتهُ بيديها في تمام الساعة الخامسة صباحاً، وجهَّزت الفطور الشهيّ الساخن في تمام الساعة السابعة، فتجدّد نشاطي.

تزايدت سرعة الرياح ببطء وثبات خلال اليوم وكأنها تُنذر بغضب قادم وبأنها ستشتدّ أكثر وأكثر، ومع هذا، تسابقت الشبح مع الأمواج وكانت تسير بسرعة حتى غدوتُ متأكداً من أنها قطعت إحدى عشرة عقدة على الأقل، ومن المؤسف خسارة هكذا تقدّم، لكني كنتُ متعباً عند المساء، وبالرغم من استعدادي الجسدي لذلك، ألا أن ستًّا وثلاثين ساعة أُديرت بها الدفّة كانت مُنهِكة واستنفدت كلّ طاقتي، كما أن مود توسّلت أن أخفّف سرعة السفينة حتى لا أضطر إلى قيادتها، لكني علمت أن تزايد سرعة الريح ـ إذا استمرت بنفس المعدل ـ خلال الليل، سيصبح من المستحيل معه فعل ذلك، وهكذا عندما حلّ الشفق وجّهت الشبح بسعادة ـ وعلى مضض بنفس الوقت ـ باتّجاه الريح.

لكني لم أحسب حساب المهمّة الشاقة التي تنتظرني، كيف لرجل واحد أن يلفّ ثلاثة أشرعة؟! وحينما كنت أسابق الريح لم أقدّر شدّتها لكني علمت بذلك حين توقفنا عن الحركة، أعاقت الريح كلّ محاولاتي وبدّدت كلّ جهودي، بأن سحَبت القماش من يدي بلحظة وأفسدت ما أشقاني فعله بعشر دقائق، تمكنت في الساعة الثامنة من لفّ الشراع الأمامي فقط، وفي الحادية عشرة مساءً لم أعد قادراً على فعل أي شيء، سال الدم من أطراف أصابعي وتكسرت أظافري، ومن شدة ألمي وإرهاقي جلست في الظلام أنوحُ سراً كي لا تراني مود.

وفي محاولة يائسة منّي تركت سعيي في لف الشراع الرئيسي، وبدأت بتجربة توجيه السفينة وشراعها الأمامي ملفوف، وتطلب تطويق الشراع الرئيسي والشراع المثلث الصغير مني ثلاث ساعات إضافية، وفي الساعة الثانية فجراً كدت أموت

وخارت قواي وكنت واعياً بصعوبة، لأعرف أن تجربتي نجحت، كانت الشبح ثابتة في مكانها قريبة من الريح، ولم تظهر أيّة علامة على أن مقدمتها ستقع في جوف موجة.

وعلى الرغم من أني كنتُ أتضور جوعاً، وبالرغم من محاولات مود الحثيثة لأتناول الطعام إلا إني كنت أغفو وفمي مملوء بالطعام، أو عندما أحمل الطعام إلى فمي وأستيقظ بعد لحظات لأجد الفِعل لم يكتمل، كنتُ أشعر بالنعاس والإرهاق الشديد لدرجة أنها اضطرت لأن تثبتني على الكرسي لتجنب سقوطي على الأرض؛ بسبب تأرجح السفينة القوي.

ولم أعرف شيئاً في طريقي من المطبخ إلى المقصورة، في حقيقة الأمر، كنت أمشي وأنا نائم تقودني وتسندني مود ولم أعِ شيئاً حتى أفقت، ولم أعلم كم من المدة نمت، كان الظلام حالكاً في مقصورتي، خلعت حذائي وجسدي متشنّج ومتعب، وحين لامس ثوب نومي أطراف أصابعي صرخت من الألم.

ولم ينبلج نور الصباح بعد؛ لذا أغمضت عيني ونمت مجدداً ولم أنتبه إلى نفسي أني نمت إلى مساء اليوم التالي، وعندما استيقظت مرّة أخرى، أنرت عود ثقاب ونظرت إلى الساعة التي أشارت إلى منتصف الليل، لكني لم أغادر سطح السفينة إلا بعد الساعة الثالثة صباحاً! أحترت في الأمر حينها، ولم أجد له حلاً، ولا عجب أن نومي أصبح متقطعاً، لأني نمتُ إحدى وعشرين ساعة متواصلة، أصغيت لبرهة لأداء الشبح ولصوت الأمواج وزمجرة الريح المكتومة على سطح السفينة، ثم استدرت على جانبي ونمت بهدوء حتى الصباح.

وعندما نهضت في السابعة صباحاً لم أجد أثراً لمود، استنتجت بأنها في المطبخ تُعد الفطور، وعندما صعدت إلى سطح السفينة كانت الشبح تبلي بلاء حسناً، لكن مود لم تكن في المطبخ بالرغم من أني وجدتُ ناراً موقدة هناك وماءً يغلي.

ثم وجدتها في المُدَفّى قرب وولف لارسن، نظرتُ إلى الرجل الذي أُنزل من قمة هرم الحياة بسرعة فائقة ليُدفن وهو حيّ ويصبح أسوأ من الميت، بدا وجهه الذي يخلو من التعابير مسترخياً وهو أمرٌ جديد، نظرت نحوي مود ففهمت.

«ذوت روحه في العاصفة». قلت لها.

«لكنه سيظل حياً». أجابتني بثقة تامة.

«كانت لديه قوة هائلة».

«نعم، لكنها لن تقيده بعد الآن، هو الآن روحٌ حرة».

«هو روحٌ حرة بكل تأكيد». وأمسكتُ يدها وصعدنا إلى السطح.

انتهت العاصفة ليلتها ومن الجدير بالذكر أنها ذوت ببطء كما بدأت، كانت الريح لا تزال تهبّ بقوّة والبحر يموج في صباح اليوم التالي حين نقلت جثة وولف لارسن على سطح السفينة بعد الإفطار استعداداً لدفنه.

كانت الأمواج التي تدخل عبر الدرابزين أو فتحة تصريف المياه تغمر سطح السفينة وتغسله باستمرار، والريح تضرب سفينتنا بنفحات قوية جعلتها تميل يساراً حتى غُمر جزؤها تحت الماء، وحين عادت إلى وضعيتها الطبيعية كانت الوصلات تئنّ وتصدر صريراً، ووصل الماء إلى ركبتينا حين وقفتُ قرب الجثة وعرُّيت رأسي ثم قلت:

«أتذكّر جزءاً واحداً من الخدمة، وهو: ومن ثم يُلقى بالجثة إلى البحر».

نظرت لي مود بدهشة وصدمة، لكن ما رأيته من قبل يحتم علي أن أُقدّم لوولف لارسن الخدمة نفسها التي أداها لمساعده في بداية الرحلة، رفعت طرف غطاء الكوة وانزلقت الجثة المكفنة إلى الماء يسحبها الثقل المعلق بقدميها إلى الأسفل حتى اختفت.

«وداعاً يا لوسيفر، أيتها الروح الأبيّة». همسَت مود بصوت منخفض جداً ضاع بين عويل الريح لكني رأيتُ حركة شفتيها وعرفت ما قالت.

تمسّكنا بالسياج واتجهنا إلى مؤخرة السفينة، نظرت سفالة الريح فجأة، كانت الشبح في ذلك الوقت تصارع الأمواج، فلمحت سفينة بخارية صغيرة تبعد عنّا ميلين أو ثلاثة وتتّجه نحونا، لونها أسود، علمت من كلام الصيادين عن رحلات صيدهم غير المشروعة أنها زورق بخاري حكومي لمنع التهريب تابع للولايات المتحدة، أريته لمود وأسرعنا إلى مؤخرة السفينة.

بدأتُ في البحث عن علم ثم تذكرت بأني نسيت أن أصنع حبال أعلام حين شيدت أجزاء الشبح من جديد.

فقالت مود: «لا نحتاج إلى إشارة استغاثة، يجب أن يرونا فقط».

«نحنُ مُنقَذون». قلت بجدية. ثم قلت بفرح عارم: «لا أعرف إن كنتُ سعيداً لذلك أم لا».

ونظرتُ إليها وتقابلت أعيننا وملنا نحو بعضنا بعضاً، وما هي إلا لحظات حتى أخذتها بين أحضاني وسألتها:

«هل عليّ أن أقولها؟».

«لا داعي لذلك، على الرغم من أن قولها سيكون جميلاً جداً».

وتقابلت شفتانا وحينها تذكرت المشهد في مقصورة الشبح، لا أعلم أيّة حيلة تقوم بها مخيلتي لتفسد عليّ اللحظة، حتى انتبهت مود ووضعت إصبعها على شفتي وقالت: «صه».

«امرأتي. امرأتي الصغيرة». وربتُّ على كتفها كما يفعل العشاق دوماً، بالرغم من أنها لا تُدرّس في المدارس.

«رجُلي». قالت وهي تنظر لي بخجل، ثم أشاحت ببصرها عني، ودفنت رأسها بصدري، وهي تتنهد بسعادة.

نظرتَ نحو المركب وهو يقترب نحونا، ثم أنزلوا قارباً من أجلنا.

«قبلة واحدة يا حبيبتي»، همست لها: «قبليني مرّة أخرى قبل أن يأتوا».

«وينقذوننا من أنفسنا». أكملَت جملتي وابتسمت أروع ابتسامة رأيتها؛ لأنها مدفوعة بالحب.

(تمت بحمد الله وتوفيقه)

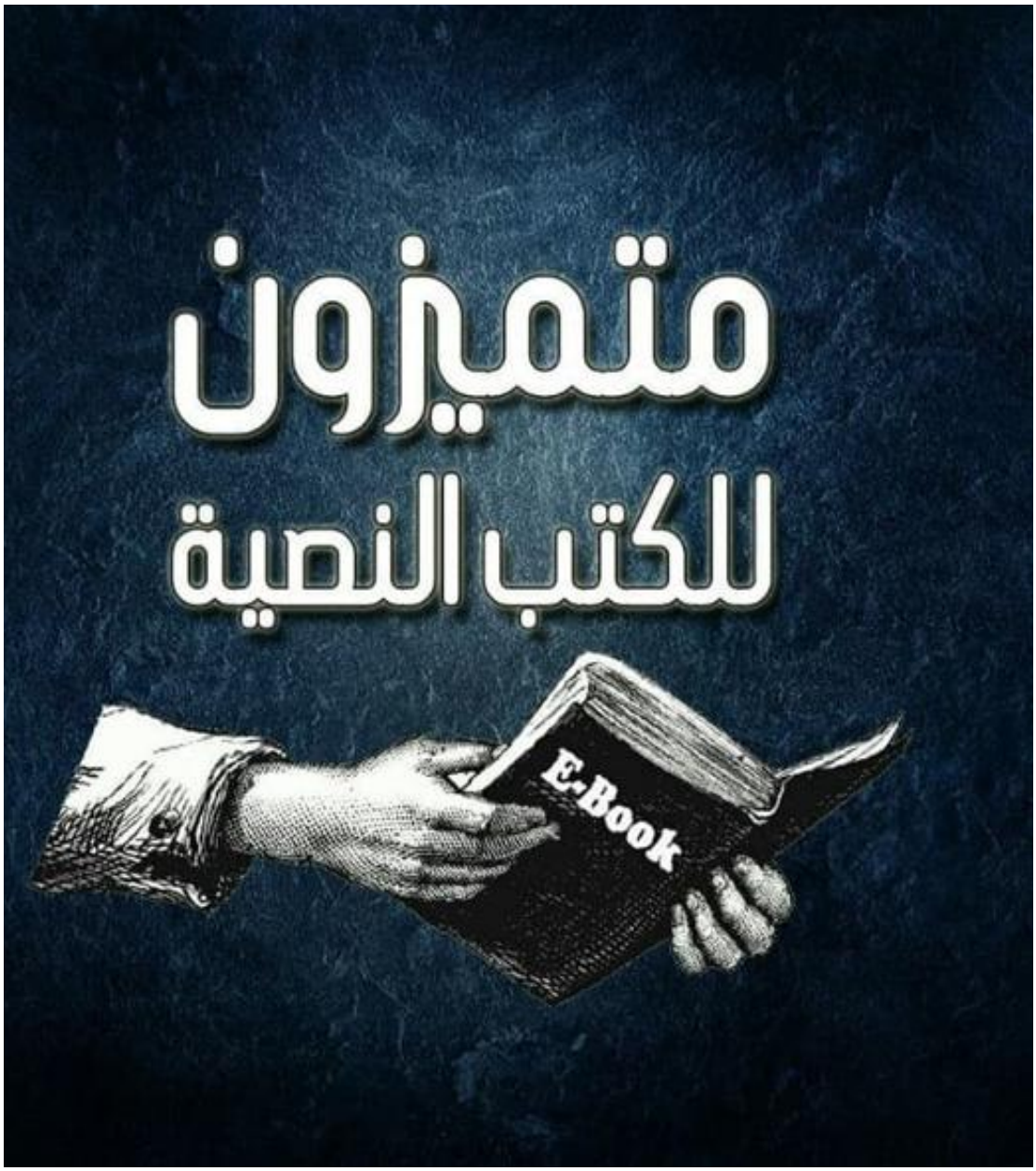
متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـــــاة

الفهرس..

عن الرواية..

عن الكاتب..

المقدمة

الفصل الأول

الفصل الثاني

الفصل الثالث

الفصل الرابع

الفصل الخامس

الفصل السادس

الفصل السابع

الفصل الثامن

الفصل التاسع

الفصل العاشر

الفصل الحادي عشر

الفصل الثاني عشر

الفصل الثالث عشر

الفصل الرابع عشر

الفصل الخامس عشر

الفصل السادس عشر

الفصل السابع عشر

الفصل الثامن عشر

الفصل التاسع عشر

الفصل العشرون

الفصل الحادي والعشرون

الفصل الثاني والعشرون

الفصل الثالث والعشرون

الفصل الرابع والعشرون

الفصل الخامس والعشرون

الفصل السادس والعشرون

الفصل السابع والعشرون

الفصل الثامن والعشرون

الفصل التاسع والعشرون

الفصل الثلاثون

الفصل الحادي والثلاثون
الفصل الثاني والثلاثون
الفصل الثالث والثلاثون
الفصل الرابع والثلاثون
الفصل الخامس والثلاثون
الفصل السادس والثلاثون
الفصل السابع والثلاثون
الفصل الثامن والثلاثون
الفصل التاسع والثلاثون

Notes

[←1]

(1) اللوياثان: وحشٌ بحريّ يرمز إلى الشرّ في الكتاب المقدس، ويرمز كذلك لكل شيء ضخم ورهيب.

[←2]

(2) كوكني: يقصد بها سكان شرق لندن حيث الغالبية من الطبقة العاملة والفقيرة. وتعتبر اللهجة الكوكنية مميزة لهم.

[←3]

(3) أجراس بو: وهي اجراس كنيسة القديسة ماري لو بو ـ لندن، وعندما يُقال بأن فلان ولِدِ قرب أصوات أجراس بو فهذه دلالة أخرى على العرق الكوكني.

[←4]

(4) سكّونة: مركب شراعي متوسط الحجم ذو صاريتين أو أكثر.

[←5]

(5) سَلُوقية المركب: عَنبر أمامي للبحّارة يقع في مقدمة السفينة.

[←6]

(6) كوكي cooky هو اسم تصغير وتحقير مشتق من طباخ باللغة الانجليزية.

[←7]

(7) المُدَفّى: مكان قريب من دفّة السفينة مخصص للمسافرين بالتعرفة الأرخص.

[←8]

(8) المَصْرَف: بالوعة السفينة، وهي ثقب في جانب السفينة لنقل المياه من على سطحها.

[←9]

(9) همب Hump مصغر لأسم «همفري» وتعني أيضاً «الحدبة».

[←10]

(10) بيل سايكس: وهي شخصية خيالية شريرة في رواية أوليفر تويست من تأليف تشارلز ديكنز.

[←11]

(11) نوفا سكوشيا: إحدى المقاطعات البحرية الثلاث في كندا، وواحدة من المقاطعات الأربع التي تشكل كندا الأطلسية. عاصمتها الإقليمية هاليفاكس. وتُعد نوفا سكوشيا ثاني أصغر محافظات كندا العشر.

[←12]

(12) وولف تعني «الذئب» وهنا إشارة بأنه اسم على مُسمى.

[←13]

(13) كلتك Celtic هي لغة الكلت Celts، وتشكل فرعاً من اللغة الهندو أوروبية وتشمل الأيرلندية، والغيلية الأسكتلندية والويلزية، والبريتونية، والمانكس، والكورنيش، وعدة لغات أخرى ما قبل الرومانية المنقرضة مثل الغاليشية.

[←14]

(14) القارِيَّة: وهي عارضة تحمل رأس الشراع.

[←15]

(15) الدَّقَل المائل: عمود ضخم مائل منبثق من مقدم المركب أو السفينة.

[←16]

(16) ناب Nap وهي لعبة بأوراق القمار، شاع لعبها في شمال أوربا ـ أصلها فرنسا ـ وتسمى بـ نابليون كناية عن نابليون الثالث وقد دخلت إلى إنجلترا في 1880. ويلعبها عادة من 3 إلى 7 لاعبين، لكل لاعب منهم خمس ورقات ومن يُراهن على أعلى رقم من الخدع، ويحصل على الورقة الرابحة يحاول الفوز بالمبلغ الذي راهن عليه على الأقل. وفيها أشكال مختلفة وطرق لعب مختلفة في أنحاء شمال أوروبا.

[←17]

(17) المتعوي Hedonist الشخص الذي يعتقد أن السعي وراء الملذات هو أهم شيء في الحياة، أي معتنق مذهب «المُتَعيّة».

[←18]

(18) كاليبان Caliban شخصية مهمة من شخصيات مسرحية العاصفة The tempest وهو ابن الساحرة سيكوراكس نصفه إنسان ونصفه الآخر وحش تأليف شيكسبير.

[←19]

(19) سيتيبوس Setebos وهو الأله المزعوم للساحرة سيكوراكس في مسرحية شيكسبير الشهيرة «العاصفة».

[←20]

(20) سيسي Sissy لقب يطلق على الرجل الجبان أو المخنّث (لديه نزعة أنثوية).

[←21]

(21) لوسيفر اسم من اسماء الشيطان.

[←22]

(22) توملينسون Tomlinson هو الشخصية الرئيسية في قصيدة للكاتب روديارد كيبلنغ Rudyard Kipling تحمل نفس الاسم وقصيدة كيبلينغ هذه تدلل على المفهوم الكتابي للكارما، مبدأ أن البشر يحصدون ما يزرعون.

[←23]

(23) السيدة غراندي، اسم يطلق على كلّ شخص لديه معايير تقليدية من اللياقة.

[←24]

(24) المَعَوَّد: وهو الشراع المنشور على عود القلع.

[←25]

(25) السَّأف: قطعة صغيرة من الجلد الميت تكون بجانب الظفر أو عند جذره.

[←26]

(26) سِفر الجامعة: الإصحاح الثاني – الآية رقم 8 و9 و11 على التوالي.
تنويه: ذكر في النسخة الإنجليزية للآية 11 (خيلاء وإزعاج للنفس) لكنها غير موجودة في نص الآية العربي المعتمد لدينا لذا وجدت أنّه من الأسلم ذكر النص الثابت للآية وتوضيح الأمر في الهامش لأنها ستُذكر في سياق لاحق. وترجمتي للنسخة الإنجليزية (للاطّلاع): «ثم نظرت إلى ما عملت يداي وكل الجهد الذي بذلته لإنجاز هذا العمل وها هو ذا كله خيلاء وإزعاج للنفس، فالكل باطل ولا منفعة تحت الشمس».

[←27]

(27) سِفر الجامعة الإصحاح التاسع من الآية الثانية إلى السادسة. وترجمتي للنص الإنجليزي للآية الثانية (للاطّلاع): كلّ الأشياء تأتي على حد سواء إلى الجميع. حدث واحد للأبرار والأشرار، وللطيب وللنظيف وللنجس، وللذين يضحون ولمن لا يضحي، وكما هو للخيّر، هكذا هو للآثم والذي يحلف كالذي يخلف يمين». ذكرتها لأن وولف لارسن يستشهد ببعضها وليست مذكورة في النص العربي الثابت.

[←28]

(28) كانكا: تعني بلغة هاواي شخص أو رجل، ويطلق هذا الاسم على سكان جزر المحيط الهادئ (في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين) العاملين في كوينزلاند ـ أستراليا في مزارع السكر والقطن ومحطات الماشية، أو كخدم في المدن.

[←29]

(29) يستخدم الكاتب التلاعب اللفظي حين يقول الستة بنسات هيtanner وهو الاسم الآخر للستة بنسات ويعني دبّاغ أيضاً. وكذلك الحال عندما يقول الشلن هوbob وهو الاسم الثاني للشلن ويعني باقة ورد أيضاً. حاولت ترجمة معنى آخر للكلمة لدلالة هلوسة الشخصية.

[←30]

(30) المِزِّين: شراع منصوب على الصَّاري الأقرب إلى مؤخرة السفينة.

[←31]

(31) البيوريتاني: أو التطهيري، عضو في جماعة بروتستانتية في إنجلترا ونيو إنجلاند في القرنين 16 و17 طالبت بتبسيط طقوس العبادة وبالتمسك الشديد بأهداب الفضيلة.

[←32]

(32) مينيل: إشارة إلى أليس مينيل (1847 – 1922) وهي شاعرة بريطانية وكاتبة وناقدة ومحررة وناشطة سياسية من المنادين بحق المرأة في الاقتراع.

[←33]

(33) إلى أقصاها: Hard - a - Lee وهو تحذير يطلقه قائد الدفّة يعني أنّه سيدير الدفّة إلى أقصاها.

[←34]

(34) Saturnalia وهو مهرجان روماني قديم احتفالاً بزحل في ديسمبر، وكان فترة من المرح العام تسبق احتفالات عيد الميلاد.

[←35]

(35) Hiccoughed من الحوزقة أو الفواق. وتأتي هنا بمعنى هزّ الأكتاف.

[←36]

(36) سيرس: ساحرة عاشت مع حيواناتها البرية في جزيرة آية. عندما زار أوديسيوس الجزيرة، حولت جرعاتها رفاقه إلى خنازير، لكنه كان يحمي نفسه بالأعشاب الأسطورية حتى تمكن من إجبارها على أن تعيد رجاله إلى شكلهم البشري. تظهر في كتاب الأوديسة.

[←37]

(37) ايسولت: وهي من أساطير القرون الوسطى وتسمى بالأميرة النزيهة أو الأميرة ذات اليدين البيضاوين، وهي ابنة ملك ايرلندا. تقع في حب تريسترام ابن أخ خاطبها الملك مارك كورنوال بعد أن تتجرع هي وإياه جرعة الحب بالخطأ. وتعتبر جزءاً من الأدب الآرثري الثري.

[←38]

(38) إيرنست كريستوفر داوسن: (1867 – 1900) شاعر وروائي وكاتب قصة قصيرة إنجليزي، ارتبط اسمه كثيراً بالمدرسة الرمزية وهي حركة فنية وأدبية انتشرت في أواخر القرن التاسع عشر، تمركزت في غرب أوربا وازدهرت في فرنسا ومنها انتقلت إلى الولايات المتحدة. تميزت الحركة بالاشمئزاز من النفس، وأمراض العالم، والشكوك العامة، والبهجة في الانحراف وتوظيف الفكاهة الخام والإيمان بتفوق الإبداع الإنساني على المنطق والعالم الطبيعي. ومن أشهر قصائده التي تُذكر إلى يومنا هذا هي «مواسم النبيذ والورود» و«ذهب مع الريح» أما القصيدة المذكورة هنا هي Impenitentia Ultima.

[←39]

(39) لوسيفر هو الشيطان في عمل جون ميلتون «الفردوس المفقود».

[←40]

Leg - of - mutton (40) ويرمز لشيء مستدقّ وحاد، مثلث الشكل (يشبه رجل الضأن).

[←41]

(41) الكرونوميتر: أداة لقياس الوقت، خاصة تلك المصممة للحفاظ على الوقت الدقيق رغم الحركة أو الاختلافات في درجة الحرارة والرطوبة وضغط الهواء. تم تطوير الكرونوميتر لأول مرة للملاحة البحرية، حيث يتم استخدامها بالاقتران مع الملاحظة الفلكية لتحديد خط الطول.

[←42]

(42) آلة السدس: أداة ذات قوس متدرج يبلغ 60 درجة وآلية رؤية، تُستخدم لقياس المسافات الزاوية بين الأشياء وخاصة لأخذ الارتفاعات أثناء التنقل.

[←43]

(43) مَغْدَفة: موضع تتوالد فيه الغربان (الضخمة منها على وجه الخصوص) أو غيرها من الطيور.

[←44]

(44) بروميثيوس: إله النار الذي يرمز للحضارة الأولى.

[←45]

(45) يعني الاسم المحاولة الحثيثة لتحقيق غاية أو هدف.

[←46]

(46) وردت مفردة حريم في الكتاب Harems ربما لدلالة طريقة عيش مجموعة أناث يشتركن بذكرٍ واحد.

[←47]

(47) جولز ميشليت: مؤرخ فرنسي (1874 – 1798) أول من أطلق تعريف فترة (عصر النهضة أو الرينيسانيس) في تاريخ أوروبا الثقافي الذي مثّل تغيراً جذرياً عن العصور الوسطى، وخلق فهماً حديثاً للإنسانية ومكانتها في العالم.

[←48]

(48) الدَّقَل المتوسط: الصاري الذي يعلو الصاري الأدنى.

[←49]

(49) الصاري الأعلى: صاري قائم فوق الصاري الرئيسي مباشرة.

[←50]

(50) البكّارة: مجموعة من الحبال والبكرات لرفع الأثقال أو خفضها أو تحريكها.

[←51]

(51) Indian summer يطلق على فترة من الطقس الحار الجاف التي تحدث في أواخر الخريف على غير العادة، وكذلك تعبّر عن فترة من السعادة أو النجاح التي تحدث في وقت متأخر من الحياة.